د. أحمد بوشرب

وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه

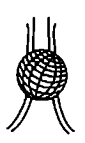
دار الأمان
الرباط

وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه.
المؤلف : د. أحمد بوشرب.
الناشر : دار الأمان -الرباط.
الطبعة : الأولى 1997.

الطبع : مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء.
الإيداع : القانوني رقم 1997/379.
ردمك : 9981 - 941 - 00 - X



تنسيق وإخراج:
شركة طوب للإستثمار والخدمات
11 شارع الأبطال رقم 2 أكدال ـ الرباط
الهاتف: 29/-20-74-77
الفاكس: 42-74-77

د . أحمد بوشرب

وثائق ودراسات
عن الغزو البرتغالي ونتائجه

دار الأمان
للنشر والتوزيع
4، زنقة المامونية
الهاتف 232.76 - الرباط

الرموز المستعملة

Dic.Hist. Port.	= Dicionário deHistória de Portugal
édit.	= édition
Fasc.	= Fascicule
Fol.	= folio
Inq. Evora, proc.	= Inquisição de Evora, processo
Inq. Lix. proc.	= Inquisição de Lisboa, processo
Introd.	= introduction
Liv.	= livro
Publ.	= Publication
r°	= recto
s.d.	= sans date
S.I.H.M.Port.	= Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, SérieSa'dienne, Portugal
s.s	= page suivantes
trad.	= traduction
v°	= verso

تقديم

يسرني أن أضع بين يدي القارئ الكريم جملة من المقالات نشرتها فيما بين 1980 و 1994 تهم الغزو البرتغالي لسواحل المغرب ونتائجه. وقد نشرتها بمجلات بعض كليات المغرب، وبمجلة **المناهل**، أو شاركت بها في ندوات وطبعت ضمن أعمالها. وقد دفعني إلى جمع هذه المقالات وإعادة طبعها صعوبة الوصول إليها إما لنفاد تلك المجلات أو لتعذر الحصول عليها. وتهم تلك المقالات جوانب من تاريخ المغرب ما يزال الغموض يكتنفها، وما تزال في حاجة إلى دراسة وتنقيب. وقد اعتمدت في دراستها بالأساس على الوثائق البرتغالية التي تمثل المصدر الذي لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لتاريخ المغرب في العهدين الوطاسي والسعدي. وتمثل مصادر محاكم التفتيش الدينية البرتغالية، التي تبدو وكأنها لا تهم بتاتا تاريخ بلادنا، مصدرا من مصادرنا الأساسية، اعتمدناه في دراسة النتائج السوسيو ثقافية للغزو البرتغالي وتاريخ الثقافة الشعبية والذهنيات بمغرب القرن السادس عشر، كما مثلت محاضر محاكم التفتيش مادتنا الأساسية في المقالات التي تهم الجالية المغربية المقيمة بالبرتغال ومواردها وظروف عيشها، والتي تهم التجارة البرتغالية بالمغرب، وعلاقة المغاربة بالبحر خلال القرن السادس عشر. وتعميما للفائدة، وحتى أضع بين يد الباحثين نماذج من تلك المصادر، ترجمت محضرين،يخص أحدهما محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة تفتيش يابرة سنة 1559، ويسجل الثاني مراحل محاكمة بحار كان يهرب السلع إلى المغرب في سنة 1554 ، وينقل كذلك بعض المغاربة الذين كانوا يقيمون بالبرتغال، لأسباب ألمحنا إليها في أحد تلك المقالات. وسيلاحظ القارئ غنى المحضرين وأهميتهما بالنسبة لتاريخ العقليات ببلادنا، ولنتائج الغزو الديمغرافية، وأوضاع الجالية المغربية المقيمة بالبرتغال، وظروف عيشها، وعلاقاتها مع المجتمع البرتغالي، وموقفها من الإسلام والمسيحية.

وخصصت ثلاثة مقالات للتعريف بإسهامات مصادر برتغالية أخرى، كإسهام وثيقة برتغالية في التعريف بواقعة المليحة (1489) التي لم تصلنا عنها بمصادرنا إلا إشارات غامضة، أو ما كتبه شاهد عيان برتغالي عن معركة وادي المخازن (1578)،

وأخيرا حددت في المقال الثالث مدى إسهام الأرشيف البرتغالي في كتابة تاريخ المغرب والخليج العربي والبحر الأحمر خلال القرن السادس عشر. وفي إطار هذه النظرة الشمولية للغزو البرتغالي، خصصت دراسة مستفيضة للمخططات البرتغالية على حساب العالم العربي والإسلامي قصد انتزاع دور الوساطة التجارية منه بكل من غرب أفريقيا والشرق الأقصى.

وأتمنى أن يكون في جمع هذه المادة ووضعها رهن إشارة الباحثين والقراء بعض الفائدة، وأن تسهم المقالات المنشورة في التعريف بفترة تكاد تنعدم الإشارات إليها بمصادرنا، وذلك رغم الانعكاس الخطير الذي كان للأحداث الجسيمة التي عرفتها على تطور بلادنا اللاحق.

محاضر محاكم التفتيش الدينية : مصدر من مصادر التجارة البرتغالية بالمغرب خلال القرن السادس عشر

عثرت بالأرشيف البرتغالي بلشبونة على هذه الوثائق النفيسة التي لم تنشر بعد، والتي لم تعتمد في أية دراسة، وهي مرتبة ضمن الأربعين ألف محضر التي خلفتها محاكم التفتيش البرتغالية الثلاث خلال عمرها الطويل (1536-1821).

والمحاضر التي اعتمدناها، والتي يبلغ عددها اثنين وعشرين محضرا[1]، تغطي

× نشر ضمن اعمال ندوة : **التجارة في علاقتها بالمجتمع و الدولة عبر تاريخ المغرب** منشورات كلية الآداب، عين الشق - الدار البيضاء، مطبعة فضالة، 1992 - ج1، صص 93 - 116.

(١) Inquisição de Lisboa,processo n° 6438, Pedro Martin (1551)
Inq. Lix. proc. n° 7568, Francisco Salvado (1551)
Inq. Lix. proc. n° 7567, Francisco Vaz (1552)
Inq. Lix. proc. n° 8487, Gil Vaz (1552)
Inq. Lix. proc. n° 13255, Joáo de Campos (1552)
Inq. Lix. proc. n° 5455, João Salvado (1552)
Inq. Lix. proc. n° 5316, Miguel Diaz (1552)
Inq. Lix. proc. n° 4191, Miguel de Paiva e Gil de Paiva (1552)
Inq. Lix. proc. n° 8722, Pedro Pardo (1552)
Inq. Lix. proc. n° 3855, Rui Lourenço (1552)
Inq. Lix. proc. n° 1278, Cristovião Pais (1552)
Inq. Lix. proc. n° 12562, Vicente Lournço (1552)
Inq. Lix. proc. n° 8944, Francisco Nunes (1552)
Inq. Lix. proc. n° 5235, Bento Rodrigues (1553)
Inq. Lix. proc. n° 13221, João Inglês (1553)
Inq. Lix. proc. n° 14229, Lucas Giraldo (1553)
Inq. Lix. proc. n° 3486, Pedro Cardoso (1553)
Inq. Lix. proc. n° 14543, Diogo Rodriguez (1554)
Inq. Lix. proc. n° 7558, Francisco Gonçalves (1554)
Inq. Lix. proc. n° 6078, Lourenço Rodrigues (1554)
Inq. Lix. proc. n° 167, Francisco Bayão O Gago (1555)
Inq. Lix. proc. n° 12043, Bastiáo Vaz (1553)

مراحل محاكمات دارت بلشبونة، التي كانت محكمتها تحتكر قمع النشاط الذي يهمنا، بين 1551 و 1554 وقد اعتقل أصحابها بتهمة الاتجار مع المغاربة ونقل سلع إليهم، كالأسلحة والذخيرة والتوابل والأثواب وغيرها، رغم تحريم الملك البرتغالي لذلك النشاط.

لكن، ماهي علاقة هذه المؤسسة التي أفرزها المجتمع البرتغالي المتعصب[1] والخائف على عقيدته من "التلوث الإيديولوجي"[2] بسبب تنصر اليهود والمسلمين غير الصادق، وبسبب زحف الإصلاح الديني وتراجع الشعور الديني لدى الكاثوليك، ما العلاقة إذن بين هذه المحاكم الدينية والتجارة بالمغرب؟

للإجابة على هذا السؤال، لابد من التذكير بموقف الكنيسة والدولة البرتغالية من الاتجار مع المسلمين عموما، والمغاربة أعداء البرتغال على الخصوص.

لقد حرمّت البابوية، كما هو معروف، الاتجار مع المسلمين، وتزويدهم بكل ما يمكن أن يساهم في تسليحهم أو في إغنائهم. وألحت الكنيسة أكثر على منع نقل الأسلحة والعتاد والأخشاب والحبال... الخ إلى المسلمين. غير أن ذلك التحريم بقي حبرا على ورق خلال القرون الوسطى، وبقيت المدن الإيطالية أكثر المناطق المسيحية إقبالا على الموانئ العربية. إلا أن البرتغال، الذي برر غزوه للمغرب بتبرير صليبي، وتوصل لذلك من البابوية بمساعدات مالية هامة[3]، وجد نفسه في حرج كبير أمام

---

(1) عن هذا الموضوع، راجع دراستنا :

Ahmed BOUCHARB, **Les crypto-musulmans d'origine marocaine et la société portugaise au XVIème siècle**, Thèse inédite, Université Paul Valéry, Montpellier, bibliothéque. Fac. Lettres Fès. pp. 181-183, 250 et sq.

(2) العبارة للمؤرخ :

J. Le Golf: "Les marginaux dans l'Occident médiéval", in: **Les marginaux et les exclus dans l'Histoire**, Paris, Cahiers Jussieu, n° 5 , Université de Paris VII; 1972, p. 26.

(3) C.M Witte, "Les bulles pontificales et l'expansion portugaise au XVème siècle"
In: revue d'Histoire ecclésiastique, Louvain, XLVIII (1953), XLIX (1954) LI (1956), LIII (1958)

التحريم البابوي، إذ أصبحت الدولة البرتغالية المتحالفة منذ ثورة 1383[1] مع الطبقات الوسطى، ذات انشغالات مركنتيلية، وأضحت الأسواق المغربية تستأثر باهتمامها. لذا اضطرت إلى تبرير إرسال السلع والتجار إلى المغرب برغبتها في التعرف على أوضاعه ونقط ضعفه من جهة، وللحصول على الوسائل المالية اللازمة لغزوه من جهة ثانية[2]. وكان الحرج نفسه سبب التبرير التبشيري الصليبي الذي أعطي للكشوف الجغرافية [3] وبداية الاتجار بغرب إفريقيا أولا، ثم بالهند ثانيا[4]. غير أن عامل الزمن جعل البابوية أمام الأمر الواقع، ولم يعد حكام لشبونة ملزمين بالحصول على إذن خاص للاتجار ببلاد الإسلام. وللاستفادة أكثر من تجارته بالمغرب، احتكر العرش البرتغالي لنفسه، بواسطة مؤسسات تجارية مختصة كدار لامينا (Casa da Mina) ودار الهند (Casa da India)[5] بيع السلع التي كان إقبال المغاربة عليها كبيرا، والتي كانت تضمن أكبر الأرباح[6]، وترك للتجار العاملين لحسابهم الخاص، من برتغاليين وأجانب، حق الإقبال على الثغور المحتلة، شريطة أداء الضرائب الجمركية[7]. إلا أن هؤلاء التجار، الذين ضايقهم الاحتكار الملكي، فضلوا الإقبال على الموانئ المغربية غير المحتلة كسلا[8] وتركوكو (20 كلم شمال أكادير) وتافطنة[9] (حاحة)، حيث كان بامكانهم عرض كل السلع من جهة، وكانوا معفون من الضرائب. وسرعان ما عرف الميناءان الأخيران

(1) V.M.Godinho, "Les finances publiques et la structure de l'Etat portugais au XVème siècle" **Economia**, XIV, Juin, 1962, p. 165 et s.s

(2) C. Witte, Les bulles... op. cit. 1953, p. 692.

(3) E. de Zurara: **Crónica de Guiné**. édit. José de Bragança, Lisboa, Livraria Civilizaçáo, Nova ediçáo (1973), pp. 43-47.

(4) **As Gavetas da Torre do Tombo**. Publication du: Centro de Estudos Históricos Ultramarinos. Vol. XII. pp. 237-242.

(5) **Dicionária de História de Portugal**, direction J. Serráo, Porto : Livraria Figuerinhas, vol, III, pp. 280-289, vol IV, pp. 300-302.

(6) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور**.. البيضاء، دار الثقافة، 1984 ص ص 307 وما بعدها.

(7) **Sources inédites de l'Histoire du Maroc**, 1ère série, Portugal, Paris, P. Geuthner, 1934, vol, 1, pp. 500; note 1, vol. II, p. 308.

(8) **Sources Inédites**, op. cit. II, p. 476.

(9) Ibid, I, pp. 563-568.

رواجا كبيرا بعد مبايعة الشرفاء السعديين، الذين كانوا في أمس الحاجة للأسلحة النارية والذخيرة، والذين أصبحوا يتوفرون بشكل مبكر على السلع التي يقبل عليها التجار الأجانب، كذهب السودان ونحاس السوس والشمع والجلود والعسل والنيلة، وأخيرا على السكر الذي عرف، برعاية من محمد الشيخ، ازدهارا مبكرا.

ونظرا لخطورة هذا النشاط على مصالح البرتغال التجارية والعسكرية، اعتبره المسؤولون تهريبا، وحاولوا القضاء عليه بعمليات تأديبية كلفت حامية أكادير بتنظيمها. وهكذا تعرض الميناءان لغارات كانت الغاية من ورائها إغلاقهما ومعاقبة التجار المسيحيين المترددين عليهما[1]. غير أن هذه العمليات المؤقتة لم تعط ما كان ينتظر منها، إذ رغم تهديد الملك البرتغالي لرعاياه بأشد العقاب[2]، ورغم مصادرة السفن والسلع وأسر التجار المفاجئين بتركوكو وتافطنة[3]، استمر نشاط "التهريب" بالميناءين. وعقب إحكام أحمد الأعرج ومحمد الشيخ الحصار على المدن التجارية الواقعة جنوب أم الربيع بعد 1520 [4]، هذه المدن التي بينا في محل آخر مدى استفادة التاج البرتغالي مما كانت تعرفه من رواج[5]، نقل التجار الذين كانوا يقبلون عليها عملياتهم إلى الداخل، إلى تارودانت ومراكش على وجه الخصوص. فحسب تقرير بعثه إلى الملك (يوحنا الثالث) أحد سكان آسفي البرتغاليين، عاد من مهمة بمراكش يوم 3 شتنبر 1539، كان عدد التجار البرتغاليين والفرنسيين والإسبان بتلك المدينة كبيرا رغم أن الضرائب بها لا تقل عن 30٪ بينما لم تكن تتجاوز 5٪ في الثغور المحتلة. وذكر التقرير أن مداخيل أحمد الأعرج من هذه الضرائب أضحت تسمح له بتجهيز وتجنيد 500 فارس، وأن الرواج الذي أصبحت تعرفه مراكش أدى إلى ارتفاع أثمان السلع

(1) Ibid, loc. cit; P. de Cénival, **Chronique anonyme de Santa Cruz du Cap de Gué (Agadir)** Paris, P. Geuthner, 1934, pp. 35-39;
R. Ricard,(traduc.) **Les Porgugais au Maroc**. Rabat,1937, pp. 215-216,

(2) **Sources Inédites**...op. cit. II , pp. 54-56

(3) Ibid, I, pp. 563-568; p. de Cénival, **Chronique**... op. cit. p. 37.
vol. III, pp. 280-289, vol IV, pp. 300-302.

(4) أحمد بوشرب : **دكالة**، م. س. ص ص 410 وما بعدها.

(5) نفسه، 113 ـ 115، 281 وما بعدها.

المغربية بالثلث أو النصف، وإلى انخفاض كبير في أثمان السلع المستوردة. فقد كان ثمن الأثواب بهذه المدينة لا يمثل إلا ثلث ثمنها في لشبونة! ونبه صاحب التقرير إلى خطورة التزيف الذي يحدثه جلب العملة الفضية البرتغالية إلى المغرب، وإلى عدد الوافدين الكبير على مراكش من الخبراء في صنع الأسلحة والبارود[1].

ومعلوم أن هذا النشاط التجاري المحظور من لدن السلطات البرتغالية، والذي شارك فيه برتغاليون كثيرون[2]، أسهم إسهاما كبيرا في تسليح الشرفاء السعديين، وفي انتصارهم الساحق على البرتغاليين بأكادير ربيع 1541. وقد برر الملك البرتغالي نفسه هذه الهزيمة بالدور الخطير الذي لعبه المهربون في تزويد أعدائه بالسلاح، وفي مساعدتهم على صناعة البارود[3].

وبالطبع، أعطى انسحاب البرتغاليين من موانئ أكادير وآسفي وأزمور نفسا جديدا لتجارة "التهريب" جنوب أم الربيع، لأن ذلك الانسحاب فتح في وجه التجار موانئ كبرى، ولأنه زامن كذلك ازدهار فلاحة قصب السكر وإحياء تجارة القوافل واستقرار الأوضاع بعد تحكم السعديين في "مملكة مراكش"، وإشرافهم على إعادة توحيد المغرب.

ووعيا من المسؤولين البرتغاليين بالدور الذي يلعبه المهربون في تسليح أعدائهم، حرموا، من جديد، على رعاياهم الاتجار بالمغرب. ومعلوم أن الملك البرتغالي برر انسحاب جيوشه من المدن الثلاث المذكورة برغبته في تحضير هجمة شاملة على المغرب[4]، وأنه لم يكن ينظر باطمئنان إلى اكتساح السعديين لأراضي الوطاسيين،

---

(1) **Sources Inédites**...op. cit., III, pp. 220-223.

(2) Ibid, loc., cit., Inquisição de Lisboa, processo n°. 12562, folio 21v°

(3) أنظر أدناه محاكمة بحار برتغالي لقيامه بذلك النشاط.

Sources Inédites, ...op. cit, III, pp. 357-362

(4) R. Ricard, **Les Portugais et l'Afrique du Nord, extraits des "Annales de Jean III...** " Paris, 1940, pp. 157-158.

وإلى إشرافهم على إعادة توحيد المغرب، خصوصا وأنه كان يرى في دخول محمد الشيخ إلى فاس بداية المتاعب بالنسبة للثغور الشمالية المحتلة، وفي تحرير هذه الأخيرة إتاحة الفرصة لهم ـ وكذا للأتراك الذين كان يتوقع تحالفهم معهم ـ للهجوم على البرتغال[1].

ونظرا لعدم اكتراث التجار بالمنع السابق، فقد قرر الملك يوحنا الثالث (1521 ـ 1557) جعل معاقبة المخالفين لأوامره من اختصاصات محكمة التفتيش الدينية، رغم أن القانون المؤسس لها لا يذكر هذه "الخطيئة" من بين اختصاصاتها[2]. ويبدو أن إثبات تلك المؤسسة، التي تطال سلطتها الجميع، لفعالية وكثافة شبكة جواسيسها وعيونها من جهة، وأن وسائل الإكراه التي تعتمد عليها لانتزاع الاعترافات والتبليغات خلال الاعتقال والمحاكمة من جهة ثانية، كانت وراء تفضيل الملك تلك المحاكم على المحاكم المدنية التي كانت حقوق الدفاع بها أوسع.

وهكذا اعتقلت أول مجموعة من "المهربين" في نونبر 1551، غير أن أغلب المحاكمات تمت بين 1552 ـ 1555. ويحق لنا على ضوء هذه التواريخ أن نتساءل عن الدوافع التي جعلت يوحنا الثالث يقرر، ابتداء من سنة 1551، محاكمة "المهربين" من لدن محكمة التتفتيش، أي بعد 15 سنة من إنشائها.

للإجابة على هذا السؤال المهم، لا بد من العودة إلى الظروف التي أنشئت فيها هذه المحاكم، وإلى المسار الذي عرفه نشاطها خلال العقود الأولى من حياتها. وبما أن المجال لا يسمح بالقيام بهذا العمل، فإننا سنكتفي هنا بالإشارة إلى ملاحظتين مهمتين.

1) فمن المعلوم أن البابا لم يوافق إلا مكرها على إنشاء محاكم تفتيش تكون تحت إشراف الملك البرتغالي وحده، نظرا للصورة البشعة التي تولدت عن وحشية وقساوة المحققين الإسبان [3]. وهكذا، وحتى بعد إنشاء المحاكم بالبرتغال سنة 1536، استمر

---

(1) **Sources Inédites...**op. cit., III, pp.344-347, 356-362.

(2) "Montório do Inquisidor Geral, Evora, 18 novembro 1536" In :Collectório de **diversas letras apostólicas, etc.**, Lisboa, 1596, fol, 4r

(3) B. Bennassar, **L'Inquisition espagnole, XVe XVIe siècle**, Paris: Hachette, 1979,pp17-40.

أكثر المتضررين من نشاطها، أي اليهود المتنصرون، في إرسال التقارير المندِّدة بتجاوزات المحققين، تلك التجاوزات التي عاينها ووقف عليها ممثل البابوية بالبرتغال، الأمر الذي سمح لهذا الأخير بالتدخل في سير المحاكمات ونقضها. واصطدم الجانبان عدة مرات، وأغرقا الفاتكان برسائل الاحتجاج والتشكي[1]. ومعنى هذا أنه لم يكن بامكان الملك في هذه الظروف إلا أن يحترم النصوص المحددة لاختصاصات المحققين، ولمسطرة عملهم. ولم ينته الخلاف إلا سنة 1548، باعلان الملك، تحت ضغط من البابوية، عن عفو عام أطلق إثره سراح المعتقلين، وتوقف العمل بدواوين التحقيق لسنة. وبذلك يمكن اعتبار سنة 1550 سنة الانطلاقة الجديدة لتلك المؤسسة التي اعترفت البابوية باستقلالها التام[2]، والتي أصبح لها منذ 1552 قانون أساسي جديد[3]. وسنرى بعد قليل أن الرسالة الملكية التي كانت بمثابة قانون(Alvara)، والتي وجهت للمحققين، حررت في فبراير 1552.

2) ومن جهة ثانية، يسعف تتبع تطور القمع الممارس على مختلف الديانات الأصلية للمتهمين (مسيحيون أقحاح، يهود ومسلمون متنصرون) بالوقوف على جواب مقنع على سؤالنا السابق. فمحكمة التفتيش كانت تكرس خلال مراحل معينة نشاطها لقمع ومطاردة المنحدرين من إحدى الديانات المذكورة. لذا نقف بكل سهولة على مراحل قمع وأخرى غض خلالها المحققون الطرف عن خطايا الأقلية المضطهدة، ليكرسوا جهدهم لقمع خطايا أقلية أخرى. وقد وقفنا، من خلال تتبع مراحل القمع الممارس على أفراد الجالية المورسكية المقيمة بالبرتغال، والتي كانت مكونة أساسا من مغاربة، على بداية

---

(1) عن ظروف إنشاء هذه المحاكم والمشاكل التي واجهتها في البداية، راجع :

Les crypto-musulmans... op. cit. chap. I, 3° partie; F. de Almeida, **História da Igreja em Portugal.** Barcelos: 1968, pp 367 et ss.; I.S. Révah: "Les Marranes portugais et l'Inquisition au XVIe siècle "**In: Etudes portugaises**, Paris, Publ. F. Calouste Gulbenkian. 1975, pp. 185-228.

(2) I.S. Révah: Les Marranes...op. cit. p. 213.

(3) **Arquivo Histórico Português**, vol, V, pp 272-306.

مرحلة قمع عنيف منذ سنة 1551 بكل من محكمة لشبونة ويابرة، بلغت أوجها خلال الخمس سنوات : 1556 ـ 1560 [1]. ومعنى هذا أن قمع "التهريب" يدخل ضمن قمع الإسلام ومعاقبة المرتبطين به، أو المتواطئين معه.

وحتى بعد اتخاذ يوحنا الثالث، بصفته المشرف على محاكم التفتيش ببلاده، قرار توسيع سلطاتها لتشمل النشاط الذي يهمنا، فإن الاجراءات التي حددها، جاءت على مراحل، الأمر الذي يؤكد عدم توفره آنذاك على رؤية شمولية لكل جوانب الموضوع. فبعد توصله برسالة من المحققين تخبره باعتقال التاجر (بيدرو مارتينش Pedro Martins) والبحار (جواو سالفا دو João Salvado)، الساكنين بلشبونة، والملاح (فرانسيشكو فاش Francisco Vaz)، القاطن بمدينة (Portimão) لإرسال الأول 3400 رمح إلى المغرب في مركب قاده الشخصان الآخران، أجابهم في فاتح فبراير 1552 أنه «اعتبارا لما في منع ومعاقبة مثل هذه الأفعال من خدمة لديننا ودفاع عن مصالحي، يسرني أن تحققوا في أمرهم، وأن تتصرفوا وتقرروا بشأنهم طبقا للقوانين المعمول بها..." وأكد الملك على ضرورة التنفيذ الفوري للأحكام التي لا تقبل الاستئناف، وأطلق يد المحققين على كل من يعتقل مستقبلا بنفس التهمة.

وفي 2 يناير 1553، ألحق الملك يوحنا الثالث بتلك الرسالة ـ القانون، كتابا آخر فرضته على ما يبدو معطيات جديدة. فقد ذكّر بقراره السابق بشأن اعتقال ومحاكمة «الذين يذهبون إلى بلاد المسلمين بإفريقيا بدون ترخيص». ويفهم من هذا التوضيح أن المنع لم يكن عاما، بل كان يستثنى منه الذين يحصلون على ترخيص ملكي. وقد مدتنا المحاضر بسببين كانا يبرران الحصول على ذلك : الرغبة في تحرير قريب يعيش في الأسر بالمغرب[2]، واقتناء سلع من المصالح التجارية الملكية كدار الهند[3].

وفي 4 أبريل 1553، أضاف الملك في ملحق ثان توضيحات جديدة. فقد أمر بمتابعة المحاكمات الموقوفة، واعتقال ومحاكمة كل من يبلغ به بشأن التعامل التجاري مع المسلمين. غير أن الجديد يخص السلع المحرم بيعها، إذ لم يعد المنع يقتصر على الأسلحة والذخيرة، بل شمل كل السلع كيفما كان نوعها. كما جعل الملك

(1) A. Boucharb, **Les crypto-musulmans...op**. cit. pp 493-505

(2) Inquisição de Lisboa, processo n° 12562, fol. 22V°

(3) Inq. Lix. proc. n° 1278, fol 8r°; 7568, fol 11 r°.

سلطة المحققين تشمل كل الأفراد، مهما كانت وضعيتهم الاجتماعية، وامتيازاتهم والقوانين التي تحميهم. وفي نهاية الملحق تعرض إلى مسألة مصادرة أملاك المعتقلين التي تعود إليه قانونيا، والتي ترك للمحققين سلطة تقديرية بشأنها «حسب الأشخاص وخطاياهم». إلا أنه حرم "الذين تاجروا أو يتاجرون في الأسلحة والحديد وباقي المعادن والآلات الحربية، وكل ما من شأنه أن يعين المسلمين ضد المسيحيين" من أي عنصر تخفيف[1].

وبذلك أضحى كل تعامل تجاري مع المغاربة يعتبر جريمة يعاقب عليها، وأصبح المحققون بعد 1553 يسألون المتهمين عما إذا كانوا «يعرفون أشخاصا أجانب مقيمين بهذه المملكة، أو برتغاليين، ينقلون أو يبعثون لبلاد المسلمين، قصد بيعها، أسلحة وبارودا ومراكب وحديدا ورؤوس حراب وغيرها من السلع التي يمكنها أن تقوي المسلمين عسكريا ، أو غيرها من السلع كيفما كان نوعها...»[2].

ومن سوء الحظ، لم نقف بالأرشيف البرتغالي، وعن طريق الصدفة فقط، إلا على العدد السابق الذكر من محاضر محاكمة التجار والبحارة المتعاملين مع الموانئ المغربية. وتكمن صعوبة اكتشاف تلك المحاضر في كثرة ما وصلنا من تلك الوثائق من جهة (17977 بالنسبة للشْبُونَة وحدها)، ولانعدام فهرس مرتب حسب الخطايا المنسوبة للمتهمين من جهة أخرى[3].

لم تكن المحكمة تسارع إلى اعتقال المتهم فور توصلها بالتبليغين اللذين ينص عليهما القانون، بل كانت تنتظر أحيانا مدة طويلة لكي تتأكد لديها التهم وتضبط كل الشركاء، وتتمكن من إلقاء القبض عليهم في حالة تلبس. فبالنسبة للبحار فْرَانْسِيشْكُو بَايَاوْ الملقب بالألكن، توصلت المحكمة بتبليغات خلال اثنين وعشرين جلسة عقدت أولاها في 9 يوليوز 1552، وآخرها في 24 أكتوبر 1554. وقد استدعت لهذه الغاية كل الأشخاص الذين علمت أن لديهم ما يضيفونه إلى الملف لمعاينتهم أو

(1) Inq. Lix. proc.n° 12562, fol 27-28.

(2) Inq. Lix. proc.n° 13221, fol 6 V°.

(3) Charles Amiel: **Les archives de l'Inquisition portugaise, regards et réflexions.** Paris: F.C. Gulbenkian, 1979.

لسماعهم بقيام المبلغ به بما ينسب إليه. ولن يعتقل ألالكن في حالة تلبس إلا يوم 26 أبريل 1554، وأدخل سجن محكمة التفتيش بعد يومين[1]. ووصلتنا أربعة محاضر[2] تتضمن التبليغات بأشخاص لم تستطع المحكمة إلقاء القبض عليهم، ربما لبقائهم بالمغرب.

فمن هم أولئك التجار الذين تحدثنا المحاضر عن أنشطتهم بالمغرب؟

يمكن التمييز بينهم أولا اعتمادا على دينهم الأصلي، إذ كان منهم المسيحي المحدث[3] والمسيحي القح[4]. ويبدو من خلال ما بأيدينا من محاضر، أن عدد الفئة الأولى كان أكبر لغناها وتراكم التجارب التجارية لديها[5]،ولاستفادتها من وجود مجموعات يهودية بالمناطق التي يتعاملون بها. وكان هؤلاء يفضلون أن يكون شركاؤهم ووكلاؤهم من أقاربهم، أو على الأقل من نفس العنصر الذي ينتمون إليه، وذلك حفاظا على سرية أعمالهم وتنقلاتهم. فقد بلغ عن أحدهم أنه ذهب عدة مرات إلى المغرب «مصحوبا بسلعه، وقد شاهده (المبلغ) منذ سنتين بأكادير ومعه سلع كالأثواب الملونة والفضة المسكوكة من قطع الريال الواحد... وكان شريكه آنذاك هو (بورجش-T. Borg-es)، المسيحي المحدث من مدينة (Guarda)، الذي يتاجر ببلاد المسلمين منذ أكثر من عشر سنوات»[6].

كما كان من هؤلاء التجار الغني جدا الذي يستثمر مبالغ مهمة[7] سنعود إلى الحديث عنها، وآخرون كانت عملياتهم متواضعة[8]. وكان منهم من يغطي النقص في رأس ماله بإنشاء شركات جمعت أحيانا المسيحي المحدث والأصيل[9]، والبرتغالي

(1) Inq. Lix. proc.n° 167, fol. 44.

(2) Ind. Lix. proc.n°. 3855, 5316, 8722, 8944.

(3) Inq. Lix. proc.n° 6458, 12562, fol. 20-24, 47

(4) Inq. Lix. pro. :n° 12562.

(5) A. Boucharb, **Les crypto-musulmans**... op. cit. pp. 413-417; Lúcio de Azeve-do, **História dos Cristãos Novos portugueses**, Lisboa, Livraria Clássica, 2édit. p. 460....

(6) Inq. Lix. proc.n° 12562, fol 21 r°.

(7) Inq. Lix. proc,n° 1278, fol. 7.

(8) Inq. Lix. proc.n° 8944, fol. 2; 167, fol. 6r°, 16v°.

(9) Inq. Lix. proc.n° 1278.

والإسباني[1]. ومن أولئك التجار من تعامل بالمغرب مدة خمس عشرة سنة[2].

وكان لجل التجار وكلاء بأنشط الموانئ المغربية، وبآسفي[3] وأكادير[4] على وجه الخصوص. كما استقر الوكلاء بأهم المدن الداخلية كفاس[5] ومراكش[6] وتارودانت[7]. فلقد كان للمسيحي المحدث (مارتينش Martins) وكيل تجاري بتارودانت، وآخر بأكادير[8]، بينما كان وكيلان تجاريان يمثلان تاجرا برتغاليا بمدينة فاس [9]. وطبعا كانت مهمة هؤلاء الوكلاء تنحصر في ترويج ما تحمله لهم السفن من سلع، وفي جمع السلع المغربية.

وفضلا عن البرتغاليين، تقاطر التجار الفرنسيون والإسبان والجنويون والإنجليز على ميناءي آسفي وأكادير. فقد شاهد برتغالي بالميناء الأخير أحد عشر مركبا من مراكبهم[10]. غير أن بعض هؤلاء كانوا يقصدون الساحل المغربي لاحتراف القرصنة على حساب البرتغاليين[11].

وطبعا، كان التجار عرضة للاعتقال في حالة التبليغ بهم. فما هي الاحتياطات التيكانوا يتخذونها تفاديا لذلك؟

لقد كانوا يعملون على تفادي كتابة عقود البيع وكراء المراكب[12]، وكلما

---

(1) Inq. Lix. proc.n° 12562, fol. 22
(2) Ibid, fol. 24 V°
(3) Inq. Lix proc.n° 167, fol. 49r°
(4) Inq. Lix proc. n° 12562, fol 48, Ibid, fol. 50
(5) Inq. Lix proc.n° 12562, fol. 25
(6) Ibid, fol, 47 V°
(7) Ibid, fol. 24.
(8) Ibid, fol. 47.
(9) Ibid, fol. 25.
(10) Inq. Lix.n° proc 167, fol, 13v°
(11) Inq. Lix. proc.n° 5455, fol. 5; 12562, fol, 8r°
(12) Inq. Lix. proc.n°13221, fol. 8r°

اضطروا إلى مكاتبة وكلائهم بالمغرب، اعتمدوا شفرة معينة دون أن يوقعوا تلك الرسائل[1]. واعتاد التجار تغيير أسمائهم كلما وصلوا إلى الموانئ المغربية وإعطاء أنفسهم أسماء أخرى[2]. وكانوا يشحنون سلعهم ويفرغون مراكبهم بعيدا عن عيون السلطة وجواسيس محكمة التفتيش، بأحد الموانئ الصغرى القريبة من العاصمة، وكانوا يقومون بذلك ليلا وتحت حراسة أشخاص مسلحين[3]. ولتضليل السلطات، كانوا يدعون توجيه سلعهم نحو قادس أو اشبيلية[4]. وتماديا في الحيطة، كان بعضهم يفضل شحن مراكبه باسبانيا أو فلندرا وإرسالها من هناك إلى المغرب[5]. ووصلتنا إشارات عن شحن المراكب بسبتة ومازيغن[6] (الجديدة) المحتلتين. واستغل تجار آخرون إرسال الحبوب والأقوات إلى الثغر الأخير في مجموعة من المراكب لمصاحبتها تفاديا لإثارة الانتباه، حتى إذا ما وصلت مراكبهم السواحل المغربية، غادرت الأسطول وحولت اتجاهها نحو آسفي أو أكادير[7]. وحفاظا على سرية عملياتهم، اشترى بعضهم مراكب وأشركوا ملاحين في استغلالها، أو تعاقدوا مع بحارة أجانب، إسبان وفرنسيين، لم تكن المراقبة على سفنهم صارمة[8].

إلا أنه ورغم كل تلك الاحتياطات، سقط جل أولئك التجار في فخاخ محكمة التفتيش. والجدير بالملاحظة أن التبليغات الرئيسية تمت على يد برتغاليين عاينوا نشاط "التهريب" بالمغرب، خلال أسرهم به. فلما مثل (غاشبار غونسلفيش Gaspar Gonçalves) أمام المحققين، ذكر أنه «لما كان جنديا بمازيغن منذ ما يقرب من سنتين، أسره المسلمون وحملوه إلى آسفي التي بقي بها زهاء سنتين. ورأى آنذاك المسيحيين ينقلون إلى هناك أسلحة كثيرة وسلعا محرمة، وكان أكثرهم من الإنجليز

(1) Inq. Lix. proc.n° 12562, fol. 25 °r°.

(2) Inq. Lix. proc.n° 167, fol. 46 V°; 12562, fol. 22.

(3) Inq. Lix. proc.n° 167, fol. 14 V°; 15r°

(4) Ibid, fol. 50 r°

(5) Ibid, fol. 3r°

(6) Inq. Lix. proc.n° 12562, fol. 25; 167, fol. 4V°, 5r, 2I r°

(7) Inq. Lix. proc.n° 167, fol. 55r°

(8) Inq. Lix. proc.n° 12562, fol, 47 V°; 8944, fol. 2.

الذين شاهد لهم هناك ثلاث سفن، وشاهد كرفيلا برتغالية. وكان بعض تلك السفن يحمل ثمانية آلاف من عصي الرماح، ومنها ما كان يحمل رؤوس الرماح والدروع التي تمت مقايضتها بالسكر... ». وذكر أن تاجرا برتغاليا متزوجا يسمى (غاشبار لويش Gaspar Luís) ، الساكن بين ساقية الملك وساقية الخيول «ذهب مرتين من هنا إلى آسفي في كرفيلا يقال إنها لقبطان مازيغن، نقل فيها أثوابا وصمغا... ». كما بلغ نفس الشخص بالملاح الذي كان يحمل تلك السلع في مركبه[1].

ويلزم القانون المحققين بالتعرف خلال أول جلسة على هوية المتهم وعمره ومقر سكناه، وعما إذا كان ينحدر من مسيحيين محدثين أو موركسيين، وعن مدى معرفته للصلوات والعقيدة الكاثوليكية. وكان المحقق ينتقل بعد ذلك إلى الأسئلة الخاصة بالتهمة أو التهم المنسوبة إلى المعتقل. «وفور ذلك طلب منه السيد المحقق قول الحق واعتبار أنه لحد الساعة بقي بعيدا عن خدمة الإله، تاركا الأعمال التي يقوم بها النصارى الحقيقيون، وذكره بأن خلاصه يقتضي الاعتراف بخطاياه، وطلب منه تحديد المدة التي قضاها في الاتجار المحرم مع مسلمي إفريقيا ، وفي نقله للسلاح وغيره من المعادن والذخيرة وآلات الحرب والسلع، وكذا الوقت الذي قضاه في نقل الموركسيين من هذه المدينة والمملكة إلى آسفي أو إلى أي مكان آخر من بلاد البربر، وكم كان يتقاضى عن كل شخص ينقله إلى تلك المناطق من بلاد المسلمين، ومن كان يرافقه ويساعده في قيادة الكرفيلا... »[2].

وقبل التعرض إلى الإشارات الواردة عن التجارة بهذه المحاضر، نبدي أولا الملاحظتين التاليتين :

تتعلق الأولى بمبادرة المحاكمين، منذ الجلسة الأولى، إلى الاعتراف بالخطايا المنسوبة إليهم. لذا لم تدم المحاكمات مدة طويلة، بخلاف محاكمات المسيحيين المحدثين.

---

(1) Inq. Lix. proc.n° 167 fol. 20-21.

(2) Inq. Lix. proc. n° 167, fol. 45 V° - 46r°.

أما الملاحظة الثانية، فتخص السلع التي كانت تروج بالمغرب، إذ يقف المطلع على المحاضر بسرعة على خلاف كبير بين أقوال المبلغين التي تؤكد على بيع الأسلحة والعتاد، واعترافات التجار التي تقر بالاتجار وتنفي بيع الأسلحة عملا منها على الاستفادة من الظروف المخففة التي أشارت إليها الرسالة الملكية السابقة الذكر. إلا أننا وقفنا على بعض الحالات التي اضطر أصحابها، أمام الحجج المتوفرة لدى المحكمة، وتفاديا لعقاب صارم بسبب أصرارهم على نفي التهمة أو تأخرهم في الاعتراف، إلى الإقرار بنقلهم أسلحة إلى المغرب. فقد بلغ بالتاجر (فِيسَانْتْ لُورَنْسُو) «لنقله رؤوس رماح كثيرة شاهده [المبلغ] يبيعها للمسلمين» بتارودانت. وقد اضطر المتهم إلى الاعتراف بشرائه بشمال إسبانيا لست مائة رأس رمح وثلاثين أو أربعين سيفا بإشبيلية، وأنه باع الكل بتارودانت خلال يومين[1]. واعترف آخر بجلب أكثر من 3000 عصا رمح من شمالا إسبانيا[2] غير أن المحاضر تؤكد أن الإنجليز والفرنسيين، الذين لم يكونوا مقيدين بمنع ملكي أو بوجود محاكم تفتيش، كانوا أكثر جرأة في عرض الأسلحة النارية والمعادن والذخيرة. فقد كان تاجر فرنسي يعرض بأكادير منذ أكثر من سبع سنوات القصدير والفولاذ والسكاكين بمختلف أنواعها[3]. وبذلك تضيف هذه المحاضر حقائق جديدة لما ورد في وثائق أخرى[4] عن دور تجار شمال غرب أوروبا في تسليح السعديين. ويبرر أحد المحاضر التي اعتمدناها عرض الفرنسيين للسلع المحرمة بعدم وجود الصمغ والأثواب الهندية ببلادهم[5].

واعترف التجار بإ رسال سلع أخرى إلى المغرب كان الصمغ الهندي المستعمل في الصباغة أكثرها ذكرا. وتكرر ذكر إرسال الأثواب الأوروبية والهندية والقبعات. كما كانت السفن تحمل إلى موانئ المغرب أكياسا من التوابل. فخلال رحلة إلى أكادير نقل البحار الملقب بالألكن حوالي عشرين كيسا من الصمغ وعشرة أو اثني عشر كيسا من القرنفل والبهار. وفي رحلة أخرى، نقل حوالي ستين كيسا من الصمغ يتراوح وزنها بين

(1) Inq. Lix proc.n° 12562, fol. 4 V°.

(2) Inq. Lix proc.n° 3420, fol. 3r°.

(3) Inq. Lix. proc.n° 12562, fol. 18r°

(4) **Sources Inédites...1ère série Angleterre** , I, pp I - III ,(Introd.)

(5) Inq. Lix. proc.n° 12562, fol. 14V°.

القنطار والقنطارين، وست رزم من أثواب الهند. «... وفي منتصف أكتوبر الماضي [1533] نقل من «المنظر الجميل» خمسة براميل من الصمغ سلمها له (دُوارْتْ الْفَارِيشْ) المذكور، الذي أخرج تلك السلعة من بيته وأرسلها إلى سفينة المصرح في مركب صغير، كما سلمه أربعة أكياس من البهار قد يزن كل واحد منها قنطارا ونصف، وسلمه كذلك ستة عشر ثوبا ملونا بالأحمر، وأمره بنقل كل تلك الأشياء إلى آسفي وتسليمها إلى (لُوبُو مَنْدِيشْ) المذكور، وأمره في حالة ما إذا أمكنه الوصول إلى أكادير، بتسليمها إلى وكيله هناك...»[1].

وكانت الفضة على شكل قطع نقدية أو سبائك من أهم ما يقبل عليه المغاربة بأكادير وتارودانت. وقد كانت عمليات الصرف ومقايضة الفضة بالذهب بالمدينة الأولى، تسمح سنة 1512 لوكلاء الملك البرتغالي بربح لا يقل عن 14٪ من قيمة شراء الفضة بلشبونة[2]. وتخبرنا المحاضر أن هذه الفائدة أصبحت سنة 1552 تتراوح بين 18 و 20٪ [3]. لذا اعتاد التجار إرسال مبالغ مالية مهمة من لشبونة أو قادس على شكل قطع نقدية من فئة الريال الواحد. فقد صاحب الملاح الألكن تاجر حمل معه أربعين ألف ريال، وأرسل معه آخر إلى ابنه مبلغا يتراوح بين خمسين ألف و سبعين ألف ريال. وفي رحلة أخرى طلب تاجر من لشبونة من الألكن أن يسلم ابنه المقيم بأكادير مائة ألف ريال[4]. وتوصل (لُورَنْسُو) السابق الذكر من شريكه المقيم بلشبونة بثلاثة أو أربعة آلاف (كروزادو)، أي بمائة وعشرين أو مائة وستين ألف ريال. ويرر هذا الشريك أمام القضاة إرسال هذه المبالغ المالية المهمة بقول شريكه... «إن تلك القطع تضمن هناك (تارودانت) ربحا يتراوح بين 18 و 20٪ »[5] وأضاف أنه أرسل تلك القطع النقدية كسلعة لا كعملة، لعلمه أن من يعرض الفضة يحصل على الذهب، وذلك لأن اليهود لا

(1) Inq. Lix. proc. n° 167, fol. 50r °

(2) **Sources Inédites... Portugal**, I,. pp 470-471.

(3) Inq. Lix. proc.n° 12562, fol. 2v°

(4) Inq. Lix. proc.n° 167, fol 65r°.

(5) Inq. Lix. proc.n° 12562, fol, 2v°

يقبلون غيرها[1]. وتؤكد المحاضر أن الفضة كانت بأكادير السلعة التي يكثر عليها الطلب، وتعرف أكبر رواج[2].

واعتاد البرتغاليون عرض كميات هامة من الخشب كانوا يقتنونها بشمال إسبانيا[3]. وكانت هذه المادة تستعمل في صنع البراميل[4] وصناديق تعليب السكر[5]، وفي محاور آلات عصر السكر وعجلات العربات[6].

وكان البرتغاليون يعرضون كذلك، وإن في كميات قليلة، حجر الشب[7] والمرجان واللؤلؤ والعقيق[8].

وأصبح السكر على رأس السلع التي أضحى الأجانب يقبلون عليها، وكان يشحن إلى البرتغال[9] وإسبانيا[10] وفلاندرا[11]. ولعل في إقبال البرتغاليين، الذين كان إنتاج بلادهم من السكر مهما، على سكر المغرب ما يدل على انخفاض ثمنه. فقد قايض تاجر برتغالي مرة حمولة سفينته بالسكر المغربي[12].

واقتنى التجار كذلك كميات مهمة من الجلود والصوف والنيلة واللوز والتمر والشمع والذهب[13]، وحتى المواشي التي كانت تحمل إلى جزيرة ماديرا[14]. وكانت

---

(1) Ibid,fol. 13r°.

(2) Ibid, loc. cit..

(3) Inq. Lix. proc. n° . 8944, fol, 2

(4) Inq. Lix. proc. n° . 7568, fol, 7r°

(5) Inq. Lix. proc. n°. 8944, fol,4v°

(6) Inq. Lix. proc. n° . 167 fol.; 12562, fol 2 r°

(7) Inq. Lix. proc. n° . 5455, fol, 5 r°

(8) Inq. Lix. proc. n°. 12562, fol, 25r°

(9) Ibid, 12r°.

(10) Ibid, fol. 22r °

(11) Ibid, fol. 48r°

(12) V.M. Godinho, **Os Descobrimentos e a economia mundial**, Lisboa, Arcádia, 1965, vol II, pp 419 et .

(13) Inq. Lix. proc. n°. 12562, fol, 12

(14) Inq. Lix. proc. n°. 167, 12562, etc.

تلك السلع المغربية توجه إلى البرتغال[1] وإلى جنوب إسبانيا[2]، وكذا إلى (أنْفَرِسْ) بفلندرا[3].

وكانت قيمة ما يرسل إلى المغرب من سلع أو يجلب منه مهمة. فقد صرح (بايش C. Paes) أنه أرسل مرة إلى أگادير سلعا تفوق قيمتها خمسة عشر ألف (كروزادو)، أي ما يفوق ستة ملايين ريال برتغالي، كانت موزعة كالتالي : الصمغ الهندي: 5200 كروزادو، والقطع النقدية الفضية :4000 كروزادو، والأثواب: 6000 كروزادو[4]. وعن قيمة ما كان يجلب من المغرب، صرح (لورانسو)، السابق الذكر، أنه أرسل مرة إلى شريكه بلشبونة : 4000 صندوق من السكر و 200 برميل من العسل، و1000 قنطار من السكر غير المقولب. وبلغت القيمة الإجمالية لهذه السلع 22000 أو 23000 كرزادو، أي أكثر من تسعة ملايين ريال[5]. ولعل في عودة السفن من المغرب محملة عن آخرها بالسلع، وفي ما كان يؤدى عنها أحيانا بجمارك لشبونة، ما يؤكد أهمية الصفقات التي كان التجار أو وكلاؤهم يعقدونها بالمغرب.[6]

وتشير المحاضر إلى ما يفيد الأرباح الطائلة التي كان التجار يجنونها من تعاملهم مع المغاربة، خصوصا إذا كانت السلع المعروضة محرمة. فقد اشترى (لورنسو) سيوفا بإشبيلية بثلاثين أو أربعين كروزادو، وباعها بتارودانت بخمسمائة مثقال، أي بما يفوق عشر مرات ثمن شرائها[7]، علما بأن المثقال المغربي كان يعادل أو يفوق الكروزادو البرتغالي.

ووقفنا على إشارة أخرى تؤكد أن بيع الخشب كان بدوره يضمن نفس الأرباح.

---

(1) Inq. Lix. proc. n° . 5455, fol, 4

(2) Inq. Lix. proc. n° . 167, fol 46 et ss.

(3) Inq. Lix. proc. n°. 12562, fol, 12

(4) Inq. Lix. proc. n° 1278, fol, 8r°

(5) Inq. Lix. proc. n° 12562, fol, 12v°

(6) Inq. Lix. proc. n° 1278, fol, 8v°, 14543, 4r°, etc.

(7) Inq. Lix. proc. n° 12562, fol, 38r°

فقد باع برتغالي بالمغرب نصيبه من الخشب الذي كلفه بشمال اسبانيا 70 كروزادو بـ 750 كروزادو بتارودانت[1]! ولعل في مغامرة التجار والبحارة بحريتهم وأموالهم ما يدل على الاستفادة الكبرى التي كانوا يجنونها من إقبالهم على أسواق المغرب. فقد تورط القصر والنبلاء في تجارة المغرب. فالإشارة إلى إرسال الملكة[2] وقبطان مازيغن[3] وأحد نبلاء البرتغال الكبار[4] الصمغ إلى المغرب وشراء السكر به، كثيرة بالمحاضر . وقد تتجلى استفادة التجار من المغرب في ما كانوا يدفعونه لوكلاء الملك بدار الهند المختصة في بيع مواد الشرق الأقصى قصد الحصول على ترخيص ملكي للذهاب إلى آسفي أو أكادير. فقد ذكر (بايش) أنه أدى 2000 كروزادو (800000 ريال) فوق ثمن الشراء للحصول على الإذن المذكور[5]. ورغم ضربات القراصنة الإسبان والفرنسيين المتكررة[6]،ومصادرة الجمارك لسلع ومراكب التجار[7]، لم يتوقفوا عن نشاطهم بالمغرب. ووصلتنا إشارة، لا ندري مدى صحتها، حول إرسال تاجر سلعا إلى المغرب فور إطلاق سراحه من لدن محكمة التفتيش[8].

ولم تكن استفادة البحارة الذين ينقلون تلك السلع أقل، إذ سرعان ما مكنتهم رحلات معدودة من شراء مراكب تتراوح أثمانها بين 75000 و 90000ريال[9]. وكانت رحلة واحدة بين قادس وأكادير ذهابا وإيابا تضمن للملاح العامل بتلك السفن 8000 ريال[10].

غير أن نشاط التجار والبحارة البرتغاليين توقف بعد سنوات قليلة من بداية

---

(1) Inq. Lix. proc. n° 8944, fol, 2r°
(2) Inq. Lix. proc. n° 12562, fol, 25r°
(3) Inq. Lix. proc. n° 167, fol, 55r°
(4) Inq. Lix. proc. n° 5455, fol, 5r°
(5) Inq. Lix. proc. n°. 1278,
(6) Inq. lix. proc. n°. 167, fol. 8r°.; 12562, fol 8r°. 44.
(7) Inq. lix. proc. n°. 167. fol 49, 7568, fol. 6v°.
(8) Inq. lix. proc. n°. 167, fol 47.
(9) Ibid, fol. 45-47 r.°
(10) Inq. lix. proc. n°. 5455, fol, 66r°.

مطاردة محاكم التفتيش لهم. فقد كانت آخر محاكمة سنة 1559. ولم يجرؤ أحد على الاستمرار في نشاطه بعد إطلاق سراحه لكون ذلك كان يؤدي، حسبما تنص عليه قوانين المحكمة، إلى إحراق المتهم لاعتبارها لاعترافاته وتكفيره عن خطاياه كذبا وتضليلا للمحققين. وبذلك أكره التجار البرتغاليون على التخلي عن أسواق المغرب، التي كانت تعج بهم خلال العقود الأولى من القرن السادس عشر.

ورغم خطورة التهمة المنسوبة للتجار والبحارة، وخصوصا بالنسبة للمحاكمين لبيعهم أو نقلهم أسلحة إلى المغرب، لم يحرق أي واحد منهم. ويعود هذا النوع من "التسامح" إلى طبيعة محاكم التفتيش بالبرتغال، التي كانت قليلة النطق بهذا الحكم القاسي من جهة، وإلى مسارعة المتهمين إلى الاعتراف كما سبق أن أشرنا إلى ذلك. ومن جهة أخرى ، لم تقرر المحكمة مصادرة أملاك المحاكمين. فقد اكتفت بفرض غرامات على الأغنياء منهم ومطالبة البحارة بالعمل لسنوات معينة بأساطيل البرتغال[1]. وهكذا أدى (بايش) 400000 ريال[2]،بينما دفع (لورانسو) نصف هذا المبلغ[3]. وأعفي التجار الأغنياء من الحبس.

وهكذا تسهم هذه المحاضر إسهاما رئيسيا في دراسة التجارة البرتغالية بالمغرب في بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر، أي في الوقت الذي اختفت فيه الوثائق الرسمية لإخلاء الموانئ المغربية بجنوب أم الربيع. كما يتمثل إسهامها الرئيسي في كونها تسمح بالقيام بدراسة مقارنة للتجارة البرتغالية بالمغرب خلال وبعد الغزو، وبالتعرف على ما كان يعرضه الأوروبيون بالسوق المغربية، وما كانوا يقتنونه منها بعد سنة 1541. غير أن ما يأسف له المؤرخ، هو عدم تزامن هذه المحاضر والوثائق الرسمية، لأن ذلك لو تم فعلا، لسمح برؤية شمولية لتجارة العاملين لحسابهم الخاص. حقيقة أن القيمة المصدرية للمحاضر لا تضاهي قيمة الوثائق ذات الطابع التجاري المحض،

(1) Inq. lix. proc. n°. 7568; 167, etc.

(2) Inq. lix. proc. n°. 7568; 7567; 167, etc

(3) Inq. lix. proc. n°. 12562

كالإيصالات(1) وسجلات الجمارك(2) وتقارير الوكلاء(3) والقباطنة(4)... غير أن اعتماد هذه الوثائق الصادرة عن محكمة ذات طابع ديني لا يخلو من فائدة، بل على العكس من ذلك، تطغى على بعض هذه المحاضر المعلومات ذات الطابع التجاري. فمن خلالها نتبين السلع التي كان البرتغاليون والتجار المسيحيون الآخرون يعرضونها بالمغرب، والتي كانوا يقبلون عليها به.

وهكذا يتبين لنا استمرار عرض البرتغاليين لنفس السلع التي كانت تعرض بالمغرب قبل 1541، كالصمغ والأثواب والتوابل... وإن كان ذلك في كميات أقل مما كان عليه العرض خلال فترة الاحتلال(5).

وكانوا، كالسابق، يقبلون على المواد الخام المغربية من شمع وعسل وصوف ونيلة... غير أن المحاضر تظهر بعض المستجدات في هذا الباب. فقد برز السكر المغربي، الذي ازدهر برعاية محمد الشيخ في السوس، كسلعة رئيسية ضمن صادرات المغرب. وأعطى هذا الأمير كذلك نفسا كبيرا لتجارة الأسلحة، وإن كانت المحاضر لا تشفي الغليل بشأن تجارتها بالمغرب. كما أقبل السعديون على شراء الخشب بشكل مكثف لشدة حاجة صناعة السكر له. وبفضل هذه الإشارة، نفهم الصعوبات التي عاكست السعديين في محاولاتهم إحياء الأسطول المغربي(6).

ومن جهة أخرى، لا يشير التجار خلال اعترافاتهم إلى شراء ثلاث سلع كان الإقبال عليها كبيرا خلال فترة الاحتلال، وخصوصا خلال العقود الأولى من القرن السادس عشر: القمح والعبيد والأثواب الصوفية.

ويعود توقف تصدير المادة الأولى على ما يبدو، إلى تراجع الطاقة الإنتاجية

---

(1) راجع ما ذكرناه بشأنها: **دكالة**، م، س. ص.ص24-26 وملاحق الدراسة.

(2) Arquivo Nacional da torre do tombo, Núcleo Antigo, **livro da dízima das mercadorias que entaram na cidade de Arzila no anno 1511**, 18 folios. etc.

(3) **Sources Inédites...op. cit. Portugal**, I, pp 300-303, 311-315-331, etc

(4) Ibid, pp 297-299, etc.

(5) أحمد بوشرب، **دكالة**... م. س. ص: 322

(6) A. Dziubinski, "L'armée et la flotte de guerre marocaines" **Hespéris- Tamuda,** vol. XII, 1972, pp.61-94

وأحمد بوشرب، "المغاربة والبحر خلال النصف الأول من القرن السادس عشر" المنشور بهذا الكتاب.

المغربية بسبب مخلفات الغزو الخطيرة على السهول الأطلنتيكية المغربية[1] وربما لمنع الشرفاء، الذين أصبحوا يتحكمون في الموانئ، بيع تلك السلعة الأساسية للمسيحيين. ولا تشير المحاضر إلى شراء العبيد بالمغرب. ومعلوم أن البرتغاليين كانوا يتهافتون على الإنسان المغربي، وكانوا يستعملون كل الوسائل للحصول عليه، من اختطاف وأسر وشراء خلال المجاعات[2]. ومما لاشك فيه أن استقرار الأوضاع الأمنية والاقتصادية، وطرد الغزاة، جعلا حدا لذلك النشاط الذي استنزف اعدادا هائلة من شباب المغرب.

ولم يرد أي ذكر بالمحاضر لشراء الأنسجة الصوفية المغربية التي أصبح إقبال وكلاء الملك بآسفي عليها كبيرا منذ بداية تنظيم التجارة البرتغالية بغرب إفريقيا بعد 1450، حيث كانت الحنابل المغربية تمثل أهم سلعة تعرض قصد الحصول على التبر والعبيد[3]. ولعل احتكار الملك البرتغالي للنشاط التجاري بتلك المنطقة من جهة، والركود الذي أصبحت عليه تجارة أركين ولامينا بعد 1520 [4] من جهة ثانية، كانا وراء إحجام التجارعن شراء السلعة المذكورة.

وبما أننا بصدد تجارة غرب إفريقيا، نشير إلى أن تاجرا نسب خلال محاكمته تراجع الاستفادة البرتغالية من المركزين المذكورين إلى نشاط التهريب بالمغرب. فقد صرح أن المغاربة أضحوا ينقلون ما يعرضه "المهربون" من سلع في قوافل إلى مدينة تسمى (؟)Curmucutuz «وكذا إلى ساحل لامينا، حيث يتعاملون مع السود، ملحقين بذلك ضررا كبيرا بتجارة لامينا». وأكد أنه «ما يزال بالإمكان تدارك الأمر

(1) أحمد بوشرب، **دكالة**، ص.ص. 447-451.

(2) نفسه، ص.ص 317-319

(3) نفسه، ص. ص307-309

R. Ricard: " Le commerce de Berbérie et l'organisation économique de l'emprire portugais aux XVe et XVIe siècles. " **Etudes sur les Portugais au Maroc**, Coimbra, 1955, pp 81-107; Duarte Pacheco Pereira: **Esmeraldo de Situ Orbis**, Lisboa, Sociedade de Geografia, 1975, p 114.

(4) V.M. Godinho: **L'économie de l'empire portugais aux XVe et XVIe siècles**, Paris: 1969, pp 87-88, 219.

بتدخل مولانا الملك، وبالضرب بقساوة على أيدي التجار، ومنع نقل تلك السلع إلى بلاد المسلمين... »[1].

وتجدر الإشارة إلى أن الملك البرتغالي لم يكن سنة 1552 في حاجة إلى هذا التنبيه. فقد لمس بنفسه منذ 1541 [2] انعكاس الانتعاش الذي عرفته تجارة القوافل برعاية السعديين، ورواج تجارتهم مع الأوربيين، أي ما عبر عنه المؤرخ Godinho «بانتقام القافلة من الكرفيلا »[3]، على تغير ميزان القوة بالمغرب لصالح المغرب. والتصريح، رغم الغموض الذي يكتنفه بالنسبة لجغرافية السودان والمراكز التي يصلها التجار المغاربة، يربط بين انتعاش تجارة القوافل وركود تجارة البرتغال بغرب إفريقيا، مضيفا بذلك حقائق هامة عن هذه القضية التي لم يولها المؤرخون بعد الأهمية التي تستحقها.

وفضلا عن الإسهامات ذات الطابع التجاري المحض، تفيد هذه المحاضر كذلك في دراسة جوانب مهمة من التاريخ المغربي خلال القرن السادس عشر، خصوصا في جوانب لا تسعف مصادرنا في دراستها دراسة شاملة، كمخلفات الغزو البرتغالي وردود الفعل التي سببها...

ويمكن حصر إسهامات محاضر محاكمة التجار فيما يلي :

1) تنفرد هذه المحاضر بتسليط الأضواء على علاقة المغاربة بالبحر ومدى قدرتهم على استغلاله وركوبه بعد تحرير آسفي وأكادير. وتفيدنا محاكمة البحار الألكن السابق الذكر، إفادات قيمة. فقد أصبحت المراكب ووسائل الملاحة من أشرعة وبوصلات وصواري وخرائط منعدمة بآسفي. وقلّ ـ إن لم نقل انعدم ـ القادرون بالمدينة المذكورة على صنعها واستعمالها. فقد كان قائد آسفي يغري الملاح المذكور أحيانا، ويضغط عليه أحيانا أخرى، ليعلم بعض رجاله كيفية استعمال الخرائط البحرية واستغلال الرياح وتزويده ببعض الآلات. وكان يستشيره في طريقة تسليح المراكب،

---

(1) Inq. lix. proc. n°. 12562 fol 47

(2) **Sources Inédites**... Portugal, III, p. 357

(3) V.M. Godinho, **Os Descobrimentos**... I, pp. 198-200

وحتى في اختيار الأخشاب الصالحة لصنع الصواري. وطلب نفس القائد من الألكن الاستقرار بآسفي واحتراف القرصنة بها تحت إشرافه[1]. وبذلك نقف على نتيجة من أخطر نتائج الغزو البرتغالي الذي أبعد المغاربة لمدة طويلة عن البحر، وحال دون استمرارهم في نشاطهم البحري السابق، ودون مسايرتهم للمستجدات في ذلك الميدان الحيوي. وإذا أضفنا إلى هذا العامل تبعية المغرب في ميدان الأخشاب للخارج، فإننا نفهم بكل سهولة أسباب فشل السعديين في إحياء الأسطول المغربي، وكثرة الأجانب[2] بالمراكب الجهادية بكل من سلا والعرائش خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

2) وبما أننا بصدد الحديث عن الملاحة، نشير إلى أننا وقفنا على إشارات تؤكد وصول المراكب إلى تارودانت لشحن السكر[3]. وتؤكد وثائق أخرى[4] هذه الحقيقة التي نلمس من خلالها التغير الخطير الذي طرأ على وجه المغرب الطبيعي منذ القرن السادس عشر.

3) وتمدنا المحاضر المذكورة، وكذا محاضر محاكمة العلوج الذين عادوا من المغرب إلى البرتغال لسبب أو آخر، وحوكموا بتهمة الردة واعتناق الإسلام، تمدنا بما يفيد تبوؤ العلوج والأتراك أعلى المراتب الإدارية والعسكرية في الدولة السعدية. فقد كان قائد آسفي بعد 1550 علجا[5]، وكان قائد العلوج بفاس برتغاليا[6]، وكان برتغالي آخر من أقرب المقربين إلى السلطان المتوكل[7] إلخ. وتعود هذه الحظوة كما هو معروف إلى رغبة السعديين في تكوين جيش رسمي ومدرب على السلاح الناري وعلى تقنيات الحرب المستعملة من لدن الطامعين في المغرب : الأتراك والإيبيريون.

4) ويستفاد كذلك من الاطلاع على محاضر محاكمة «المهربين»، أن إنتاج السكر بالمغرب واجه منذ بدايته صعوبات كثيرة وتبعية كبيرة للأجانب في ميدان

(1) Inq. Lix. proc.n° 167, fol. 16r° - v°, 22v°. 24r°

(2) Inq. Lix. proc.n° 8481, 3535, etc.

(3) Inq. Lix. proc.n° 167, fol. 6v°

(4) **Sources Inèdites... Portugal**, IV , p.6 , où on lit : « entrarom nesta cydate nove navois de mercadorias de toda sorte... ».

(5) Inq. Lix. proc. n°167 fol 56r°.

(6) Inq. Lix. proc. n°6465 , fol, 3r°, 1669, fol 14v° etc.

(7) Inq. Lix. proc.n° 8944, fol 2.

التسويق واستيراد الخشب(1) والأطر العاملة في المعاصر(2) أو المكترية لحق استغلالها(3).

ومن جهة أخرى، تسلط هذه المحاضر، ومحاضر أخرى أكثر عددا، تهم محاكمات أفراد الجالية المغربية المقيمة بالبرتغال خلال القرن السادس عشر(4)، أضواء هامة على المخلفات الديمغرافية للغزو البرتغالي.

ومن الإضافات الهامة التي تنفرد بها بعض محاضر محاكمات أفراد الجالية المغربية، إشارات تهم احتراف المغاربة المبكر للجهاد البحري ردا على الغزو المسيحي لسواحلنا. وتتمثل أهم إضافة في هذا الباب في أصل المساهمين في الجهاد البحري. فالذين اعتقلوا إثر مهاجمتهم للسفن أو السواحل البرتغالية لم يكونوا دائما من سكان المدن الساحلية المغربية، بل كانوا ينحدرون من مناطق نائية كتارودانت(5) وفاس(6) ومراكش(7).ومنهم من كان ينتمي إلى أعراب ضواحي القصر الكبير(8).

وهكذا خلفت المحاكمات التي دارت بيابرة أو بلشبونة مادة علمية محترمة تسهم إسهاما رئيسيا في الاطلاع على أوضاع المغرب خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، وتسلط أضواء كاشفة عن جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية لا تسعف أحيانا مصادرنا في دراستها.

---

(1) Inq. Lix. proc.n° 167 , fol 46r°, 14543 fol. 4v°.
(2) Inq. Lix. proc.n° 12562, fol. 24v°.
(3) Inq. Lix. proc.n° 167. fol., 46v°.
(4) لأخذ فكرة عن هذه المحاضر راجع ترجمة :" محضر محاكمة امرأة مغربية" المنشور بهذا الكتاب.
(5) Inq. Lix. proc. n° 12057
(6) Inq. Lix. proc.n° 10363; 10821; 10835 1623...
(7) Inq. Lix. proc.n° 4098.
(8) Inq. Lix. proc.n°. 3932.

وثائق محاكم التفتيش ، مصدر من مصادر تاريخ الثقافة والعقليات بالمغرب خلال القرن السادس عشر *

يمتاز النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي المغربي بكونه قرن أزمة حادة عمت البلاد والعباد بسبب ضعف السلاطين الوطاسيين، والحروب بين القبائل، وكذا بسبب التراجع الكبير الذي عرفته الأنشطة الاقتصادية وانحصار التجارة مع أوروبا وبلاد السودان. وزادت الغارات البرتغالية، ومختلف ردود الفعل الرسمية والشعبية التي تولدت عنها، الأوضاع تأزما. ومن جهة أخرى، عرفت المجاعات والأوبئة خلال العقود الأولى من القرن السادس عشر حدة لم تعرفها من قبل[1]

وكان أهم ما نتج عن هذه الأزمة العامة خوف المغربي على نفسه وذويه ومتاعه. وأضحى الكل، وخصوصا سكان البوادي، يخافون في كل لحظة من القتل أو الأسر على يد القبائل المعادية أو البرتغاليين المتهافتين على الأسرى،[2] الأمر الذي سرعان ما انعكس على عقلية المغاربة، وعلى رؤيتهم للعالم، كما يتجلى ذلك من خلال التفسير الذي أعطوه لمشاكل وصعوبات العصر، ومن خلال المواقف التي وقفوها منها،

* نشرت هذه الدراسة بمجلة كلية الآداب، المحمدية،ع5، 1993 صص 61 - 78.

(1) انظر بشأن هذه المجاعات والأوبئة الدراسة الجيدة للأستاذين :

B. Rosenberger, H. Triki, "Famines et épidémies au Maroc aux XVI et XVII siècles "**Hespéris-Tamuda**, vol XIV, fasc. unique, 1973, pp. 134 et sq.

وكذا دراستنا : أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء اسفي وأزمور الدار البيضاء، دار الثقافة، 1984 ص319.

(2) كانت عمليات درس المحاصيل تتم بمنطقة القصر الكبير على ظهر الجياد خوفا من غارات برتغالي أصيلا المفاجئة. راجع :

B. Rodriguês, **Anais de Arzila, Crónica inédita do século XVI**. Edit D. Lopes, Coimbra, imprensa da Universidade, T. II, 1919, p. 64.

ولأخذ فكرة عن الفزع الذي كانت تحدثه الغارات الوطاسية في نفوس القبائل الدكالية، راجع:

Sources inédites de l'histoire du Maroc, première série Dynastie sa'dienne, Archives et bibliothèques de Portugal, Paris, P. Geuthner, 1939, T. II, p. 97.

والحلول التي اقترحوها لتجاوزها، أو على الأقل للتخفيف من حدتها. وبذلك مست أزمة ضمير حادة كل فئات المجتمع كما سبق لنا أن فصلنا ذلك في محل آخر[1].

ولدراسة أزمة الضمير هذه، ومختلف المواقف الذهنية التي تولدت عنها أو صاحبتها، يمكن للباحث اعتماد مصادر مغربية متنوعة من تواريخ عامة وحوليات وتراجم. غير أنه سيفيد أكثر من اعتماد ثلاثة أنواع عرفت، خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر والقرن التالي، انتشارا واسعا تتمثل في كتب المناقب،[2] والنوازل،[3] وأخيرا مؤلفات المصلحين[4] الذين كرسوا جهودهم لمحاربة ما كانوا يعتبرونه السبب الرئيسي لمآسي وقتهم، أي البدع. وإذا كانت هذه المصادر المغربية معروفة لدى باحثينا، وإن لم تعرف لحد الساعة إلا استغلالا محدودا،[5] فإنهم لم يستفيدوا قط من مصادر محاكم التفتيش المحفوظة بالأرشيف البرتغالي، التي لم تعتمد بعد في هذا النوع من الدراسة التي نحن بصددها، والتي لا زال البحث التاريخي ببلادنا لم يولها ما تستحقه من عناية رغم أهميتها التي لم تعد تخفى على أحد.

والمصادر التي نحن بصددها محفوظة اليوم بأرشيف Arquivo Nacional da Torre do Tombo بلشبونة، وهي من مخلفات محاكم التفتيش الدينية بالبرتغال المحدثة سنة 1536 قصد حماية العقيدة والقيم الأخلاقية للمسيحيين من عدوى الإصلاح الديني، ولإكراه «المسيحيين المحدثين» (Cristãos Novos)، الذين فرض عليهم التنصر

---

(1) أنظر الصفحات 63 .74 من هذا الكتاب.

(2) ابن عسكر الشفشاوني: **دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، الرباط، دار المغرب للنشر والطباعة، محمد بن المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع**، طبعة حجرية، فاس 1895، 167 صفحة.

(3) عبد العزيز الزياتي: **الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة**. مخطوط الخزانة العامة، ج 66. انظر الدراسة التي أنجزها محمد مزين عنه:

M. Mezzine, **Le temps des Marabouts et des Chorfas, essai d'histoire sociale marocaine à travers les écrits de jurisprudence religieuse**, Thèse de Doctorat d'Etat.

انظر كذلك الدراسة القيمة لـ :

J. Berque, **L'intérieur du Maghreb (XV-XIX siècle)**, Paris, Gallimard, 1978.

(4) عبد الله الهبطي، **الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوه من التغيير في الملة الإسلامية**. مخطوط الخزانة الحسنية، عدد 2808.

أحمد بن عرضون، **مقنع المحتاج في أدب الأزواج**، مخطوط الخزانة العامة الرباط، عدد: 1026.

(5) انظر على سبيل المثال دراسة محمد مزين السابقة الذكر.

سنة 1496، على التمسك بالعقيدة الكاثوليكية، وقمع كل محاولة للعودة إلى دينهم الأصلي.[1]

وكان المغاربة[2] الذين مثلوا أمام المحققين لخطايا دينية أو أخلاقية، أو بعد تنظيمهم لمحاولة فرار فاشلة قصد العودة إلى المغرب، يمثلون جالية مهمة تكونت خلال القرن السادس عشر، وانتقل أفرادها إلى البرتغال بعد أسرهم أو شرائهم أو لأسباب سياسية (الأعيان الوطاسيون) أو إجرامية، أو للالتحاق بأحد الأقارب... وقد يكون عددهم قد بلغ فيما بين 1530.1525 ما ينيف عن المائة ألف.[3]

ومصادر محاكم التفتيش التي تهمنا من أربعة أنواع :[4]

1 ـ محاضر المحاكمات :

وتمثل محاضر جلسات محاكمات المغاربة لارتباطهم السري بالإسلام رغم تنصرهم، أو لمحاولتهم الفرار إلى المغرب أو لأسباب أخلاقية الخ. وتتشابه المحاضر من الناحية الشكلية. فبعد تسجيلها لمختلف التبليغات التي توصلت بها المحكمة، والتي أدت إلى الاعتقال، يسجل المحضر مختلف جلسات المحاكمة، وما نطق به القضاة، واعتراف المتهم في حفل ديني كبير بخطاياه، وتعهده بالتخلي عنها، وشهادة تلقينه للصلوات المسيحية، وتاريخ إطلاق سراحه، وتاريخ إعفائه من ارتداء اللباس المفروض على من أطلقت المحكمة سراحهم، وأبقتهم تحت مراقبتها وترصد عيونها المبتوثين في كل مكان.

وقد عثرنا، بعد جهد جهيد، لعدم توفر فهارس، ولوجود محاضر محاكمات

---

(1) A. BOUCHARB, **Les Crypto-musulmans d'origine marocaine et la société portugaise au XVI siècle**. Thèse de Doctorat d'Etat inédite cf. aussi: I. Révah, "Les Marranes portugais au XVI° siècle" in: **Etudes portugaises**, pub. par C. Amiel, F.C. Goulbenkian, Paris 1975. pp 204 et ss.

(2) تجدر الإشارة إلى أن سلط محاكم التفتيش لم تكن تشمل إلا المسلمين الذي ارتدوا واتهموا بالتمسك بدينهم الأصلي. غير أن بعض المسلمين المقيمين بالبرتغال اعتقلوا لامتناعهم عن ارتداء اللباس المفروض على المسلمين لتمييزهم عن غيرهم، أو لمحاولتهم الفرار إلى المغرب أو لأسباب أخلاقية تعرضنا لها في دراستنا المذكورة أعلاه.

(3) B. Rosenberger, H. Triki, op. cit., A. Boucharb, **les Crypto-musulmans** op. cit.
p. 53 et sq.

(4) C. Amiel, **les archives de l'Inquisition portugaise, Regards et réflexion**, Paris, Centre Culturel Portugais, 1979, 29p.

المغاربة ضمن أربعين ألف محضر[1] على 262 محضرا. وبغض النظر عن الخطيئة المنسوبة إلى المغاربة الذين تابعتهم محاكم التفتيش، تزودنا المحاضر المذكورة بمعلومات قيمة عن تاريخ دخول المتهم إلى البرتغال، وتاريخ تنصره وظروفه، ومدى معرفته للعقيدة المسيحية، ووضعية المغربي القانونية (حر أم أسير)، وظروف عيشه وموارده، وحالته العائلية، وعن علاقته مع باقي أفراد الجالية المغربية، ومع المجتمع المسيحي الذي كان يعيش ضمنه[2].

2 ـ كتب التبليغات (Livros das denúncias)

وهي سجلات مفتوحة باستمرار بالمحكمة للتوصل بالتبليغات ضد كل من شوهد وهو يرتكب، قولا أو فعلا، عملا يتنافى ومبادئ وقيم العقيدة الكاثوليكية. كما اعتاد المحققون استعمال نفس السجلات لتسجيل التبليغات خلال زيارتهم لبعض المناطق التابعة لنفوذ المحكمة التي يعملون بها. وتمثل هذه السجلات مرآة تعكس العلاقة التي كانت تربط الجالية المغربية بالمجتمع البرتغالي، وكذا مواقفها الثقافية والدينية التي لم يتقبلها المجتمع المذكور، وسارع إلى التبليغ بها.

3 ـ سجلات الاعترافات (Livros das Confessões)

اعتاد المحققون تسجيل الاعترافات التي يقوم بها بعض «المذنبين» طواعية تفاديا لاعتقالهم.

وقد أفدنا من 32 مجلدا من سجلات التبليغات والاعترافات التابعة لمحكمة لشبونة، وهي تغطي المرحلة الممتدة من سنة 1537 إلى 1600.

4 ـ دفاتر وكيل النيابة (Cadernos do Promotor Fiscal)

وتمثل هذه الدفاتر مسودة مرافعات ذلك الموظف وملاحظاته. وقد اعتمدنا منها 12 سجلا ضخما تغطي الفترة من 1537 إلى 1639، وتخص محكمتي لشبونة وكوينبرة(Coimbra).

---

(1) Idem, p.19

(2) انظر على سبيل المثال ترجمتنا لأحد هذه المحاضر :

«محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية (1559)»، المنشور بهذا الكتاب.

*****

صحيح أن المصادر المذكورة لا تستحق كل الثقة، وأنها تبعث أكثر على الريبة والشك في صحة معلوماتها طالما أنها لا تعكس إلا وجهة نظر المجتمع المسيحي المتعصب والمؤسسة القمعية التي أفرزها للدفاع عن قيمه وعقيدته. كما أن الرعب الذي كان الاعتقال يحدثه، والخوف من الإعدام حرقا، كانا يؤثران إلى حد بعيد على "اعترافات" المتهمين التي كان من اللازم أن تسير في الاتجاه الذي يرضي المحققين. فقد استوعب المعتقلون المغاربة بسرعة مسطرة محكمة التفتيش، وتأكدوا من أن أحسن وسيلة لتقليص فترة اعتقالهم ومحاكمتهم هي الاعتراف المبكر والتبليغ بأكبر عدد من الأقارب والأصحاب للحصول على عفو القضاة، ذلك أنه كان يتعذر، بل ويستحيل عليهم إثبات براءتهم، كما علمتهم محن من سبقوهم إلى تلك المحاكمات. وكان المعتقل الذي يصر على إثبات براءته يعتبر "سلبيا" (negativo)، وكان لذلك يخاطر بحريته أكثر ممن يسارع إلى التبليغ بالآخرين والاعتراف ولو بخطايا لم يقترفها.(1)

ومن جهة أخرى، كان المعتقلون معرضين لضغوط مستمرة من لدن قائد السجن ومساعديه، أو من لدن المسجونين أنفسهم، الذين كانوا يحثون، بإيعاز من المحققين، أو لمجرد الشفقة وإبداء النصح، الآخرين على الاعتراف حتى بخطايا وهمية. فقد نصح المغربي المرتد، João Barreto مواطنه وزميله بالزنزانة، João Nunes ، بالاعتراف بأي شيء، ولو بخطايا وهمية لتفادي الحكم بالإعدام حرقا(2). وأخبر مغربي آخر كان يسمى António de Faria القضاة بأن مواطنه ومرافقه بالسجن قدم له نفس النصيحة، واقترح عليه الاعتراف بأكل الكسكس والتوسل إلى الله والتشهد طالما أن "كل الذين اعتقلوا بمدينة Setùbal اعترفوا بذلك (...)، وأن عليك أن تقول هذا، وإلا فإنك ستقبع بالسجن طول حياتك".(3)

كما نصحت Anna Barbosa بالاعتراف «بأي شيء، ولو بما لم تقترفيه، (...)

(1) A. Boucharb, **Les crypto-musulmans**, op. cit. p. 521

(2) Inquisicão de Lisboa, processo, n° 6466, folio 23

(3) Inq. Lix proc. n° 1083, fol. 27v° - 28r°. .

اقتداء بما فعلته الآخريات اللواتي إن اقترفن إثما اعترفن بأربعة»[1]. وقد اعتبر المحققون المغاربة الذين لم يتصرفوا مثل هذا التصرف معاندين ومتمسكين بهرطقتهم، وقرروا إحراقهم أو تخلوا عن ذلك في آخر لحظة بعد إذعان المتهمين واعترافهم على الشكل السابق الذكر.[2]

على أن هذا العيب الجلي، والذي لا يخفى على كل من اطلع على تلك المصادر، لا يقلل بتاتا من قيمتها، ذلك أنها تمثل مصدرا أساسيا بالنسبة لتاريخ الثقافة والعقليات بالمغرب خلال القرن السادس عشر، وخصوصا بالنسبة للثقافة الشفوية والشعبية. ومما أثرى الوثائق المذكورة، الخلط بين العقيدة الإسلامية والهوية الثقافية المغربية الذي وقع فيه المحققون. ويتجلى ذلك بكل وضوح من قراءة لائحة الخطايا التي اعتادت المحكمة إعلانها بانتظام(Edital da fé) في أبواب الكنائس والأديرة. ففي اللائحة المذكورة، لم يكن المحققون يميزون بين الإسلام من جهة، واللغة العربية والعادات والتقاليد والفولكلور المغربي من جهة ثانية. فمجرد التصرف على "طريقة مسقط الرأس" (ao modo de sua terra) ، كالتعبير عن الفرح أو الحزن، كان يعتبر من لدن المجتمع المسيحي والمحكمة التي أفرزها لحماية قيمه، خطيئة دينية تفضح تمسك المرتد بعقيدته الأصلية، وتلزم كل المسيحيين بالتبليغ بها. لم يكن المجتمع البرتغالي يعطي، حسبما يبدو من مصادر محاكم التفتيش على الأقل، لتنصر المغاربة دلالة دينية محضة. لقد كان ينتظر منها أولا وقبل كل شيء طمس الشخصية الثقافية للمرتد بشكل فوري وكامل ولا رجعة فيه، مهما كانت مدة إقامته بالبرتغال قصيرة، وكيفما كانت الضغوط التي مورست عليه لدفعه للتنصر. لم يكن المرتدون مطالبين بعقيدة صادقة، بل كان عليهم أنْ يتحولوا منذ توصلهم بماء المعمودية إلى برتغاليين، وأن يصبحوا منذ تلك اللحظة مشبعين بالثقافة المحلية، وأن ينسلخوا عن ثقافتهم. لذا نقف بالمحاضر على ظاهرة غريبة أفادت كثيرا هذه الدراسة، وهي تفوق الخطايا ذات الطابع الثقافي على الدينية المحضة. لقد اعتقل المغربي (João Coelho) بسبب وجبة

(1 Inq. Lix proc. n° 11129, fol. 14-15.

(2 A. Boucharb, **Les crypto-musulmans**, p. 521.

كسكس قدمها لضيوفه المغاربة خلال حفل عقيقة ابنته، وكذا لتقديمه للوجبة المذكورة على الأرض، وليس على طاولة كما يفعل المسيحيون.[1] ومن خلال مرافعة النيابة ضد دكالي آخر، نقف على نفس الخطايا : فقد عابت عليه النيابة الأكل على الأرض عمدا، ووضع الطعام بين فخديه دون استعمال طاولة أو منديل، «لأن ذلك يمثل طقسا إسلاميا». ولم يقتصر صك الاتهام على طريقة الأكل، بل أكد كذلك على «جريمة» النوم على الجانب الأيمن واعتبرها مظهرا من مظاهر تمسك المغربي بعقيدته الأصلية.[2]

ومما نسب كذلك للمغاربة من خطايا، حرصهم على تفادي اختلاط النساء والرجال خلال الأكل[3]. كما اعتقل مغاربة آخرون لاستمرارهم في استعمال العربية[4]، بينما حوكمت مغربيات لبكائهن على الموتى «حسب طريقة المسلمين»[5].

وبالطبع لم يكن بإمكان المغاربة، رغم تنصرهم السطحي، ورغم اتخاذهم لرموز الثقافة البرتغالية من لباس ولغة وغيرهما، التخلي عن عقيدتهم وهويتهم الثقافية، الأمر الذي أدى إلى التبليغ عنهم[6]، وترك لنا بالتالي فرصة الاطلاع، من خلال وثائق محاكم التفتيش، على بعض جوانب الثقافة الشعبية بمغرب القرن السادس عشر، وعلى تصور المغربي آنذاك للعالم ولمن كانوا يحيطون به.

فما هي إذن أهم إسهامات تلك الوثائق؟

إن أول ما يقف عليه المطلع على تلك الوثائق هو إصرار المغاربة الذين انتزعتهم من وطنهم أحداث عجزوا عن التحكم فيها، والذين فرض عليهم التنصر بضغوط كثيرة، إصرارهم على عدم التفريط في هويتهم. وكان منهم من دفع ثمن تحديه للمجتمع المسيحي واستماتته في ذلك الموقف غاليا. فقد أجابت مغربية مواطنة لها هددتها بالتبليغ بها إذا ما استمرت في السخرية من القربان المقدس بقولها «لن يمنعني ذلك من اعتبار نفسي مسلمة، ولن ينسيني انتمائي لملة محمد. لقد ولدت

(1) Inq. Evora, proc n° 10769, fol. 12V°
(2) Inq. Evora, proc. n° 8062, fol. 2v et 8V°
(3) Inq Evora, proc.n° 8859, fol. 7 et 10769
(4) Inq. Lix porc. n°12626, fol. 12r°, 6466, fol. 22r°
(5) Inq. Evora, proc. n° 6868, fol. V ° راجع ترجمة هذا المحضر أدناه.

مسلمة، وعلي أن أموت كذلك»[1] وتجدر الإشارة إلى أن هذه المغربية كانت في حالة فرار بعد أن أصدر المحققون أمرا باعتقالها. وكانت أخرى لا تمل من التذكير بأصلها الإسلامي كلما أقلقتها تصرفات وتحرشات المسيحيين، وكانت تردد أن أمها مسلمة، وأنها ترغب في أن تموت وهي مسلمة، وأن الله لم يعد يرعاها ويعينها منذ تنصرها.[2]

ويتجلى حرص المغاربة على تمييز أنفسهم عن المسيحيين في الدلالات التي كانوا يعطونها لحركات وأعمال معينة. فقد منعت مغربية إحدى ضيفاتها بصرامة من استعمال الملعقة، وأرغمتها على الأكل باليد لتبقى مغربية.[3] كما أصرت على تقديم الطعام على الأرض، «كما يفعل المسلمون»، لا على طاولة.

واعتاد المغاربة، كلما رغبوا في القيام بعمل ما، أو شرعوا في الأكل أو الشرب أو وقت النوم، قراءة البسملة. وكانوا يحمدون الله كلما أنهوا وجباتهم.[4] كما استمر المغاربة في تنظيم أفراحهم وأتراحهم حسب تقاليد بلادهم.

فقد كانوا، كلما رزقوا مولودا، يسارعون فور عودتهم من الكنائس إلى إلغاء حفلة العقيقة المسيحية بتنظيم أخرى يعطى فيها للصبي اسم إسلامي. وكان الوالدان والأقارب يختارون الاسم عن طريق القرعة. وهكذا سمت دكالية بنتها زهراء[5]. وسمت أخرى بنتها فاطمة،[6] بينما اختار دكالي لابنه اسم علي[7]. وكان المغاربة يتبادلون الزيارة بهذه المناسبة، ويقدمون الهدايا إلى الأم، كانت قيمتها تختلف حسب جنس المولود، وينظمون حفلات تدوم أحيانا عدة أيام، تقدم خلالها الأطباق المغربية، والكسكس على وجه الخصوص[8].

وكانت حفلات زفاف الدكاليين تدوم أحيانا أسبوعا كاملا. وكانت الموسيقى وآلاتها، والرقص والوجبات والطقوس والعادات المصاحبة لتلك الأفراح مغربية. فقد زوج الدكالي الذي كان يسمى قبل تنصره «السي عبد الله»، ابنه لبنت دكالي آخر حوالي 1549–1550 ونظم الدكاليان المذكوران «حفلات كبرى على الطريقة المغربية».

---

(1) Inq. Lix porc. n° 9280, fol. 16r°.
(2) Inq. Lix. **Livro das denúncias**, IV, fol. 1230 r°
(3) Inq. Evora proc. n° 9385, fol. 4v° - 6r °
(4) A. Boucharb, **les crypto-musulmans**, op. cit. p.p. 272-291
(5) Inq. Evora proc.n° 7917, fol. 3v°
(6) Inq. Evora proc.n° 2827, fol. 19v°
(7) Inq. Evora proc.n° 8652, fol. 7v°
(8) Inq. Evora proc.n° 11323, fol. 6r°, 10769, fol. 9r°

فبعد ذبح الكبش، جمع دمه بكل عناية في إناء. وقدم للمدعوين المغاربة الكسكس و«الفتات». ولكي تحضر البركة، قرأ الدكالي الأول، الذي كان فقيها، بعض الآيات. وانتقل الحاضرون بعد الأكل إلى الغناء والرقص بحضور الزوجين. وكان المدعوون يقدمون خلال تلك الحفلة مبالغ مالية ينادى بقيمتها بين الفينة والأخرى. وأخبر مبلغ المحققين أن أب العريس لم يخف فرحته الكبرى لتنظيمه ذلك الحفل تماما «كما فعل أبوه بمسقط رأسه خلال حفل آخر».[1]

وتخبرنا محاضر المحاكمات بالشبه الكبير بين الأعراس التي كان المغاربة ينظمونها هناك، وتلك التي ما نزال نشاهدها إلى اليوم بالبوادي المغربية.[2]

ومعلوم أن منظمي الحفلة المذكورة دخلا البرتغال سنة 1525، أي أن الزواج تم بعد إقامة دامت خمسا وعشرين سنة لم تكن كافية لإبعاد المغاربة عن عاداتهم وتقاليدهم.

وكان المغاربة يعيشون كذلك أوقات حزنهم كما كانوا يفعلون بمسقط رأسهم. فقد اعترفت الدكالية Anna de Melo خلال محاكمتها سنة 1559 أنه «توفي زوجها فبكته وناحت عليه كمسلمة، وعلى طريقة المسلمين، مبعثرة شعرها وخادشة خديها ومتوسلة في شأن روح وجسد زوجها المذكور إلى محمد وإلى مولاي علي، اللذين يعتبرهما المسلمون وليين، لكي يكونا مع روحه وجسده، وأن ذلك فعلته كمسلمة معتقدة أنه سيفيده...». واعترفت كذلك أن أخا زوجها اشترى بعد ثلاثة أسابيع من تلك الوفاة كبشا أعدا بلحمه كسكسا لعشاء تصدقا به طلبا لرحمة المتوفى. وتخللت الأمسية تلاوة القرآن ودعوات إسلامية.[3]

واعتاد المغاربة المتنصرون استدعاء آخرين مسلمين يحفظون بعض الدعوات والآيات القرآنية، وتميزت منهم دكالية كانت تسمى مسعودة.[4]

وكانت بعض المغربيات، تعبيرا منهن على مواساتهن لصديقاتهن، وكذا للتخفيف عما بداخلهن من أسى وألم بسبب الغربة وظروف العيش القاسية، يخرجن

---

(1) Inq. Lix porc. n° 5254, fol. 3r°.

(2) انظر أطروحتنا السابقة الذكر، الفصل الثاني من الباب الثاني.

(3) أحمد بوشرب، محضر محاكمة، بهذا الكتاب.

(4) Inq. lix. proc. n° 12690, fol. 2v° -3r°, n°3184, fol. 5, 6; n° 7672, fol. 7v°, Inq. Evora, proc. n° 6868, fol. 5v°.

كلما توفي مغربي في بكاء جماعي، وكانت منهن من كانت تردد وهي تبكي عبارات تحث بها الأخريات على المزيد من البكاء[1].

وارتبط المغاربة ارتباطا كبيرا بلغتهم العربية وبأسمائهم الاسلامية، حتى إن منهم من كان يستاء إذا ما نودي باسمه المسيحي[2].

ويتجلى تمسك المغاربة عموما بهويتهم الثقافية في ارتباطهم ببعض الطقوس والعادات، رغم إقامتهم الطويلة بالبرتغال، كالتصدق بالخبز والتين المجفف على وجه الخصوص، وكاقتسام الخبز لضمان الثقة والإخلاص، وجمع دم الذبيحة، والإيمان بمفعول التمائم.[3] فقد اعتقل بعض المغاربة وبأعناقهم تمائم كانوا يعتقدون أنها تحمي الجسد من الأمراض، والشخص من الاعتقال!.[4]

واستمر المغاربة في التداوي بنفس الطريقة التي كانت مستعملة بمسقط رأسهم. فقد بلغ بدكالي لمعالجته للذين يشعرون بألم في ظهورهم لكثرة حملهم للأثقال بسوق حبوب لشبونة. وكان ذلك الشخص يملأ فمه ملحا ويعض الجهة المؤلمة ويرشها ثم يقرأ البسملة. وقد اعترف أنه استمر في علاج المغاربة من يوم دخوله البرتغال سنة 1521 حتى تاريخ اعتقاله من قبل محاكمة التفتيش سنة 1554 لاعتبارها ذلك الفعل مظهرا من مظاهر الارتباط بالإسلام، وطقسا من طقوسه.[5]

ورغم مدة إقامة المغربيات بالبرتغال، استمر بعضهن في استعمال السحر كما تعلمنه بالمغرب، وبلغت شهرة بعضهن حدا جعل زبناءهن يقبلون عليهن من البرتغال وإسبانيا[6]. وكانت المواد المستعملة من لدن تلك الساحرات كالتي تستعمل بالمغرب.

وحوكمت سبع دكاليات بتهمة احتراف السحر والتحالف مع الشيطان[7]. وكان الزبناء يلجأون لخدمات تلك الساحرات مدفوعين بدوافع شتى : الزواج أو الإنجاب، الانعتاق بالنسبة للأسرى والعبيد، تغيير طباع الأزواج الحادة وضمان إخلاصهم

(1) Inq. lix. proc. n° 568, fol. 10r°; 9280, fol, 7r° etc.

(2) Inq. Lix. porc. n° 5153, fol, 10r°, 13187, fol 3v°, n° 6405, fol. 2v°, n° 4118, fol, 2v°

(3) A. Boucharb, **Les crypto-musulmans**, p. 281.

(4) Inq. Lix. proc. n° 10991, fol, 3r°, n° 2467, fol, 2-3, n°3206, fol. 1r°

(5) Inq. lix. proc, n° 5488, fol. 13v°, 19v°.

(6) Inq. Evora, proc, n° 9417, fol. 13r, n° 10769, fol. 8r.°

(7) Inq. Lix. proc. n° 9470, n° 6258, n° 12252, 11554, n° 5044, n° 10769, n° 9417,n°1268.

وارتباطهم بأزواجهم، الخ. وكانت المواد المعتمدة من لدن تلك الساحرات تشبه ما يستعمل لحد الساعة. فبما أن تلك الساحرات أميات، فانهن لم يكن يلجأن إلى التمائم، بل اعتدن الاقتصار على مشروب تحصلن عليه من مواد مختلفة كمخ الحمير وعظام الموتى، أو باستعمال حبات من القمح أو الشعير أو نواة التمر، أو الزبيب أو التين أو الملح أو المني أو الأظفار أو الشعر... وكانت الغاية من استعمال هذه المواد تحقيق أهداف جنسية. واحتفظت لنا المحاضر بتفاصيل كثيرة عن طريقة استعمالها، وعن مدى إقبال الناس عليها.[1]

ورغم الردة، استمر المغاربة في ارتباطهم الكبير بأولياء مناطقهم، وخصوصا بأبي العباس السبتي. وتؤكد محاضر محاكم التفتيش ذلك الارتباط الذي كان من بين أسباب اعتقال المغاربة ومحاكمتهم من لدن محاكم التفتيش. ولتأكيد هذه الحقيقة نشير إلى أن مغربية دخلت البرتغال سنة 1512 وعمرها لا يتجاوز السنة الرابعة، وحوكمت سنة 1553 لكونها توسلت لبرتغالي أراد أن ينتزع من يدها قفة بأبي العباس السبتي[2]. وقد كان مغربي آخر، وهو المدعو Duarte Fernandes، الذي دخل البرتغال سنة 1512، يقسم بنفس الولي سنة 1555.[3] وقد اضطر المحققون، أمام عمق إيمان المغاربة بكرامات وولاية أوليائهم وسموهم على أولياء المسيحيين، إلى مساءلتهم، كلما مثلوا أمامهم، عما إذا سبق لهم أن أقسموا بأبي العباس المذكور أو غيره، وعما إذا كانوا يعتقدون أنهم أجدر بالثقة من أولياء النصارى. وأمام انتشار ذلك الإيمان، أصبحوا يطرحون نفس السؤال حتى على الأتراك والهنود والسودانيين الذين تأثروا بالمغاربة وأصبحوا يقسمون بالأولياء المغاربة ويتوسلون إليهم في أوقات شدتهم.[4]

وهكذا نلاحظ أن المغاربة، بقوا متمسكين، رغم تنصرهم السطحي، بهويتهم الثقافية، وذلك رغم المضايقات اليومية والمحاكمات، وطول مدة الإقامة بالبرتغال. بل وأكثر من هذا، استطاعت الجالية المغربية التأثير فيمن أدخل صغير السن أو ولد

(1) Inq. Lix. proc.n° 12684, fol, 2v°-5r°, Evora, 9470, fol. 2v°-3r°; 11554, fol. 6v°, 1252, fol 5r° et 9r°.

(2) Inq. Lix. proc. 12689, fol. 8r°.

(3) Inq. Lix. proc. 708.

(4) Inq. Lix. proc. n° 12626, fol. 37r°

بالبرتغال من آباء مغاربة، إذ حوكموا بدورهم لنفس الأسباب.(1)

ورغم أن المغاربة كانوا مرغمين على التنكر لمعتقداتهم تفاديا للاعتقال أو لمدة حبس طويلة، فإن كثيرا منهم سارع إلى العودة إلى نفس الأعمال أو الأقوال التي تسببت في اعتقالهم، وكان منهم من فعل ذلك بسجن محكمة التفتيش.(2)

هكذا نخلص إلى نتيجة مهمة، وهي أنه إذا حال تعصب وعنصرية البرتغاليين دون تسهيل اندماج الأقليات الدينية والعرقية، فإن المغاربة لم يكونوا بدورهم يجرون وراء ذلك الاندماج، بل كان هدفهم الأساسي كما سنرى، الفرار والعودة إلى مسقط رأسهم. وقد وجد المغاربة في قناعاتهم الدينية وإيمانهم الراسخ بسمو الإسلام وأفضليته التبرير الكافي لموقفهم من البرتغال وسكانه وقيمهم.

وبالفعل، وقفنا بالمحاضر على ما يؤكد أن المغاربة لم يكونوا يأخذون ردتهم مأخذ الجد. فقد كان التعميد بالنسبة للدكالية Anna de Melo مجرد كمية من الملح توضع بالفم، وبضع قطرات ماء ترش على الرأس، وتغيير الإسم الإسلامي بآخر مسيحي دون أن يلزم ذلك المرتد بشيء.(3)

لذا لم يتنصر جل المغاربة الذين ارتدوا إلا بعد إقامة طويلة تجاوزت أحيانا الثلاثين سنة.(4) وتوخى جلهم من تلك الردة الحصول على الحرية أو على امتياز مادي معين، أو قصد تفادي عقاب صارم من لدن محكمة التفتيش بعد اعتقال الذين كانوا مسلمين لأسباب أخلاقية أو لمحاولة الفرار والعودة إلى المغرب. ورغم تنصرهم، لم يكن المغاربة يتوقفون عن التأكيد على استمرار إسلامهم. فقد أكد أحدهم للمحققين أن قلوب كل المغاربة مسلمة،(5) وأكد آخر آنه لا ينتظر من مسلم متنصر أن يكون مسيحيا صادقا.(6) وعاتب دكالي مخاطبه ذكره بردته بقوله له: «إنه غير مسيحي، وإنه مسلم كما كان دائما...»(7) . وقال آخر: إنه وإن كان مسيحيا معمدا، فان الله يعلم ما بقلبه. ورددت دكالية أخرى بافتخار أن كل شرفها وعزائها يكمنان في كونها مسلمة.

---

(1) Inq. Lix. proc. n° 11129, fol. 5v°
(2) A. Boucharb, **Les crypto -musulmans.**;, p. 374 et s.s.
(3) Inq. Evora. proc. n° 5203, fol, 14 v°
(4) Inq. Lix. proc. n° 7246, fol., 5r°, Evora; proc. n° 8652, fol, 5r°.
(5) Inq. Lix. proc. n° 10769, fol. 6v°
(6) Inq. Lix. proc. n° 8062, fol .13r°
(7) Inq. Lix. proc. n° 7643, fol. 8v°, n° 10832, fol. 2v°

ويتجلى عدم اكثرات المغاربة بردتهم في الجهل الكبير الذي كانوا عليه بالنسبة للعقيدة والصلوات المسيحية حين محاكمتهم. فقد عجزوا جميعا عن قراءة الصلوات أمام المحققين، وكان جهل بعضهم يثير الاستغراب.

فقد عجز دكالي بالغ من العمر ستين سنة، دخل البرتغال سنة 1518، خلال محاكمته سنة 1556، عن التعريف بمريم العذراء والسيد المسيح.[1]. ورغم إقامتها بالبرتغال مدة 36 سنة، منها 12 كمسيحية، عجزت Maria Fernandez عن ذكر أسباب الاحتفالات بعيد ميلاد المسيح وعيد الفصح، الأمر الذي دفع الكاتب بالمحكمة إلى القول : «ويبدو أن هذه الموريسكية تعرف القليل أو تجهل الكل عن عقيدتنا».[2]

وهكذا لم يأخذ أفراد الجالية التي تهمنا ردتهم مأخذ الجد، بل على العكس من ذلك، استمروا في اعتبار أنفسهم مسلمين. والإشارات الواردة بمحاضر محاكم التفتيش بشأن هذا الارتباط كثيرة جدا. وبما أن هؤلاء أكرهوا تحت ضغوط معينة على التنصر، فإنهم حاولوا باللين أحيانا، وبالعنف أحيانا أخرى، منع ردة الذين بقوا متمسكين بإسلامهم. فقد عرض دكاليون لاجئين وطاسيين فروا من المغرب خوفا من الشرفاء السعديين لمعاملة قاسية بعد تنصرهم، الأمر الذي أرغم محكمة التفتيش على التدخل واعتقال خمسة منهم.[3]

واستمر المغاربة رغم ردتهم في القيام سرا ببعض الفرائض كالصلاة والصوم. ووصلتنا إشارة عن قيام أحدهم بهاتين الفريضتين بسجن محكمة التفتيش[4]، كما اعترف بعضهم بالصيام لمدة بلغت عشر سنوات، وإن حاولوا التقليل من عدد الأيام التي صاموها خلال كل مرة[5] .وكانوا لا ينقطعون عن قول الشهادة للأهمية القصوى التي كانت تكتسيها بالنسبة إليهم، لتأكيدها على وحدانية الله وعلى نبوة محمد عليه السلام، كما أنها لم تكن تلزم بالقيام بأية حركة مورطة.[6]. وبما أنهم كانوا ملزمين بالتردد على الكنائس تفاديا للشكوك والتبليغات، فإن بعضهم أصبح يشعر بالنفور

(1) Inq. Lix. proc. n° 12194, fol. 6r°
(2) Inq. Lix. proc. n° 8062, fol .4r°
(3) Inq. Lix. proc. n° 1636, fol .4-6.
(4) Inq. Lix. proc. n° 6405, fol 8v°
(5) Evora, proc. n° 6868 , fol, 8r°; 10553, fol r°
Inq. Lix. proc. n° 12061, fol. 8v°; 12383, fol,5v°
(6) انظر على سبيل المثال :
Inq. Lix. proc. n° 3184, fol. 6v°, n° 9280 fol. 13r°, 7566, fl. 10r°, etc.

والاشمئزاز كلما أراد دخولها[1]، بينما أضحى آخرون يسخرون من الطقوس والشعائر المسيحية ويدوسون القربان المقدس عوض أكله وتقديسه،[2] أو يحولون الصلوات المسيحية إلى أخرى إسلامية. فقد اعترفت دكالية دخلت البرتغال سنة 1521، وحوكمت سنة 1558 بأنها كانت «كلما رفع الراهب القربان المقدس، تتلو باسم الله الرحمن الرحيم، وتتوسل إلى الرب العظيم»[3]. واعترف دكالي أنه كلما رفع الراهب القربان، وكلما كان بالكنيسة، «ضرب صدره، وفعل ما يفعله النصارى، ولكنه كان يؤمن بالرب الموجود في السماوات العليا، وليس بذلك القربان المقدس... »[4].

ورفض المغاربة اعتبار الخبز والخمر، المكونين للقربان المقدس، اللحم والدم الحقيقيين للسيد المسيح. فحينما سمع الدكالي سجناء الجناح الآخر يرددون بعض الصلوات، ضحك من ذلك وقال لدكالي آخر كان بجانبه : «لقد مات الههم، وهاهم يبكونه». ورد عليه مواطنه بكل سذاجة «إذا ما مات إله المسلمين (كذا) فإنهم عاجزون عن تعويضه بآخر، أما إذا مات إله النصارى، فإنهم يصنعون في اليوم التالي آخر من الطين».[5]

لذا رفض المغاربة الإيمان بمبدأ الثالوث المقدس وبألوهية السيد المسيح. ولم يكونوا يخصون الأشياء التي ترمز إليه كالصليب بأي تقدير.[6] ويبدو أنهم حصروا إله النصارى في شخص المسيح والأشياء التي ترمز إليه كالقربان المقدس. وهكذا كانوا كلما تحدثوا عن الإله يميزون بين إلههم «الحي الدائم، خالق الأشياء والمختلف عنها، الذي يرى ولا يرى، والذي لم يلد ولم يولد»، وإله النصارى الذي يتمثل في الصليب والقربان، «فالأول يقول كن فيكون، والآخر لا يقوى على شيء»[7]. فقد كانت مغربية، وهي من ناحية آسفي، تبرر بكل سذاجة رفضها الإيمان بإله النصارى بعجزه عن معاقبة كل من تعمد الكذب، وكانت تؤكد أن ذلك يؤدي حتما إلى عقاب فوري من لدن إله مسقط رأسها يتجسد بسرعة في كسر أحد أطراف الكاذب[8]. فحين هدد الدكالي

(1) Inq. Evora proc. n° 6258, fol., 14 v°
(2) Inq. Evora, proc. n° 6462, fol, 3v°, 4r°, 10769, fol, 14r°
(3) Inq. Lix. proc. n° 7246, fol. 9v°
(4) Inq. Lix. proc. n° 6405, fol. 13
(5) Inq. Lix. proc. n° 3590, fol. 35r°
(6) A. Boucharb, **Les crypto-musulmans**, op. cit. pp. 362-366.
(7) Inq. Lix. proc. n° 4031, fol. 6r°; Evoran, n° 7853, fol, 6r°
(8) Inq. Evora, proc. n° 4497.

برتغاليي إحدى جزر الآصور Açores بالإنتقام منهم عما قريب، بعد هجوم جيوش خير الدين باربروس المتوقع، أجابته برتغالية بأن عناية ربها كبيرة، وبأنها ستحول بدون شك دون حدوث ذلك، فرد عليها أن «الإله الذي تنتظرين منه هذه العناية لا يقوى ولو على فعل ما تفعله الماعزة التي تعطي الحليب والجبن والشعر لصنع الأغطية، واللحم الذي يؤكل، والجلد الذي تصنع منه الأحذية...»(1) . وكان آخر لا يتوقف عن ترديد أن إلاه النصارى مجرد وهم، وأنه لا يعدو كونه قطعة خبز، وأن الإله الحقيقي بالسماء.(2)

وعرض المغاربة كذلك الكنائس وما يرتبط بها من نواقيس وصور وتماثيل لنقد لاذع. لقد كانوا يستغربون كثيرا لدخول النصارى كنائسهم منتعلين وبدون وضوء ومصحوبين بكلابهم. وأكثر من هذا، أكدوا أنهم شاهدوا مسيحيين يزنون أو يتبولون بها. وكانوا ينتقدون اختلاط النساء بالرجال بالكنائس وهن في أبهى مظاهر الزينة. وكانوا يعتبرون كل هذه الأمور دلالة على كون الكنائس دون قدسية المساجد، وكانوا لذلك يخصون المساجد بقدرة استشفائية كانت تفتقر إليها الكنائس.(3) ولم تكن النواقيس والتماثيل وصور الأولياء إلا «دمى» و «لعب صبيان» وأشياء لا تستحق أي اعتبار.(4) لم تكن Catarina do Porto تنتظر أي أجر من صلاتها بالكنيسة ليقينها من عبثية كل الشعائر المسيحية.(5) وقد أكد دكالي أنه لن يؤمن أبدا بقدرة التماثيل والصليب والصور حتى ولو كانت من ذهب.(6) لذا لم يكونوا يكتفون بعدم تقديسها، بل كانوا لا يترددون، كلما سنحت الفرصة بذلك، في تدنيسها أو تكسيرها.(7)

وسخر المغاربة كذلك من الاعترافات بمحضر الرهبان، ومن قدرة هؤلاء على ضمان الغفران.(8) كما سخروا من الصوم المسيحي. فقد عرف الدكالي António Fer

---

(1) Inq. Lix. proc.n° 2257, fol. 2-5 v°
(2) Inq. Lix. **livro das denúncias**, III, fol. 89v°
(3) Inq. Evora, proc. n° 7643, fol, 31 v°; 86 , fol, 4v°; Lix proc. n° 8346, fol. 2v°
(4) Inq. Lix. proc. n°5831, fol. 2r°; n° 172, fol 11 v° 8520, fol. 5r°
(5) Inq. Lix. proc. n° 2967, fol. 5v°
(6) Inq. Lix. proc. n° 5085, fol. 13v°
(7) Inq. Lix. **Livro das denúncias**, III fol. 90v°; inq, Evora, proc. n° 8433, fol, 7v;° 8859 fol 8v°.
(8) Inq. Lix. proc. n° 708, fol. 20v°; 10864, fol, 15r°

nandes الصوم الإسلامي وقارنه بالمسيحي بقوله : «.. أنتم تأكلون خلال اليوم كلما حلا لكم ذلك، أما نحن فلا نأكل إلا بعد غروب الشمس، ومع ذلك نعمل خلال النهار كله دون أن نأكل أو نشرب...».[1] ويلاحظ أن هذا الدكالي الذي دخل البرتغال سنة 1521 وحوكم بعد ثلاث وثلاثين سنة، كان ما يزال يعتبر نفسه مخالفا لمخاطبه المسيحي.

هذه أهم الجوانب المرتبطة بالعقلية الشعبية بالمغرب خلال القرن السادس عشر، وبعقيدة المغربي وتصوره لنفسه ولمن كان يحيط به، سواء كان مسلما أو يهوديا أو مسيحيا، التي تقدمها مصادر محاكم التفتيش. ومما لا شك فيه أن ما تزخر به هذه المصادر من معلومات يغطي نقصا كبيرا في مصادرنا المغربية التي قلما تنتبه إلى الفئات الشعبية وإلى ثقافتها.[2] ومن جهة أخرى، لا تقتصر إسهامات مصادر محاكم التفتيش على هذا الجانب، فهي تمد الباحث بمعلومات قيمة عن التجارة البرتغالية بالمغرب،[3] وعن ظاهرة ردة العلوج به وأوضاعهم داخل المجتمع المغربي، وعن أسباب نزوح آلاف المغاربة لأسباب قاهرة إلى البرتغال،[4] وظروف عيشهم هناك، وعلاقاتهم مع المجتمع المسيحي...

(1) Inq. Lix. proc. n° 8425, fol. 3r°

(2) أحمد بوشرب : محضر محاكمة امرأة مغربية، مصدر سابق.

(3) أحمد بوشرب : «محاضر محاكم التفتيش الدينية، مصدر من مصادر التجارية البرتغالية بالمغرب خلال القرن السادس عشر» المنشور بهذا الكتاب.

(4) أحمد بوشرب : "محضر محاكمة بحار برتغالي من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية..." المنشور أدناه

موارد المغاربة المقيمين بالبرتغال وظروف عيشهم خلال القرن السادس عشر*

انتزعت أحداث خطيرة شهدها المغرب خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر وبداية القرن اللاحق (غزو برتغالي، حروب أهلية، جفاف ومجاعات) آلاف المغاربة من بلدهم وألقت بهم بالبرتغال أو بالجزر التابعة له. وكان أولئك المغاربة، الذين سنحاول حصر أسباب التحاقهم بذلك البلد المسيحي، وتقدير أعدادهم وتتبع ظروف عيشهم، فئتين : عبيدا وأحرارا. وصادف دخولهم ذلك البلد مروره بظرفية اقتصادية صعبة؛ كما تزامن مع تزايد التعصب الديني والعرقي الذي بلغ أوجه بانشاء محاكم التفتيش الدينية سنة 1536 [1]، الأمر الذي أضاف إلى معاناتهم المادية مضايقات واستفزازات في كل لحظة، وذلك رغم إكراههم على التنصر والتنكر لعقيدتهم وهويتهم الدينية والثقافية. وسنعمل خلال هذا البحث على تتبع ظروف عيش أفراد تلك الجالية وانعكاس تلك الظروف على موقف أفرادها من البرتغال وسكانه. وسنعتمد في ذلك بالدرجة الأولى على محاضر محاكماتهم من قبل محاكم التفتيش الدينية.

لا يسمح المجال بتتبع أسباب ومراحل محاكمات أفراد الجالية المغربية من لدن محاكم التفتيش الدينية البرتغالية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن سلط تلك المحاكم لم تكن تشمل إلا المسيحيين، ولم يكن غيرهم يدخلون في اختصاصها إلا في حالات معينة، كامتناع المسلمين عن ارتداء الشارة الخاصة بهم، أو محاولتهم الفرار من البلاد، أو ارتكابهم لجريمة أخلاقية. كما تجدر الإشارة إلى أن تلك المحاكمات كثرت بشكل واضح بعد 1550، أي بعد أن انتهت تلك المحاكم من مطاردة "المسيحيين المحدثين" (اليهود المرتدين) الذين كانت ترى فيهم، نظرا لأعدادهم المهمة، ولوزنهم الاقتصادي

---

* نشرت بمجلة كلية الآداب، الرباط، ع. ، 1994، ص ص 87-103 والمقال عبارة عن مداخلة قدمت بالفرنسية خلال ندوة عقدت بتونس في موضوع :
Métiers, vie religieuse et problématiques d'histoire morisque. Zeghouan, Publications du Centre d'Etudes et de Recherches ottomanes, morisques, de Documentation d'information, 1990, pp. 51-60.

(1) A. BOUCHARB, **Les crypto-musulmans d'origine marocaine et la société portugaise au XVI siècle**. Thèse pour l'obtention d'un doctorat d'Etat soutenue le 31 Mars 1987, Montpellier.

والاجتماعي، الخطر الذي يهدد وحدة وعقيدة البلاد واستقرارها السياسي والاجتماعي[1]. ومثل المغاربة أمام المحققين بعد إقامة تجاوزت أحيانا ثلاثة عقود بالنسبة للذين أدخلوا كرها إلى البرتغال، وهم الأغلبية، بينما لم تتجاوز بضعة أشهر أحيانا بالنسبة للاجئين السياسيين أو من التحق بهم من ذويهم.

1 ـ ظروف تكون الجالية المغربية

من المعلوم أن البرتغاليين استطاعوا، خلال القرنين 15 و16، احتلال ثمانية ثغور مغربية، وأنهم اعتادوا، انطلاقا منها، تنظيم غارات خاطفة وفجائية قصد الحصول على الغنائم والأسرى. ومن المعلوم كذلك أن الإنسان المغربي كان يعتبر "سلعة" مهمة تهافت الغزاة عليها. وقد أحسن البرتغاليون استغلال ضعف السلطة الوطاسية، وانتشار الفوضى، وتناحر العصبيات، لتنظيم غارات لم تعد تقتصر على المناطق القريبة من الثغور، بل أصبحت تطال مناطق بعيدة. ولتعويض النقص الحاصل في عدد حاميات الثغور، اعتمد البرتغاليون على بعض القبائل الحليفة (mouros das pazes) التي كان يؤطرها عملاء كبار مثل يحيى أو تعفوفت بدكالة، ومالك بن داود بالسوس[2].

فقد نظم برتغاليو أصيلا، بمساندة حامية طنجة أحيانا، غارات استهدفت مناطق وزان وتطوان والقصر الكبير. وقدر باحث عدد الأسرى الذين استولى عليهم برتغاليو الحصن الأول من منطقة بني كرفط وحدها بخمسة آلاف شخص[3]. وكان ما حصل عليه البرتغاليون بالسهول الأطلسية خلال العقدين الأولين من القرن السادس عشر أكبر

---

(1) أنظر الفصل الذي خصصناه لموقف محاكم التفتيش الدينية البرتغالية من الجالية المغربية: Ahmed BOUCHARB, **Les crypto-musulmans**, op. cit. pp.471-544.

2) أحمد بوشرب، **دكالة**، م. س. ص. ص 221-215، 358-335.

D. Lopes, "Bentafuf, alcaide mouro ao serviço de Portugal", in :**Textos em aljamia portuguesa**, 2ème édit. Lisboa: Imprensa Nacional, 1940, pp. 107 et ss. **Sources Inédites de l'histoire du Maroc , Bibliothèques et archives de Portugal**,I etII; B. Rosenberger."Yahya U Ta'fuft (1506-1518): des ambitions déçues", **Hespéris-Tamuda**,vol. XXXI, 1993, pp.21-59.

R. Ricard, **les Portugais au Maroc de Damiáo de Gois, Extraits de la chronique du Roi D. Manuel de Portugal**, publ. Institut des Hautes Etudes Marocaines, T. XXXI, Rabat: Félix Moracho, 1937. Nous citerons cette oeuvre sous le nom de son auteur: de Góis

بكثير. فقد اعتادت حامية أزمور مباغتة دواوير الشاوية ومنطقة الرباط، بينما تجاوزت الغارات المنظمة من قبل حامية آسفي مدينة مراكش ووصلت منابع تانسيفت في الأطلس الكبير، ومشارف السوس(1)، وانتهت غارة نظمها برتغاليو آسفي ضد دواوير بمنطقة بدوزة سنة 1511 بأسر 567 شخص(2). وفي الشاوية وحدها، أسر البرتغاليون خلال سنتي 1518 -1519 ما يقارب ألفي شخص(3). وتحتفظ المصادر البرتغالية بأرقام مذهلة عن عدد الأسرى المغاربة الذين حملوا إلى البرتغال. وأحصينا بمؤلفي Damião de Góis و Luís de Sousa 9287 أسيرا. ومما لاشك فيه أن العدد الحقيقي أكبر بكثير لأن المؤلفين المذكورين لم يوردا الحصيلة الحقيقية إلا بالنسبة لإثنين وسبعين غارة، من مجموع 136 (حوالي 53٪). واستولى البرتغاليون إثر دخول بعض المدن المغربية عنوة على آلاف الأسرى، كما حصل بأصيلا التي استولوا بها على 5000 شخص(4)، أو بآسفي التي أسروا بها عددا كبيرا لم تحدده المصادر، وإن أشارت إلى اختطاف الكثير من السكان، ومن الوافدين على المدينة، ونقلهم إلى البرتغال أو إلى جزيرة ماديرا(5). واستولى البرتغاليون كذلك على مئات المغاربة في البحر، خصوصا بعد تزايد عملياتهم الجهادية ردا على العدوان البرتغالي(6).

وفضلا عن الغارات، اعتاد البرتغاليون اقتناص المغاربة العزل واختطاف من فوجئ منهم. وكان هذا العمل يمثل بالنسبة لأفراد الحامية موردا ماليا مهما، خصوصا حين تأخر وصول الرواتب والأجور. وقد وصلتنا إشارات إلى تلك الاختطافات التي قام بها جنود عاديون ومسؤولون كبار. فقد اعتقلت محكمة تفتيش لشبونة سنة 1556 حاكم طنجة السابق João Alvarez de Azevedo، لأسره وبيعه لعدد من المغاربة الذين كانوا

---

(1)- أحمد بوشرب، دكالة، م.س. ص ص 230-231.
D. Lopes, "Os Portugueses em Marrocos" in: **História de Portugal**, direct. D. Pires, Barcelos: Portucalense Editora, 1931, pp 385-544.

(2) أحمد بوشرب، دكالة، ص 224.

(3) نفسه، ص 227: 189 - 179 De Gois, op. cit.

(4) Rui de Pina, "Crónica de Dom Afonso V, In: **Crónicas de Rui de Pina**, Porto: Lello e Irmão Editores, coll. Tesouros da literatura e da História, 1977, D. Lopes, **História de Arzila durante o domínio português (1471-1550 e 1577-1589)** Coimbra: Imprensa da Universidade, 1924, p 50.

(5) **S.I.H.M. Portugal**, I.p, 111

(6)- أحمد بوشرب، "المغاربة والبحر خلال النصف الأول من القرن السادس عشر"، المنشور بهذا الكتاب

يلتحقون بالمدينة[1]. وأكد شهود الدفاع، الذين كان بعضهم من المسؤولين السابقين بالثغور المغربية، أن تلك الاختطافات كانت أمرا عاديا ومعمولا به بالمغرب، وأنها لم تكن تثير حفيظة أحد. كما بلغ بقبطان أزمور بدوره لدى الملك البرتغالي، واتهم بأسر وبيع من كان يقبل على المدينة[2].

واشترى البرتغاليون كذلك أعدادا كبيرة من الرجال والنساء. وكان المعروضون للبيع بالثغور إما عبيدا أصلا أو من أسرى الحروب بين القبائل والعصبيات المتناحرة، خصوصا بآسفي وأكادير حيث كان بيع العبيد يضمن للملك البرتغالي، عن طريق الضرائب، أهم الأرباح[3]. وكانت سوق النخاسة منظمة هناك، وكان الحاكم البرتغالي يتقاضى الخمس. وتؤكد وثائق محاكم التفتيش التي اعتمدناها في هذا البحث أن عددا كبيرا من المغاربة المقيمين بالبرتغال أدخلوا إلى ذلك البلد بعد شرائهم بالمغرب. فقد ذكرت مغربية مرتدة كانت تسمى Antona ROBOA للمحققين أنها «أدخلت إلى أزمور بعد اختطافها، وأنها بيعت هناك»، قبل أن تنتقل إلى مدينة Setúbal [4]. وبيع المغربي António VAZ بدوره بآسفي على يد مختطفيه[5]. وقد اغتنى بعض المغاربة من اختطاف إخوانهم وبيعهم للمسيحيين كما حدث ليعقوب بن الغربي المقيم بأزمور، والذي فر من تلك المدينة وترك بها ستة عشر مليون ريال برتغالي[6]. وقد ارتفعت المبيعات خلال مجاعة 1521 التي عرفت بدكالة والشاوية خطورة كبيرة، حتى إن الناس كانوا «يقبلون من تلقاء أنفسهم على المسيحيين مجردين من سلاحهم ليعرضوا عليهم أنفسهم ونساءهم وأطفالهم بثمن بخس؛ وكثير منهم كان يسلم نفسه بدون مقابل، ولمجرد تعهد المقتني بضمان القوت»[7]. وترك لنا الإخباريون البرتغاليون،

(1) Inquisição de lisboa, processo n°. 12572, fol. 8 r°., 22

(2) أحمد بوشرب، **دكالة**، ص 412. **S.I.H.M Portugal**, II, p 177, 1

(3) Ibid, II, pp 185-186.

(4) Inq. lix. proc.n° 6753, fol. 4 v°.

(5) Inq. lix. proc. n° 10857, fol. 3r°.

(6) **S.I.H.M. Port**. II , p 319

(7) R. Ricard, " Les Portugais et l'Afrique du Nord sous le règne de Jean III, (1521-1557), d'après la chronique de Francisco de Andrade", **Hespéris**, 1937, XXIV, 4ème trim., pp 259 et ss

Bernardo RODRIGUES [1] Damiáo de Góis[2] Luís de Sousa[3] معلومات دقيقة ـ سبق توظيفها في محل آخر[4] عن خطورة تلك المجاعة، وعن العدد الكبير من المغاربة الذين اشتراهم التجار البرتغاليون بآسفي، وبأزمور على الخصوص، قبل نقلهم إلى إسبانيا والبرتغال والجزر الأطلسية. وقدر بعض المؤرخين، اعتمادا على إشارات المصادر الإيبيرية، عدد أولئك المغاربة الذين أدخلوا الأندلس الإسبانية وحدها خلال سنة المجاعة بستين ألف شخص، ومجموع ما اقتناه الإسبان والبرتغاليون بمائة ألف شخص[5]. وتؤكد مصادر محاكم التفتيش البرتغالية التي اعتمدناها أن جل من أدخلوا البرتغال والجزر التابعة له جلبوا «سنة المجاعة التي حدثت بين المسلمين ونزح بسببها عدد كبير منهم إلى هذه المملكة»[6]. وتحدد بعض المحاضر الحدث ب «سنة المجاعة التي حدثت سنة ألف وخمسمائة وواحد وعشرين»[7]. وأدخلت أسر مغربية بأكملها إلى البرتغال. فقد نقلت Joãna CALDEIRA صحبة أمها وأخيها[8]، في حين حملت نفس السفينة Francisco DIAS وأخويه وأختيه[9]. ويخبرنا Damiáo de Góis بأن عددا كبيرا من الدكاليين الذين خافوا من الموت جوعا بسبب المجاعة المذكورة، استأذنوا الملك البرتغالي في عبور البحر للاستقرار بالبرتغال، الأمر الذي سمح لهم به[10].

(1) Bernardo Rodrigues, **Anais de Arzila**, pub. D. Lopes, Coimbra: Imprensa da Universidade, 1915, vol.I. p32

(2) D. De Góis, op. cit. pp. 228

(3) R. Ricard, **Les Portugais et l'Afrique du Nord, Extraits des "Annales de Jean III" de Luís de Sousa**. Pub. Institut Français au Portugal. Paris: 1940, p. 153. Nous citerons cette oeuvre sous le nom de son auteur: Luís de sousa.

(4) أحمد بوشرب، **دكالة**، ص 319

A. Boucharb, **Les Crypto-Musulmans**, pp 65-66; Bernard Rosenberger, H. Triki, "Famines et épidémies au Maroc aux XVI et XVIIè siècles "**Hespéris- Tamuda**, vol. XIV, fasc. Unique, 1973, pp 109.

(5) B. Rosenberger, H. Triki, article cité, p. 134

(6) Inq. Evora, proc. n°. 8203, fol. 6 v°. n°. 1258, fol. 2 r°.

(7) Inq. Lix. proc. n°. 3550, fol. 3 r°. n°. 1991, fol. 3

(8) Inq. Evora, proc. n°. 3038, fol. 2 v°. 3r°.

(9) Inq. Evora, proc. n°. 5174, fol. 1v.°

(10) D. de Góis, op. cit. p 228.

وانتقل إلى البرتغال عدد من المغاربة لا يمكن مع الأسف تحديده فرارا من العدالة المغربية إثر اقتراف إثم أو جريمة[1]، أو من بطش الحكام بعد نهاية الدولة الوطاسية، أو على إثر بعض التقلبات التي عرفتها الدولة السعدية[2].

2 ـ مهن المغاربة ومواردهم :

ويفهم مما سبق، أن المغاربة المقيمين بالبرتغال بعد 1521 كانوا كثيرين. وقد استقروا على الخصوص بالوسط والجنوب، وبلشبونة ويابرة والغرب البرتغالي (Algarve) على الخصوص، وأنهم كانوا فئتين: أحرارا وعبيدا. ولم يكن من السهل انعتاق الفئة الثانية، إلا أن حدوثه كان يطرح على المغربي مشاكل لم يكن يتوقعها. فقد كان عليه العثور، وفي أقرب وقت ممكن، على مسكن ومورد رزق. وواجه اللاجؤون السياسيون المغاربة (وطاسيون في المرحلة الأولى، وسعديون فيما بعد) هذا المشكل فور وصولهم، مع أنهم كانوا حديثي العهد بالبلد وسكانه، وكانوا لا يتوفرون على خبرة مهنية، ولم يكونوا متعودين على الحرف الشاقة. فقد اضطر بعضهم إلى قبول أعمال لم تكن تتلاءم ووضعيتهم بالمغرب. وهكذا اضطر القائد الوطاسي سيدي ناصر إلى العمل باسطبل والنوم به[3]. كما اضطر التطواني الذي سمي بعد تنصره بـ Manuel Pereira إلى مقايضة كرامته بفراش من التبن باسطبل[4].وعرف ابن أحد أعيان تطوان ظروفا أصعب. فبعد فراره من مسقط رأسه قصد الالتحاق بأبيه المقيم بلشبونة، وصل إلى الرأس الأخضر، وهناك اضطر إلى التنصر ليتمكن من الالتحاق بالبرتغال حيث كانت الفاقة في انتظاره، وحيث لم يعثر إلا بصعوبة، وبعد تدخل محسن برتغالي، على مشغل[5].

لذا مثل العثور على عمل فور الوصول إلى البرتغال الشغل الشاغل لأولئك الأجانب الذين كانوا يجهلون كل شيء عن البلاد وسكانها، وكانوا يجهلون لغتها. فقد كان هؤلاء يبادرون فور وصولهم إلى الاتصال بمن سبقهم إلى هناك لمعرفة ما تسمح به المدينة من فرص شغل. لقد اعترف مغربي أمام المحققين الذين اتهموه باستعمال اللغة

---

(1) A. Boucharb, **les crypto-musulmans**, op. cit. p 67

(2) Idem,pp. 68-70

(3) Inq.lix. proc.n° 7700, fol. 8r°.

(4) Inq.Lix. proc.n° 1617, fol. 2r°. 3v°.

(5) Inq.Lix.proc. n° 1114, fol. 12v°. 13r°.

العربية بعد تنصره ـ وقد كان ذلك جرما يعاقب عليه ـ أنه لم يفعل ذلك إلا مع الحديثي العهد بالبلاد، الذين كانوا يسألونه عن «سبل ضمان قوتهم بهذه البلاد»[1]. وأضاف أنه استعمل تلك اللغة «مع نازح مغربي وصل مؤخرا واستفسره في شأن الحصول على عمل»[2]. وقد أصبح هذا السائل، كغيره من أعيان الدولة الوطاسية، حمالا بسوق الحبوب بلشبونة وبمينائها.

وبصفتهم رحلا أو أعيانا سابقين، لم يكن المغاربة المقيمون بالبرتغال يتوفرون على كفاءة تسمح لهم باحتراف المهن اليدوية التي كانت آنذاك قليلة بالبلاد، وكانت تذر على أصحابها موارد مهمة[3]. لذا اكتفوا بأعمال شاقة ومؤقتة، لم تكن تسمح إلا بأجور زهيدة كما سنرى.

كان جل المغاربة الأحرار حمالين بالميناء، أو في سوق الحبوب بلشبونة وبالحواضر الكبرى كيابرة. ولم تعد الشبكة تغادر أكتافهم إلى حد أنهم جعلوا منها رمز إقامتهم بالبرتغال. فقد توصلت محكمة لشبونة بتبليغ ضد مغاربة أساؤوا التصرف مع بعض النازحين من أنصار الوطاسيين، واتهموهم بترك بلدهم من أجل ملء بطونهم، وأكدوا لهم أنه لا مفر لهم من تأبط الشبكة: "لماذا أتيتم من بلادكم؟، إذا كنتم ترغبون في تأبط الشبكة، فخذوها، فهي لكم"[4]. ومن خلال تبليغ آخر ضد سبعة مغاربة كانوا يقيمون بمدينة Tavira بجنوب البرتغال، نعلم أن ستة منهم كانوا حمالين، وأن السابع كان راعيا[5].

ولم يكن العمل بالميناء كافيا لوحده لارتباطه بالفصول وبوصول المراكب. لذا كان التنافس على أشده بين أفراد الجالية المغربية حول ما كان يعرض من فرص شغل. واعتاد المغاربة المقيمون بلشبونة ويابرة وستوبال الانتقال إلى جنوب البرتغال، إما خلال موسم صيد التون[6] الذي كان يضمن لهم شهرا من العمل، أو في موسم جني محاصيل الحبوب والفواكه التي كانت المنطقة تنتجها بكثرة[7]. وكان مغاربة هذه المنطقة الأخيرة ينتقلون بدورهم إلى جزر الأصور للحصاد ولمبادلة بعض المنتجات مقابل حبوبها[8].

---

(1) Inq. Lix. proc. n°13187, fol 5.

(2) Ibid, fol. 11

(3) G. Cerejeira, **O renascimento em Portugal, Clenardo e a sociedade portuguesa,**: Coimbra Editora, 1974, I, 258; A. Boucharb, **les crypto-musulmans**, 145 et ss

(4) Inq. lix. proc. n°. 1636, fol. 4v°.

(5) Inq. Evora, proc. n°. 9193, fol. 6r°..

(6) Inq. lix. proc. n°. 10849, fol. 10v°. n°. 708, fol. 3v°. etc...

(7) Inq. lix. proc. n°. 9512, fol. 18v°.

(8) Inq. lix. proc. n°.10857, fol. 10r°.

وبحكم أصولهم البدوية، وجه المغاربة للاعتناء بالدواب، وبالخيول على وجه الخصوص. فقد كان عدد كبير منهم يعمل بإسطبلات الملك وكبار الدولة. كما كان منهم من تخصص في إنتاج بعض اللوازم، "كالبرادع"(1). ووظف بعض المغاربة مدخراتهم في شراء بهائم خصصوها للكراء ونقل السلع داخل المدينة أو للربط بين مدينة وأخرى، أو بين البرتغال وإسبانيا(2). وعاش مغاربة آخرون من بيع الكلأ والحطب والقصب، أو الماء أو السردين(3).

واضطرت المغربيات كذلك إلى العمل ومواجهة حرف شاقة. فقد كانت أغلبيتهن تعيش من تنظيف الملابس بالأنهار والأودية، أو من عزل وتجفيف الأسماك بمينا ءي لشبونة وستوبال(4). ووصلتنا إشارات إلى عمل بعض المغربيات في أفران يبدو أنها لم تكن ملكا لهن(5). وكانت Catarina d'Eça، المغربية الوحيدة التي كان لها اختصاص معين، إذ كانت تصنع الزرابي(6). وكانت Briatiz Pires تدير حانة تبيع بها "الخمر ووالطعام "(7).

وكانت أعمال المغاربة صعبة ومرهقة، خصوصا وأن أغلبهم كانوا مسنين، وكانوا يعانون من سوء التغذية. فقد كان المسمى João Fernandes، حمالا رغم تجاوزه الستين سنة، و"كانت ضلوعه توجعه، وكان يشعر بعياء كبير بسبب الأكياس التي كان يحملها"(8). ومات مغربي تحت ثقل برميل كان يحمله، بينما توفي آخر تحت حزمة تبن(9). ولقيت مغربية حتفها بحي القنطرة، على ضفة نهر تاجه (Tejo) وهي تنظف ملابس مشغليها(10).

ورغم صعوبة تلك الأعمال، لم يكن المغاربة يحصلون إلا على أجور زهيدة. فقد

---

(1) Inq. lix. procn°. 6787, fol. 5v°. 5254, fol. 3r°. 12932, fol. 2r°. 10864, fol. 2r°;etc.

(2) Inq. lix. proc. n°.6471, fol. 3v°; n°. 12690, fol. 2 r°.; n°. 3590, fol. 6r°.

(3) Inq. lix. proc. n°.12689, fol. 5v°; n°. 10849, fol. 16v°.; n°. 4116, fol. 6v°. n°. 172, fol. 3r°. etc.

(4) Inq. lix. proc. n.3590, fol. 15v. ; 3191, fol. 8r.; n. 6762, fol. 7r.; n. 7693, fol. 3r. etc.

(5) Inq. lix. Livro das denúncias, vol. 2, fol. 44v°., proc. n°. 8423, fol. 51 r°. et

(6) Inq. lix. proc. n°. 9681, fol. 2r°.

(7) Inq. lix. proc. n°.12932, fol. 3°r. 6424, fol. 13r°.

(8) Inq. lix. proc. n°. 5488, fol. 13r°.

(9) Inq. lix. proc. n°. 6754, fol. 18r.°

(10) Inq. lix. proc. n°.9670, fol. n°. 8r°.

عبر أحدهم بحسرة عن العلاقة بين المجهود العضلي المبذول والأجر المحصل عليه بقوله : «إننا نقضي أيامنا بالميناء نكسر ضلوعنا بالتبن كالحمير، ومع ذلك فاننا لا نوفر في نهاية السنة لا ريالا ولا حتى سبتيا»[1]. وأكد آخر أنه وباقي المغاربة لم يعودوا يطيقون ظروف العيش الصعبة بالبرتغال، وأنهم «يقضون كل أيامهم في الكد والعمل الدؤوب، دون أن يتمكنوا من ضمان قوتهم»؛ وأنهم أجمعوا على أن خلاصهم يكمن في فرارهم إلى مسقط رأسهم[2]. وبرر الذين حاولوا الفرار بحرا فعلهم بقولهم : إنهم كانوا «متوجهين صوب بلاد المسلمين التي هي موطنهم الأصلي، لأنهم كانوا هنا يكدون بدون انقطاع ويموتون جوعا»[3]. ونفهم من محضر محاكمة مغربي كان يستفيد من معاش ملكي بصفته لاجئا سياسيا، وكان يبدره في الخمر، أن برتغاليا لامه على ذلك ونبهه إلى أن مواطنيه «الذين يوجدون في البرتغال منذ أن كانوا صغارا» لا يملكون شيئا، ولا يحصلون من عمل يوم كامل ولو حتى على عشرين ريالا[4].

وهكذا اضطر الزوج والزوجة إلى العمل خارج البيت لضمان قوت اليوم. فقد كان أحدهم حمالا وكانت زوجته تبيع الماء. وكان آخر في خدمة برتغالي في الوقت الذي كانت زوجته تبيع بعض المواد بالميناء، الخ. وبالرغم من تعاون الزوجين، كان المغاربة الأحرار يعيشون في فقر مدقع. فقد بررت مغربية أمام المحققين محاولتها الفرار من البرتغال بالفاقة التي كانت تعاني منها، «ولعدم رغبتها في أن تقضي عمرها هنا في غسل أثواب الآخرين، وأن تتحمل ظروف عيش قاسية»[5]. وقد وقفنا في بعض المحاضر على ما يفيد عجز المغاربة عن دفع أثمان الوجبات التي كانوا يتناولونها بالحانات والمطاعم، ومطالبتهم بآجال لتسديدها[6]. ونلمس كذلك فقر وفاقة الجالية المغربية من خلال جرد الأملاك والمتاع الذي كان ضباط المحكمة ينجزونه فور

---

(1) Inq. lix. proc. n°. 10864, fol. 11v°. ويعني بالسبتي عملة نحاسية سكها البرتغال بعد إحتلال سبتة.

(2) Ibid, fol. 6v°.

(3) Inq. lix. proc. n°. 10834, fol. 50v°.

(4) Inq. lix. proc. n°. 12626. fol.24 v°. -25 r.°

(5) Inq. lix. proc. n°.3590, fol. 15v°.

(6) Inq. lix. proc. n°.12932, fol. 28 v°. ;n° 260, fol. 4r°. etc

الاعتقال المتهم[1]. كما أن بعض محاضر المحاكمات تركت لنا صورة واضحة عن تلك الفاقة. فقد أكدت مغربية للمحققين أنها لا تملك شيئا، بينما نفت أخرى أن تكون قد اعتادت ارتداء قميص نظيف كل جمعة كما يفعل المسلمون، وأكدت أنها لا تملك غير الذي كانت ترتديه وقت محاكمتها[2]. وكان البعض عاجزا عن الحصول عن مورد رزق، مما اضطر معه إلى العيش من السرقة أو الاستجداء[3]. ويمكن أخذ فكرة عن معاناة المغاربة من خلال تتبع أوضاع اللاجئين السياسيين، وتعميم حالة الفاسي الذي أصبح يسمى João de SOUSA على أولئك الأشخاص المتعودين على الوفرة والعيش الرغيد. فقد وصل إلى لشبونة سنة 1554 صحبة صهره وأخي زوجته فرارا من السعديين الذين دخلوا فاس تلك السنة. واضطر كمرافقيه إلى التنصر للإقامة بالبرتغال والاستفادة من معاش كان الملك يخصصه لأمثاله. وفي مدينة شنترين، كان يعيش مما كان صهره يعطيه إياه. وبعد أن انتقل إلى لشبونة، اضطر بعد زواجه من بنت مغربي إلى تركها في بيت أهلها للإقامة في بيت صديق مغربي. وإشفاقا لحاله، تدخل لصالحه دكالي لدى الملك البرتغالي لجعله يستفيد من المعاش المذكور، الأمر الذي تمكن منه[4]. وكانت تلك المعاشات، التي تتراوح قيمتها اليومية بين ثلاثين وأربعين ريالا، غير كافية، وتتطلب عملا يوفر مدخولا إضافيا نظرا لغلاء المعيشة. لذا اضطر أحدهم إلى العمل كحمال، بينما التحق آخر بالبحرية البرتغالية مقابل راتب شهري وصل إلى 1200 ريال[5]. وفضلا عن ضعف قيمة تلك المعاشات، لم يكن دفعها منتظما، وكان التأخير يطول لعدة شهور، مما كان يضع المستفيدين منها في وضعية حرجة. ولإعطاء فكرة عن بطء الإدارة البرتغالية وثقلها، وانعكاسات ذلك على أشخاص كانوا متعودين على الوفرة وعلى الجاه، نورد معاناة المغربي الذي أصبح يعرف ب António de CARVAL-HO. فبعد أن فر من مراكش والتحق بمازيغن، أحسن الحاكم البرتغالي استقباله وخصه بوسام من درجة فارس قبل أن يشرف على تعميده وعلى إرساله إلى لشبونة ليطلب من الملك البرتغالي تخصيص معاش له. وبالفعل، عينه العاهل البرتغالي جنديا بنفس

---

(1) Inq. Evora, proc. n° 4432, fol. 22-23; 5336, fol. 20r°. ; Inq. lix. proc.n° 7695, fol. 24r°

(2) Inq. lix. proc. n°9278, fol. 13r°.

(3) Inq. lix. proc.n° 9232, fol; 4v°.; 4026, fol. 8r°. 10831, fol. 10r°.; inq. Evora proc. n° 8627, fol. 5v°., 13v°., etc...

(4) Inq. lix. proc. n°.12626, fol. 22r°.

(5) Inq. lix. proc. n°.10934, fol. 7v°.

الغاية، انتظر بالعاصمة البرتغالية سنة كاملة. لذا اعتقلته محكمة التفتيش، إثر فشل محاولة فرار إلى المغرب مع مجموعة من المغاربة الآخرين[1]. وعانى لاجئ مغربي آخر دخل البرتغال سنة 1550 من نفس البيروقراطية. وبرر برتغالي استدعاه دفاع مغربي اعتقل بسبب محاولته الفرار إلى المغرب، تلك المحاولة بالفاقة التي كان ذلك اللاجئ يعاني منها، وبعجزه عن صرف معاشه[2]. وعانى مغاربة آخرون من نفس الوضعية رغم اتصالاتهم بالملك وبكبار الدولة. فقد كان المسمى Manuel COUTINHO خلال شهر أبريل من سنة 1587 يشتكي من ضعف قيمة المعاش ومن تأخر صرفها، الأمر الذي كان يعرضه وذويه للفاقة، خصوصا وأنه لم يكن يتقن أية حرفة. فقد اعترف أمام المحققين بتفكيره في الفرار إلى المغرب «لكونه كان غريبا في هذه البلاد ولا يعرف بها وسيلة لكسب عيشه وضمان قوت زوجته وابنته، ولأنه لا يملك غير Tostão واحد ينعم عليه به صاحب الجلالة. وبما أنه لاحظ أنهم لم يدفعوا له أي شيء منذ شهر، ونظرا لقلقه على مصيره، ولعدم معرفته بحرفة ما، فقد صادف يوما Constantino de MENESES و Manuel da Cruz، وهما موريسكيان كذلك، لم يتوصلا بدورهما بمعاشهما، وكانا بدورهما قلقين، فاتفقوا جميعا على أنه في حالة العثور على وسيلة للعودة إلى بلاد البرابرة، فإنهم لن يترددوا في ذلك»[3].

وقد أشرنا إلى معاناة اللاجئين الذين دخلوا البرتغال من تلقاء أنفسهم، وفي حالة حرية، والذين كانوا يستفيدون من معاشات، لنؤكد من خلال ذلك على استحالة اندماجهم داخل المجتمع البرتغالي وارتباطهم بالبلاد. أما باقي المغاربة الذين أدخلوا كرها إلى البرتغال، فقد كانت دوافع تفكيرهم في مغادرته بكل الطرق والوسائل أكثر.

ونظرا لفقرهم، كان المغاربة يعانون من ظروف العيش القاسية التي كان البرتغاليون أنفسهم يعانون منها[4]. فقد كانت إحداهم تقتصر في غذائها على الخبز والزيت في حالة توفرهما[5]. وبالطبع لم يكن هذا النوع من الوجبات يتلاءم والمجهود المبذول يوميا من لدن أفراد تقدم العمر بجلهم. وكادت الوجبات المقدمة من لدن أفراد الجالية المغربية بمناسبة زفاف أو وفاة أن تمثل الفرص الوحيدة لأكل كثير من اللحم والكسكس[6].

---

(1) Inq. lix. proc. n°.10820, fol. 6r°.
(2) Inq. lix. proc. n°.6466, fol. 38v °
(3) Inq. lix. livros das visitaçóes; San Roque, fol. 23-24.
(4) A. Boucharb, **les crypto-musulmans**, op. cit. pp 145 et ss.
(5) Inq. lix. proc. n°. 6747, fol. 8r°
(6) توجد إشارات كثيرة إلى تلك الولائم بمحاضر محاكمات المغاربة، أنظر على سبيل المثال:
Inq. lix. proc. n°.7692, fol. 4-5; n°. 3184, fol. 5r°.; n°. 12689, fol. 2v°. ; Inq. Evora, proc. n°. 8582, fol. 7r°. etc.

وبالرغم من قلة مداخيل المغاربة، كان عليهم التوفير لأيام العطل أو المرض، أو لتحقيق مطمح الجميع : الفرار إلى المغرب. وقد وصلتنا إشارات إلى ما استطاع بعضهم ادخاره، إما نقدا أو ذهبا وفضة أو ما استثمروه في اقتناء بعض العقارات. فحين اعتقل المغربي المدعو João MOURISCO وجد موظفو المحكمة في حوزته 10000 ريال برتغالي، بينما عثروا على 30000 ريال في حوزة آخر[1]. كما ادخر مغربي ثالث 50000 ريال برتغالي[2]. واستثمرت Maria FERNANDES ما ادخرته في اقتناء بيت صغير بمدينة يابرة[3]. وبلغ ثمن البيت الذي اقتنته مغربية أخرى 10000 ريال[4]. واستثمر آخرون مدخراتهم في شراء الدواب التي سخروها للكراء أو في اقتناء بعض العبيد. فقد كانت مغربية تملك حين اعتقالها من لدن محكمة التفتيش عبدة كانت تنوي بيعها بـ 40000 ريال، وبغلة يبلغ ثمنها 10000 ريال[5]. وتخبرنا محاضر أخرى بامتلاك مغاربة لعبيد سود[6]. ونظرا لغلاء البغال وباقي الدواب، كان بعض المغاربة يدفعون ثمنها بالتقسيط. فقد كان أحدهم يدين، حين اعتقاله، بنصف ثمن البغل الذي كان يخصصه للكراء[7]. ويبدو أن جل المغاربة الأحرار المقيمين بالبرتغال كانوا يملكون شيئا ما. فقد ندبت مغربية لمواطنة لها حظها السيء، لأن باقي المغاربة امتلكوا الدار والعقار في حين أنها بقيت تعاني من الفاقة[8].

غير أن ما سبقت الإشارة إليه من مدخرات وممتلكات لا يعكس مستوى عيش لائق، بل على العكس من ذلك، يمكن الجزم بأن ما تم اقتناؤه كان بعد تقشف كبير. فقد كانت المغربية Brytiz VIEYRA تعتبر ذات مال من لدن مواطنيها، ومع ذلك «كانت دائما وسخة ومليئة بالوحل، وكانت لا تشتري بالسوق إلا خبز النخالة لتقدمه

---

(1) Inq. lix. proc. n°.9884, fol. 14r°.

(2) Inq. lix. proc. n°.8493, fol . 2v°.

(3) Inq. Evora. proc. n°.4432, fol. 23r°.

(4) Inq. lix. proc. n°.10839, fol. 5v°.

(5) Inq. Evora. proc. n° 5336, fol. 20r°..

(6) Inq. lix. proc. n°.1117, fol 3v°.; n°. 10817, fol. 37 v°. ; **Livro das denúncias**, IV, fol. 128v°.

(7) Inq. Evora. proc. n°.8110, fol. 2r.°

(8) Inq. lix. proc. n° .6762, fol. 12r°.

لزوجها »[1]. وكان حمال مغربي بميناء (سْتُوبَالْ) يملك منزلا صغيرا، ووجد موظفو المحكمة في حوزته 1700 ريال، بينما كان يعتبر نفسه "رجلا فقيرا"[2]. إلا أن الحظ ابتسم لبعض المغاربة. فقد كان مغربي مقيم بيابرة يقرض مواطنيه مبالغ مهمة قصد مساعدتهم على افتداء أنفسهم واستعادة حريتهم[3]. وكان آخر يملك بمدينة Oliv-ença بيتين قيمة كل واحد منهما 100000ريال، وبستانا بقيمة 70000 ريال[4]. وصرح آخر أمام المحققين بأنه يحمد الله على نعمه لأنه أصبح يملك "بيتا وبستان عنب وزيتون"[5]. إلا أن الشاوي الذي أصبح يسمى António Alberto عرف أحسن ترقية اجتماعية على الإطلاق. فبعد افتداء نفسه مقابل مبلغ مالي، افتتح حانة لبيع الخمر والطعام وكراء الأسرة. وسرعان ما اهتم بالمضاربات وشراء غلات كروم شخصيات كبرى. كما أصبح يقرض منتجي العنب قبل وقت الجني، وكان يسترجع أمواله من خلال كمية معينة من الخمر. وكانت المبالغ المقدمة للمزارعين وقت اعتقاله مهمة. فقد اضطر أحد مدينيه إلى التنازل له عن ضيعته. وبعد أن اعتقلته محكمة التفتيش بلشبونة لمحاولته الفرار رفقة مغاربة آخرين إلى مسقط رأسه، طلب من القضاة العفو والمغفرة والتمس إطلاق سراحه «في أقرب الآجال» لكون متاعه مشتتا «في كل مكان، ولكي يتمكن من جمعه وتفادي ضياعه». وكان ما يملكه هذا المغربي نقدا مهما. فقد استطاع كراء بيت بـ 14000 ريال، وشراء 40 برميل خمر، وكراء بستان كروم بـ 15000 ريال. وكان المزارعون يدينون له ب 70000 ريال توصلوا بها كقرض أو أداء مسبق عن المحصول المقبل. كما كان ينوي اقتناء بيت بلشبونة بأكثر من 300000 ريال. وللتأثير على المحققين، ولنفي نيته في الفرار، صرح : "بأنه لا يمكنه الذهاب إلى مكان آخر، طالما أن الإله خصه بكل هذا الفضل بهذه الأرض". إلا أنه، وبالرغم من الثروة التي جمعها، اعتقل بسبب إعداده للفرار بحرا رفقة البحار الملقب ب (الألكن) الذي اعتقل بدوره[6]. وكانت الحجج ضامغة، الأمر الذي يؤكد أن الأوضاع المادية لم تكن لوحدها كافية لضمان اندماج المغاربة في المجتمع البرتغالي والتملص من هويتهم الثقافية وارتباطهم بوطنهم.

لقد كانت غالبية الجالية المغربية تجد صعوبة كبرى في ضمان قوتها اليومي،

(1) Inq. lix. proc. n°7693, fol., 3v°.
(2) Inq. lix. proc. n°. 7590, fol; 13-14.
(3) Inq. Evora, proc. n°. 8582, fol. 11r°., 20v°.
(4) Inq. Evora, proc. n°. 9823, fol. 16v°.
(5) Inq. lix. proc. n°. 7457, fol. 3v.°
(6) Inq. lix. proc. n°. 10837, fol. 2 et ss.

وكان الصراع بينهم من أجل لقمة العيش حادا. وكان التنافس حول الشغل من أهم أسباب الخلاف بينهم. فقد كان المدعو António FERNANDES حين اعتقاله على خلاف حاد مع حمال مغربي آخر، كان ينعته باللص والسكير. وكان سبب الخلاف تنافسهما حول شراء التبن الذي يدخل ميناء لشبونة. وقد أكد عدد من الشهود للمحققين أنهم شاهدوهما عدة مرات يتشاجران أو على وشك تبادل اللكمات[1]. وأخبر مغربي آخر المحكمة بعلاقاته السيئة مع أحد مواطنيه بقوله : "كنا نتخاصم ونتشاجر بسبب التبن والمراكب، وحول من يدخل قبل الآخر المراكب المحملة بالتبن، وكذا بسبب أشياء أخرى يختلف بشأنها الموريسكيون كل يوم قبل أن يتصالحوا ويعودوا للأكل والشرب مع بعضهم البعض»[2].

وتدل الشهادة السابقة على أن التنافس حول الشغل، و العياء والمعاناة من مختلف مضايقات المجتمع المسيحي، وإحداث محاكم التفتيش، كانت من أهم أسباب خلاف أفراد الجالية المغربية وتناحرهم. فقد وصلتنا إشارات كثيرة إلى تجاشر مغاربة «حول الكسب بالميناء» أو حول الحطب وموارد عيش أخرى[3]. فقد كان مكترو البهائم في تنافس وتحاسد مستمرين[4]. فقد بلغ إلى علم المحققين أن ثلاثة مغاربة كانوا "كالفأر مع القط، وذلك بسبب تنافسهم المستمر حول شراء التبن"[5]. وتشاجر اثنان منهم مرة فبتر أصبع أحدهما، الأمر الذي جعله يرفع دعوى أمام القضاء[6]. وكان التنافس بشأن الشغل بين المغربيات حادا كذلك[7].

3ـ إنعكاس ظروف العيش على موقف المغاربة من البرتغال وسكانه

وبالطبع انعكست ظروف العيش القاسية للجالية المغربية على موقفها من

(1) Inq. lix. proc. n°. 12720, fol. 31-32

(2) Inq. lix. proc. n° 2570, fol. 3-4r°.

(3) Inq. lix. proc. n° 708, fol. 16r°.; 1104, fol, 10v°.

(4) Inq. lix. proc. n° 6471, fol. 6 r.°

(5) Inq. lix. proc. n° 10864, fol. 2r°.

(6) Inq. lix. proc. n°10864, fol. 2r°.; 1636, fol. 33r°.

(7) Inq. lix. proc.n° 6762, fol. 8r°.; Evora, proc.n° 9470, fol. 8r.°

البرتغال. فقد كان اندماج أولئك الغرباء وانصهارهم داخل المجتمع البرتغالي رهينين بشرطين اثنين: ظروف العيش التي يوفرها ذلك البلد، ونوع العلاقات التي تربطهم بسكانه. وإذ يتعذر علينا في هذه العجالة أن نعود إلى مختلف مظاهر عداء المجتمع المسيحي لكل الأقليات التي كانت تعيش ضمنه، فإنه يمكننا، على ضوء ما سبقت الإشارة إليه، الجزم بأن الشروط المادية لذلك الاندماج لم تكن متوفرة. فقد عبرت المغربية Catarina do Couto عن ظروف عيشها بالبرتغال بقولها : «إنها كانت في هذا البلد لا تتوقف عن العمل، وكانت تعاني من ضوضائه، وأنها أصبحت لذلك تفكر في بيع متاعها ومغادرته، لأنه لا يستطيع أي أحد تحمل ظروف العيش بلشبونة"[1]. لقد كان البرتغال الذي لم «يكن الجوع يبارحه»، «وحيث كانت ورقتان من العشب تباعان بريالين»[2]، يفرض على الأجانب المقيمين به، سواء كانوا عبيدا أو أحرارا، ظروف عيش لا تطاق. وقد استنتج بعض المغاربة بعد إقامة جد قصيرة بالبرتغال بأنه يتعذر المقام به لأسباب اقتصادية واجتماعية. فقد نصح المسمى António de Abreu قريبا له وصل إلى لشبونة بالعودة إلى وطنه وعدم تنصره لتفادي المصير المأساوي الذي يعانيه من سبقه من المغاربة[3]. وحينما علم مغربيان، واحد مسلم وآخر يهودي، أن أحد مواطنيهما ينوي التنصر ليتمكن من الإقامة بالبرتغال الذي التحق به منذ مدة قصيرة، خاطباه بقولهما : «لقد أتيت إلى هنا لتتنصر، وسمعت أن هذه الأرض تشبه أرض المسلمين، في حين أنه حينما يلتحق بها مسيحي ليسلم يعطوه الخيل ويخصوه بالمعاش، هذا فضلا عن أن البلاد شاسعة ورخيصة، أما هنا، فستموت جوعا وسيقطعون أذنيك وسيجلدونك. لماذا تركت بلدك؟ إن أرضك ودينك أفضل بكثير من أرض ودين المسيحيين»[4].

ولم يكن المغربي António FERNANDES ، الذي كان حرا، وكان يبيع التبن بميناء لشبونة، يرى إلا نهاية واحدة لكل من يصل إلى البرتغال : الموت جوعا[5]. وبما أن المغاربة قد عجزوا عن ضمان مستوى عيش محترم، فإنهم خلصوا إلى هذه النتيجة : «إن هذه البلاد فقيرة، تلزمهم بأن يكدوا بدون توقف، وأنهم وإن فعلوا ذلك لا

(1) Inq. lix. proc. n°3184, fol. 17v°. 18r°.
(2) Inq. lix. proc. n° 5086, fol. 21r°., 22r°.
(3) Inq. lix. proc.n° 10817, fol. 4v°.
(4) Inq. lix. livro das denúncias, III, fol. 16v°.
(5) Inq. lix. proc. n°1636, fol. 4v°.

يجدون ما يقتاتون به، وأن عليهم أن يغادروها »[1] للعودة إلى مسقط رأسهم.

لقد أصبح البرتغال بالنسبة للأغلبية منهم، إن لم نقل بالنسبة لهم جميعا، بلد الحرمان والجوع وسوء المعاملة[2]. فقد أطلع João Lourenço زوجته المغربية ليلة زفافهما على عزمه على الفرار من البرتغال والعودة إلى بلده، ورغبته في أخذها معه، وبرر رغبته تلك بظروف العيش الجيدة التي يوفرها المغرب «حيث ستتحسن أحوالهما.. لكونه بلد الرخاء والأثمان البخسة، كما أنه لا يرغب في قضاء عمره في حمل الأثقال بسوق الحبوب» [3]. لذا خيم شعور من اليأس على كل المغاربة، عبيدا كانوا أم أحرارا. لم يكن المغربون يرون في البرتغال بلدا يشجع على الإقامة والاستقرار النهائي حتى بالنسبة لمن دخلوا إليه من تلقاء أنفسهم وبدون إكراه. فبما أن رفيق مغربي بالزنزانة، وكان بدوره من أصل إسلامي وإن لم يكن مغربيا، عبر عن أمله في أن يطلق المحققون سراحه بسرعة ليتزوج ويستقر بالبلاد، فان المغربي «تمنى لو أن الله لا يمكنه أبدا من الزواج والإنجاب بالبرتغال»[4] ليسهل عليه بالطبع الفرار والعودة إلى وطنه. وقد وقفنا من خلال محاضر محاكمات مسلمين آخرين من بلدان أخرى، فرض عليهم بدورهم التنصر واعتناق المسيحية، على خيبة أمل مماثلة، وعلى رغبتهم في الفرار من البرتغال والالتحاق ببلد إسلامي، وبالمغرب على وجه الخصوص، نظرا لقربه وسهولة الوصول إليه بحرا. لذا كانت المحاكمات التي تمت بمحكمة لشبونة بسبب فشل محاولات الفرار تفوق من ناحية العدد تلك التي تمت لأسباب دينية محضة [5].

---

(1) Inq. lix. proc. n°10854, fol. 10r°.

(2) Inq. lix. proc.n° 6440, fol. 2r.; 9519, fol. 7r°.

(3) Inq. lix. proc. n°. 1636, fol. 37r°.

(4) Inq. lix. proc. n°. 1669, fol. 27.

(5) أنظر الفصل الذي خصصناه لمراحل محاكمة الجالية المغربية المقيمة بالبرتغال ومختلف التهم الموجهة لها من لدن المحققين:

A. Boucharb, **les crypto-musulmans**, op. cit. pp.471-544

النتائج السوسيوثقافية للغزو البرتغالي لسواحل المغرب *

من المعلوم أن المغرب تعرض لغزو برتغالي انطلق باحتلال سبتة سنة 1415 وإسباني باحتلال مليلية سنة 1497. ولا يجادل أحد في خطورة ذلك الغزو بالنسبة لتطور بلادنا اللاحق، وفي كونه سبب أزمات سياسية واقتصادية وديموغرافية عميقة، وأحدث هزات عنيفة داخل المجتمع المغربي، وخلق بلبلة في الافكار والمعتقدات. ومما يؤكد خطورة تلك المخلفات أن بعضها بقي قائما إلى يومنا هذا، وذلك رغم انتصار معركة وادي المخازن، ورغم القرون الطويلة التي تلتها.

وهكذا تصبح دراسة تلك النتائج ضرورية لفهم ذلك التطور الشاذ الذي عرفه المغرب بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر. غير أن النتائج الفكرية تمثل في رأينا أحسن معبر عن ذلك التطور. فاستمرار ظواهر اجتماعية ومواقف ذهنية أفرزتها المخلفات السابقة الذكر، وانتشارها على مدى واسع خلال القرون اللاحقة، يؤكدان تعميق، أو على الأقل استمرارية، نفس الأسباب.

لقد نتج عن انتشار الفوضى بسبب ضعف السلطة المركزية والحروب بين القبائل، وبسبب الغارات البرتغالية والإسبانية وردود الفعل المغربية التي تولدت عنها، وكذا عن تفشي المجاعات والأوبئة التي عرفت كما سنرى حدة لم تعرفها من قبل، سقوط المغرب في أزمة عامة وحادة جعلت المغاربة يشعرون بعدم الاطمئنان على أنفسهم وذويهم وممتلكاتهم. لذا أضحى الخوف اليومي من الموت أهم مشكل يواجه المغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر على الأقل، الأمر الذي تولدت عنه أزمة ضمير حادة تجلت بشكل واضح في التفسير الذي أعطاه المغربي لمشاكل عصره، وفي المواقف الذهنية التي وقفها منها، وأخيرا في الحلول التي تصورها لتجاوزها، أو على الأقل للتخفيف من حدتها.

---

* نشر بمجلة كلية الآداب، فاس، عدد خاص بشعبة التاريخ، 1985 ص ص 97-67، وهو فصل من دراستنا: **المغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر** ،منشورات كلية الآداب، الرباط-1996

واذا كانت تلك التفسيرات والمواقف والحلول هي ما سيؤكد عل يه البحث، فلا بأس من توضيح جانب منهجي أساسي بالنسبة لنا. قد يقال إن بعض الظواهر الاجتماعية والمواقف الذهنية التي سنحللها تعود إلى مراحل سابقة، وأنها غير مرتبطة ارتباطا مباشرا بنتائج الغزو الإيبيري والأزمة العامة التي تولدت عنه. إلا أنه، وإن سلمنا بصحة ذلك بالنسبة لبعض الظواهر فقط، يمكننا الجزم ببقائها آنذاك على شكل هامشي لم يثر انتباه المعاصرين، وبأنها لم تعرف انتشارا واسعا ومثيرا للانتباه إلا من خلال مرحلة دراستنا. ولا شك في أن ظاهرة الانتشار هذه لها دلالة أعمق من ظاهرة البروز والبقاء المهمش لقرون طويلة. ويكفي أن نشير هنا إلى أن الناصري تنبه إلى العلاقة بين تلك الأزمات الحادة وأزمة الضمير المغربي التي سنعود لتحليلها، وذلك حينما كتب: «... واعلم أنه كان في صدر هذه المائة العاشرة أمور عظام **منها ظهور الفرنج بالديار المغربية واستيلاؤهم على ثغورها** بما لم يعهد مثله قبل ذلك لاسيما البرتقال والأصبنيول(...)، **ومنها ظهور الأولياء وأهل الصلاح من الملامتية وأرباب الاحوال والجذب**، في بلاد الشرق والغرب، لكنه انفتح به للمتسورين على النسبة وأهل الدعوى باب متسع الخرق، متعسر الرتق، فاختلط المرعى بالهبل، وادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل، وصعب على جل الناس التمييز»(1)

ولعل ما أفرزه العصر السعدي من انتاج فكري يمثل خير معبر عما نقول. فالمواضيع التي شغلت بال جل المثقفين، والشكل الذي أعطوه لمؤلفاتهم، والمضامين التي حملتها، تؤكد سيطرة سمات وخصائص بقيت خلال المراحل السابقة هامشية. إن المتتبع لخصائص الإنتاج الفكري الذي عرفه المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر يقف بدون شك على خصائص ميزته بشكل واضح عما عرفه خلال المراحل السابقة. ويمكن ذكر ثلاثة منها أساسية في رأيي:

1) من ناحية الكم، لا يجادل أحد في كون المرحلة التي تهمنا عرفت انتعاشا مهما بالمقارنة مع المرحلة الأخيرة من عهد بني مرين، وخلال عهد الوطاسيين (2).

(1) أحمد بن خالد الناصري: **الاستقصا**. ج 4 ص 163 (ط. البيضاء).

(2) راجع محمد حجي: **الحركة الفكرية في عهد السعديين**، فضالة 1977، جزءان

-Mohamed Benchekroun: **La vie intellectuelle sous les Mérinides et les Wattasides**. Rabat, 1974.

2) أصبحت الثقافة المغربية المكتوبة على عهد السعديين تعرف ازدواجية ظهرت بشكل واضح ومتميز لاول مرة، وذلك بعد أن عاد الاعتبار إلى الثقافة الشعبية التي لم تكن تحظى من المثقفين خلال المراحل السابقة إلا بالسخرية والازدراء. لقد أصبحت ثقافتنا خلال «العصور الحديثة» تعرف تيارين متباينين :

أ - تيارا كلاسيكيا مرتبطا بالماضي، منهجه النقل واتخاذ العبرة - منهجا ومضمونا - من السلف الصالح. وهو يعبر عن اهتمامات ومشاغل فقهاء المدن وعلمائها الذين كانوا مرتبطين بالبلاط.

ب - تيارا يمكن تسميته «بالتيار الشعبي» لكونه يسلط الأضواء على عامة الشعب ومشاغلها واهتماماتها وعقليتها، وذلك من خلال كتب التراجم ومناقب الأولياء والمتصوفة، وأحيانا كتب النوازل. حقيقة أن هذا النوع الأخير من الإنتاج الفكري عرفته المراحل السابقة، إلا أنه بقي آنذاك نشاطا هامشيا لا يثير الاهتمام، ولم يعرف ذلك الازدهار المثير للانتباه إلا في المرحلة التي تهمنا.

3) إن التيارين معا يفصحان عن أزمة ضمير حادة تتجلى في خوف المغربي من المستقبل، وفي عدم اطمئنانه على مصيره، وعدم رضاه على زمانه وعصره، وفي حرصه على الهروب منه وتجاهله بمواقف مختلفة أذكر منها الآن اثنين مرتبطين بالتمييز الطبقي السابق الذكر :

أ - إما تمجيد الماضي على حساب الحاضر؛

ب - أو تناسي الواقع المر والمخجل في نفس الوقت بمواقف ذهنية سأعود إلى تحليلها وإبراز مدى انتشارها.

وهذه المواقف جميعها تشهد على تخبط المغربي في أزمة ضمير مست خاصة المجتمع وعامته. ولفهم حدة تلك الأزمة والحلول التي اقترحت لتجاوزها، لابد من تحديد أسبابها وأهم مظاهرها، ذلك أن تلك الأسباب ساهمت مساهمة كبرى في تحديد الشخصية الثقافية المغربية، والمآل المأساوي الذي آل إليه أحيانا ممثلوها كما يتجلى ذلك من خلال مثالين يقدمهما لنا عبد الرحمن المجذوب وابن عسكر الشفشاوني. فالأول يمثل نموذج الرجل الذي انعكست عليه أحداث العصر (الغزو البرتغالي لتيط،

مسقط رأسه (1514)، مجاعة 1521 التي عانى منها كثيرا... الخ) والذي اتخذ منها موقفا تجلى في يأسه الكبير وشؤمه وعدم ثقته في عصره ومعاصريه؛ أما الثاني فيمثل نموذج الفقيه الذي كرس حياته لتخليد كرامات الأولياء والفقهاء وحماة البلاد والعباد ضد الغزاة الإيبيرين، في حين أن قدره شاء أن يموت إلى جانبهم في معركة وادي المخازن.

أـ أزمة ضمير المغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر

1) أسبابها :

لعل أهم ما أصبح يميز المغربي في مطلع القرن السادس عشر هو شعوره الحاد والدائم بالخوف على نفسه وذويه وأملاكه، وذلك لتداخل طغيان الإنسان والطبيعة خلال تلك الفترة :

أ ـ معاناة المغربي من طغيان الإنسان سواء كان مغربيا أو مسيحيا.

لا يتسع المجال لعرض أسباب ودوافع اعتداء الإيبيريين على سواحلنا، والمراحل التي مر بها. وبما أن الغزو الإسباني بقي هامشيا بالمغرب، وأن تأثير الغزو البرتغالي كان أهم بكثير، فسأشير بسرعة لهذا الاخير.

انطلق الغزو البرتغالي سنة 1415 باحتلال مدينة سبتة، وتوقف سنة 1515 بفاجعة المعمورة، ودخل البرتغاليون بعد هذه الهزيمة في ركود كبير إلى أن اضطروا إلى التراجع عن جل الثغور التي كانت بأيديهم، وذلك قبل أن تسحق جيوشهم في معركة وادي المخازن. واستطاع البرتغاليون بين 1415 و 1515 اغلاق جل موانئ المغرب في مرحلتين متميزتين جغرافيا وزمنيا، ومن ناحية الأهداف المتوخاة منهما، والوسائل المسخرة[1]. وانطلاقا من الثغور التي احتلوها، شرع البرتغاليون في انتهاج سياسة الأرض المحروقة، وذلك قصد الحصول على الغنائم والأسرى، وإكراه المغاربة على الرضوخ لمشيئتهم وأداء الضرائب لهم، وتزويد الثغور بما كانت في حاجة إليه من مواد الاستهلاك اليومي.

---

(1) راجع دراستنا : **دكالة والاستعمار البرتغالي الى سنة اخلاء آسفي وازمور**، البيضاء 1984 ص ص 147 ـ 165 وصص 377 ـ 428.

ولم تقتصر تلك الغارات على المناطق الساحلية فقط، بل شملت مناطق داخلية. فلقد عرض برتغاليو أصيلا وطنجة ضواحي أزجن (وزان) وجبل الحبيب لعدة غارات خاطفة، في حين وصلت غارات برتغاليي آسفي إلى منطقة السراغنة الحالية، وإلى منابع تانسيفت وحاحة. وتعدت غارات برتغاليي أزمور مدينة الرباط. وكانت تلك الغارات تعتمد على عنصر المفاجأة وتمتاز بوحشية كبيرة. وفضلا عما يحصل البرتغاليون عليه من حبوب وأفرشة، كانوا يعودون بمآت الأسرى والآلاف من رؤوس الأبقار والأغنام والجمال. فلقد استطاع برتغاليو أزمور أسر ألفين من سكان الشاوية إثر الغارات التي استهدفت تلك المنطقة خلال سنتي 1518-1519 وانتهت غارة ضد قبيلة أولاد أحمد، التي كانت بالحوز، بأسر خمسمائة شخص[1]. وكانت خطورة تلك الغارات تكمن في كون سطوة البرتغاليين ارتبطت بعجز المغاربة عن الرد على ذلك التحدي المسيحي لضعف السلطة المركزية آنذاك، ولمساهمة قبائل بأكملها في الحروب إلى جانب النصارى، ولاعتماد هؤلاء على عدد من الخونة كانوا يؤطرون القبائل الحليفة كيحيى أو تعفوفت أو مالك بن داود وغيرهما، أو يطلعون الغزاة على نقط ضعف المغاربة ويقودونهم إلى دواويرهم لنهبها وأسر سكانها. وسنرى الوقع الذي تركته تلك الحروب في نفوس المغاربة، والتفسير الذي أعطي لغلبة النصارى وللإهانات التي لحقت بالمغاربة المسلمين. ولم يعان المغاربة من الغارات البرتغالية وحدها، بل عانوا كذلك من "الحركات" التي قادها الحكام، وخصوصا الوطاسيون ضدهم. ويتعلق الأمر هنا على الخصوص بقبائل السهول الغربية التي تعاملت مع المستعمر البرتغالي.

ومعلوم أن مقاومة البرتغاليين لم تحظ باهتمام كبير من لدن المرينيين أولا، والوطاسيين ثانيا. ويعود هذا التجاهل إلى كثرة مشاغل حكام فاس وقلة إمكاناتهم، ولم يكن السلاطين يحصلون على نتائج ملموسة كلما اضطروا إلى التحرك، وذلك لمناعة التحصينات التي شيدها البرتغاليون، ولكثرة مدافعهم، ولافتقار المغاربة إلى جيش رسمي، وإلى أسطول يحول دون توصل الثغور المحاصرة بالامدادات، وكذا إلى

(1) لاخذ فكرة عن هذه الغنائم وعن أعداد الأسرى، راجع الجدول المتعلق بالغارات البرتغالية بدكالة والمناطق المجاورة: **دكالة والاستعمار** ... مرجع سابق ص 224 228.

مصلحة تموين تسمح بحصار طويل. لذا كان الوطاسيون، والسعديون في بداية أمرهم، يكتفون بنسف محاصيل البرتغاليين وأسر من فوجئ منهم خارج الاسوار. ولهذا كانت ردود الفعل الوطاسية عبارة عن "حركات" لا تدوم طويلا، ولا تبحث عن تحرير الثغور بقدر ما كانت تعمل على الحيلولة دون نشر البرتغاليين لنفوذهم بالداخل، وحرمانهم من المنتجات المحلية للرفع من مصاريف الدولة البرتغالية بالثغور المحتلة. لذا تمت جل الحركات خلال فصل الصيف، لمنع القبائل الخاضعة من دفع الضرائب وبيع الحبوب للغزاة. ولتحقيق هذا الهدف، أصبحوا يعملون على إفقار القبائل الخاضعة للنصارى، كما فعلوا بدكالة خلال السنوات 1514، 1515، 1517، 1518، وذلك بتخريب أراضيها ومنعها من القيام بنشاطها الزراعي. وكان هذا الموقف الذي اتخذه المسؤولون المغاربة وليد تقويم سياسي خاطئ. فلقد اعتقدوا أن سطوة البرتغاليين تعود إلى تعامل بعض القبائل معهم، لذا سارعوا إلى معاقبتها على خضوعها لهم وتعاملها معهم، وذلك دون توفير شروط الصمود والمقاومة لها.

وبما أن القبائل المهددة بشبح الغارات كانت عاجزة عن تحقيق رغبة السلطان الوطاسي، فان هذا الأخير ألح عليها بالغارات، وعمل على افقارها، الأمر الذي جعل تلك القبائل تخاف كثيرا تحركه نحو مناطقها كما لو كان الأمر يتعلق بقوة عدوة؛ مما جعل القبائل المغربية بين نارين، كلما مالت إلى جهة، عاقبتها الجهة الأخرى على ذلك.

يفهم من هذا إذن أن أكبر مشكل أصبح المغربي يعاني منه هو انعدام الأمن، وخوفه باستمرار من التعرض لغارة إما برتغالية أو مغربية تنتهي بأسره وإهانته والاستيلاء على ممتلكاته. ويتجلى الخوف الذي استحوذ على المغاربة باستمرار بسبب طغيان الإنسان، سواء كان مغربيا أو برتغاليا، في المثالين التاليين :

- لقد ذكر الإخباري البرتغالي رودريغش(B.Rodriguês) الذي عاش بأصيلا ودوّن أخبار برتغاليها، أن سكان الهبط أصبحوا بسبب خوفهم من الغارات البرتغالية، يقومون بدرس محاصيلهم وهم على ظهور جيادهم تأهبا للفرار[1]. ولم يكن الخوف من البرتغاليين ينحصر في هذا الباب، بل كان المغربي معرضا للقنص من طرف البرتغاليين المتهافتين على أسر المغاربة إما بعد دخولهم إلى أسواق المدن

(1) Bernardo Rodrigues: **Anais de Arzila**; Lisbonne, 1915,II p., 64. -

المحتلة، أو بسبب «قناصة» مختصين (حناشة في مصادرنا المغربية) يختطفون المغاربة العزل[1].

-أصبح تحرك الوطاسي نحو سهل دكالة يمثل شبحا مخيفا بالنسبة للقبائل التي أضحت تعمل كل ما في وسعها لمنعه من ذلك، وكانت مستعدة لأداء الثمن غاليا[2]. وتعبر رسالة بعث بها أحد الدكاليين إلى شيوخ عبدة في يونيو 1517 لإشعارهم بدخول السلطان إلى المنطقة عن خوف القبائل الكبير من الحركات الوطاسية« ...اسلام عليكم، السلطان جا ، اهربوا لَشْرِيفْ، وكل ما شدكم فيه أعْطُولِهْ، لا تْفَرْطُو فِيهْ، لا تْفَرْطُو فِيهْ، والسَّلَامْ، أكان ما قْبَلْ عليكم الشْرِيفْ اهربُوا للمُلَى النْصَرْ، مُلَى مراكش، أكان اعْطَوْا الناس الخيل اعْطُوا اللاولاد ، أكان مَوَنْكُمْ ارْفْدُوا بأمَانُ، اذا ما مَوَنْكُمْ اهربوا لَبْلَادْ تَنْجُوْ فيهَا ، مُلَيْ بُبْكَرْ ومُلَيْ بُحَسَنْ، ومُلَيْ النْصَرْ، وملي محمد الشريف طَلْعُوا الفُقْ، ومُلَيْ محمد خْرَجْ لزَمُرْ وأسْفِ. وأنتم دَبْرو على أرواحكم لا تْكَذْبُو فْهَذا... ».[3]

وهذا الخوف الدائم الذي كانت قبائل السهول المغربية تعاني منه بسبب الغارات البرتغالية أو الوطاسية أو السعدية، ازداد بتزايد الفتن والحروب بين القبائل، لضعف السلطة المركزية . وتفشي الفتن بسبب الغارات البرتغالية وردود الفعل التي تولدت عنها. لذا كثرت الفتن والحروب التي لم تنج منها أية منطقة مغربية. وتتجلى هذه الظاهرة فيما يلي :

- في تدخل رجال الزاويا والأولياء لضمان الأمن وجعل حد للحروب بين القبائل كما يتجلى ذلك من خلال محاولات الفقيه عبد الله الغزواني وفقيه آخر قتل خلال قيامه بتلك المهمة[4]، ومن خلال ما قام به محمد بن المبارك بالسوس إذ سن أياما حرما نجح في إقناع قبائل المنطقة بالامتناع عن الاقتتال فيها[5].

(1) **Sources Inédites de l'Histoire du Maroc (S.I.H.M) Portugal**, I, pp. 182-83, II, 100, 106, 348... etc.

(2) Ibid., II, pp. 106, 721.

(3) Ibid., II, p. 95.

(4) محمد المهدي الفاسي ، **ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع** ط. حجرية، ص41، وكذا 72.

(5) ابن عسكر الشفشاوني، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**. تحقيق محمد حجي، الرباط، 1976، ص 114.

ـ بروز جماعات من قطاع الطرق والسراق الذين أصبحوا يجولون المناطق ولا يميزون بين العدو والصديق، إن صحت رواية الإخباري البرتغالي (كُويْشْ)(1).

ـ عرض عدد كبير من الأسرى المغاربة بالثغور قصد بيعهم للبرتغاليين بعد أسرهم خلال الحروب التي كانت تدور بين القبائل المغربية(2).

ب ـ وفضلا عن تعرض المغربي لطغيان الانسان ، عانى كذلك من طغيان الطبيعة :

الجماعات والأوبئة :

ومن سوء حظ مغاربة القرن السادس عشر والسابع عشر، أن تلك الفتن زامنت فترات طويلة من الجفاف والمجاعات. لقد عرف القرن الأول إحدى عشرة سنة من الجفاف أذكر منها سنوات: 1511 و1517 1519-1520 و1540. ولم يكن القرن التالي أحسن حالا إذ عرف في المجموع سبعا وعشرين سنة من الجفاف(3). وكانت المجاعات والأوبئة وموت الانسان والأنعام أهم نتائج هذه السنوات العجاف الطويلة. إلا أن القرن السادس عشر أعطى لسنوات الجفاف بعدا لم تعرفه من قبل. فلقد نتج عن الغارات البرتغالية، وردود الفعل المغربية، وهجرات القبائل من السهول، تقلص الرقعة المزروعة؛ الأمر الذي انعكس على مخزون القبائل من الحبوب، وقلل من امكانيات الصمود في وجه المجاعات، وأعطى لهذه الأخيرة بعدا خطيرا يتجلى فيما يلي :

ـ لم تعد المجاعات مرتبطة بالظروف المناخية، إذ عانى سكان بعض المناطق الساحلية من المجاعة في سنوات عادية(4).

ـ أصبحت تلك المجاعات خطيرة جدا ، خصوصا بالسهول الغربية التي كانت فيما مضى أكثر قدرة على الصمود خلال المجاعة. وتقدم لنا مجاعة 1521 مثالا معبرا عن

---

(1) - Damiáo de Góis , **Les Portugais au Maroc**, Trad. R. Ricard , Rabat, 1937 - p.93.

(2) **S.I.H.M. Portugal**, I., p 183,.. 488, II, p. 227.

(3) - H. Triki et Bernard, Rosenberger , Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles", **Hespéris - Tamuda** 1973.

(4) راجع دراستنا السابقة الذكر، ص ص 448 ـ 450.

هذه الوضعية التي سقط المغرب فيها. فلقد شمل الجفاف البلاد كلها، إلا أن سهول الشاوية ودكالة وعبدة ... كانت أكثر تضررا منها. وتفاديا للموت جوعا، أضحى المغاربة يبيعون أبناءهم ونساءهم قبل بيع أنفسهم لتجار الرقيق البرتغاليين بآسفي وأزمور بثمن زهيد، وأحيانا مقابل تعهد المشتري بضمان القوت اليومي فقط. ووصلت الفاقة إلى حد أن الإخباري الإسباني (دوطوريس Diégo de Torres) ذكر أن المغاربة « .. أصبحوا يتملصون من بعضهم البعض، وأصبحوا يبيعون أنفسهم لمسيحيي الثغور بثمن بخس جدا، حتى إنهم كانو يعطون مسلما أو مسلمة مقابل قفة من التين أو من العنب (...) لقد كانت المجاعة عامة إلى حد أنه لم يعد أي شيء أرخص من الإنسان... »[1]

ويؤكد إخباريون آخرون[2] هذه الحقيقة، كما تؤكدها الأعداد الهائلة من المغاربة الذين اصبحوا يقيمون بعد 1521 بالبرتغال، والذين مثل جلهم أمام محاكم التفتيش، وذكروا سبب وتاريخ دخولهم إلى تلك البلاد.[3]

وتلا هذه المجاعة الخطيرة وباء الطاعون الذي « ... اختطف أولئك الذين استطاعوا الإفلات من قساوة المجاعة بسبب احتياطهم أو ادخارهم للقمح. ويؤكد الكثيرون أن ذلك الوباء فتك فتكا كبيرا بالإنسان والحيوانات... »[4]

ولاعطاء فكرة عن خطورة هذه المجاعة، أشير إلى أن البرتغاليين والإسبان اشتروا خلالها بآسفي وأزمور ما يقرب من مائة ألف مغربي نقلوهم إلى إيبيريا والجزر التابعة لها.[5]

وعرف المغرب أوبئة أخرى أهمها طاعون 1557، 1580، وخصوصا وباء 1597-1610 الذي كان المنصور السعدي أشهر ضحاياه.[6]

ولاشك في أن تلك المآسي الناجمة عن سطوة المسيحيين وانعدام الأمن وتفشي

(4) راجع دراستنا السابقة الذكر، ص ص 448 - 450.

(1) D. de Torres, **Relation de l'origine et succès des Chérifs**, Paris, 1630, I, p. 194

(2) D. de Góis , **Les Portugais**... op. cit., p. 228 ;J de Sousa, **Les Portugais et l' Afrique Nord**. Trad. R. Ricard, Paris, 1940, p. 25

B. Rodriguês , **Anais de Arzila**, I, p. 327.

(3) احمد بوشرب، **دكالة والاستعمار** ... ص ص 317 - 319. وكذا مقالنا: الموركسيون بالبرتغال المنشور **بالمجلة التاريخية المغربية** (تونس) يونيو 1982 ، وبمجلة **المناهل**، عدد 24 (1982).

(4) J. de sousa, **les Portugais**... op. cit, p. 25.

(5) H. Triki et Bernard Rosenberger , famines... art. cité p. 134; et B. Rosenberger. C. Rendu, Hespéris- Tamuda, Vol XII, 1971, p. 203.

المجاعات والأوبئة ستؤثر على نفسية المغربي وعقليته وعقيدته.

وبما أن المآسي المذكورة مرتبطة بالغزو الإيبيري وما تولد عنه من فتن، وعن عجز المغاربة عن الرد على التحدي المسيحي، فإنه يمكننا أن نتساءل عما إذا استطاع المغاربة التغلب عليها بإعادة توحيدهم المغرب على يد الشرفاء السعديين وتحريريهم لجل الثغور المحتلة.

لم يكن ذلك ممكنا للأسباب التالية :

السبب الأول : لم يكن التحرير كاملا، إذ حال وجود البرتغاليين بمازيغن دون استغلال منطقة غنية ومهمة تمتد بين أزمور وتيط والمدينة الغربية. وبقيت تلك المناطق فارغة إلى عهد المنصور السعدي كما تشهد على ذلك رواية أحمد أفوگاي[1]، وإلى القرن السابع عشر، كما تؤكد ذلك المصادر البرتغالية المتعلقة بمازيغن[2]. كما أن بقاء البرتغاليين في طنجة وسبتة حال دون انتعاش القسم الشمالي من الهبط.

السبب الثاني : بقي المغرب مفتقرا إلى الأمن حتى في عهد السعديين بسبب التدخلات الأجنبية (الأتراك حين واقعة وادي اللبن، الإسبان حين ثورة الناصر بن الغالب، البرتغال خلال معركة وادي المخازن...)، وبسبب فشل السعديين في ضمان الأمن الداخلي وعجزهم عن التغلب على المشاكل الهيكلية التي عانت منها الدول المغربية السابقة. فلقد كانت الفترات الهادئة في عهد الشرفاء السعديين استثناء. وهكذا حطمت الحروب التي دارت بين المتوكل والمعتصم كل ما تم إنجازه خلال حكم الغالب الذي اجمعت المصادر على كون عهده كان عهد أمن وانتعاش ورخاء، بينما نسفت الحروب التي دارت بين أبناء وحفدة المنصور السعدي كل ما أنجزه خلال فترة حكمه الهادئ نسبيا. ومعلوم أن هذه الفترة الأخيرة التي عانى المغاربة خلالها من كل أنواع المحن والكوارث تمتد من 1603 إلى 1670 تقريبا، أي أنها لا تقل من ناحية الطول عن فترة الاستقرار النسبي الذي عرفته الدولة في مرحلتها الاولى (1554 - 1603).

السبب الثالث : فقد المغرب بسبب الحروب والمجاعات والأوبئة السابقة الذكر،

(1) راجع قسما من رحلته **بالإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام** لابن ابراهيم عباس المراكشي، ج 274/2.

(2) R. Ricard (trad), **Mazagan et le Maroc sous le règne de Moulay Zidane**; Paris, 1956; p. 51-57, etc.

الحافز الضروري لكل انتعاش، والمتجلي في الضغط الديموغرافي. ولهذا سيطر نمط الترحال والاعتماد على تربية الماشية بالسهول الغربية، الأمر الذي كرس التحول نحو نمط من الإنتاج سماه طراس Terrasse بالاقتصاد التائه (l'économie égarée)[1]. وعثرنا على تقييد يتعلق بآسفي وضواحيها في آخر الدولة السعدية يؤكد استمرار المغرب في معاناته من قلة الإنتاج وخطورة المجاعات، وبالتالي من أزمته الديموغرافية الحادة.

«... وفي عام ثمانية وخمسين وألف، كان المرض قاسيا وكثرت الأموات حتى كان من العشرة يبقى واحد. وفي البوادي لا يحصى ولا يعد عدد الأموات (...) وفي ذي القعدة من 1060 بلغت الاقوات مبلغا، ولم ينزل المطر وارتفعت الاسعار وغلت الاقوات غلاء غير معهود (...) وفي سنة 1062 لم يزل الأمر يزداد شدة (...) وارتفعت أسعار الأقوات ارتفاعا بليغا (...) وفسدت البلاد وخربت القرى جميعا وفر الناس للحوز ومراكش وسوس الأقصى وجعلوا يموتون جوعا، واشتغل أهل البادية بنهب القرى. وفي سنة 1062.. تفاحش الموت في الناس جوعا وعجز الناس عن الدفن... وبقي الميت حتى تأكله الكلاب (...) واعتمد الناس على أكل «تالكوهت» «وأيرني» حتى صار لا يوجد في الأسواق إلا هو، وكان مأكلهم سنتين ... وخلت البلاد، وضاعت الأعراب، وخلت القرى بأسرها، ولم يبق فيها من فيه الروح أصلا (...)، حتى صار الرجل يهرب من أولاده...)»[2].

وهكذا يكون المغرب قد عاش نفس المحنة التي عرفها خلال مجاعة 1521، الأمر الذي سيؤدي بكل تأكيد إلى استمرار نفس النتائج السوسيو ثقافية التي عرفتها البلاد منذ بداية القرن السادس عشر بسبب المد الإيبيري وردود الفعل المغربية التي سببها، والفتن التي نتجت عن هذه وذاك.

فمصادر القرن السابع عشر المغربية والأوربية، تؤكد بما لا يدع مجالا للشك استمرار معاناة المغربي من طغيان الإنسان والطبيعة والحيوانات.

ج ـ الخوف من الحيوانات المفترسة

واذا كانت الحروب والغارات واقتناص الرجال تعرض حياة المغربي للخطر، فإن الشعور بالخوف تقوى لديه بسبب كثرة الحيوانات المفترسة، وعلى رأسها الأسود التي

---

(1) ,H. Terrasse " Le Maroc ancien pays d'économie égarée". **Revue de la Mediterranée**. IV, 1947 pp. 37-53.

(2) تقييد لأحد حفدة أبي محمد صالح مسجل بإحدى كنانيش الفقيه الكانوني.

أقلقت كثيرا راحته خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

لقد استغلت الأسد والخنازير الوحشية وحيوانات أخرى التراجع الديموغرافي بالسهول الغربية، وتقلص الرقعة المزروعة بها، للتسرب إلى المناطق الساحلية.

ووردت بالمصادر البرتغالية إشارات كثيرة إلى وجود السباع بتلك المناطق، وإلى تضرر السكان منها. فلقد أرغم أسد برتغاليي آسفي على العودة إلى المدينة بعد أن غادروها بنية الهجوم على بعض الدواوير (1). وفي رسالة إلى الملك البرتغالي مؤرخة في 15 يناير 1527، كتب قبطان مازيغن أنه لما علم بوجود لبؤة وشبلين بالضواحي، خرج لقتلهم فتطلب منه ذلك مجهودا كبيرا نتج عنه جرح بعض الرماة والخيول(2). وعلق الإخباري (دو سوزا) على الحادث بقوله. «... أكد القبطان الذي سبق له قتل أسد أخرى أنه لم ير مثلها لا في الضراوة ولا في الخفة...»(3).

ونظرا لكثرة السباع بقرية تيط، سمتها المصادر المتعلقة بمازيغن خلال القرن السابع عشر «بقرية السباع»(4). وأشار مارمول إلى أن مدينة في مثل أهمية أزمور أصبحت في نهاية القرن السادس عشر ملجأ لتلك الحيوانات المفترسة.(5) وكانت المناطق الوعرة والمغطاة تضم أعدادا أكبر من هذه الحيوانات. فأثناء قيام البرتغاليين بغارة على منطقة حاحة، اضطروا إلى إقامة حرس «.. حول المخيم تنبؤا بالسباع التي أقلقتهم إلى حد ان أي أحد لم يستطع أن يستريح...»(6). وأكد الوزان هذا بالنسبة لنفس المنطقة(7). في حين تؤكد نوازل الزياتي تضرر سكان غمارة من هذا الحيوان المفترس(8). لذا كانت حماية المغربي ومواشيه من تلك الحيوانات من بين الخوارق المنسوبة لأولياء ذلك العصر. ولاشك في أن المطلع على كتب التراجم سيلاحظ الحضور الغريب للأسود بها(9).

---

(1) **S.I.H.M. port.**, III p. 443.

(2) Ibid., II, p. 389.

(3) de Sousa , **Les Portugais** ... op. cit., p. 85.

(4) R. Ricard , **Un document**... op. cit., p. 10.

(5) مارمول ، **افريقيا**، ج98/2.

(6) D. de Góis , Les Portugais.. op cit., p. 199.

(7) الوزان، **وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي**، ج 1 ص 81 و234.

(8) J. Berque, **l'intérieur du Maghreb**, Paris ,1978, pp. 152-153.

(9) ابن عسكر ، **دوحة الناشر**، مصدر سابق، صص 35، 73.

وبالطبع، لابد أن يهتم خاصة المغاربة وعامتهم بهذه المآسي والكوارث والإهانات التي لحقت بهم، وأن يجدوا لها تبريرا وتفسيرا، وأن يقفوا منها مواقف معينة، وأن يقترحوا حلولا لتجاوزها. لذا وجب علينا الآن تحديد أهم مظاهر أزمة الضمير لدى المغربي التي تولدت عما سبقت الإشارة إليه بسرعة.

2) مظاهر أزمة ضمير المغربي

أ ـ الشعور بالذنب : لقد كان تفسير المغاربة لتلك الأوضاع المعاشة، وهذه المحن والمآسي تفسيرا بسيطا لا يأخذ بعين الاعتبار شروط الغلبة التي كانت متوفرة لدى المسيحيين ومساهمة أوضاعنا الداخلية في تسهيل مهامهم، بل جعلها مظهرا خارجيا لعقاب إلهي استحقه المغاربة بسبب ابتعادهم عن الكتاب والسنة. لذا كان أهم مظهر من مظاهر أزمة المغاربة خلال القرن السادس عشر يتجلى في شعور حاد بالذنب.

وتتجلى هذه الحقيقة بوضوح عبر ما كتب خلال المرحلة التي تهمنا، وذلك رغم اختلاف مواضيع التأليف واهتمامات المؤلفين : فلقد أرجع ابن يجبش التازي سطوة المسيحيين وهزائم المغاربة إلى ابتعاد هؤلاء عن تعاليم دينهم وافتراق كلمتهم، وانكبابهم على الملذات وجمع المال كما لو كانوا شعبا بدون كتاب أو دين «... فبسبب فرقتكم، تجاسر العدو دمره الله على هتك حرمتكم، فانتهزوا تلك الفرصة التي بالقلوب منها أعظم غصة، وملكوا تلك البلاد كما قدره الله وأراد، فبادروا رحكمكم الله لنصر دينكم ، لأن ما أصابكم إنما هو من ضعف إيمانكم وقلة يقينكم واستهزائكم بأمور الدين ومخالفتكم لسنة سيد المرسلين، ومجاهرتكم بالفواحش لرب العالمين، وانشغالكم بجمع الحطام (...) أطعتم الشيطان وعصيتم الرحمان، وأعطيتم النفس مرادها ومشتهاها، وبلغتموها من المعصية غاية مناها ومنتهاها (...) كأنكم لم ينزل عليكم كتاب ولا أمركم ولا نهاكم رب الأرباب... »[1]

ونجد نفس التبرير الديني للأزمة لدى الحسن الوزان الذي اعتبر احتلال أزمور عقابا إلهيا لسكانها الذين بالغوا في ارتكاب الفواحش[2].

لذا كان هذا التبرير مصحوبا باستمرار بالوعظ والارشاد والنصيحة كما يتجلى من كلام ابن يجبش وعبد الله الهبطي وابن عرضون. غير أن المتتبع لذلك الانتاج

J. Berque, **l'intérieur du Maghreb**, Paris ,1978, pp. 152-153. (8)

(9) ابن عسكر ، **دوحة الناشر**، مصدر سابق، صص 35، 73.

الفكري الذي أفرزته تلك الأزمة يقف بسهولة على قناعة مهمة لدى كتاب العصر تتجلى في كونهم خصوا فترتهم بذلك الابتعاد عن الكتاب والسنة والانكباب على الملذات، والإفراط في البدع. فابن عرضون مثلا، يصف المغرب خلال القرن العاشر بالعبارات التالية : «.. لاسيما ما ظهر في عصرنا من الأمور الفظيعة وأبدع في مصرنا من الأفعال الوضيعة (...) **وقد ظهر ذلك في زماننا وانتشر وكثر استعماله** عند مشايخ مصرنا حتى انتشر وفشا...»[1].

ويرتبط هذا التحليل لأوضاع المغرب آنذاك بأزمة ضمير حادة جعلت المغربي يمجد الماضي بشكل لم يسبق له مثيل، ويرفض إمكانية سقوط السلف الصالح فيما سقط فيه المعاصرون الذين بالغوا في استحداث البدع.

ويتجلى شعور المغربي بالذنب في اقتناعه باختلاط الحلال والحرام في كل مرافق حياته، وفي حرصه الغريب على تفادي الخطيئة، ورغبته في معرفة كل ما يمكن أن يؤدي إلى الابتعاد عن تعاليم الاسلام، وبالتالي الإسهام في تعميق الأزمة، وفيما أصبح يوليه من أهمية لمسألة الحلال والحرام. فلخوفه من سقوطه في الخطيئة، أضحى المغربي يحاسب نفسه بدقة مثيرة للانتباه، وبشكل لم تعرفه المراحل السابقة. ويتجلى ذلك الخوف من الخطيئة في الأمثلة المعبرة التالية :

- لقد أثار استعمال التبغ جدلا حادا بالمغرب ساهم فيه علماء أجلاء كان منهم من كان طرفا في النزاع، وحاول إقناع مخاطبيه بحلية تلك المادة[2].

- وبلغت الأزمة والشعور بالذنب حدا كبيرا إذ أصبح المغربي يتساءل ويستفسر الفقهاء بشأن قضايا لم تكن تثير الاهتمام، كأن يسأل عما إذا كان المجاهد الذي يموت وهو ملطخ بدم الكافر شهيدا حقا[3]، وعما إذا كان يحل للمسلم تداول العملات المسيحية واستهلاك مواد مستوردة من دول مسيحية كالورق والصابون والأثواب ومواد معدنية أخرى لما قد تحتوي عليه من مواد محرمة كالكحول وشحم الخنزير[4]، ولكونها صنعت على يد الكفار.

- إلا أن الأخطر هو أن يسأل عامة الناس فقهاء عصرهم عما إذا كان يحل لهم شراء كل ما يعرض بالسوق من بهائم، دون تمحيص، مع العلم أن عارضها، خصوصا اذا كان من الأعراب، قد يكون سرقها.[5]

(1) احمد بن عرضون : **مقنع المحتاج في أدب الأزواج ، مخطوط المكتبة العامة** ك 1026 ورقة 209 وكذا 160.

(2) راجع عن هذا الموضوع ما أورده الدكتور حجي في دراسته السابقة الذكر، 1/246-266 .

(3) cité par J. Berque, op. cit., p. 156.

(4) Ibid., pp 172 et suiv.

(5) Ibid, pp. 185-188.

ووصل الشك حدا جعل المرء يتحفظ بشأن ما يعرض عليه من طعام. لذا مثلت النوازل المتعلقة بالغصب قسما مهما من فتاوي الزياتي. ولهذا السبب كذلك أفرزت تلك الظروف الصعبة فتاوي ونوازل تعكس أزمة ضمير المغربي خلال تلك المرحلة كنوازل مزونة التي تتعلق بالغرب الجزائري، والزياتي المتعلقة ببلاد غمارة.

* * * *

ب ـ وتتجلى أزمة ضمير المغربي في ردة عدد ممن عجزوا عن مواجهة مشاكل عصرهم. لقد شغلت الردة في هذه الحقبة بال الرأي العام والمسؤولين سواء منهم البرتغاليون أو الوطاسيون أو السعديون الذين كان موضوع مراسلاتهم أحيانا يتعلق بها[1]. وأولتها المصادر البرتغالية عناية كبرى. واذا كانت قد سكتت عن حالات ردة النصارى أو شوهت بمن ارتدوا (وصفت بعضهم بالجبن)، فإنها أكدت على الخصوص على الحالات التي تهم المسلمين المتنصرين وطبعتها بطابع مثالي، وخصت أصحابها بأعمال وأقوال كانت الغاية منها إرضاء كبرياء نصارى ذلك الوقت المتعصبين. وأخذ بعض المؤرخين حرفيا ما كتبه الإخباريان (كويش) و(دوسوزا)، وزادوا على ذلك أحكام قيمة مشبعة بروح الظهير البربري، وموجهة حسب ميول الناشر. فلقد كتب (ريكار R. Ricard) في مقال نشره بمجلة دينية سنة 1930 وهو يتحدث عن أولئك «الشهداء» من المسلمين المتنصرين الذي فضلوا الموت في سبيل مجد الصليب كما يقول (كويش) «... إن تاريخهم (المتنصرين المقتولين على يد المسلمين) مثال رائع يجب أن يذكر أمام أولئك الذين يدعون أن المسلمين غير قابلين للتنصر. فبما أن اعتناقهم لعقيدة المسيح لم يكفهم، فإنهم أرادوا أن يموتوا دونها...»[2]. وسنرى بعد قليل أن المؤلف أورد في محل آخر ما ينفي هذا الادعاء.

وطبيعي أن تشمل الردة كل الديانات نتيجة احتكاكها، واصطدامها، وطبيعي كذلك أن تكون حالات ردة النصارى قليلة بالنسبة للحالات التي شملت

---

1) L. de Sousa, **Les Portugais**.. op. cit., p. 157/ **S.I.H.M.** Port, II, p. 496, 518, III p. 272, Ibid. France, I, p. 114.

2) R. Ricard, **Etudes et documents pour l'histoire missionnaire de Portugal,** Louvin, 1930 p 232..

غيرهم، ذلك أن الغزو البرتغالي لشواطئ المغرب، وما تولد عنه من حروب واختطافات، خلق أزمات عميقة داخل المجتمع المغربي. ومما له دلالته أن تكون الردة فقط بالمناطق التي كان البرتغاليون متحكمين فيها، ذلك أن حالات الردة لم تكن وليدة عمل المبشرين الذين لم يجدوا آذانا صاغية في المناطق التي عملوا بها، وخصوصا بفاس. وهذا ما يؤكد أن المرتدين من المسلمين كانوا ممن عجزوا عن مواجهة تحدي القرن (الحروب والأسر، انتصارات النصارى، المجاعات...). وتمكننا بعض الحالات من اعطاء الدليل على هذه البلبلة التي حلت بالأفكار وعن أزمة الضمير التي أصبح الفرد يعاني منها: فلقد التحق أحد أقارب قائد القصر الكبير بأصيلا وتنصر بها. ورغم ما حصل عليه من جاه، ندم على فعله وعاد إلى القصر؛ ولكنه سرعان ما ندم ثانية فعاد إلى أصيلا وتنصر من جديد. ولم يدم طويلا على حالته هذه، وندم ثالثة فعاد إلى القصر حيث أمر القائد بقتله[1]. وتتجلى هذه الازمة كذلك في كون بعض أولئك المتنصرين أصبحوا يقودون البرتغاليين إلى دواويرهم ليتم نهبها وأسر سكانها، لم يكن جل المتنصرين صادقين سواء منهم المسلمون أو اليهود، فلقد كتب القبطان (ليط) إلى الملك البرتغالي يخبره بأن عددا كبيرا من المسلمين المتنصرين، رغم أنهم ارتدوا ـ حسب ادعائه ـ من تلقاء أنفسهم، فإنهم لا يزالون يعيشون على الديانة الإسلامية، وطلبوا عدة مرات من السلطان الوطاسي أو من الشريف السعدي القدوم لترحيلهم، الشيء الذي حاولاه مرتين، مما سبب للمدينة عددا من المشاكل. واقترح نفيهم إلى إحدى جزر المحيط ليضطروا هناك إلى اعتناق الديانة النصرانية، وليصدقوا في تنصرهم.[2]

وأكد كاهن أزمور بعد ثمان سنوات نفس الحقيقة. فلقد كان المسلمون المتنصرون يعيشون جهرا مع نساء مسلمات، واحتفظوا لأنفسهم بشعائرهم وأسمائهم السابقة.

وعاد بعضهم إلى الديانة الاسلامية مما أعطى للقبطان مبررا لبيع اثنين منهم. وينطبق نفس الشيء على اليهود. ونظرا لعدم تمسك المرتدين بدينهم الجديد، اقترح الكاهن المذكور إنشاء «محكمة للتفتيش» بأزمور.[3]

ولم يكن مرتدو الشمال أكثر ارتباطا بالديانة التي دخلوها رغم ما قالته المصادر البرتغالية. وينطبق نفس الشيء على يهود البرتغال أنفسهم الذين كانوا يجدون في

(1) L. de Sousa, **les Portugais** ... op. cit., pp 83-84

(2) **S.I.H.M. Port**. II, p. 476.

(3) Ibid., III, p. 83.

شراء الحبوب بسلا والمعمورة والعرائش مبررا للمجيء إلى المغرب مصحوبين بأموالهم للرجوع إلى ديانتهم الأصلية. ولا يخرج سكان جنوب ماسة المختطفون على يد إسبان الجزر الخالدات عن هذه الملاحظة كما اثبتت دلك دراسة لريكار R. Ricard .[1]

وأمام هذا، بلغ بعدد من سكان أزمور المرتدين من اليهوذ والمسلمين. ووصلتنا إشارات إلى ذلك تعود إلى الفترة (1537 ـ 1541).[2]

ج ـ توقع نهاية العالم وظهور المهدي المنتظر.

حقيقة أن فكرة المهدي المنتظر ليست غريبة بالمغرب، إلا أن الجديد هو طغيان الفكرة بإلحاح منذ نهاية القرن الخامس عشر، ذلك أن المغربي عجز عن مواجهة مشاكل عصره بثبات لكونها كانت فوق طاقته، وشملت كل مرافق حياته. فلقد عاين سطوة النصارى وعجز المغاربة عن الرد على التحدي، وعانى من مساعدة بعض المغاربة المسيحيين في حروبهم وغاراتهم ضد إخوانهم في الدين، وأحيانا ضد قراهم وأسرهم، وعانى كثيرا من القلاقل والفتن والغارات والمجاعات والأوبئة، وما نتج عنها من ردة وبيع الأهل للنصارى قبل بيع النفس... لذا حار كثيرا في أمره واعتقد أن تلك المصائب علامة على عقاب الهي وعلى قرب الساعة وظهور المهدي المنتظر. وعزز القرن العاشر الهجري الذي تراكمت فيه المشاكل السابقة الذكر، هذه الفكرة، إذ اعتقد المغاربة أن سنة 1000هـ ستكون سنة الفناء. وبما أن الاعتقاد كان راسخا لدى المغاربة بأن «صاحب الوقت» سيظهر بالجنوب، فإن المرحلة التي تهمنا عرفت على الأقل أربعة أشخاص أعلنوا مهدويتهم، كان ثلاثة منهم من الجنوب، هذا فضلا عن الدولة السعدية التي ظهرت بهذه المنطقة، وخص سلاطينها الأوائل أنفسهم بتلك الصفة، وإن بشكل مقنع.

وتؤكد رواية لابن عسكر رسوخ هذا الاعتقاد في حتمية ظهور المهدي، ذلك أن شخصا سماه المؤلف برزيز دخل المسجد الأعظم بالقصر الكبير وادعى أنه عيسى بن مريم، فآمنت به «آلاف الخلق...»[3]. كما تؤكده الحجة التي قدمها الفقيه عبد الرحمن التمانارتي لإبطال مهدوية التاهرتي (1630-1926). فقد ادعى هذا الفقيه المصلح أن مهدوية الشخص المذكور باطلة، وذلك لسبب واحد، وهو أنه ظهر بتيزنيت وليس برباط

---

(1) R. Ricard , **Relation des Iles Canaries et de la Berbérie**, Paris, 1935

(2) أحمد بوشرب، **دكالة** ... ملاحق.

(3) ابن عسكر، **الدوحة**، مصدر سابق ص ص 31 ـ 32.

ماسة، المكان الحقيقي الذي سيظهر به «صاحب الوقت»![1] كما يتجلى انتظار فئات عريضة جدا من المجتمع المغربي لظهور المهدي، خصوصا خلال المحن التي عرفها المغرب قبيل موت المنصور وبعدها مباشرة، في اتخاذ جل المعارضين للدولة السعدية المحتضرة المهدوية مطية للوصول إلى السلطة.

ومعلوم أن ابن أبي محلى الذي عاين الأزمة العامة التي عرفها المغرب بعد موت المنصور السعدي بسبب المجاعات والأوبئة وتناحر أبناء المنصور وتسليم العرائش للإسبان(1610)، اعتبر كمخلص ومنقذ للمغاربة، وعومل كمهدي منتظر من طرف فئات عريضة جدا من سكان الجنوب المغربي. وقد عبر ابن أبي محلي نفسه عن أسباب اهتمامه بموضوع المهدي المنتظر بقوله : « ... فإن قلت مالي أراك معتنيا بهذا المنتظر في كل كتبك المتقدمة والمتأخرة، قلت **سببه أني جئت في زمان انتظاره...** ». ولاقناع المغاربة بمهدويته، أعطى صفات المهدي قبل أن يؤكد على اجتماعها في شخصه « ... **وللمهدي المنتظر** في الأخبار.. إمارات في معناه ومبناه وزمانه ومكانه واسمه وأبيه وأمه وأصحابه وأنسابه، فليبحث عنها مريد... ».وبما أن القرن العاشر انتهى دون ظهوره، فإنه علق على ذلك بقوله « .. **أعني المهدي المنتظر في القرن العاشر أو بعده قريبا منه** (...) إذ هو من الغيب المختص بالرب... فالعجز عن الإدراك فيه كغيره من العيوب في الادراك، وعند جهينة الخبر اليقين، ولتعلمن نبأه بعد حين... ». ولهذا نصح معارضيه بالتخلي عن موقفهم العقيم وتصديق مهدويته:« ... ولذلك سددت هذا الباب في دعوى الناس قاطبة للجهاد ليَلاً يطول الخصام الذي لا يعرفه إلا الصمصام، قبولا وردا فيفوت القصد والمرام، واقتصرت على الدليل القطعي في المسألة، وإن كان إذنا عاما مع الحال الخاص والصيام، فوجب النهوض والقيام، ولا عدوان إلا على الظالمين اللئام، بجهاد عبدة الأصنام، ومن يتعرض دونهم من الجهلة أو الظلاّم... »[2].

د ـ ويتجلى عجز المغربي عن مواجهة مشاكل عصره بنفسه في بحثه عن حماية مادية ومعنوية ضد شبح الخوف من الانقراض الذي سبق التأكيد عليه. وقد خول المجتمع هذه المهمة لرجال التصوف والأولياء، الذين تعززت مكانتهم لذلك لدى عامة الناس وخاصتهم، ولدى الحكام والمحكومين على حد سواء.

حقيقة أن مكانة الأولياء بالمغرب كانت باستمرار مهمة، كما تؤكد ذلك كتب

(1) محمد حجي، **الحركة الفكرية**... مرجع سابق ص ص 231 ـ 235
(2) نفسه، ص ص 227 ـ 230.

التراجم والمناقب المتعلقة بالقرون الوسطى، إلا أن هذه الفئة لم يسبق لها أن عرفت مكانة اجتماعية ونفوذا سياسيا شبيها بما عرفته خلال هذه الحقبة. ومقابل تلك الخطوة وفرت هذه الفئة للجميع ضمانة وحماية حقيقية :

- ضد استبداد الحكام وممثليهم،
- ضد الغارات البرتغالية بتأطير الجهاد لتقاعس الوطاسيين عن القيام بواجبهم،
- ضد الفتن التي اندلعت بين القبائل بسبب ضعف السلطة المركزية.

ووصلتنا إشارات كثيرة إلى قيام الأولياء والمتصوفة بهذه المهام الثلاث. كما وفر الأولياء حماية ضد طغيان الطبيعة، وذلك بالتجاء المجتمع إليهم خلال الجفاف وتفشي الأوبئة. وبلغ الخوف على المحاصيل حدا جعل قبائل الحوز تلتجئ إلى كرامات عبد الله بن حسين لطرد الطيور المضرة بالحقول، وذلك بتعليق تمائم مقابل نصيب من الغلة.[1] ولهذا أصبحت مكانة الولي لا تعوض كما يتجلى ذلك من خلال الأمثلة التالية :

1 - حرص القبائل على أن يقيم ولو ولي واحد بين ظهرانيها. فلما غادر عبد الله بن حسين تمصلوحت واستقر بوادي نفيس، التحق به سكان القرية وقالوا له: «... والله لا رجعنا إلى ديارنا إلا إذا رجعت معنا»[2].

2 - مكانة رجال الزوايا والمتصوفة لدى حكام المغرب، فقد أصبح الوطاسيون يعملون على التقرب إلى الأولياء بالهبات والعطاءات... ويعطينا المجذوب علي بن أحمد الدوار فكرة عن تلك المكانة. فرغم أن هذا الأخير كان «... بهلولا مجذوبا على طريقة الملامتية، تعتريه أحوال الجذب في كل حين...»، فإن أبواب قصر الوطاسيين كانت مفتوحة في وجهه، وكلما دخله «... تلقاه النساء والأولاد فيقبلون يديه وقدميه، ولا يلتفت إلى أحد، ويدفعون إليه الحوائج الرفيعة، والذخائر النفيسة، ويلبسه السلطان من أشرف لباسه...».[3] وتشير كتب التراجم إلى عدد من الحالات المشابهة.

3 - في ازدحام الناس على نعوش الأولياء وأمتعتهم قصد الحصول منها على شيء يحتفظ به للتبرك. فلما توفي المجذوب السابق الذكر «... تساقط الناس على جنازته وتقاسموا أعواد نعشه وسجادته ولباسه... وحضر السلطان والفقهاء وغيرهم جنازته...»[4].

---

(1) ابن عسكر، **دوحة** ... ص ص 106 ، محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص 57.

(2) ابن عسكر، ص ص 107.

(3) نفسه، ص 81.

(4) نفسه ونفس الصفحة.

ولما توفي يحي بن علال بن عمر الخلطي. «... تزاحم الناس على جنازته حتى كاد يقتل بعضهم بعضا، وتقاسموا أعواد نعشه تبركا به لما يعلمون من فضله...»[1].

4 - في طغيان أدب التراجم الخاصة بالأولياء على غيره من الفنون الأدبية.

لذا تعززت ظاهرة غريبة، تتعلق بتوزيع المهام بشكل واضح داخل المجتمع المغربي بشكل يذكر بما كانت عليه أوربا خلال القرون الوسطى، اذ أصبح قسم يحكم، وآخر يعبد، وثالث يضمن قوتهما.

5 - كما تتجلى مكانة الأولياء لدى المغاربة من خلال محاضر محاكم التفتيش الدينية البرتغالية، إذ كان المغاربة المقيمون بالبرتغال كثيري التوسل والالتجاء إلى الأولياء المغاربة، وخصوصا إلى أبي العباس السبتي الذي كان ذا مكانة خاصة، إلى حد أن المحققين أصبحوا يسألون كل المورسكيين، ولو لم يكونوا مغاربة، عما إذا سبق لهم أن توسلوا إليه أو استنجدوا به. فلقد بلغ بمغربية قالت بعد إقامة دامت خمسين سنة بالبرتغال لبرتغالي أراد أن ينتزع منها قفة كانت بيدها : «... أتوسل إليك بأبي العباس السبتي، أن تترك سبيلي...»[2]

ومقابل تلك الضمانات المادية والمعنوية التي وفرها الأولياء، أغدقتهم الدولة والمجتمع الزوايا بالهبات والعطاءات، الأمر الذي جعل من التصوف حرفة مربحة، خصوصا في مرحلة عم فيها الكساد، وخيمت الأزمة على كل قطاعات الإنتاج. وهكذا أصبحت أعداد غير قليلة من المجتمع تعيش في رغد على حساب سذاجة العامي. ويتجلى هذا التحول من خلال تكاثر عدد مريدي الزوايا. فلقد نسبت المصادر للجزولي حين تسميمه أكثر من (12000) مريد. وكانت زاوية سعيد أمسناو تضم من 800 إلى 1000 مريد يعيشون على نفقة الزاوية[3]. ومعلوم أن هذه الزاوية لم تكن من أهم ما كان معروفا بالمغرب. وبالطبع نتج عن تكاثر المريدين تعطيل طاقات انتاجية مهمة أصبحت تعيش من التطفل والصدقات. ويتجلى هذا التطفل من خلال مثالين اخترناهما من بين ما ورد عرضا بكتب التراجم. فعن كيفية التحاق الامام عبد الله الغزواني بالطائفة الجزولية ذكر صاحب **الممتع** أنه حضر لأول مرة مجمعهم مع بعض رفاقه الذين أقنعهم بما

---

(1) نفسه ص 140.

(2) احمد بوشرب، المورسكيون بالبرتغال، المناهل، عدد 24.

(3) **ممتع الاسماع**، ص ص 44، 66.

يلي «... لنتفرج على حضرتهم ونشبع من الكسكسو...»[1]. كما يتجلى ذلك التفاني في خدمة المتصوفة فيما ذكره نفس المؤلف عن أبي الحسن المصمودي. فلما زارته جماعة من المريدين «... أمر امرأته بالانصراف إلى أهلها، وأدخلهم الدار وأراهم القمح والسمن والعسل والخليع وسائر ما في الدار من المتاع، وقال لهم دونكم والدار وما فيها فهي لكم، وذهب إلى المسجد، فأقاموا فيها أياما يأكلون ويتصرفون تصرف المالك في ملكه إلى أن انصرفوا...»[2].

وهكذا تراكمت ثروات ضخمة لدى جل الزوايا، وذلك في وقت قصير جدا. فبعد موت عبد الله بن حسين أقام ابنه «موسما» ذبح خلاله بين يوم وليلة 700 شاة، 200 من البقر و 20 من الإبل. وكان المستفيدون من طعامه 12500 زائر! .[3]

كما تتجلى هذه الثروات من خلال غنى مائدة عبد الكريم الفلاح .فـ «كل واحدة من قدور طبخته الكبرى يطبخ فيها الثور أو الثوران في مرة واحدة، ويذبح في كل يوم البقر والغنم والإبل، وعنده بلاط واسع مجصص يبرد فيه الكسكس بالألواح كما يفعل بصابة الزرع عند التدرية والتصفية...»[4]

وبسبب الدور الاجتماعي المهم الذي أنيط بالزوايا، أصبح لها وزن سياسي خطير عرفت الدولة السعدية الناشئة كيف تستغله لانتزاع الانتصار من أيدي أعدائها البرتغاليين والوطاسيين، وتكفي الإشارة هنا إلى الدور الذي تنسبه المصادر المغربية لبعض أقطاب الزاوية الجزولية كعبد الله الغزواني ومحمد (أبو الروايـن) الذي ذُكر أنه «... كان أحد الأسباب في تمكين السلطان من الملك وإخراج بني مرين منه»[5] ،أو علي ابن أحمد الدوار السابق الذكر الذي كان يصيح وسط فاس «... اخرجوا يا بني مرين، والله ما نترككم ببلادنا...»[6].

وإذا كانت الدولة السعدية قد استغلت الزاوية الجزولية في إعادة توحيد المغرب، فانها كلفتها كذلك بمراقبة ما يدور بالبلاد وإشعارها بكل ما يمكن أن يمس بالأمن والاستقرار. ومقابل هذا وذلك، خصتها بامتيازات وإقطاعات ضخمة أصبحت

---

(1) نفسه، ص 35.

(2) **ممتع الاسماع** ،ص ص 31، 35، 82.

(3) نفسه، ص 57.

(4) نفسه، ص 86.

(5) نفسه، ص 109.

(6) نفسه، ص 84 / عبد الرحمن الفاسي، **ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب**. مخطوط خزانة ملكية، رقم 1222 ، ورقة 30.

إقطاعات تمليك بعد أن كانت فيما مضى إقطاعات استغلال فقط.

وطبعا تعود هذه المكانة التي خص المجتمع بها الأولياء والمتصوفة على حساب الفقهاء الذين همشوا وتراجعت مكانتهم، إلى العلاقة الجدلية التي أصبحت تربط المجتمع بالولي: فعلى الثاني توفير حماية الأول المادية والمعنوية، مقابل تلبية المجتمع لرغبات وحاجيات الولي مهما كانت كثيرة.

المواقف الذهنية التي أفرزتها أزمة الضمير السابقة الذكر

أمام حدة الأزمة وشموليتها، واعتقاد المغاربة أنها مظهر خارجي لعقاب إلهي ينذر بقرب الساعة، اتخذت منها مواقف مختلفة ومتباينة لاختلاف الحلول التي أعطيت لها. وسنكتفي هنا بتصنيف تلك المواقف ما دام كل واحد منها يستحق دراسة خاصة.

1) لقد أجمعت المصادر المغربية المتعلقة بالقرن السادس عشر على انكباب المغاربة بالمدن والبوادي على الرذائل والفواحش التي بلغت حدا غريبا كان وراء حضور تلك الظاهرة بمصادرنا بشكل ملفت للانتباه.

فبعد أن أشار الوزان إلى قلة ارتباط الأعراب بالإسلام، أكد وهو يتحدث عن أخلاق الأزموريين على «... إغراقهم في اللواط وشيوعه فيهم حتى أنهم كانوا لا يجدون غضاضة في أن يبحث الأب لولده عن صديق مداعب لطيف...»[1]. وأكد نفس المؤلف على شيوع هذه الظاهرة بفاس إلى حد أن السكان اعتادوها مما لم يعد يلزم الشواذ الذين يقلدون النساء في زيهن وزينتهن بالتستر. فحين تعرض الرحالة المغربي إلى فنادق فاس، كتب «... وأسوء ما في هذا الأمر مساكنة رهط يقال لهم «الهيوي»، وهم رجال يرتدون ثياب النساء ويتحلون بحليهم، ويحلقون لحاهم، ويقلدون النساء حتى في طريقة كلامهن (...) ولكل واحد من هؤلاء الأنذال صاحب يتسراه ويعاشره كما تعاشر المرأة زوجها ...»[2].

وتؤكد محاضر محاكم التفتيش الدينية البرتغالية المتعلقة بالمغاربة المقيمين

---

(1) الوزان، **وصف افريقيا** ج1، ص 125.

(2) نفسه، ص 183

بالبرتغال شيوع تلك الظاهرة خلال القرن السادس عشر.[1]

ويتجلى انكباب المغاربة على الشهوات وسقوط فئات عريضة منهم في الزنا في الحضور المثير للانتباه الذي أصبح للمرأة بمصادرنا المتعلقة بالفترة.

فلقد أكد الوزان في مواضع مختلفة من مؤلفه على شيوع الزنا وسكوت المجتمع عنه[2]. وذكر ابن عسكر أن من خوارق محمد بن عيسى الفهدي دفين مكناس، الحيلولة دون سقوط مريده محمد (أبو الرواين) في ذلك الإثم الذي كان متعودا عليه. ويفهم من رواية ابن عسكر أن الوقوف على «امرأة عربية» لم يكن يمثل أية صعوبة.[3] وبما أن المرأة تمثل عنصر المتعة الأولى، فلقد أكدت المصادر المغربية، وخصوصا منها «ألفية» الإمام الهبطي ومن أخذ عنها، كابن عرضون، على العناية الخاصة التي أصبحت تخصص لجسم المرأة، وعلى بروز طقوس خاصة ببعض وسائل الزينة والتجميل كالوشم الذي شمل كل أطراف الجسد، وانكبت عليه كل فتيات العصر، إلى حد أن الهبطي ذكر أن القليل منهن كن يتزوجن دون وشم. ومما يؤكد تساهل المجتمع في هذا الباب وتراجع الغيرة على العرض والشرف، الصورة التي تركها لنا الإمام الهبطي عن الوشم والمكانة الاجتماعية الجديدة للوشام. فلقد أضحى يتجول في بوادي المغرب وهو لابس ومزين كالنساء، يصبغ الفم ويكحل العين،...«ويعطى من الفرص ما يزيل الكلفة بينه وبين الفتاة من مواكلة ومداعبة، ثم يؤتى بنساء واشمات يكشفن عن أجسامهن أمام الوشام ليقلد رسومهن على أعضاء الفتاة من الجبين إلى الساق...»[4]. ومن جهة أخرى، تتجلى المكانة الجديدة لجسم المرأة في الاستثمار الجديد لكل عناصر الاثارة كالزينة المثيرة للانتباه، والاختلاط بالرجال للغناء والرقص، وحتى في الأودية والأنهار قصد السباحة عاريات.[5]

وفي هذه الأثناء التي قلت فيها الحشمة والغيرة، شاع تعاطي الخمر في مدن وبوادي المغرب،[6] الامر الذي أدى إلى انتشار الزنا وتفاحش أمره. فلقد أكد الوزان كثيرا على قلة غيرة الأعراب على بناتهم، بينما تؤكد النوازل انشغال المغاربة بظاهرة

(1) Ahmed BOUCHARB, **les crypto-musulmans**, op. cit., p. 506.

(2) نفسه ص ص 70، 71، 183، 205، 215...الخ

(3) ابن عسكر ; ص 67.

(4) محمد حجي، **الحركة** .. ص : 219.

(5) عبد الله الهبطي، **الالفية السنية**، الباب الثامن، 9، 11.

(6) نفسه، الباب الحادي عشر، الوزان، ج1، ص ص 183، 238...الخ.

التخليق والهروب بالنساء المتزوجات. وعن هذه الظاهرة كتب محمد حجي :« ... وقد تعددت حوادث هروب الرجال بالنساء في المغرب السعدي بادية وحاضرة، وبخاصة بعد موت أحمد المنصور، حتى لم يكن يخلو شهر من حادث اختطاف... »[1]

واذا كانت تلك التصرفات الجنسية وليدة رغبة في الاستفادة أكثر خلال ظروف جد قاسية، فتجدر الإشارة إلى عفويتها من جهة، وانتشارها بكل أطراف المغرب من جهة ثانية. غير أن بعض الطوائف ظهرت وأعطت نفسها مهمة تقنين هذا الانكباب على الشهوات وتأطيره، وأشهر هذه الطوائف، العكاكزة.[2]

ففضلا عن إعلان خروجهم عن الإسلام وإعطاء أنفسهم نبيا وكتابا، وإسقاطهم كل الفرائض من صلاة وصيام... استباحوا المحرمات كأكل الخنزير والميتة، وأباحوا الزنا والقيام به دون تستر، وحثوا على مساعدة من يرغب فيه.[3] فلقد ذكر أحمد بن القاضي « ... وقد اختلقوا بدعتهم من ترك الصلاة والصوم واستباحة الزنا والدياثة والقيادة أذلهم الله وأخزاهم... »[4].

وبين الحسن اليوسي من جهته أن الجانب الجنسي أضحى يمثل لديهم أحسن معيار لامتحان مدى صدق المريد الذي أصبح عليه أن يتخلى عن قيمه السابقة من غيرة على العرض وحفاظ على الكرامة[5]. ووصلت شيوعية النساء لديهم حدا جعلتهم يعتبرون المرأة مجرد آلة متعة تتداولها الأيدي، واعتبروها «كالسجادة، صل واعط أخاك يصلي... »[6].

ومما يؤكد طغيان جانب الشهوة لدى هذه الطائفة، التصنيف الذي أعطاه ابن عسكر لأتباعها، إذ جعلهم « ... من الغوغاء وأجلاف العرب، وأهل الشهوات من الحواضر »[7]. ومعلوم أن هذه الطائفة التي تنسب إلى الصوفي الشهير أحمد بن يوسف الملياني ظهرت قبل وفاة هذا الاخير سنة 1521 أو 1525، وأنها استمرت في استقطاب أعراب وبرابرة المغرب حتى عهد المولى اسماعيل الذي عرفت خلاله أقصى ما وصلته

---

(1) محمد حجي، **الحركة** ... ص 308.

(2) عبد الله النجمي، العكاكزة، **مجلة كلية الآداب**، الرباط عدد 5 - 6 والمصادر والمراجع التي ذكرها.

(3) الحسن بن مسعود اليوسي، " رسالة العكاكزة"، منشورة ضمن رسائل المؤلف التي حققتها الأستاذة فاطمة القبلي، البيضاء، ج 1، ص ص 274 **وما بعدها**.

(4) احمد بن القاضي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، ج 1 ص 165 (تحقيق محمد الانوري)

(5) الحسن اليوسي، رسالة العكاكزة، مصدر سابق ص : 282.

(6) نفسه، الصفحة 281.

(7) ابن عسكر، **دوحة** ...ص 125.

من انتشار،[1] وذلك رغم محاولات بعض السلاطين السعديين القضاء عليها، الأمر الذي يؤكد ما ذهبنا اليه في بداية هذا البحث من استمرار نفس مظاهر الأزمة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

2 ـ الفئات التي فضلت تهميش نفسها والعيش بعيدا عن المجتمع

اعتاد المجتمع المغربي، كباقي المجتمعات، تهميش الفئات التي تميزها صفات معينة كاليهود والمجاذيم والحمق...إلخ . إلا أن المرحلة التي تهمنا شهدت بروز جماعات كثيرة آثرت الابتعاد عن المجتمع والعيش إما في جماعات صغيرة منغلقة على نفسها، أو الانعزال الكلي والالتجاء إلى الجبال والغابات. إلا أن في هذين الاختيارين غاية معينة :

ـ ففيما يخص النساك والزهاد الذين ابتعدوا عن المجتمع، نجد أن السبب في ذلك يعود إلى حكم قاس على ذلك المجتمع المفرط في الخطيئة، وإلى رغبة في استغلال ما تبقى من العمر في العبادة والتكفير عن الأخطاء وطلب المغفرة.

وكثر الزهاد في هذه الفترة وانتشروا بجل جبال المغرب كما تؤكد ذلك المصادر المغربية والبرتغالية. فلقد ذكر الوزان أن عددهم كان كبيرا بكل من جبل الحديد وبني ماكر والجبل الاخضر[2]. وطبعا تصاحب هذا الاختيار ظروف عيش قاسية تؤكد رغبة المغربي في تعذيب نفسه الميالة إلى الشهوات. (وسنرى أنواعا أخرى من التعذيب).

فلقد ذكر ابن عسكر أن أبا شامة عبد الرحمن الدكالي كان «... قائم الليل، صائم النهار لا يفتر ساعة عن العبادة، وإذا أدركه النوم نام في ثيابه وألصق جنبه بالحصر، وجعل الحجر تحت رأسه لا يلتفت إلى الدنيا ولا لأهلها، ولا يقبل من أحد شيئا...»[3]. وكان أبو زيد عبد الرحمن بن ريسون «... ورعا زاهدا استوحش من الخلق حتى لا يراه قريب ولا بعيد، وبيته مغلق عليه أبدا، وفراشه قشور شجر البلوط...»[4].

-وفضلا عن هؤلاء النساك، ابتعدت جماعات صغيرة عن المجتمع الذي تنكرت لقيمه وعملت على استغلال ما تبقى من العمر في الملذات والشهوات. ففضلا عن

(1) محمد حجي، **الحركة** ... ص: 240.

(2) الوزان ، **وصف افريقيا**، ج1. ص ص 89 ، 126.

(3) ابن عسكر، **الدوحة** ... ص: 57.

(4) نفسه ص: 18.

سكان فنادق فاس الشواذ، ذكر الوزان بنفس المدينة جماعات أخرى كالسحرة والعرّافين وبعض فرق الصوفية التي سنت لنفسها قوانين وقيما تختلف كل الاختلاف عما يتبناه المجتمع.[1]

3 ـ الفئات التي حاولت تناسي الواقع المر والمخجل بمواقف أذكر منها :

أ ـ تجاهل قيم المجتمع كما يتجلى ذلك من خلال تصرفات المجاذيب الذين تكاثروا بشكل غريب. وتعطينا كتب التراجم فكرة عن هذه الشخصيات الغريبة التي خصها المجتمع المغربي، عامته وخاصته، بتقدير واحترام كبيرين. فلقد كتب ابن عكسر عن علي بن أحمد الدوار «... وكان بهلولا مجذوبا على طريق الملامتية، تعتريه أحوال الجذب في كل حين، وليس له أهل ولا قرار، يخبر بالغيبيات ويكاشف به من لقاه (كذا)، لا يلتفت إلى مدح ولا إلى ذم، يدخل ديار ملوك بني مرين فتلقاه النساء والأولاد فيقبلون يديه وقدميه فلا يلتفت إلى أحد، ويدفعون إليه الحوائج الرفيعة والذخائر النفيسة، ويلبسه السلطان من أشرف لباسه، فإذا خرج تصدق بجميع ذلك، ويمر على حوانيت الزياتين فيغمس أكمام الحلة التي تكون عليه ويبرقعها بالزيت أو بالسمن... »[2] ووردت بمصادر أخرى ما يعبر أكثر على تنكر هؤلاء المجاذيب لقيم المجتمع. ونظرا للمكانة الخاصة التي أصبحت للمجاذيب، فان المولى أبي الشتاء، دفين فشتالة، أصبح مدرسة حقيقة لتخريجهم.[3]

ب ـ كما أفرزت هذه الأزمة طائفة حاولت تناسي الواقع المخجل بالرقص والانتقام من النفس بعد الدخول في نوع من الغيبوبة. ويصاحب ذلك الرقص افتراس الأنعام الحية والانتقام من النفس بأعمال وصفها لنا عبد الرحمن الفاسي «... وكثير منهم يمر بالأسواق فيخطفون الصابون وغيره فيأكلونه، ويدخلون بيوت النار ولا يتضررون، ويشيرون بالهتك وبالبعج، وغير ذلك... »[4]. ومعلوم أن عيساوة، أحسن ممثلي تلك الطوائف، تنتسب إلى محمد بن عيسى الفهدي السابق الذكر، الذي توفي سنة 1526و1527، أي بعد مجاعة 1521 بقليل، وقبل إعادة توحيد المغرب، وفي وقت لم يستطع المغرب فيه تحرير ثغر واحد. ومعلوم أن طائفة عيساوة عرفت انتشارا كبيرا بعد القرن السادس عشر، وتفرعت عنها طوائف أكثر شذوذا كحمادشة والدغوغيين.

(1) الوزان، **وصف افريقيا**، ج1، ص ص 183، 211، 214.

(2) ابن عسكر، **الدوحة**، ص : 81

(3) محمد المهدي الفاسي، **ممتع الاسماع**، ص 73

(4) عبد الرحمن الفاسي، **ابتهاج القلوب**... مصدر سابق و 43 وجه.

4 ـ الفئات التي حاولت القضاء على الأزمة بمحاربة البدع وإحياء تعاليم الإسلام ، ومحاربة الطرقية والطوائف الشاذة السابقة الذكر.

ويلاحظ أن الفقهاء الذين كرسوا أنفسهم لهذه المهمة ينتمون إلى البادية التي كانوا على علم بمستواها الثقافي المنحط. لذا قام الفقهاء المصلحون بثلاثة أعمال متكاملة نذكرها بسرعة:

ـ الأمر المعروف والنهي عن المنكر الذي أصبح شرطا ضروريا للقضاء على البدع التي استحدثتها العامة. وكان هذا الأمر بالمعروف موجها إلى عامة الناس وإلى الفقهاء والحكام[1]. وفضلا عن التأليف والكتابة بأسلوب قريب إلى فهم العامي، وفي مواضيع تهم دينه وأخلاقه، قام بعض الفقهاء، كالإمام الهبطي وابن خجو، بالتحرك داخل المنطقة رفقة طلبتهم قصد الوعظ والإرشاد وتكسير أواني الخمر وآلات الطرب...[2]

ـ وعلما من هؤلاء المصلحين بأن ما استحدث من بدع يعود إلى الجهل الذي خيم على العقول، انكب عدد من الفقهاء على تعليم الناس بالقرى والمداشر بعد أن كان التعليم حكرا على المدن.[3]

ـ وكان العمل الثالث يتمثل في الحث على مرابطة الغزاة والدفاع عن البلاد إما بالتأليف، كما فعل ابن يجبش التازي، أو بالمشاركة الفعلية في الغارات التي استهدفت الثغور المحتلة. وكان حكم بعض هؤلاء المصلحين قاسيا على من تقاعس عن هذا الواجب.[4] وحينما تأكدوا من قلة اهتمام الوطاسيين بالجهاد، كرسوا أنفسهم للدعاية للشرفاء السعديين الذين ظهروا بالسوس. ومعلوم أن السعديين وصلوا إلى السلطة اعتمادا على المساندة الكبرى التي خصتهم بها الزاوية الجزولية.

---

(1) تعرض الدكتور محمد حجي لهذا الموضوع في اطروحته : **الحركة**... ص ص 217 ـ 226.

(2) احمد بن عرضون ، **مقنع المحتاج** ... مصدر سابق ص ص 163 ـ 166.

(3) محمد حجي، II ص 452

(4)نفسه، ص 60 ، حيث اورد قصة بن يحيى البهلولي الذي اعتبر إمامة من لا يجاهد باطلة لانعدام شروط الرجولة فيه.

المغاربة والبحر خلال النصف الأول من القرن السادس عشر

ليست الغاية من هذا العرض السريع [1] تقديم خلاصات ونتائج دراسة دقيقة لمختلف أوجه ومظاهر تعامل المغاربة مع البحر عبر التاريخ، ولا تقديم حتى مجرد تصور واضح لهذا الموضوع الذي لا يزال مجهولا لحد الساعة، ولم يحظ، إذا استثنينا مقالة المؤرخ البولوني A. DZIUBINSKI الصادرة بالمغرب سنة 1972،[2] بأية دراسة جادة. إن ما نهدف إليه هو إثارة الانتباه إلى أهمية الموضوع لفهم جوانب كثيرة من تطور المغرب بعد القرن الرابع عشر. وقبل عرض بعض جوانب هذه المسألة، نود إبداء بعض الملاحظات :

1 ـ لا يجادل أحد بشأن محدودية علاقة المغاربة بالبحر على المستوى العسكري والتجاري والغذائي، وأن هذه العلاقة مالت، تدريجيا، إلى التقلص بعد العهد الموحدي. ويمكن أن نلمس هذه الحقيقة بإيراد قولتين تعكسان واقعين مختلفين : فقد أشار ابن خلدون إلى السيطرة المطلقة للموحدين على الحوض الغربي للأبيض ، إلى حد أنه لم يكن المسيحيون يجرؤون، حسب تعبيره، على إلقاء مجرد خشبة به. كما نجد بمصادر إخبارية[3]، بل وحتى في كتب المناقب وتراجم الأولياء كالتشوف لابن الزيات،[4] والمنهاج الواضح[5] للماجري، إشارات إلى اعتماد المغاربة خلال القرون الوسطى في تجارتهم وتغذيتهم على البحر. فالصيد كان نشاطا مهما في عدد من الموانئ، كما أن الأزموريين كانوا متعودين على أسواق الأندلس والبرتغال، على الأقل حتى عهد أبي الحسن المريني.[6]

أما القولة التي نهدف من ورائها إثبات حدوث نوع من القطيعة بين المغاربة والبحر، فقد استعرناها من رسالة بعثها المولى إسماعيل العلوي سنة 1704 إلى حاكم

---

(1) ألقيت هذه المحاضرة بدرج الإمام مالك، بكلية الآداب بالمحمدية، يوم الخميس فاتح مارس 1990. ونشرت بمجلة **بحوث**، كلية الآداب، المحمدية، ع.4، 1991 ص ص 70-53.

(2) A. Ziubinski: "l'armée et la flotte de guerre marocaines à l'époque des sultants de la dynastie saadienne" **Hespéris - Tamuda**, Vol XIII, fascicule unique, 1972, pp. 61-94

(3) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا**...ج 2 / 129 (طبعة البيضاء).

(4) ابن الزيات : **التشوف إلى رجال التصوف** . تحقيق أحمد التوفيق (1984) ص: 169 .

(5) أحمد بن إبراهيم الماجرى : **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح** ط. مصر 1933، ص.295.

(6) الناصري، الاستقصا... 129/2 .

جبل طارق الانجليزي، يطلب منه فيها مده بأسطول يساعده على تحرير سبتة التي كانت جيوشه تحاصرها برا. وقد قال في الرسالة المذكورة : «والله لو أن جيش العرب ينصحون كل النصح ما بقيت نصارى الإسبنيول بسبتة إلى هذا الوقت... والعرب أناس بر لا أناس بحر، وسبتة استدار البحر بثلاثة أرباع منها...»[1]

كما ذكر في رسالة إلى لويس الرابع عشر مؤرخة في يوليوز 1684 ما قد يفهم منه احتقار المغاربة آنداك للعمل بالبحر : فالبحارة «ممن لا خلاق لهم، ولا يركب البحر عندنا إلا أهل التمربيل...»[2].

2 ـ غير أننا نعلم أن ضمن هذه الحقبة التي حددناها بين القرن الرابع عشر والثامن عشر، تمتد مرحلة عرف فيها النشاط الجهادي والقرصني انتعاشا واضحا، خصوصا إثر استقرار جالية مورسكية مهمة بالرباط وسلا، بعد طردها من اسبانيا فيما بين 1609 ـ 1610. إلا أن ما لم ينتبه له لحد الساعة حسب علمنا، وهو ما سنحاول التأكيد عليه هنا، هو بروز رغبة أكيدة لدى المغاربة، منذ مطلع القرن السادس عشر، على المستوى الشعبي أولا، ثم على المستوى الرسمي ثانيا، (بعد سنة 1549)، لركوب البحر من جديد، ردا على هجمات المسيحيين، وإسهاما من أولئك المجاهدين في تحرير الثغور التي احتلها الإسبان والبرتغاليون. وقد ارتكز هذا النشاط الجهادي على الموانئ التي بقيت حرة كالعرائش وتطوان وسلا، الأمر الذي يفرض علينا تتبع مظاهر تلك الرغبة في العودة إلى البحر، والوسائل المسخرة لتحقيقها، والأسباب التي تفسر إخفاقها، طالما أننا نعلم جميعا أنها لم تؤد إلى نتيجة تذكر.

3 ـ يسمح الاهتمام بالتاريخ العسكري في العهد السعدي، وتتبع حرص السلاطين السعديين الأوائل على إحياء الأسطول العسكري المغربي، بفهم جوانب كثيرة من هذا العهد الذي لم يدرس لحد الساعة بشكل عميق ومدقق. لقد بينت دراسة جامعية جادة نوقشت سنة 1988 [3] الانعكاس الخطير الذي كان لحرص السلاطين السعديين على خلق جيش رسمي يعتمد أساسا على السلاح الناري، على التحول الواضح الذي طرأ على علاقة الدولة بالرعية، وخصوصا بالزوايا والقبائل بعد إعادة توحيد المغرب وانتقال السعديين من مستوى الإمارة إلى الدولة الوطنية الطامحة إلى الوقوف موقف الند للند في وجه الإيبيريين والأتراك الطامعين في غزو المغرب. وبذلك

(1) عبد الهادي التازي : الثغور المغربية بين المواجهة المسلحة والتدخل الدبلماسي. **البحث العلمي**، ع 25، 1976 ص : 16.

(2) **الوثائق**، عدد 1 ، مديرية الوثائق الملكية، الرباط 1976، ص : 414.

(3) محمد المهناوي : **السلاح الناري بمغرب السعديين**. رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ . مكتبة كلية الآداب فاس.

اضطرت الدولة إلى الرفع من الضرائب وابتكار أخرى، وتعميمها على السهول والجبال، وعلى كافة فئات المجتمع بدون استثناء.[1] وبما أن موقف الزاوية الجزولية ـ التي أوصلت الشرفاء إلى السلطة على أكتافها حسب تعبير مصدر مغربي ـ [2] وكثير من القبائل الحليفة من الدولة قد تغير فور دخول محمد الشيخ إلى المدينة فاس،[3] فإنه يحق لنا أن نتساءل عن العلاقة التي قد تكون بين هذا الموقف المعادي وبداية الدولة في تنفيذ مخططها، مباشرة بعد 1549، الرامي إلى إنشاء قطع بحرية، اعتمادا على الرفع من قيمة الضرائب.

4 ـ نود في هذا العرض السريع إثارة الانتباه إلى الإسهام الذي قد تقدمه، في موضوع كهذا، المصادر الأجنبية من حوليات وتواريخ عامة وتقارير عسكرية أو تجارية... غير أننا سنؤكد بالخصوص على وثائق لم تستغل بعد، وتبدو بطبيعتها وكأنها لا تهم لا من قريب ولا من بعيد موضوعنا، وأعني بها مصادر محاكم التفتيش الدينية، وخصوصا منها محاضر المحاكمات. وتكمن أهمية تلك المصادر في نوعين من الإشارات إلى علاقة المغاربة بالبحر:

أ ـ إشارات وردت بمحاضر محاكمة المغاربة المقيمين بالبرتغال بتهمة الارتباط بالإسلام والقيام بشعائره (كان قد فرض عليهم التنصر)، أو محاولة الفرار من البرتغال بحرا للعودة إلى المغرب. ومن خلال وقائع الجلسة الأولى لتلك المحاكمات، والتي كانت تخصص للتعرف على هوية المتهم، ترد إشارات إلى تاريخ الدخول إلى البرتغال وسببه. ومن بين تلك الأسباب الكثيرة التي أدت إلى تكوين جالية مغربية مهمة بالبرتغال،[4] نقف على سبب يهمنا اليوم، أي الأسر بعد هجمات فاشلة على السفن والسواحل البرتغالية، تمت نسبة مهمة منها فيما بين 1550 .1554 وسنعود إلى الأهمية التي تكتسيها هذه الحقبة.

ب ـ أما النوع الثاني من الإشارات المفيدة بالنسبة لموضوعنا، فنقف عليه بمحاضر محاكمة تجار برتغاليين فيما بين 1552 ـ 1554 (لاحظ تزامن النشاطين!) من لدن محكمة تفتيش لشبونة بتهمة الاتجار مع المسلمين وتزويدهم بسلع محرمة تسمح لهم

---

(1) اليفرني: **نزهة الحادي** ص: 38 ـ 40.

الناصري: **الاستقصا**، ج6 ص ص 45 ـ 46.

(2) عن علاقة هذه الزاوية بالدولة السعدية، راجع الدراسة القيمة لأحمد الوارث: **الأولياء ودورهم السياسي والاجتماعي في القرن السادس عشر**. رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، مكتبة كلية الآداب، فاس.

(3) المجهول، **تاريخ الدولة السعدية التاكمادرتية**. نشر كولان الرباط 1934 ص: 26.

(4) انظر دراستنا A. Boucharb: **"Les crypto-musulmans d'origine marocaine et la société portugaise au XVIème Siècle"**, Doctorat d'Etat.

ـ كذا مقالنا: **"موارد المغاربة المقيمين بالبرتغال** ..." المنشور بهذا الكتاب

بمحاربة المسيحيين، كالأسلحة والعتاد، والأخشاب ووسائل بحرية من أشرعة وبوصلات وخرائط، إلخ.

وهكذا، يبدو، ومن الآن، أن المغاربة حاولوا، خلال العقود الأولى من القرن السادس عشر، وعلى عكس ما تدعيه بعض الدراسات الاستعمارية، العودة إلى البحر كوجه من وجوه الجهاد والمقاومة. لقد ادعت تلك الدراسات[1] أن من أهم نتائج الغزو الإيبيري خلال القرنين 15 و16م إبعاد المغاربة عن البحر، والقضاء كلية على نشاطهم الجهادي، وأن هذا النشاط لم ينتعش إلا في القرن السابع عشر مع موريسكيي سلا والرباط، أي على يد أجانب.

وقد اتخذت الرغبة الأكيدة لدى مغاربة تلك الحقبة في العودة إلى البحر شكلين اثنين نعتقد أن فهمهما يلزمنا بالتذكير بأهم الأهداف التي كان الإسبان والبرتغاليون يتوخونها من غزوهم للمغرب.

لقد انطلق الغزو الإيبيري لسواحل المغرب باحتلال مدينة سبتة سنة 1415[2]. وسرعان ما ظهر الإسبان كمنافسين، الأمر الذي استدعى الاحتكام إلى البابوية التي أشرفت على تقسيم مناطق النفوذ بين الدولتين[3]. وقد نتج عن اتفاق الدولتين، اكتساح جل سواحل المغرب العربي من جهة، وإنشاء إمبراطوريتين شاسعتين من جهة ثانية.

و اعتمد الإيبيريون في عملهم هذا على ثلاثة عناصر أساسية أعطتهم امتيازا واضحا على باقي الدول: دولة مركزية قوية تبنت التوسع وخططت له ومولته واحتكرت الاستفادة منه، وجيش قوي يعتمد الأسلحة النارية بشكل مكثف، وأخيرا سيطرة مطلقة على البحار بسبب الخبرة التي اكتسبها بحارتهم من اقتحامهم المبكر للمحيط منذ مطلع القرن الخامس عشر[4].

و كان الإسبان والبرتغاليون يهدفون من احتلالهم لموانئ المغرب - والشمالية منها

(1) مثلا H. Terrasse: **Histoire du Maroc** - Casablanca 1950, T. II, p. 113 114 Lannoy - Vander: **L'expansion coloniale des peuples européens (Espagne-Portugal)** T. I, Bruxelles, 1907, p. 209 etc.

(2) راجع دراستنا عن مراحل وأسباب الغزو البرتغالي: أحمد بوشرب: **دكالة والاستعمار البرتغالي**... البيضاء، دار الثقافة، 1984، الباب الثاني.

(3) P. de Cénival et collaborateurs : **Sources Inédites de l'histoire du Maroc, 1ère série dynastie saadienne, Archives et Bibliothèques de Portugal,** Paris. Geuthner, 1934, Tome I,. pp103-212.

(4) عن هذا الموضوع والإحالة إلى الدراسات الأجنبية المتعلقة به، راجع: مقالنا "المخططات البرتغالية..." المنشور بهذا الكتاب.

على وجه الخصوص - إلي إبعاد المغاربة عن البحر وحرمانهم من استعماله حماية لبلادهم وتجارتهم[1]. وقد اعتقد البعض، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، أنهم نجحوا في هذه المهمة، في حين أن المصادر التي اعتمدناها، وهي برتغالية، تنفي هذا الادعاء، وتؤكد بما لا يدع مجالا للشك، أن المغاربة، وحتى خلال مرحلة ضعف السلطة المركزية، ركبوا البحر في إطار ردهم على هجمات المسيحيين، وانطلقوا من موانئ العرائش وتطوان وسلا وبادس لمطاردة السفن الإيبيرية ولتخريب سواحل «الأندلس» والبرتغال. وتكفينا في هذا الباب شهادة الإخباريين البرتغاليين.

فقد خصص «دوكويش» (D. de Góis) أربعة فصول من مؤلفه لهجمات ناجحة قام بها مجاهدو العرائش وتطوان، فيما بين 1516 . 1521، ضد سفن برتغالية. ففي التاريخ الأول أسر مجاهدو العرائش «كرفيلا» برتغالية قبل دخولها ميناء أصيلا،وكان على متنها 28 نفرا من الجنسين، كان ضمنهم بعض النبلاء[2]. كما نجح خلال نفس السنة مجاهدو تطوان في أسر سفينة برتغالية أخرى[3]. وأشار نفس المؤلف ضمن أحداث 1520 إلى الأدوار الطلائعية في ميدان الجهاد البحري التي قام بها أخوان من تطوان أسماهما XACROS، إذ اعترف أنهما «ألحقا لمدة أربع سنوات متتالية» أضرارا بليغة بالمنطقة الممتدة بين سبتة والعرائش وجبل طارق. وقد كان لكل منهما مركب خاص. و اعترف (دوكويش) بأن «المسلمين (المغاربة) كانوا حاذقين في أمور البحر»[4].

وأضاف الإخباري البرتغالي أن هذه العمليات الجهادية، التي كانت تنطلق من تطوان، دفعت الملك البرتغالي إلى التفكير في إغلاق مصب نهر مرتيل. وقد حث العاهل الإسباني جاره البرتغالي على تنفيذ ذلك المشروع في رسالة مؤرخة في 5 ماي 1520 أورد المؤلف محتواها، نصحه فيها بتشييد قلعة بذلك المصب :«... ألح عليه بأن يشيد حصنا في أقرب الآجال للدفاع عن المسيحية وحماية ممالكها بذلك المصب لجعل حد للأضرار والخسائر التي كان مسلمو تلك الجهة يسببونها اعتمادا على مراكبهم وسفنهم فيما بين الساحل (المغربي) والمضيق وغيرهما.» كما ذكر أن الملك الإسباني

---

(1) أحمد بوشرب: **دكالة**، ص ص 153، 161 . 164.

(2) R. Ricard (traducteur) **les Portugais au Maroc**... Rabat, 1937, p. 167.

(3) نفسه، ص : 169.

(4) نفسه، ص ص 204 . 206.

طلب من العاهل البرتغالي السماح له في حالة تعذر البناء عليه بإنجازه وتحمل مصاريفه[1].

وأشار إخباري برتغالي آخر، «لويش دو سوزا» (Luís de Sousa) إلى الحروب البحرية التي دارت بين مجاهدين من تطوان والعرائش من جهة، والأسطول البرتغالي المكلف بمراقبة المضيق من جهة ثانية. ومعلوم أن إرسال ذلك الأسطول إلى تلك المنطقة كان نتيجة مباشرة لتزايد النشاط الجهادي البحري المغربي والتركي. فقد ذكر ضمن أحداث سنة 1529 معركة بحرية وقعت خلال شهر أكتوبر بين مركب تطواني وآخر برتغالي كان متجها إلى مدينة أصيلا[2].

وأشار نفس الإخباري كذلك إلى صدام آخر بين ثلاثة مراكب من بادس وقطعة من الأسطول البرتغالي المكلف بحماية المضيق[3].

ومما لاشك فيه أن هذين الإخباريين لم يذكرا كل المعارك البحرية بين المغاربة والإيبيريين، وأنهما، كغيرهما من المسيحيين، كانا يعمدان إلى التقليل من أهمية الانتصارات الإسلامية، أو يحجمان عن ذكرها.

وتضيف محاضر محاكم التفتيش إلى ما سبق حقيقة بالغة الأهمية : لم يقتصر هذا النوع من الجهاد على سكان المدن الساحلية ذوي العادات والخبرات البحرية، بل شمل كذلك أشخاصا ينتمون إلى مناطق داخلية كضواحي القصر الكبير[4]، أو مراكش[5] أو تارودانت[6] أو فاس [7] التي أعطت عددا يفوق ما قدمته الحواضر السابقة الذكر. وبذلك يكون البدو وأهل الحضر، والمستقرون والرحل، قد أسهموا في هذا المجهود الوطني الذي صاحب وآزر الجهاد البري الذي أصبح الرأي العام، المؤطر من

---

(1) نفسه، ص ص 209 ـ 211.

(2) R. Ricard (Traducteur), **Les Portugais et l'Afrique du Nord**... Paris, 1940, p.11-12

(3) نفسه ص :24.

(4) Inquisição de Lisboa (inq. Lix.) processo n° 3932.

(5) Inq. Lix. processo n° 4098.

(6) Inq. Lix. processo n° 12057.

(7) Inq. Lix. processo n° 1623, 10821, 10363.

لدن الفقهاء والمتصوفة، يوليه مكانة خاصة[1].

و أطر الجهاد البحري وأشرف عليه قواد المدن الساحلية الحرة كتطوان وبادس (قبل احتلالها سنة 1508) والعرائش وسلا. و أسهم قائد القصر الكبير بدوره في هذا النشاط اعتمادا على ميناء العرائش كما سنرى. واعتمد هؤلاء القواد على بحارة مغاربة وأطر أتراك وعلوج. فقد ذكر الإخباري (دو سوزا) السابق الذكر، أن صيادا من أصيلا التجأ إلى مدينة القصر الكبير وأسلم هناك، وأصبح يترأس مراكب تحمل بحارة مغاربة وأتراكا لمهاجمة الجنوب البرتغالي ومنطقة الأندلس الإسبانية، حيث استطاع أن يغنم ويأسر الكثير. فقد نزل يوما بمدينة «فارو» (FARO) البرتغالية على رأس أسطول صغير مكون من سفينتين جزائرتين وأخرى من بادس، ومركب من تطوان، فضلا عن سفينة من العرائش التي كان على متنها مائة بحار. وقد أسروا خمسين أو ستين برتغاليا. وفي طريق العودة استولى على سفينة برتغالية كانت راجعة من جزر الرأس الأخضر محملة قطنا وعاجا، وكان على متنها عشرون بحارا. وهاجم مرة أخرى منطقة (سان لوكار) ودخل الوادي الكبير في اتجاه إشبيلية، الأمر الذي « ... ألزم الملك يوحنا بإرسال أسطول... لحماية «الغرب» والمضيق، وطرد أولئك القراصنة وإرغامهم على الانسحاب إلى قواعدهم».[2]

وأشار نفس الإخباري كذلك إلى استيلاء مجاهدي مدينة سلا على سفينة برتغالية[3]. وعلى ذكر سلا، نشير إلى أن محاضر محاكم التفتيش تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن نشاطها الجهادي لا يعود إلى استقرار الموركسيين بها، بل إلى العقود الأولى من القرن السادس عشر. فقد كان في ملكية قائدها عدد من المراكب، كان جل رؤسائها من الأتراك والعلوج. فمن خلال محضر محاكمة البحار الجنوي الأصل (Vicente Genoves) الذي أسر بعد هجوم فاشل سنة 1550 على الجنوب البرتغالي، وحوكم بتهمة الردة واعتناق الإسلام ومحاربة المسيحيين، نعلم حقائق مهمة عن نشاط الجهاد البحري بتلك المدينة المغربية. فقد كان إيطالي الأصل أسره الأتراك بالساحل

(1) الناصري، **الاستقصا**...ج 4 ص 111، محمد بن عسكر الشفشاوني: **دوحة الناشر** ... نشر محمد حجي - الرباط 1976 ص 59-61.

R. Ricard: **Les Portugais et l'Afrique du Nord**, pp. 136-137.

(2) ونشير هنا إلى أن «الغرب» (Algarve) البرتغالي يعني جنوب البلاد وهي تسمية عربية تعود إلى العهد الاسلامي

(3) R. Ricard, op. cit. p. 138.

وقد تمسك بإسلامه وأبلى البلاء الحسن في مطاردة السفن المسيحية ومهاجمة السواحل الإسبانية والبرتغالية، وأسر عشرات المسيحيين. وقد انتقل بين الجزائر وبادس وتطوان وسلا والعرائش. وكان، حين أسره سنة 1550، في خدمة قائد سلا، ولم يكن سنه يناهز آنذاك الثلاثين. وقد ذكر أحد شهود الاتهام أمام القضاة أنه لما كان أسيرا بسلا، شاهد المتهم عائدا إلى تلك المدينة بسفينتين برتغاليتين محملتين قمحا كان موجها إلى مدينة مازيغن، وكان على متنهما ستة عشر فردا. كما ذكر أنه هاجم مرة قادس «وسان لوكار» وأسر سبع أو ثمان سفن. وأضاف أنه لام المتهم مرة على إسلامه وعلى مساعدته المسلمين ضد المسيحيين، فأجابه «بأنه مسلم وغير مسيحي، وأنه يتعيش من عمله». وشاهد المبلغ المتهم مرة يعلق في عنقه صرة بها تراب من قبر أحد أولياء المعمورة (المهدية) اتقاء لعنف الأمواج، ولكي لا يأسره النصارى. وقد وجدت الصرة فعلا في عنقه يوم أسره.

ومن خلال نفس المحضر، نعلم كذلك أن كلا من قائد سلا و«ملك بادس» (بوحسون الوطاسي) كان يملك سفنا. ومن خلال شهادة أخرى، نعلم أن المتهم كان يعمل ببادس حوالي سنة 1542، وأنه أسر مرة ثلاثة وثلاثين برتغاليا في مركب كان متوجها إلى سبتة[1].

و دفعت مجموعة من العوامل محمد الشيخ السعدي إلى الاهتمام بإنشاء أسطول حربي فور دخوله إلى فاس سنة 1549. ويمكن التأكيد هنا على عاملين أساسيين:

1 ـ فقد تبين له ولمساعديه، منذ بداية العمليات الجهادية ضد البرتغاليين، أن تحرير الثغور يقتضي بالضرورة حصارا بريا وبحريا لمنع وصول الأقوات والعتاد والرجال إلى الثغر المحاصر.

2 ـ بروز الخطر العثماني كقوة طامعة في غزو المغرب بدعوى مساندة الحليف الوطاسي أولا، وجمع كلمة المسلمين للجهاد في ظروف أحسن، ثانيا.

لذا وقفنا على ما يؤكد انشغال محمد الشيخ السعدي بموضوع الأسطول فور

---

(1) Inq. Lix. proc n° 7481

دخوله فاس، إذ حاول الاستفادة من غابات بادس القريبة[1]. كما أمر نفس السلطان، وفي نفس التاريخ، بإحياء أوراش سلا التي خرجت منها فيما بين 1549 ـ1550 أربعة مراكب كبرى من نوع (الغليوطة)[2]. ولم تقتصر جهود السلطان على هذا الموقع، بل اهتم كذلك ببادس التي صنعت بها أربع غليوطات، والعرائش التي ركبت بها ثمان من هذا النوع، وثلاث من نوع آخر[3]. وقد تم كل ذلك فيما بين 1549 ـ 1550. و كانت الظروف مواتية لنجاح تلك السياسة بتوفير الكفاءات الأجنبية اللازمة لها. فقد نتج عن السلم الموقع بين العثمانيين وهنغاريا منذ صيف 1547 لمدة خمس سنوات، تسريح عدد كبير من البحارة الذين جذبتهم الرواتب المغرية التي كان المغرب يعرضها. وبالفعل التجأ إلى المغرب حوالي ألف من البحارة والجنود الأتراك[4]. كما اعتمد المغرب كثيرا على كفاءة الأعلاج والمسيحيين في هذا الباب، وقدمت الدولة كل الإغراءات الممكنة لدفعهم إلى الإقبال على المغرب والاستقرار به قصد الاستفادة من خبراتهم[5].

ونلمس حرص المسؤولين المغاربة على الاستفادة من الكفاءات الأوربية، ورغبتهم في الاستفادة من بعض الآلات والوسائل البحرية من خلال محضر محاكمة البحار البرتغالي الملقب بالألكن F. Bayáo o Gago خلال سنة 1554، بتهمة الاتجار بالمغرب وبيع سلع محرمة هناك. فقد مثل شخص أمام قضاة محكمة تفتيش لشبونة يوم 24 أبريل 1554، وذكر بعد أدائه للقسم أنه شاهد المتهم أمام دار قائد آسفي «... يمسك بخارطة بحرية ليعلمهما (يشير إلى القائد ومسلم آخر) شؤون البحر، ذاكرا لهما أن بتلك الرياح يمكنهما الذهاب إلى قادس، وبالأخرى إلى الجزر الخالدات»[6].

ومثل مبلغ آخر أمام المحققين يوم 9 ماي 1554، وذكر أنه «رأى الألكن المذكور يسلم لقائد آسفي مرساة حديدية وصارية مركب كانتا داخل سفينته أمر القائد بوضعهما بالشاطئ... كما توصل القائد كذلك بمجداف آخر...» وأشار نفس المبلغ أن المتهم كان «يذهب إلى الشاطئ ليعلم الملاحة لمسلم كان يريد أن يصبح رئيس مركب، وذلك اعتمادا على خريطة بحرية كان يمسكها بيده ويعلق عليها بقوله: في هذه الجهة

(1) A. Dziubinski, L'armée... op., cit. p. 91

(2) نفسه، ص : 92 .

(3) نفسه، ونفس ص .

(4) نفسه، ص : 93.

(5) نفسه، ص: 63 وما بعدها.

(6) أحمد بوشرب، "محضر محاكمة..." المنشور بهذا الكتاب

قادس، وعلى تلك إلى الجزر الخالدات». وقد اعترف المتهم نفسه أنه لما كانت سفينته راسية بآسفي «دخلها قائد المدينة العلج وبرفقته قائد البحر، وطلب منه المرساة التي كانت بمركبه وخريطته البحرية، فسلمهما له مكرها لأنه خاف على نفسه»، كما اعترف أنه كان فعلا يعلم بعض المغاربة طريقة استعمال الخرائط البحرية، وأن القائد المذكور اقترح عليه الإقامة بآسفي والإشراف على النشاط القرصني بها[1].

وفي جلسة يوم 21 ماي 1554 اعترف المتهم بأنه «... لما صنع المسلمون مركبا بآسفي، وحاولوا وضع المدفعية عليه، وعدهم Afonso Alvares بصنع مسند لها لكي لا تبقى معلقة، غير أنه لا يعرف ما إذا كان قد نفذ ذلك أم لا. صحيح أنه لما كان بآسفي مع «أفونصو» المذكور، ذهبا، بأمر من القائد المذكور، مسافة ثلاث «لغواش»[2] للبحث عن الخشب الذي يصلح لصنع صارية المركب المذكور... وصحيح كذلك أن قائد آسفي سأله والخريطة البحرية بين يديه عن موقع جزيرة «ماديرا» وجزر الرأس الأخضر والخالدات وغيرها...»[3].

نستنتج من هذه الأقوال والاعترافات التي أوردناها عن قصد لأهميتها :

1 ـ الرغبة الأكيدة لدى المسؤولين المغاربة للعودة إلى البحر بعد تحرير الثغور التي كانت بأيدي البرتغاليين، والاعتماد في ذلك على الخبرات المسيحية.

2 ـ النتائج الخطيرة التي خلفها احتلال مدينة كآسفي لمدة 33 سنة فقط، أي لمدة تقل عن جيلين! فالآسفيون لم يعودوا يحتفظون، فيما يبدو، ولو بالمستوى الذي كانوا عليه قبل الاحتلال سنة 1508. يتجلى ذلك من خلال عجزهم عن اختيار الأخشاب الصالحة لصنع الصواري، وفي كونهم أضحوا لا يتوفرون ولو على أبسط الوسائل الملاحية من مراس وأشرعة وبوصلات وخرائط...

3 ـ أصبح على المغاربة، والحالة هذه، أن يقطعوا أشواطا كبيرة للوصول إلى المستوى الذي كانت عليه أوربا آنذاك فيما يخص تقنيات صنع السفن وطرق ووسائل الملاحة بأعالي البحار، ورسم الخرائط وقياس موقع السفينة بالنسبة لخطوط الطول

(1) نفسه.

(2) عن هذه المسافة التي قدرها H. de Castries ب 5555 متر راجع:

Description du Maroc sous le règne de Moulay Ahmed Mansour d'après un manuscrit de la Bibliothèque Nationale. Paris, 1909, p.9.

(3) محضر محاكمة... ورقة 58 ظ- 61و

والعرض...

ويبدو أن الجهود التي بذلها السلاطين السعديون الأوائل أتت أكلها. فقد كان الأسطول المغربي يتكون في عهد الغالب من ثلاثين قطعة[1]. وأصبح في عهد أخيه عبد الملك يشمل أربعين. إلا أن هذا الأسطول اندثر في بداية القرن السابع عشر، بعد وفاة المنصور السعدي، وما تلا ذلك من فتن واضطرابات... ولم يعد المغرب إلى الاهتمام ـ على المستوى الرسمي ـ بالأسطول الحربي إلا في عهد السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله.

ويحق لنا الآن ان نتساءل عن أسباب فشل عودة المغاربة إلى البحر خلال القرن 16م.

لن نعرض بتفصيل كل الأسباب التي قد تفسر ذلك الفشل، خصوصا وأنها لم تدرس لحد الساعة لتحديد مكانة كل واحد منها. لذا سنقتصر هنا على ذكر الأسباب التي نعتقد أن لها دورا معينا. وفي انتظار دراسة مفصلة ودقيقة، نقترح مؤقتا أربعة أسباب :

1 . سبب طبيعي يتمثل في عوائق ثلاثة عاكست باستمرار النشاط البحري بالمغرب.

ـ صعوبة الساحل المغربي العنيف الأمواج والقليل المرافئ الطبيعية والخلجان. ولأخذ فكرة عن هذا الجانب يمكن الرجوع إلى ما دونه بعض البحارة البرتغاليين كبريرا «P. Pereira»[2] وفرنديش (V. Fernandes)[3]. اللذين تركا لنا أوصافا دقيقة لظروف الملاحة بالساحل الأطلسي المغربي، واللذين أكدا في مناسبات كثيرة (أصيلا[4]، أزمور[5]، آسفي[6]...الخ) على صعوبة الوصول إلى الموانئ لوجود صخور أو حواجز رملية بمداخلها، ولعنف الرياح على مقربة منها.

وتجدر الإشارة إلى أن آسفي لم تكن في الحقيقة تتوفر على ميناء، ذلك أن السفن كانت تبقى بعيدة عن الساحل، وكان الشحن أو الإفراغ يتم اعتمادا على قوارب

(1) A. Dziubinski, op, cit. p. 93.

(2) P. Pereira. **L'Esmeraldo de Situ Orbis,** Lisboa, 1957.

(3) P. de Cénival et Theodor Monod: **Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal de V . Fernandes (1506-07) Paris**, 19378.

(4) P. Pereira, op. cit. p. 51.

(5) نفسه، ص: 56.

(6) نفسه، ص: 59.

خاصة[1]. ولعل الاستثناء الوحيد كان يتمثل آنذاك في ميناء البريجة(مازيغن) الذي أكدت النصوص البرتغالية على جودته[2].

ـ قلة الغابة بالمغرب وفقر الغطاء النباتي به، الأمر الذي عاق كثيرا انتعاش النشاط البحري. ولإعطاء فكرة عن هذه القلة، نشير إلى أن أوراش سلا كانت في عهد محمد الشيخ السعدي تعتمد على خشب ضواحي بادس الذي كانت البغال تجره على امتداد تلك المسافة الطويلة والصعبة[3]. ويبدو من خلال الأوصاف التي وصلتنا عن مطلع القرن السادس عشر، أن ذلك الغطاء النباتي المحدود قد تراجع خلال القرون اللاحقة[4]. ولتغطية النقص في مادة الخشب، لجأ الأشراف إلى الاستيراد. وقد زودتنا محاضر محاكم التفتيش بمعلومات عن بعض الكميات التي جلبها بحارة وتجار أوربيون إلى أكادير، وكانت الأثمان جد مرتفعة، وتسمح بربح يتجاوز 1000٪[5]. غير أن هذا الخشب كان يستعمل في ميدان صناعة السكر، ولم نتوصل بأية إشارة إلى استعماله في ميدان الملاحة.

ـ قلة الأنهار القابلة للملاحة وانعدام القنوات التي يمكن أن تعمق التقاليد الملاحية حتى داخل البلاد. وكانت مصبات الأنهار المغربية الكبرى تحتوي على حواجز رملية تحد من هذا النشاط، خصوصا وأن المراكب مالت مع بداية الكشوف الجغرافية نحو الضخامة. ومع ذلك، يبدو أن أنهارا كمرتيل واللكوس[6] وسبو[7] وأم الربيع[8]

---

(1) أحمد بوشرب : دكالة ...ص : 89.

(2) **Sources Inédites**... op. cit. I, p. 442.

(3) A. Dziubinski... op.,. cit. p. 91.

(4) B. Rosenberger: "travaux sur l'histoire du Maroc aux XVème et XVIème siècles publiés en Pologne". Compte rendu, in : **Hespéris - Tamuda**, Vol XII, 1971, pp. 196-205.

وانظر أوصاف الحسن الوزان في مؤلفه المعروف : **وصف افريقيا** ج 1.

(5) انظر ص 24 من هذا الكتاب

(6) أنظر مقالنا المنشور بالصفحات 105-114 من هذا الكتاب.

(7) P. Pereira op. cit. p. 53 حيث ذكر : «وعبر هذا النهر يمكن أن تصعد خلال فصل الشتاء سفن صغيرة الحجم في اتجاه المنبع حتى مدينة فاس»

(8) H. de Castries: **Description**... op. cit., p.91 - P. Pereira p. 56, **Sources Inédites**...op. cit I p. 438.

وحتى السوس[1] كانت خلال القرن 16 تسمح، في فصل الشتاء على الأقل، بنشاط ملاحي، ولو بمستوى متواضع.

2 . أسباب سياسية : لم يكن الحكام السعديون يتوفرون على الوقت اللازم للانكباب بشكل جدي ودائم على موضوع الأسطول المغربي. فقد كانت فترات الحكم قصيرة، انشغل السلاطين خلالها بإبعاد الخطر العثماني، ومراقبة المسيحيين، وإخماد الثورات الداخلية، والقضاء على الأمراء المعارضين. ويمكن في هذا الباب طرح سؤال لا يزال في حاجة إلى دراسة مفصلة لإعطائه جوابا مقنعا : ألا يمكن ربط تلك الاضطرابات التي ميزت العهد السعدي الأول، وسقوط الدولة السعدية بشكل مبكر في مرحلة احتضار طويل، بمسألة الجباية التي تفاحشت مع مرور الوقت وترسيخ هياكل الدولة، وخصوصا العسكرية منها. لقد بينت دراسة المهناوي السابقة الذكر، أن شراء وصنع الأسلحة النارية، وجلب الأطر التركية والمسيحية لتأطير الجيش ومحاولة إحياء الأسطول المغربي، فرض على الدولة الرفع من الضرائب واحتكار الأنشطة المربحة كالتجارة مع الخارج، وأجود الأراضي، وقسم كبير من ماء السقي... الأمر الذي حرم فئات عريضة من المجتمع المغربي من الاستفادة منها. وعلى كل حال، لم تدم فترة الاستقرار والازدهار النسبي للدولة السعدية إلا خمسين سنة (1554-1603) سقطت بعدها في مرحلة طويلة من الوهن والضعف. وحتى المرحلة الأولى لم تخل كما قلنا من فتن وحروب، كما حدث في عهد المتوكل والمعتصم، وحتى خلال عصر المنصور نفسه، الأمر الذي لم يكن يسمح للسلاطين بالاهتمام بالقدر الكافي بموضوع الأسطول.

3 . ثم هناك مسألة أخرى ربما شغلت المغاربة عن البحر، وهي تفضيلهم للعلاقة مع بلاد السودان على النشاط البحري. ومعلوم أن السعديين أولوا الصحراء وبلاد السودان أهمية قصوى، حتى إنهم تحكموا في توات وتيكورارين قبل تحكمهم في

---

(1) وصلتنا ثلاث إشارات عن وصول سفن برتغالية إلى مدينة تارودانت لشحن السكر، وهذه ظاهرة غريبة ولا تصدق لولا أن من ذكرها من المتعودين على الذهاب إلى المنطقة كالبحار الذي حوكم من لدن محكمة التفتيش، والذي أحلنا عدة مرات على محضرد، وبعض الجنود البرتغاليين من حامي أگادير الذين سقطوا في الأسر بعد تحرير هذه المدينة واقتيدوا إلى تارودانت حيث بقوا في انتظار وصول أموال فديتهم : **Sources Inédites** op. cit. IV, p. 6 حيث كتب Bastião Alvares إلى الملك البرتغالي من تارودانت يوم 5 يناير 1542 "Do dia que o Padre Frei Amtónio partio d'esta cydade ate oge que fazem vimte e nove dias, entrarom nesta cydade nove navios de mercadorias de toda sorte a saber..." من يوم مغادرة الأب أنطنيو لهذه المدينة (أي تارودانت التي حررت بها الرسالة)، أي منذ تسعة وعشرين يوما، دخل إلى هذه المدينة تسعة مراكب محملة سلعا من مختلف الأنواع، أي... » وقد علق الناشر على هذه الإشارة بقوله: إن صاحب الرسالة يقصد إفراغ السفن بأگادير ونقل حمولتها برا إلى تارودانت، وهذا ما لا يفهم من النص الواضح والباعث على الاستغراب على كل حال.

منطقتي تادلة ودكالة القريبتين، وأن دراسات جادة[1] تؤكدها الوثائق المنشورة[2]، بينت أن السعديين أعلنوا على البرتغاليين حربا تجارية قبل أن يعلنوا عليهم حربا عسكرية حقيقية (أول حصار حقيقي لأكادير كان سنة 1533، ولآسفي في السنة التالية)[3]، وأنهم لم ينتصروا عليهم عسكريا إلا بعد أن هزموهم في الميدان التجاري بإفشال مخططاتهم بالمغرب وغرب إفريقيا. فهذا الربط الجديد بين المغرب والسودان - الذي عبر عنه مؤرخ برتغالي[4] «بانتقام القافلة من الكرفيلا»، كان السبب الحقيقي في الانتصار عليهم بأكادير أولا(1541)، ثم بآسفي وأزمور وأصيلا والقصر الصغير ثانيا. فوفرة ما كانت الطرق الصحراوية تضمنه للمغرب من أموال وذهب، جعلت الاهتمام بالبحر، - الذي كانت الظروف الطبيعية والسياسية لا تساعد عليه - ثانويا، خصوصا وأن مواد الصحراء كانت تلزم التجار الأوروبيين بالإقبال على موانئ المغرب لاقتنائها، ولعرض سلع البلاد المسيحية.

4 - أسباب خارجية : لقد كانت أوروبا حريصة على تضييق الخناق على المغرب وحرمانه من الاستفادة من سواحله، وذلك بمنع تزويده بالمواد التي تسمح له بالعودة إلى البحر وإحياء أسطوله. وقد عارضت الدول المسيحية، وحتى التي كانت تدعي التحالف مع المغرب، تزويده بالسفن التي كان يطلبها.

هذا، ويجب كذلك أن لا ننسى أن تزايد النشاط البحري مع مطلع القرن السادس عشر أولا، ثم بعد استقرار الموريسكيين بسلا ثانيا، جعل أعدادا مهمة من بحارة المغرب تسقط في الأسر، وبذلك فقد المغرب نسبة مهمة من الكفاءات البحرية التي كان يتوفر عليها. وبهذا نفهم إلحاح المولى إسماعيل على لويس الرابع عشر قصد تحرير الأسرى المغاربة بفرنسا[5]، كما نفهم اضطرار حفيده سيدي محمد بن عبد الله إلى الاعتماد الكبير على الأتراك والعلوج في تركيب السفن وقيادتها. فمن مجموع 5000 بحار كان عدد الأجانب منهم 2000! وكانت نسبة مهمة ممن وجهوا للخدمة العسكرية بالأسطول

---

(1) V M Godinho: **L'économie de l'Empire portugais aux XVème et XVIème siècles** , Paris, 1969.
L. Mougin: "Les premiers sultans sa'dides et le Sahara". **Rev. de l'Occid. Musulman et de la Méditerranée**. n.19, 1975, pp. 162-180.

(2) **Sources Inédites**...op. cit. III, p. 357.

(3) أحمد بوشرب، **دكالة**، 384، 415.

(4) V.M. Godinho, op. cit. pp. 173-226

(5) **الوثائق**، عدد 1، مديرية الوثائق الملكية، الرباط، 1976 ص ص 412 414.

المغربي تنتمي إلى الجنوب المغربي والمناطق الصحراوية[1] . وبذلك نلاحظ شبها كبيرا بين محاولات محمد الشيخ السعدي ابتداء من 1549 قصد إحياء الأسطول المغربي، ومحاولة سيدي محمد بن عبد الله القيام بنفس العمل بعد أكثر من قرنين من الزمن.

(1) محمد بوكبوط : **الاصلاحات السياسية والاقتصادية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله ونتائجها** دبلوم الدراسات العليا. فاس 1987، ص: 55.

وثيقة برتغالية
تتعلق بواقعة "الجزيرة" باللكوس
التي انهزم فيها البرتغاليون سنة 1489 *

تقديم الوثيقة :

عثر الراهب ch. M. de Witte البلجيكي الذي اهتم طويلا بدور البابوية في التوسع البرتغالي[1]. عثر على هذه الوثيقة بأرشيف البندقية "Archivo de State ونشرها مترجمة إلى الفرنسية بمجل **Studia** البرتغالية في أول عدد لها[2].

وتتعلق الوثيقة بواقعة تكاد تكون مجهولة عند المغاربة لعدم اهتمام مصادرنا بها، ولاكتفاء التي فعلت ذلك ـ وهي قليلة ـ بالاشارات السريعة. والوثيقة عبارة عن تقرير بعث به الملك البرتغالي يوحنا (جوا) الثاني[3] إلى الفاتكان بعد واقعة "الجزيرة". وكانت تلك الواقعة نتيجة للمحاولة الأولى التي قام بها البرتغاليون داخل التراب المغربي إلى حدود ذلك التاريخ(1489) بعد أن كانوا يكتفون بالاستيلاء على المدن الساحلية. واستهدفت المحاولة مدينة القصر الكبير والسهل الخصب المحيط بها. ولهذا أمر الملك البرتغالي بتشييد حصن بجزيرة باللكوس أطلق عليه اسم"الجزيرة المليحة" « Ilha Graciosa ».

وتم ذلك خلال سنة 1489. وإذا كان بعض المؤرخين يعتقدون أن انطلاق الاسطول الذي خصص لهذه المهمة تم في نهاية فبراير[4]، فإن التقرير الملكي يرجع ذلك إلى شهر يونيو من نفس السنة. واعتمادا على هذه الوثيقة يمكن جعل حد لتضارب المصادر حول التاريخ الحقيقي لهذه المغامرة البرتغالية الجديدة بالمغرب[5] .

ولم نتوصل بمعلومات تمكننا من تحديد المكان الذي اختاره البرتغاليون لتشييد

* نشر بمجلة كلية الآداب، فاس، ع 2 ـ 3 ـ 1979- 1980، ص ص ـ 376 ـ 386.

(1) له مقال طويل في الموضوع :

"les Bulles pontificales et l'expansion portugaise au XV e siècle"
In: **Rev. d'histoire ecclésiastique** (Louvain) n . XLVIII 1953 pp. 683-718. XLIX 1954 pp. 438-4716, LI 1956 pp.413-453 et pp. 810-836. LIII, 1958 ,pp.5-46.

(2) Ch. Witte." Une lettre Inédite du Roi Jean II au Pape Innocent VIII sur l'affaire de Graciosa"- **Studia** n°. I, 1958, pp.91-100.

(3) ابن أفُونصُو الخامس .(1481 ـ 1495).

(4) P. Cenival, **Sources Inédites de l'histoire du Maroc. Série Saâdienne, Portugal** TI,p. XV (Introduction)

وسنشير إلى المجموعة تحت الرموز التالية : **S.I.H.M.**

(5) ذكر أحمد ابن القاضي : **لقط الفرائد...**، نشر محمد حجي. 1976 (ص 271 ـ 272) أن الواقعة تمت خلال سنة 895 (1489) أو 896 (1490)، وأعطى الوزان تاريخا صحيحا، ولكنه لم يذكر الشهر: وصف أفريقيا، ج1/239. وسكت صاحب **عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل** عن التاريخ. وأعطى الاستاذ بنمنصور الذي نشر العروسة تاريخ (1479). أنظر محمد الكراسي، **عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل**، نشر عبد الوهاب بنمنصور، الرباط

حصنهم. ولكن المصادر أجمعت على أن الموقع لا يوجد عند مصب نهر اللكوس[1] وأن الحصن شيد بمكان يوجد ما بين العرائش والقصر الكبير. فلقد ذكر ابن القاضي أنه ب:« ... الجزيرة التي أسفل من قصر كتامة... »[2]. وذكر الوزان أنه على بعد عشرة أميال من البحر، وأن المكان المختار كان قرية أخليت بعد احتلال البرتغاليين لأصيلا[3](1471). وجاء في الرسالة الملكية أن الموقع يوجد على بعد ستة أميال من مدينة القصر الكبير. وهذا ما سمح لبعض المؤرخين بتحديده قرب مكان التقاء نهر اللكوس ونهر وادي المخازن[4].

ووقعت الحادثة بعد مرور 74 سنة عن بداية الغزو البرتغالي للمغرب. وكان البرتغاليون قد احتلوا خلال هذه المدة جل المدن الساحلية الشمالية (سبتة 1415، القصر الصغير 1458، أصيلا وطنجة 1471)، ولم تبق حرة إلا تطوان والعرائش رغم أن السلطان محمد الشيخ تنازل لهم عن المدينة الأخيرة في معاهدة أصيلا (1471). وامتاز الغزو البرتغالي لشمال المغرب بمجموعة من الخصائص سبقت الإشارة إليها في محل آخر.[5] وكان أهم تلك الخصائص سيطرة الطابع العسكري واكتفاء البرتغاليين بالمدن الساحلية. وكانت محاولة التوغل والتحكم في المناطق الداخلية اعتمادا على حصن جزيرة المليحة أول تجربة في هذا الباب.

ونتج ذلك التحول في السياسة البرتغالية عن الأوضاع الجديدة التي أصبحت تعيش عليها المدن المحتلة، والتي أصبحت تمثل عبئا ثقيلا على البرتغال القليل الإمكانات. ويكفي للدلالة على ذلك الإشارة إلى أن تلك المدن أصبحت تبتلع لوحدها عشر مداخيل البرتغال[6]. وكانت تلك المصاعب المالية، بالإضافة إلى انشغال البرتغاليين بالكشوف والمبادلات مع المراكز التجارية المستحدثة بسواحل غرب افريقيا وراء امتناعهم عن احتلال العرائش بعيد سقوط أصيلا، وامتناعهم كذلك عن احتلال

(1) ذكر ذلك الاستاذ عبد الوهاب بنمنصور الذي أضاف بأن مدينة العرائش لم تكن موجودة آنذاك الشيء الذي تنفيه المصادر البرتغالية ومعاهدة أصيلا. **أنظر عروسة المسائل**... مصدر سابق ص 14 هـ 9. كما ذهب إلى ذلك حسن الفكيگي الذي ادعى أن الموقع لا يبعد كثيرا عن المصب وعن موقع ليكسوس الأثري، الأمر الذي تنفيه الرسالة الملكية التي نقدم ترجمتها، ولا يبرر التحصين، طالما أن الموقع قريب جدا من العرائش. حسن الفكيگي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية** (1416-1574) أطروحة مرقونة، كلية الآداب، الرباط، ص 372

(2) أحمد بن القاضي ... **لقط الفرائد**... مصدر سابق ص : 271.

(3) الوزان، ج. 1، ص 239-240.

(4) P. Cenival, **S.I.H.M., Portugal**, I, p. XV (Introd).

(5) أحمد بوشرب، دكالة.. ص ص 161 وما بعدها.

(6) Ch. Lannoy et Van Der Lander , **Histoire de l'Expansion coloniale des peuples européens**, TI., p. 187.

تطوان التي أضر جهادها البحري وجهاد العرائشيين كثيرا بالأساطيل والسواحل البرتغالية.

وتعود المشاكل التي سببتها المدن الأربع للبرتغال للانفصام الذي أحدثه الغزو بينها وبين ضواحيها من جهة، و بينها وبين المناطق المغربية الأخرى من جهة ثانية، إذ حولها إلى مجرد ثكنات عسكرية. لم تعد سبتة أهم أسواق التبر بالمغرب ومحج التجار الأوربيين، كما لم تعد أصيلا عاصمة التوابل والعقاقير كما كانت من قبل. وأضحت تلك المدن تعيش على حساب البرتغال الذي أصبح يزودها باستمرار بالرجال والأموال والأقوات والعتاد. وتؤكد هذه الحقيقة كل الايصالات المتعلقة بتلك المدن،[1] والتي لا تشير إلا إلى المواد الغذائية والعتاد الحربي والذخيرة ومواد البناء التي تجلب من البرتغال. وفشل البرتغاليون في الحصول على معاهدات مع قبائل أحواز المدن المذكورة لكي تزودها بالمواد الغذائية والحطب، ولكي تقبل على أسواقها[2]. هذا، ومن المعلوم أن الأراضي الخصبة بشمال المغرب الخاضع للبرتغاليين لا تبدأ الا بسهل اللكوس الذي كان التحصين يستهدفه بالأساس. وبذلك تكون العوامل الاقتصادية في هذه المحاولة البرتغالية أهم بكثير من أي عامل آخر : فك الحصار عن المدن وتجديد ارتباطها بضواحيها، والتحكم في السهل الخصب ومحاصيله.

وقد أكد بعض المؤرخين البرتغاليين على أهمية هذا العامل الاقتصادي[3].

وإذا كان الاختيار قد تم لهذه الغاية، فإن التاريخ كان مفروضا على الملك البرتغالي. فلقد استفاد من مساعدة مالية كبرى من البابوية، وتعهد مقابل ذلك بعبور البحر إلى المغرب خلال ثلاث سنوات، ابتداء من صدور القرار البابوي (18 فبراير 1486)[4]. وبذلك تكون المدة قد انتهت في فبراير من سنة 1489، الشيء الذي حتم على الملك تنفيذ تعهداته ليتمكن من الاستفادة من امتيازات مالية جديدة. ولفهم فحوى الرسالة وسبب إرسالها إلى البابا وتحريرها بطريقة معينة، يجب الإشارة إلى موقف الفاتكان من غزو البرتغاليين للمغرب.

جعلت الحروب الصليبية بالمشرق، وحروب الاسترداد بالمغرب (الأندلس)، والحقد الكبير على الاسلام والمسلمين الذي تولد عنها البابوية تعيد النظر في موقفها من

(1) كان الملك يبعث بوكلاء، تجاريين أو بمحاسبين أو بمسؤولين عن التموين للخدمة بالمدن المحتلة. وبعد نهاية مهامهم تراجع حساباتهم وتسلم لهم تلك الايصالات التي تحتوي على قائمة تشير إلى كل ما توصلوا به من أموال وعتاد ومن سلع مختلفة. أنظر نماذج عن ذلك بـ: **دكالة**، ص 161، وكذا الملاحق.

(2) **S.I.H.M., Port.**, p.x (introd)

(3) Ch. M. Witte: "une lettre..." **Studia**, I, 1958 p.91

(4) Idem, "les Bulles..." op. cit., LIII,1958, p.41

العنف، وأضحت تحل قتل «الكفار»، وتسمح للرهبان بالقيام بذلك. وتعزز هذا الموقف لدى البابوية على الخصوص بعد بداية المد العثماني بأوربا المسيحية وفتح القسطنطينية.(1453). وهكذا أعلنت البابوية الحرب الصليبية عدة مرات، وقامت بعدة محاولات لتوحيد كلمة الملوك النصارى، واتخذت عدة اجراءات سياسية وجبائية لفائدة الممالك المساهمة في تلك الحروب. وبما أن البرتغاليين والإسبان كانوا أكثر المسيحيين استعدادا لمحاربة الإسلام، فإن البابوية أغدقتهم بالعطاءات والامتيازات المالية ،وسمحت لهم بالتصرف في مداخيل كنائس بلادهم. وازدادت تلك التنازلات التي قامت بها البابوية لفائدة الملوك البرتغاليين مع مرور الزمن، حتى إن متتبع تلك القرارات البابوية يلاحظ بسهولة أن هدف محرريها أضحى هو إدخال أكثر ما يمكن من الأموال للخزائن الملكية، وذلك «من أجل تغطية تكاليف عمليات عسكرية باهظة...»[1]. وبالفعل توصل الملك يوحنا بفضل هذا القرار بأموال طائلة كما يشهد على ذلك مؤرخه (Rui de Pina)[2].

وتدخلت مصالح بعض البابوات الشخصية وغيرتهم على بلادهم لتزيد تلك الامتيازات أهمية. فلقد خاف البابا العجوز كليست الثالث Calixte أن يصاحب المد الإسلامي من المشرق مد إسلامي من المغرب، تكون نتيجته الحتمية دخول المسلمين من جديد إلى اسبانيا، بلاده[3]. وكانت البابوية تنتظر من ملوك إسبانيا والبرتغال إعلان حرب شاملة ضد المسلمين بإفريقيا لا تتوقف إلا بالقضاء على الاسلام بها. غير أن ملوك الدولتين خيبوا أملها فيهم. فلقد اهتموا بالكشوف والبحث عن الطرق التجارية الجديدة، وبتأسيس امبراطورية تجارية أكثر من اهتمامهم بغزو المغرب وبالتبشير به، وكانوا ينظرون إلى احتلال الثغور المغربية بمنظار مخالف (القضاء على التجارة المغربية، القضاء على القرصنة، منع غزو إسلامي جديد للبرتغال، البحث عن أراض جديدة...)[4]. ولم يخف البابا العجوز السابق الذكر خيبة أمله في أفونصو الخامس لعدم وفائه بالتزاماته، ولاختفائه وراء مبررات غير مقنعة. ومعلوم أن هذا الملك كان أنشط ملوك البرتغال بالمغرب إلى ذلك الوقت، وأن كثرة مكتسباته

(1) Ibid., p. 41

(2) Ibid., p. 45

(3) Ch. M. Witte:" Les Bulles... "op. cit.

(4) لأخذ فكرة عما حصل عليه ملوك البرتغال من امتيازات راجع مقالة : Ch. M. Witte المشار اليها في أول هامش من هذه المقدمة.

جعلت المؤرخين البرتغاليين ينعتونه «بالإفريقي». ويستنتج من هذا أن البابوية أصبحت تلزم الملوك البرتغاليين بمجموعة من الشروط مقابل استفادتهم من امتيازات الحرب الصليبية. وكانت تلك الشروط سبب تحصين قرية "الجزيرة"، وسبب إرسال هذه الرسالة وما جاء فيها من تبريرات وحجج وإغراءات لإقناع البابا بأن الملك قام فعلا بما تعهد به. ولم تكن معلومات البابا عن الواقعة تسمح له بمراقبة ما ورد في الرسالة الملكية من معلومات. ولهذا اقتنع بمحتواها وجازى يوحنا الثاني بتجديد العمل بالقرار البابوي الصادر سنة 1486، وذلك بقرار مؤرخ في 19 فبراير 1491[1].

وللحصول على هذا الرضى البابوي، استعمل الملك كل الحجج الممكنة لصبغ الحادث بصبغة الانتصار الكبير. ويتجلى هذا بكل سهولة من خلال أسلوب الرسالة الذي يتوخى أولا وقبل كل شيء إقناع القارئ وتبرئة ذمة الملك.

لقد جاء في الرسالة أن المشاكل التي واجهت برتغاليي الحصن لا تعود إلى تهاون الملك، ولكن إلى سببين اثنين : إغلاق النهر في وجه المراكب البرتغالية، ومنع المحاصرين الذين كانوا يتوفرون على كل شيء داخل الحصن من التوصل بالمساعدة. ولكن الملك البرتغالي قرر جعل حد لهذه الوضعية بعبور البحر إلى المغرب.

أما السبب الثاني فيكمن في تفشي الحمى نظرا لكثرة المستنقعات، الشيء الذي دفع بالمسؤولين إلى التفكير في الجلاء عن الحصن، وذلك قبل أن تتم محاصرته، مما يفهم منه أن الغاية من هذا التبرير الثاني كانت تقليل أهمية التخلي عن الحصن والجلاء عنه. ولذلك وعد ببناء حصن آخر في موقع ملائم.

وجعلت الرسالة الملكية الواقعة انتصارا برتغاليا كبيرا. فلقد ادعى الملك أن الوطاسي طلب الصلح وألح في طلبه، وقدم مقابل ذلك تنازلات ترابية كبيرة. فبالاضافة إلى ما كان بأيدي البرتغاليين، تنازل لهم عن أراض أخرى خصبة. ولا تجعل المعاهدة الممضاة مع المغاربة حدا لنشاط البرتغاليين العسكري بالمغرب، بل تسمح لهم بمتابعة الحروب التي أعلنوها على الإسلام به. وكان كل ما اعترف به الملك هو تبادل الرهائن بين الطرفين.

والجدير بالملاحظة أن المصادر المغربية أكدت على هزيمة البرتغاليين، وذكرت أنهم

(1) **S.I.H.M. Portugal**, I., p. XVI (Introduction)
Ch. M. Witte: "Les Bulles" ... op. cit., LIII, 1958, p. 43.

أرغموا على تقديم فدية مهمة مقابل سماح الوطاسي لهم بالانسحاب.[1] إلا أنها أشارت كذلك إلى أن الوطاسي لم يكن مستعدا للاستمرار في الحصار حتى الانتصار النهائي على برتغاليي (المليحة). وإذا كان الوزان قد سكت عن أسباب هذا الموقف، فإن صاحب (العروسة)[2] ذكر أن ذلك يعود إلى الفتن الداخلية، وخصوصا إلى عصيان قبائل الشاوية.

واجتمع الطرفان للتفاوض بعد هذه الواقعة بقرية (تشميس) قرب مصب نهر اللكوس. وتم إمضاء المعاهدة يوم 27 غشت 1489. وكانت مجرد تجديد للعمل بمعاهدة أصيلا (1471) التي كانت ستنتهي سنة 1491[3].

ترجمة الرسالة الملكية

«إلى الأب المقدس جدا في المسيح، السيد السعيد، السيد البرئ، العاهل البابوي[4]،

بعناية الله [من] يوحنا[5]، بفضل الله ملك البرتغال والغربيين بهذه العدوة وتلك بإفريقيا، وسيد غينيا، الابن المخلص للقدسية المذكورة. يقبل بكل تواضع أرجلكم المقدسة.

بما أننا أيها الأب السعيد قد انشغلنا كثيرا بمتابعة الحرب بإفريقيا، وبما أننا مدفوعون إليها بنوع من الاندفاع الوراثي لإعلان الحرب ضد المسلمين، أعداء الاسم المسيحي، وذلكم من أجل أن نساهم بدورنا المتواضع في نشر العقيدة المسيحية وإهانة الخرافات المحمدية، ولنتمكن من المحاربة بسهولة، أمرنا منذ أربعة أشهر[6] ببناء حصن بافريقيا في اتجاه منابع النهر المسمى نهر العرائش[7]، على بعد ستة أميال[8] من

(1) محمد الكراسي، **عروسة المسائل** ... مصدر سابق ص 16 «ثم فدوا نفوسهم بكل ما طلب أعطوه له متمما»؛ الحسن الوزان، ج1، ص 240.

(2) محمد الكراسي ... **عروسة المسائل**... مصدر سابق ص 16 .

(3) **S.I.H.M, Port. I,p .XVI**

(4) كان في منصب البابا آنذاك: إِنُوصَانْتْ الثامن:

Witte..."Les Bulles... "op., cit. L III 1958 p. 33

(5) يوحنا الثاني ابن أفونصو الخامس، ملك البرتغال ما بين(1481 - 1495.)

(6) بما أن الرسالة مؤرخة في 21 شتنبر، فإن بداية التحصين تعود إلى شهر يونيو.

(7) نهر اللكوس.

(8) حوالي عشرة كلمترات.

مدينة، المسلمين المسماة بالقصر الكبير. ومدينة الكبير[1] هذه، تعتبر بالفعل أكبر وأمنع مدن مملكة فاس.[2] وكان بناء الحصن الذي أمرنا بتشييده يسمح لنا بتخريب أسوارها وقصبتها بكل سهولة، أو على الأقل بإرغامها على أداء الضرائب هي والمناطق القريبة منها، بالاضافة إلى عدد كبير من المدن الأخرى.

وبالفعل، شرعنا بسرعة كبيرة في بناء الحصن، وكذلك الحباك من الخشب. وتم حفر خندق و الانتهاء في بعض الأماكن من بناء الأساس (لأن ضيق الوقت لم يسمح بالقيام بعمل أضخم)، لما نزل ملك فاس بنفسه على رأس 4000 فارس وجيش لا يحصى من المشاة، (وقد تم إطلاعنا على هذا العدد بصفة دقيقة) وذلك لمنعنا من الاستمرار في العمل ولمحاصرة الحصن الذي لا زال متواضعا ومن الخشب. وبعد أن قسم جيشه أقام معسكرا مزدوجا استعدادا للحصار. وفعلا خيم الملك صحبة ابنه الأكبر[3] والشيوخ والقواد ورؤساء المتطوعين صحبة قسم مهم من جيشه على الضفة اليمني للنهر من جهة أصيلا[4] التي هي مدينة خاضعة لنا بافريقيا. وعلى الضفة الأخرى للنهر أقام جيشا آخر كان يرأسه (ايال Iyale).[5] وهو رجل ذو قيمة لا تضاهى، ولا ينافسه فيها أحد بمملكة فاس. وبما أن محلتي المسلمين كانتا على هذا الشكل [على جوانب النهر]، وبما أن المسلمين كانوا يتحكمون في ضفتيه، فإنهم سدوا وقت الجزر بالحجارة نهر العرائش الذي كان يسمح وقت المد بوصول الزاد إلى قصرنا (لأن النهر غير عميق ببعض الأماكن، خصوصا في الصيف ووقت الجزر). كما حصنوا كل ضفة بحائط متين من الحجارة والخشب، حيث وضعوا على كل جانب آلات موجهة نحو النهر، ومنعوا السفن من الدخول اليه، وحالوا بذلك دون وصول الزاد إلى جنودنا.

وكان بالفعل داخل الحصن المحاصر من طرف المسلمين حامية مكونة من 1500 من محاربينا[6] الذين رغم تواضعه في البداية، عرفوا بخبرتهم كيف يعززونه بسور وخندق وحائط منحدر مشرف على الخندق، واضعين حوله مدافع وآلات أخرى بالاضافة إلى المجانيق، إلى حد أنه خلال الأربعين يوما التي دامها الحصار[7]، لم يجرؤ لا ملك

(1) كذا في الأصل.

(2) عن القصر الكبير: الوزان، ج1/236-234 وعن حدود «مملكة فاس»، نفسه/153.

(3) لعله ولي عهده، محمد البرتغالي الذي حكم المغرب ما بين 1505 ـ 1526.

(4) دخل البرتغاليون أصيلا في غشت 1471. ومنها اتجهوا نحو طنجة التي سقطت بعد أن فشلت ثلاث محاولات برتغالية ضدها.

(5) لم نستطع تحديد هوية هذه الشخصية.

(6) ذكر محمد الكراسي (**عروسة المسائل**) ص 16، أنهم كانوا 6000 وهو عدد مبالغ فيه

(7) ذكر الكراسي أن ذلك دام شهرا: **عروسة المسائل**... مصدر سابق ص: 16.

فـاس، ولا رؤسـاء جنده على الاقتـراب منه أو مـهـاجـمـتـه من أية جـهـة[1]، ولكنهـم بتمديدهم للحصار كانوا يتوقعون إرغام [رجالنا] على إلقاء السلاح تحت وطأة المرض. ذلك أن الهـواء الوبائي سبب لجلهم الحمى، الشيء الذي كنا نخشاه أكثر بكثير من أي شيء آخر. وفـعـلا كنا قـررنا لأجل ذلك تخـريب الحـصن وإخـلاءه لولا أن الحـصـار تم بطريقة فجائية، لأن اضرار الجو [بالحامية] كان مجهولا لدينا في بداية بنائه. [وقد ألحق رجالنا] خلال الحصار بغاراتهم المتتالية بجيش المسلمين خسائر لا يستهان بها.

ومن جهـتنا، وبعـد أن لاحظنا أن الحـصـار قد طال، وبعد اطلاعنا على خطتـهم، وبعد أن تبين لنا أن وصول الزاد أصبح معـاقا بالسد، قررنا العبور إلى إفريقيـا لفك الحصار بالقـوة. واستدعينا بسـرعة البارونات ونبلاء ممالكنا وجمعنا جيشـا كثيرا، وأعددنا الآلات ومختلف أنواع المدافع والآلات الحربيـة، وذلك لعبور البـحر في نهاية شتنبر. ورغم أن فـصل الشتـاء كان قـد اقترب، فإننا كنا مطمئنين إلى أنه اعـتـمـادا على الإله، وعلى قوة جيشنا، سنتمكن من فك الحصـار وسنقوم ببعض الأعمال الخالدة ضد المسلمين تمجد اسم الإله.

ولكن لما علم ملك فاس بمشروعنا، ووصلتـه أنباء استعدادنا، أرسل سفارة إلى رؤساء جندنا وإلى قباطنة مراكبنا التي كانت راسية بمدخل النهر، أعلنت أنه كـان بين ملك فـاس وأبينا السـيـد أفونصو المقدسـة روحـه[2]، والذي كـان سـابقـا ملكا على البرتغال، سلم مستديم وصداقة طول حياته، وأنه يتمنى لو حصل منا على نفس السلم، وأن ذلك أكـبر مـبـتغى لديه. وقبل إذا مـا رضـينا بإعطائه السلم لبضع سنين أن يرفع الحـصـار وأن يجلي جنده. وتعـهـد بأن يعـود كل جنود الحـامـيـة إلى قـواعـدهم دون أن يلحقهم أذى، وأن يأخذوا كل أمتعتهم وجميع أنواع الأسلحة والمدافع. وأكثر من ذلك، تعهد بأن يترك لنا قسما كبيرا من الأراضي الخاضعة لنفوذه[3].

ولما بلغنا ذلك بواسطة قباطتنا السابقي الذكر، وبما أن الحصن تم تشييده بمكان لم يحسن اختياره ولم يكن ملائما، ونظرا للجو الموبوء، ولكون النهر يصبح غير عميق خصوصا في فصل الصيف، ونظرا لكون المكان الذي يوجد به الحصن المذكور، والعرائش الموجودة على مصب النهر، ولكون الأراضي الأخرى المجاورة التي هي من أخصب ما يوجد بمملكة فاس قد بقيت داخل حدود ما عاد الينا، ونظرا لأنه يمكننا دائما إذا ما

(1) ذكره الوزان كذلك.

(2) هو أفونصو الخامس أو أفونصو الافريقي (1438 ـ 1481).

(3) لم نتوصل بما يثبت هذا الادعاء الأخير.

حان وقت بناء حصن آخر[1] أحسن، لا توجد به العيوب ولا المخاطر التي كان معرضا لها الحصن السابق الذكر، والذي سيكون في بنائه خدمة كبرى للإله، ونظرا كذلك لكون هذه الهدنة لا تشمل المدن والقرى والمداشر والأراضي التي يمكننا غزوها بدون أن يمس ذلك بالهدنة أو السلم المذكور، فإننا قررنا قبول الشروط التي قدمها ملك فاس، كما ذكرنا. وما أن بلغنا قباطتنا قبولنا لتلك الشروط، والتي بلغوها لملك فاس، حتى أمضوا المعاهدة فورا، وذلك بعد أن تم تبادل الرهائن [2]. وقد انسحب كل رجالنا الذين كانوا بالحصن صحبة كل أمتعتهم بدون أي خطر. وبما أن كل شيء قد تم حسب رغباتنا، فاننا تخلينا عن عبور البحر إلى إفريقيا.

وبما أن كل هذا يعتبر بالنسبة الينا سببا لشكر الإله، وأننا لا نشك في أن قداستكم ستشعر بالغبطة بسببه ،قررنا تبشيركم به لكي تكونوا على علم بمثل هذه القضية، ولكي تعلموا مدى مجهوداتنا ونشاطنا في حرب إفريقيا، وبما أننا كتبنا ذلك بتفصيل أكبر لخطيبنا، فإنه سيخبر قداستكم بكل تفصيل.

نرجو إذن بإلحاح من الإله القدير أن يديم صحة قداستكم طويلا لصالح كنيسته.

من مدينتنا تفيرا (Tavira) يوم 21 شتنبر 1489

(الإمضاء)

إلى الأب المقدس جدا في المسيح، والسيد السعيد البرئ، البابا بمشيئة الإله على الكنيسة الرومانية والكونية المقدسة.

ملحق :

ونظرا لكون (عروسة المسائل) كانت المصدر العربي الوحيد الذي توسع في هذا الباب، نورد ما ذكرته بشأن هذه الحادثة تعميما للفائدة، خصوصا وأن الكراسة أصبحت من المصادر المغربية التي يصعب الحصول عليها نظرا لندرتها.

ذكر مجيئ النصارى إلى عمارة جزيرة مليحة.[3]

(1) يلاحظ أن هذا الوعد لم ينفذ في القسم الشمالي من المغرب إلا صيف 1515 بتحصين المعمورة (المهدية)

(2) ذكرت المصادر المغربية أن البرتغاليين أدوا للوطاسي فدية مهمة، وأضاف الوزان إلى هذا إرغامهم بإرجاع بنات رئيس عسكر الوطاسي اللواتي كن في الأسر بلشبونة.

(3) محمد الكراسي : **عروسة المسائل**. مصدر سابق ص : 15 ـ 17 .

وجاءت الروم إلى الجزيرة	بكل أسطول وكل ميرة
ودخلوا وادي الكوس	ذاقوا به الهوان بالنكوس
أقاموا إذ ذاك هناك بلدا	وأسكنوا فيه الطغاة والعدا
جيش أهل الغرب طرا ودنا	وكان للغرب نصيرا ما ونا
جاهد بالمال وبالنفوس	قطع طمع الكافر البئيس
ولم يزل مع المجاهدينا	من فاس والأنجاد أجمعينا
لحقهم قبل تمام العمل	وقد أداروا سور لوح معمل
وجيشوا فيه بستن مئه	من صانع وقائد من الفئة
نازلهم على شفير الوادي	ورد في شماله الأعادي
وكانت من ذا الرئيس الحبيب	رأى سديد ردهم جليب
أن قطع الوادي بجعل سلل	من قصب وبالصخور تمتلى
أنزلها بعمل التثبيت	وقطع الوادي بلا تلبيث
وامتنع الطلوع بالأجفان	فأيقنوا بساعة الخسران
عمل في ذاك وشد العملا	وفوق سرجه الصخور حملا
حتى إذا بلغ قصدا وعلا	أبطل للكافر ما قد أملا
طاعت له وذلت الأعلاج	ويبست من تحتها الخراج
ثم فدوا نفوسهم بكل ما	طلب أعطوه له متمما
من بعد ما دام الحصار شهر	والناس تباع لأولى الأمرا
وكان للسلطان ضد خالفه	شاوية وغيرها مخالفه
فخاف إن أبطأ شهر آخر	عواقبا لا مثلها يؤخر
غلب اذ بلغ قصدا واعتلا	وأجفل الكفار عنه جفلا
وغلب الاسلام بعد الترح	وكان ذاك باكتمال الفرح
عقد صلحا بعد ذاك معهم	عشرين بعد خمسة سنينهم
حتى ربا المكسب والتلاد	وازدانت العباد والبلاد
عزم نجله الأمير يحيى	على فساد الصلح طول المحيا
مع الشريف الأسعد الجلى	علي بن راشد السنى
أخلا جميع ما النصارى عمروا	وجهة الهبط، فكلا دمروا
وعاد للإسلام كل مسلم	وصار جيش الكفر غير مسلم

معركة وادي المخازن من خلال كتاب "حملة الملك دون سبستيان على إفريقيا" لمؤلف برتغالي مجهول (*)

إن المصادر والوثائق البرتغالية المتعلقة بتاريخ المغرب خلال القرن الخامس عشر والقرن التالي كثيرة ومتنوعة. ولقد سبق لي في مقال نشرته مجلة المناهل[1] أن أكدت على مدى مساهمة هذه الوثائق في كتابة تاريخ بلدنا، خصوصا وأن الوثائق المغربية المتعلقة بالفترة تكاد تكون منعدمة، في حين أن مصادرنا قليلة، وفي نفس الوقت مفتقرة إلى الدقة. وقد يتجلى ذلك في كوننا لا نتوفر لحد الساعة على الأقل إلا على وثائق قليلة جدا تتعلق بوادي المخازن، في حين أن الأرشيفات الأوروبية تضم عشرات التقارير والمذكرات والرسائل عن ظروف تنظيم الحملة والاتصالات الدبلماسية التي تمت بين الأطراف المعنية، وعن أعداد الجنود والعمليات العسكرية وما خطط لها من تكتيك واسراتيجية...

حقيقة أن هذه الوثائق والمصادر الأجنبية تتوفر على عيوب كثيرة كتحيز محرريها وحقدهم على المغرب والمغاربة، أو كالدفاع عن مصالح المستعمر وتفسير الانتصار أو الهزيمة بالمجهود البرتغالي وحده دون أخذ ردود الفعل المغربية بعين الاعتبار..إلخ. إلا أنها تبقى مع ذلك أداة عمل مهمة توفر مادة علمية محترمة، خصوصا إذا أخذ المؤرخ الحيطة اللازمة منها. فهي تكمل مصادرنا وتسلط الأضواء على جوانب كثيرة بقيت غامضة من تاريخ بلدنا. لذا يصبح من اللازم علينا إتمام جمعها وترجمتها ونشرها.

---

* نشر بمجلة **المناهل**، ع. 28، 1983، ص ص 113 - 133.

(1) أحمد بوشرب : مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي، **المناهل** ع 26 صص 32 - 83. وهو منشور ضمن هذا الكتاب.

وخلال بحثي هذا لن أتعرض إلا للمصادر المتعلقة بمعركة وادي المخازن، لأن الوثائق معروفة نسبيا بسبب نشرها المبكر ابتداء من (1905) على يد الباحث الفرنسي (هنري دو كاستر Henri de Castries) ومساعديه ضمن السلسلة الشهيرة (المصادر الدفينة المتعلقة بتاريخ المغرب)، ولكونها استغلت في دراسات مغربية تتعلق بمعركة وادي المخازن ، وسأكتفي هنا بالإشارة إلى بعض مساهمات المصادر البرتغالية معتمدا في ذلك على مصدر معاصر للمعركة هو: "**حملة الملك دون سبستيان على إفريقيا**". "**Jornada del Rey Dom Sebastião à Africa**"

وأود قبل الحديث عن هذا المصدر التأكيد على الملاحظتين التاليتين المتعلقتين بمدى اهتمام البرتغاليين، قدامى ومحدثين، بمعركة وادي المخازن :

1 - إن ما يثير انتباه متتبع الكتابات التاريخية المتعلقة بمعركة وادي المخازن قديما وحديثا بالبرتغال هو السكوت الغريب عنها رغم خطورتها على تطور البرتغال بعد 1578، ورغم أن آثارها الفكرية على وجه الخصوص بقيت قائمة إلى بداية هذا القرن. فالمعركة لم تكن موضوعا خاصا إلا لمصدرين برتغاليين، هما المصدر الذي سأعود إلى تحليل مادته العلمية، وآخر حرره (جرونيما دو مندونصا Jerónimo de Mendonça) تحت العنوان التالي: «**الحملة على إفريقيا**» (**Jornada de Africa**)،

وتنطبق نفس الملاحظة على الدراسات. فما هو مرتبط بالمعركة بشكل مباشر قليل جدا وينحصر في المقالة السريعة أو الدراسة السطحية[1]. لذا لم أقف ولو على مقال واحد أو دراسة واحدة حررت بقلم أحد المؤرخين البرتغاليين البارزين. وعلى العكس من ذلك، نلاحظ أن الدراسات التي تهتم بعهد وشخصية دون سبستيان، أو بالتيار الفكري (السباستيانية Sébastianisme) الذي نتج عن إختفائه المأساوي تصل إلى 38 دراسة ومقالا على الأقل، الأمر الذي يجعل من هذا الملك الشخصية السياسية البرتغالية التي حظيت بأكبر عناية من طرف المؤرخين البرتغاليين، قدامى ومحدثين. ومست تلك الدراسات جوانب غريبة لم يهتم بها بالنسبة لشخصيات برتغالية أخرى، كنفسية الملك،

---

(1) راجع مثلا :

- Aguiar, Fernando, de: **Em redor de Alcácer**, Porto, 1942.
- Dornelas Alfonso : **De Ceuta a Alcácer Quibir**. Lisbonne, 1925.
- Esaguy: José de : **O Minuto vitorióso de Alcácer Quibir**, Lisbonne. 1944.
- Mendonça, Lopes: A batalha de Alcácer Quibir e a perda del Rey D. Sebastiào, **Rev. Panorama**, 1858.

أو مدى صحته العقلية والجنسية، وتمت على يد أطباء وعلماء نفس بارزين(1). وقد يتجلى هذا السكوت المقصود عن المعركة والاهتمام الكبير بشخصية الملك فيما يلي:

- فبمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الرابعة للمعركة، لم يكتب ولو كتاب واحد عنها، بينما تعددت الدراسات عن سبستيان إلى حد أن دارين مختلفتين للنشر أصدرتا مؤلفين لمؤرخين مختلفين يحملان نفس العنوان المعبر : **دون سبستيان قبل وبعد القصرالكبير** .

"Dom Sebastião antes e depois de Alcácer Quibir"

وعلى العكس من هذا، اهتم المؤرخون البرتغاليون اهتماما خاصا بالهجوم على سبتة سنة 1415، ودار نقاش حاد بين كبار المؤرخين البرتغاليين حول أهم الدوافع التي كانت وراء اختيار تلك المدينة المغربية كأول هدف(2).

كما يتجلى سكوت المؤرخين البرتغاليين عن معركة وادي المخازن في كون المصادر القليلة جدا المتعلقة بها لم تعرف إلا رواجا جد محدود جعلها تصلنا اليوم في نسخ وحيدة، وفي كونها لم تعرف النشر إلا مؤخرا. فالمصدر الذي سأتحدث عنه لم ينشر لأول مرة إلا سنة 1970، وتم ذلك بالموزمبيق وليس بالبرتغال!

ويعود هذا السكوت المقصود عن معركة وادي المخازن إلى السببين الرئيسيين التاليين :

أ - لقد كانت المعركة نكسة كبرى بالنسبة للبرتغاليين الذين أعطتهم انتصارات بداية القرن السادس عشر ثقة كبيرة بالنفس، وجعلتهم عظمة المكتسبات المحققة بالمقارنة مع إمكانات بلادهم المحدودة يعتقدون أن ذلك يمثل هبة إلهية. لذا راج عند خاصة وعامة الناس أن البرتغاليين أضحوا يمثلون آنذاك شعب الله المختار(3).

ولقد كان من المنتظر من حملة سبستيان على المغرب أن تعيد الثقة إلى النفوس بعد خيبة الأمل التي سببها التراجع الذي عرفته المكتسبات البرتغالية في عهد سابقه،

---

(1) Moura Relves, Joaquim: **El-Rey D. Sebastião, Ensaio biológico**, - Coimbra, 1972

(2) Oliveira Martins, "Ceuta", in : Os filhos de D. João I, réédition 1973, p. 41-76
- Antonio Sérgio,"A conquista de Ceuta".. **Ensaios**, I, p. 255-71.
- David Lopes, **História de Arzila durante o domínio português (1471-1550 e 1577-1589)**, Coimbra, 1924 (introd).
Jaime Cortesáo, **A Expansão dos portugueses no periódo Henriquino**, Lisbonne, 1975 pp.137-167.
- V. Magalhács Godinho, **A Expansão quatrocentista portuguesa** (Ceuta e Marrocos), pp. 51-73 . etc...

(3)
- Joáo de Barros: **As Décadas de Asia**, II, p. 43 (Lisbonne. 1945)
- Hernani Cidade: **A literature portuguesa e a Expansão ultramarina**, 1963 p. 61.

الملك يوحنا الثالث، الذي اضطر إلى التراجع أمام زحف قوات الشرفاء السعديين بكل من أگادير وآسفي وأزمور (1541) وأصيلا والقصر الصغير(1550).

ب ـ إسقاط البرتغاليين بسبب تلك الهزيمة الكبرى في وضعية كانوا يعملون باستمرار على تفاديها، وهي الدخول تحت السيطرة الإسبانية لكون فليب الثاني أصبح بعد موت سبستيان الوارث الشرعي لعرش البرتغال. وكان هذا الخوف وراء المكانة الخاصة التي خص بها برتغاليو ذلك العصر سبستيان، لأن مولده أنقذهم من تلك الوضعية التي كانوا على وشك السقوط فيها لموت أبيه قبل مولده؛ لذا لقبه الشعب بـ **O Desejado** .**المحبوب**، أو **المرغوب فيه**. وبما أن موته في عنفوان شبابه (24 سنة) قد أسقطهم في قبضة فليب الثاني، فإن فئات عريضة من الشعب البرتغالي رفضت تصديق وفاته بساحة المعركة، واعتقدت أن إهانة الهزيمة فرضت عليه الاختفاء لزمن معين. لذا أضحى سبستيان عند البرتغاليين **O Encoberto**، أي "**المختفي**" الذي سيعود للظهور من جديد.

2 ـ الملاحظة الثانية المتعلقة بهذه المصادر البرتغالية تخص أسباب ودوافع تحريرها فهذه المصادر البرتغالية تهتم بالمعركة من خلال زاوية خاصة، وهي العمل على تحديد مسؤوليات مختلف الفئات الاجتماعية البرتغالية فيما سقطت فيه البلاد من مشاكل بسبب تلك المعركة. لذا نقف على نوعين متناقضين من المصادر :

ـ نوع ينزل اللوم على رجال الكنيسة، وخصوصا منهم "الجزويت " الذين تكفلوا بتربية وتعليم الملك الصبي، والذين حُمِّلوا مسؤولية تنظيم الحملة على المغرب لكونهم اتهموا بتحريض الملك على محاربة المسلمين والتأثير عليه وإشباعه بالروح الصليبية. ومن هذه المصادر يمكن ذكر المصدر الذي سأعود بعد قليل لعرض مادته العلمية. وهذا النوع من المصادر يرتبط بالنبلاء.

ـ نوع ثان حاول إلصاق التهمة بالنبلاء والعسكريين ودحض ما حاولت الكتابات السابقة إلصاقه "بالجزويت" من تهم. ومن هذه المصادر مؤلف الراهب (أمدور ربيلو **Amador Rebello**) "**تاريخ حياة الملك دون سبستيان**"[1] « **Relação da vida d'El. Rey dom Sebastião** » .الذي كان مؤلفه أستاذ ومرافق سبستيان منذ أن كان صبيا في السادسة من العمر إلى أن نظم حملته على المغرب.

إن المصدر الذي اخترته كنموذج يحمل العنوان التالي : "**حملة الملك سبستيان على إفريقيا** "**Jornada del Rey dom Sebastião à Africa**". وقد

(1) نشره:

- Francisco Sales Loureiro, lisbonne, 1977.

فضل مؤلفه أن يبقى اسمه مجهولا وذلك لأسباب لم يصرح بها، وإن كانت مرتبطة بخوفه من بطش فليب الثاني لشدة وطنيته وغيرته على بلاده. وإذا كان المؤلف سكت كذلك عن تاريخ الانتهاء من التأليف، فإن ما ورد بالكتاب من إشارات إلى بعض الأحداث والأشخاص يؤكد أن التحرير تم ما بين 1588 و 1598. وبذلك يكون تاريخ التأليف غير بعيد عن الأحداث المؤرخ لها.

وفضلا عن معاصرة المؤلف للأحداث، يتوفر هذا المصدر على مزية أخرى تزيده أهمية، وهي أن المؤلف صرح أنه شارك في معركة وادي المخازن، وذكر ما يفهم منه أنه ممن كانوا يحضرون ديوان الملك.

ويحتوي الكتاب على ثلاثة أقسام تتوزع فيما بينها خمسة وستين فصلا قصيرا. وخصص المؤلف القسم الأول والثاني لعهد الملك سبستيان (1568 ـ 1578) وجاء في 55 فصلا (28 للقسم الأول و27 للثاني) في حين وزع مادة القسم الثالث على عشرة فصول خصصها لعهد الكردنال هنريك (1578ـ1580).

إلا أن أهم المعلومات الواردة بالكتاب تتعلق بحملة سبستيان على المغرب، الأمر الذي يبرر العنوان الذي أعطاه لكتابه أو «مذكراته» كما يحلو له أن يسميها. وبالمقارنة مع ما كتب عن معركة وادي المخازن من مصادر، يبدو مصدرنا هذا «... أكمل الأعمال المحررة بالبرتغالية عن الحملة ضد المغرب وأصدقها في نقل الأخبار، بل وأكثر من هذا، فهو المصدر البرتغالي الوحيد الذي ذكر الظروف الحقيقية التي تم فيها قتل دون سبستيان... »[1].

وإذا كان صاحب هذا المصدر قد تبنى منهجا كرنلوجيا بسيطا تتبع بواسطته تطور مشروع سبستيان منذ أن كان مجرد فكرة في ذهن صبي إلى أن انتهى إلى المصير الذي نعرفه، فإني عملت على استخراج المواد التي تتعلق بالمحاور الرئيسية التي يدور حولها الكتاب. وكانت أربعة :

1 ـ المحور الأول ، ويتعلق بأوضاع المغرب والبرتغال قبيل الحملة

لقد حاول المؤلف أن يقنعنا بأن الحملة كان ينتظرها مصير واحد، هو الهزيمة، لأنها أعدت في غياب هياكل سياسية وإدارية قادرة على تسييرها والإشراف عليها، وفي غياب هياكل مالية في مستوى حجم الحاجيات التي تتطلبها الحملة، وفي غياب مخطط عسكري واضح واستراتيجية محددة مسبقا! لقد كان كل شيء يقول المؤلف،

- **Journada del Rey**... op. cit. . XXXIX (introduction de l'éditeur F.S Loureiro.) (1)

يتم حسب هوى الملك الذي لم يكن النبلاء والمستشارون يجرؤون على معارضته أو مجرد مناقشة أفكاره وآرائه. ولقد أطال المؤلف بأسى كبير في تعداد حالات الرشاوي واستغلال النفوذ والاستيلاء على أموال الدولة التي أضحى الوزراء وكبار المسؤولين البرتغاليين يقومون بها بدون أدنى خوف أو خجل[1].

وأكد المؤلف كثيرا على تفشي الرذائل بين البرتغاليين الذين اعتبرهم جد مخالفين للأجيال السابقة من ناحية الأخلاق والقيم، وحمل إنشاء إمبراطورية واسعة، وما نتج عنها من انكباب على جمع الأموال، ولو بطرق غير مشروعة، واختلاط البرتغاليين بشعوب مختلفة، مسؤولية ذلك السقوط في الرذائل [2]. وكانت غاية المؤلف من هذا العرض إقناعنا بالتبرير الذي أعطاه للنهاية التي عرفتها الحملة، والتي جعلها تبدو كعقاب إلهي وإنذار بأن ما ينتظر البلاد سيكون أسوء إذالم يتعظ البرتغاليون[3].

ومن جهة أخرى، ذكر أنه إذا كان النبلاء قد استجابوا لنداء ملكهم، فإن فئات عريضة من الشعب البرتغالي رفضت المساهمة في مغامرة الملك الشاب، وامتنعت عن القيام بالخدمة العسكرية معتمدة في ذلك على الرشاوي[4].

وكانت الصورة التي تركها لنا المصدر عن المغرب جد مخالفة. فلقد أكد أن المغاربة ما أن علموا بعبور سبستيان البحر إلى بلادهم حتى التفوا حول ملكهم وتقاطروا على الهبط من كل الجهات لأنهم تنبهوا إلى أن حملة الملك البرتغالي «... لا تهدف إلا إلى الاستيلاء على أراضيهم وأسر نسائهم وأبنائهم، لذا هبوا للمشاركة في تلك الحرب حتى من المناطق الأشد بعدا بداخل إفريقيا...»[5]. وأطال المؤلف كذلك في ذكر إستعدادات المعتصم العسكرية والدبلماسية لمنع تنظيم الحملة أولا، ثم لإفشالها ثانيا[6].

وعن أوضاع البلاد السياسية، سلط المؤلف الأضواء على الحرب الأهلية التي عرفتها بلادنا بعد دخول المعتصم إلى المغرب[7] وتمكنه من طرد ابن أخيه من السلطة. ورغم أن معلومات هذا المصدر البرتغالي دون ما توفره مصادرنا من دقة وتفاصيل، فإن

(1) - **Jornada** ... op. cit 43.

(2) - Ibid., p. 11

(3) - Ibid., pp 67, 124.

(4) - Ibid., pp. 59.

(5) - Ibid., p. 84.

(6) - Ibid., p. 81, 53-54

(7) - Ibid., pp. 27-29

الاعتماد عليه لا يخلو من فائدة خصوصا فيما يخص أحكام القيمة التي أصدرها على كل من المعتصم والمتوكل وأحمد المنصور.

ولقد أرجع المؤلف انتصار المعتصم على ابن أخيه إلى :

- ذكائه وخبرته بشؤون الحرب، الأمر الذي أكد عليه المؤلف عدة مرات[1] وجعله كذلك من أهم أسباب انتصار المغاربة بوادي المخازن[2].

- حب المغاربة للمعتصم وارتباطهم به وحقدهم على المتوكل. وكان المؤلف كذلك على اطلاع واسع بالتنظيمات العسكرية التي كان المغرب يعتمد عليها في عهد المعتصم، إذ ذكر مختلف الفرق العسكرية وأعدادها وأصل جنودها (أندلسيون، علوج...) وأسلحتها، وحتى أسماء أهم قوادها، الشيء الذي لا يرد في المصادر السعدية بنفس الدقة والتفاصيل[3].

وأخبرنا مؤلف هذا المصدر عن ظروف مبايعة المنصور الصعبة وعن قتله لأشهر قواد جيش الأندلس، الدغالي، مما يجعل هذا المصدر يوفر مادة علمية لا تخلو من فائدة، انفرد مؤرخ عهد المنصور، عبد العزيز الفشتالي بذكرها[4].

وعن الأوضاع الديموغرافية ، أكد المؤلف على كثرة المغاربة الذين كانوا ينتشرون في كل مكان، والذين شبه تكاثرهم بتكاثر النحل![5].

2 ـ المحور الثاني ويتعلق بالحملة التي تمثل القسم الأكبر من مادة هذا المصدر

فلقد تعرض بكل تفصيل إلى استعدادات كل من سبستيان فور عودته من (كوادلوبي) التي التقى فيها بخاله فليب الثاني إذ «... أمر بترتيب شؤون الحملة بأكثر ما يمكن من السرعة بدءا بتوفير الأموال...».[6]

وعن الترتيبات التي قام بها عبد الملك المعتصم بعد علمه بنوايا سبستيان، ذكر أنه أحسن استغلال الوقت (ثلاثة أشهر). فبعد تهدئة بعض أطراف السوس التي بقيت

(1) - Ibid., pp 28, 81, 91, 105.

(2) - Ibid., p. 105.

(3) - Ibid., p. 81, 83.

4) Ibid p. 129, 134. عبد العزيز الفشتالي : **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، تحقيق د. عبد الكريم كريم، الرباط (بدون ت) صص 41 ـ 47.

(5) - Ibid., p. 84.

(6) - Ibid., p. 43.

وفية لابن أخيه المتوكل «... عزز حاميات الموانئ التي توقع أن النصارى قد ينزلو بها، فجعل برأس غيرGuir) (فونتي) قائد قواده سعود (Sauda) على رأس ألف أندلسي والفين من المغاربة (mouros) المشاة. وأوفد ابن أخيه (Dant) إلى ضواحي مازيغن على رأس 4000 من الفرسان والمشاة. وبالعرائش جعل حاجبه محمد (-M. Hayar com) على رأس أربعة آلاف أخرى. ولما علم بنزول الملك بأصيلا، أوفد أخاه المولى أحمد يقود 3000 "رمح" و2000 من مستعملي البنادق الراكبين، وأمره بالبقاء باستمرار على مرآي من محلة النصارى واقتفاء أثرهم وإقلاق راحتهم...»[1]. ويضيف المؤلف أنه بعث برسائل إلى كل الأقاليم يحث السكان فيها على الجهاد، الأمر الذي جعله يكون جيشا قويا تحرك به نحو القصر الكبير...[2].

وتعرض المؤلف كذلك لمحاولات عبد الملك إبعاد سبستيان عن مشروعه وتحذيره من المتوكل الذي احتمى به، مؤكدا على رغبته في السلم. وأورد المؤلف ترجمة إحدى رسائل هذا السلطان[3].

وتتبع المؤلف بدقة كبيرة تحرك الجيشين من كل من لشبونة ومراكش إلى موقع المعركة الذي خصه بوصف دقيق.

وزودنا هذا المصدر البرتغالي بأعداد الطرفين . فلقد ذكر أن الجيش البرتغالي كان يضم 20000 محارب منهم 3000 ألماني و2000 إسباني و600 إيطالي. واصطحب سبستيان معه 12 مدفعا. ويلاحظ أن مصدرنا يختلف في هذه الأعداد مع المصادر البرتغالية الأخرى التي تجعل عدد الجنود يتراوح ما بين 14 ألف و20 ألف، وعدد المدافع 36.

وفضلا عن هؤلاء المحاربين كان إلى جانب محمد المتوكل حوالي 400 فارس[4].

وأكد المؤلف كثيرا على كثرة أعداد المغاربة لرغبتهم في الاستشهاد وحرصهم على إفشال مخطط الملك البرتغالي الذي كان يهدف إلى الاستلاء على أراضيهم وأسر زوجاتهم وأبنائهم... وكان الجيش المغربي مكونا على الشكل التالي : 66000 من الفرسان 44000 من المشاة . وكانت قطع المدفعية 22 وأورد المؤلف تفاصيل مهمة عن

---

(1) - Ibid., p. 81.

(2) نفس معطيات الهامش السابق.

(3) - Ibid., p. 54.

(4) - Ibid., p. 83-85.

مختلف عناصر الجيش المغربي، وأعدادها وأسلحتها ورؤسائها ...[1] وللتعبير عن كثرة أعداد الطرفين كتب: «... إن مشاهدة عظمة الجيشين، الإسلامي والمسيحي، وعدد الرماح والخيام ولمعان السلاح والضجيج والطلقات وأصوات الجنود تجعل القلوب ترتجف وألوان الوجوه تتغير، وتجعل كل واحد يخاف على مصيره حتى ولو كان فريقه هو الأكثر أمنا...»[2] . ولعل أهم الإضافات التي زودنا بها المصدر عن المعركة تتلخص فيما يلي :

ـ لقد كان الهدف الأصلي للحملة هو احتلال العرائش. فهذا ما تم الاتفاق عليه بين سبستيان وخاله، وبينه وبين المتوكل الذي التقى به بطنجة. وكان الانطلاق من أصيلا يهدف حسب نفس المؤلف إلى الاتجاه برا إلى هذه المدينة المغربية. «وذلك رغم أن المتوكل طلب منه عددا من الجنود والمراكب للذهاب إليها بحرا واحتلالها لتسهيل دخول سبستيان إليها، إلا أن الملك أصر على الالتحاق بها برا...»[3].

ـ وأمام كثرة المغاربة واستعدادهم للمواجهة، بدأ البرتغاليون، يقول المؤلف، يفكرون في الانسحاب والفرار إلى سفنهم. وذكر المؤلف أن المتوكل كان من بين المدافعين على هذا الرأي[4]. وإذا كان الملك وبعض كبار ضباطه قد عارضوا هذا الاقتراح، فإن سبستيان تبناه صباح يوم المعركة (4 غشت) وأعطى فعلا أوامره «... وشرع في التحرك حول النهر قصد عبوره والاتجاه نحو العرائش التي توجد على بعد ثلاثة (لغواش)[5]، عازما على الاصطدام مع العدو إذا ما حاول سد الطريق في وجهه...»[6].

ـ وسلط المؤلف أضواء كاشفة عن التكتيك الحكيم الذي اتبعه المعتصم وضباطه، والذي انتهى بتطويق الجيش البرتغالي تطويقا كاملا، إذ لم يستطع الفرار إلا 40 شخصا بينما قتل أو أسر الباقون أو غرقوا. وهذه إحدى الفقرات التي عبر فيها المؤلف عن إعجابه بخبرة عبد الملك الحربية : «... وعند طلوع فجر ذلك اليوم الرابع من غشت، شرع في ترتيب جيشه، فجعل الرماة والمشاة على شكل هلال، وجعل

(1) - Ibid., p.73.

(2) - Ibid., pp. 90-90.

(3) - Ibid., p. 76, 77.

(4) - Ibid., p. 93.

(5) تقدر مسافة كل واحدة بخمسة كيلو ميترات ونصف.

(6) - Jornada,. op. cit., p. 101.

الأندلسيين في موضع والمرتدين (العلوج) في آخر، بينما وضع الأهالي في محل آخر لكي يتعاونوا فيما بينهم، ولكي يتنافسوا في الاستبسال. وفي قرني الهلال وضع كوقاية 3000 فارس، أقول 10000 فارس، وقسم باقي الفرسان إلى فرق صغيرة شرعت في الابتعاد عن ساحة المعركة والانتشار بعيدا بالسهل لتنتهي اعتمادا على كثرتها إلى تطويق الجيش المسيحي من كل الجهات واحتوائه. ورغم أن المسلمين بطبعهم لا يلتزمون بأي نظام خلال معاركهم، فإن عبد الملك، الذي كان جنديا متمرنا وذا تجربة في شؤون الحرب، استطاع الحفاظ خلال ذلك اليوم بكل دقة على النظام... »[1].

3 . وكان المحور الثالث يتعلق بنتائج هذه المعركة الكبرى

فبالنسبة للبرتغال تعرض المصدر لنتائج المعركة السياسية. ولقد خصص المؤلف لها القسم الثالث والأخير من كتابه، حيث تعرض لفترة حكم الكاردنال هنري الذي بويع بعد وصول خبر موت سبستيان (1580.1578)، ولدخول البرتغال تحت الوصاية الإسبانية بعد موت الكاردنال العجوز، وتمكن الجيش الإسباني من القضاء على المقاومة البرتغالية الضعيفة.

أما عن النتائج المالية، فلقد أكد المؤلف على إفقار البلاد بسبب تلك الحملة لكثرة ما تطلبته من أموال، ولما حمله النبلاء معهم من أموال وأحجار كريمة، ولما دفعه الأسرى البرتغاليون لتحرير أنفسهم وتحرير ذويهم « ... إن السلب والغنائم المحصل عليها بتلك المعركة يمثل أهم ما تم الحصول عليه بكل معارك العالم المعروفة، لأن في غيرها تحدد أهمية الجيش بالسلاح والذخيرة في حين أن في هذه لم يكن الرجال الذين

التحقوا بساحة المعركة يبحثون إلا عن راتب أكيد أو عن النصر أو عن التفاخر بالجاه والنفوذ. لذا حملوا معهم ثروتهم من الذهب والفضة جاعلينها زينة، وذلك بدون خوف من أن تغني أعداءهم. إلا أنهم أخطأوا في الأخير لأنهم تركوهم أغنياء بينما تركوا مواطنيهم فقراء وبيوتهم إما مفقودة أو مرهونة أو جد متواضعة لكون الذين شاركوا في تلك الحملة القاسية لم يكتفوا بحمل ما كان بأيديهم من أموال، بل ذهبوا مزينين. هذا فضلا عن مبالغ الفديات الباهظة التي أضيفت فيما بعد إلى كل هذا لتجعل منهم أناسا فقراء ومحرومين من كل شيء... »[2].

أما بالنسبة للمغرب، فإن مصدرنا هذا يسلط أضواء مهمة على النتائج التي

(1) - Ibid., p. 96.

(2) - Ibid., pp. 127, 128.

تلت مباشرة هذا الانتصار كظروف مبايعة المنصور. إلا أن أهم إضافة تتمثل في ذكر المؤلف لأهم الأسباب التي شغلت المنصور عن استغلال اندحار البرتغاليين لتحرير الثغور التي كانت بأيديهم، وخصوصا تلك التي كانت قريبة من موقع المعركة. وأعطانا تبريرات أهمها :

- أسباب شخصية مرتبطة بالمنصور الذي جعله أقل معرفة بشؤون الحرب من المعتصم، وأقل شجاعة منه[1].

- كون مبايعة المنصور بساحة المعركة لم تكن أكيدة. فلقد ذكر المؤلف أنه اضطر إلى قتل قائد جيش الأندلس، الدغالي «... وآخرين كان يشك في إخلاصهم...» وإن كان بشكل دون دقة ما ورد بمناهل الصفا[2].

- خوفه من أن يبايع المغاربة ابن عبدالملك، وإن لم يذكر أنه كان بالجزائر[3].

- خوفه من تدخل الأسطول البرتغالي الذي كان مستعدا لذلك.

- خوفه من استغلال فليب الثاني لهجومه على الثغور للتدخل بالمغرب[4].

4 - وكان المحور الأساسي الرابع في هذا المصدر يتعلق بتحديد المسؤوليات فيما حل بالبلاد

ويبدو من خلال الكتاب أن المؤلف حمل مسؤولية الفاجعة للأطراف التالية :

أولا : الملك دون سبستيان الذي أطال المؤلف في ذكر الأخطاء التي ارتكبها، والتي نسب إليها نكسة البرتغاليين. ومن هذه الأخطاء :

- انعدام السرية في تجهيز الحملة، الأمر الذي جعل «... كل دواوير إفريقيا تعلم بنواياه»[5]. وهذا ما أعطى للسلطان مدة ثلاثة أشهر لجمع قواه وتحصين سواحل بلاده. ولقد أكد المؤلف على أهمية عامل المفاجأة الذي جعل منه عاملا أساسيا في انتصار البرتغاليين بسبتة سنة 1415. ولقد سخر من تماطل سبستيان بقادس وحضوره رفقة جيشه حفلات هناك لبضعة أيام[6].

- ارتكابه لعدة أخطاء تكتيكية كتحركه البطيء وإقامته بأصيلا، ثم تخليه عن

(2) - Ibid., pp. 129-139.

(3) - Ibid., p. 134

(4) نفس معطيات الهامش السابق.

(5) - Ibid., p. 49.

(6) - Ibid., p. 74.

مشروعه الأصلي القاضي بالاكتفاء باحتلال العرائش، ورفضه لاقتراح المتوكل الرامي إلى احتلالها[1]؛ اتخاذه لقرار اعتبر مغامرة كبرى، وذلك بالتحرك برا من أصيلا إلى العرائش؛ إصراره على إعطاء الأوامر دون أن تكون له دراية بشؤون الحرب[2].

ـ عناد سبستيان الذي لم يكن يسمع رأي أحد، ومن الأمثلة التي أوردها المؤلف:

ـ إصراره على تنظيم الحملة ضد المغرب رغم معارضة عمه وخاله وفئات عريضة من الشعب لها[3].

ـ رفضه لطلبات الصلح والتفاوض التي قدمها المعتصم بطريقة مباشرة أو بواسطة فليب الثاني[4].

ـ إصراره على التخطيط للمعركة رغم عدم درايته. ولقد ذكر المؤلف أن ذلك دفع بعض كبار النبلاء إلى التفكير في اعتقاله ما بين أصيلا وموقع المعركة[5]. ولقد عبر عن قرار الملك القاضي بالالتحاق بالعرائش برا بالعبارات التالية : «... شرع في التوغل في المناطق الداخلية على رأس محلته، متخذا بذلك قرارا جريئا ومليئا بالمخاطر ومخالفا لكل عقل ومنطق...»[6] .

غير أن المؤلف كان أبعد الناس عن جعل الملك المسؤول الأول والوحيد عن الهزيمة، بل على العكس من ذلك، جعل منه الضحية الكبرى؛ فهو يرى أن سبستيان رغم كثرة أخطائه، لم يكن إلا ضحية تمثل من خلالها عقاب الله للبرتغاليين. وحاول المؤلف إقناع القارئ بمسؤولية فئات أخرى.

ثانيا : رجال الدين وخصوصا الجزويت الذين كانوا يشرفون على تربية الملك والذين أثروا عليه وجعلوه يؤمن إيمانا أعمى بأنه بإمكانه غزو المغرب ومحو الإسلام منه. «... وهكذا أضحوا متحكمين في الملك الذي أبعدوه عن النبلاء وعملوا على دفعه بحجج واهية إلى عبور البحر إلى إفريقيا، وجعلوه يعتقد أنه بإمكانه أن يصبح

---

(1) - Ibid., p. 76.

(2) - Ibid., pp 74, 76.

(3) - Ibid., pp. 41, 65, 67.

(4) - Ibid., pp.53,54.

(5) - Ibid., p. 77.

(6) - Ibid., p. 85.

إمبراطور موريطانيا...»[1]. ولقد أكد المؤلف كثيرا على أن الملك أضحى مجرد آلة بيد أولئك الرهبان الذين استولوا على السلطة وعلى أهم موارد الدولة[2].

ثالثا : النبلاء ومستشارو الملك الذين جعلهم خوفهم على مناصبهم ومكانتهم لا يجرؤون على معارضة مشاريع الملك أو مجرد مناقشتها. وفي هذا كتب «لقد استمعوا جميعا إلى قرار الملك، وبسبب خضوعهم الكبير، وضعف عزيمتهم، لم يجرؤ ولو واحد من أولئك الرهبان وكبار النبلاء على معارضته، بل على العكس من ذلك، أقبلوا عليه لقلة احترامهم لأنفسهم وشدة خجلهم وخوفهم، وقبلوا يديه وكأنهم له شاكرين على دفعه إياهم إلى الموت...»[3].

الخاتمة : إن الكتاب الذي انتهينا من عرض مادته العلمية المتعلقة بمعركة وادي المخازن ينحصر في نهاية الأمر في دفاع مؤلفه عن أطروحة : فهو يعتقد أن الحملة على المغرب وما تولد عنها من نتائج وخيمة على البرتغال هي نتيجة لتعليم سيء لقن لشخصية عنيدة كانت تحكم شعبا أفرط في ارتكاب المعاصي والخطايا. ولذلك يرى المؤلف أن كل ما حل بالبرتغال من هزيمة وإهانات هو عقاب إلهي.

إلا أن قراءة هذا المصدر المهم، تفرض ملاحظتين :

الملاحظة الأولى : يتجلى بكل وضوح أن المصدر المذكور يرجع الفشل البرتغالي إلى عوامل برتغالية محضة. ولا يدخل في حساباته وتعليله موقف المغاربة من الحملة وإصرارهم على إفشالها مهما كانت التضحيات لتوقعهم خطورتها. فالمصدر من هذا الجانب لا يختلف عن باقي المصادر البرتغالية المتعلقة بالغزو البرتغالي لسواحل بلادنا، والتي تفسر تراجعه بأسباب مرتبطة بالبرتغال دون اعتبار ردود الفعل المغربية التي كانت بكل تأكيد وراء ذلك التراجع. ومعلوم أن هذه المصادر غرت كل المؤرخين الأجانب الذين درسوا هذا الموضوع، وعلى رأسهم (روبير ريكار) في مقالته

(1) - Ibid., p. 15.

(2) - Ibid., p. 17.

(3) - Ibid., p. 49

الشهيرة : «سياسة الاحتلال المحدود بشمال إفريقيا»[1].
R. Ricard: la politique de l'occupation restreinte en Afrique du Nord.

الملاحظة الثانية :

لقد كان المصدر رغم لومه للملك وتأكيده على كثرة ما ارتكبه من أخطاء، يهدف في الحقيقة إلى تبرئة ذمته، وإلى جعله مجرد ضحية أساتذته ومستشاريه وشعبه، وخصوصا جعله الشخصية التي شاء الله أن يتجسد من خلالها عقابه للبرتغاليين! وبذلك يكون المؤلف قد سقط في التعليل الغيبي البسيط. إلا أن دراسة الظروف الموضوعية التي كانت وراء تنظيم الحملة تسمح بالتخلي عن هذا المنظور التقليدي الذي يجعل من الفرد صانع التاريخ، وباعتباره مجرد نتاج لظرفية اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية معينة.

وكانت تلك الظرفية ببرتغال النصف الثاني من القرن السادس عشر مرتبطة بتراجع البرتغاليين بكل مكان من امبراطوريتهم التجارية مباشرة بعد الأزمة الاقتصادية العالمية التي اندلعت حوالي 1521.1520[2]. ذلك التراجع الذي خلف أزمة اقتصادية حادة جعلت النبلاء ورجال الكنيسة على حد سواء يدفعون الدولة إلى تبني غزو المغرب لتخطي تلك الأزمة الاقتصادية. فإذا كان دون سبستيان قد قام بالهجوم الفاشل سنة 1578، فإن مجلس الكورتيس أوصى به وبإلحاح كبير منذ سنتي 1563.1562[3]. وتجلى ارتباط النبلاء بالمغرب وعدم اطمئنانهم للسياسة الدفاعية المتبعة به من قبل جد سبستيان، في معارضتهم لتفكيره في التخلي عن آسفي وأزمور التي تجلت من خلال الأجوبة التي ردوا بها على الاقتراح الملكي (1534)[4]؛ كما تجلت أيضا

---

(1) **Annales d'histoire économique et sociale**, 1937 pp. 426-437

(2) V. Magalhães Godinho - "Le tournant mondial de 1517-1524 et l'Empire portugais,"**Studia**, n.1. 1958 (Lisbonne) pp. 184-199.
- "Les fluctuations économiques au XVI° siècle, problèmes de diagnostic et d'interprétation", **Economia,** n. IX ,pp. 109-116.
- **Os Descobrimentos e a economia mundial,** Lisbonne. 1963, Vol II p. 592 et suiv.

(3) - **Jornada**... op. cit., p. XV (introduction)

(4) - **Sources Inédites de l'Histoire du Maroc; 1 série, Portugal,** Tome II pp. 637 - 702, tome III pp. 1-14.
وعن هذه الرسائل المتبادلة بين الطرفين وموقف النبلاء من اقتراح الملك، راجع دراستنا: **دكالة والاستعمار البرتغالي**...ص ص 416-423.

في حماس هذه الفئة الاجتماعية حين محاصرة الغالب لمازغن (1562)[1]. وبذلك يصبح من اللازم إعادة النظر فيما يخص الأسباب الحقيقية التي كانت وراء تنظيم الحملة ضد المغرب. فقد أصبح المسؤولون البرتغاليون والفئات ذات النفوذ يرون في غزو المغرب حلا لمشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية. وهو موضوع آخر لا يزال في حاجة إلى دراسة خاصة.

(1) - **Jornada**... op. cit., pp. XII-XIII

مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب، والبحر الأحمر، والخليج العربي وما تولد عنه من ردود فعل *

بعد أن تعرض العالم العربي لهجمة صليبية استهدفت خلال العصور الوسطى شطريه الشرقي والغربي (الأندلس، تونس)، تعرض من جديد، وقبل بداية ما يعرف بالعصور الحديثة، (سبتة والقسم الشمالي من المغرب) لمد إيبيري أولا، وعثماني ثانيا، انتهى باكتساح أراضيه وفقدان استقلال بعض مناطقه لمدة تقرب من أربعة قرون. وتعتبر هذه الحقبة من أخطر الحقب التي مر منها العالم العربي، إذ كانت لها مخلفات خطيرة شملت كل الميادين، وأثرت كثيرا على تطوره اللاحق.

فهل تسمح وثائقنا ومصادرنا العربية بالتأريخ لهذه الفترة؟

لقد كان الجناح الغربي من العالم العربي يعيش أوضاعا اقتصادية وسياسية واجتماعية لم تكن تساعد على التأليف، ولذلك لم تصلنا عن الغزو الإيبيري أولا، والعثماني ثانيا، إلا إشارات طفيفة حالت إلى يومنا هذا دون اهتمام مؤرخينا بهذه الحقبة رغم خطورتها. فبالمغرب الأقصى مثلا، لم تصلنا ولو وثيقة واحدة عن أحداث كبرى وعن معارك كانت حاسمة كمعركة وادي المخازن (1578). وأكثر من هذا، لا تسمح المصادر المتوفرة لدينا بكتابة تاريخ هذه الحقبة لكونها تفتقر إلى الدقة افتقارا يبعث على الاستغراب. فهي لا تحدد التواريخ، ولا تذكر الأسماء، ولا تميز بين جنسيات النصارى في فترة تنافست فيها الدول الأوروبية حول المغرب. فصاحب **عروسة المسائل** مثلا، لم يذكر حين تعرضه لتصدي السلطان الوطاسي محمد الشيخ لمحاولة البرتغاليين تحصين جزيرة المليحة (1489) قصد التحكم في سهل اللكوس ومدينة القصر الكبير لا اسم السلطان، ولا تاريخ الحدث، ولا جنسية الغزاة(1).

---

* نشر بمجلة "**المناهل**" عدد 26، 1983، ص ص 32 ـ 83.

(1) محمد الكراسي: **عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل**، تحقيق ونشر عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية الرباط، 1963. أنظر وثيقة خاصة بهذه الواقعة بالصفحات 110 -

أما ابن القاضي،فقد اكتفى بالإشارة التالية : «وفي هذه السنة (894هـ)، حرك الشيخ الوطاسي للجزيرة التي أسفل من قصر كتامة في شعبان منها بجميع أهل المغرب، واحتال في قطع الوادي الذي دخلت منه سفن الكفرة، فطلبوا منه العفو عن أنفسهم. وقيل كانت في التي تليها... »[1]

ومما له دلالة أن لا تستعمل كلمة "برتغال" من طرف مؤرخ مغربي إلا في نهاية القرن التاسع عشر، على يد الناصري، الذي نقل ذلك عن مصدر إسباني اعتمد عليه للتأريخ للغزو الإيبيري لسواحل المغرب، وأن يكون الوحيد الذي أشار إلى أكبر عميل، يحيى أو تعفوفت، الذي لعب دورا كبيرا في تحقيق البرتغاليين لمكتسبات مهمة بالجنوب، وأن يورد اسمه محرفا لنقله عن المصدر الإسباني السابق الذكر[2] . وما ذكرته عن المغرب ينطبق كذلك على جارتيه، الجزائر وتونس. فأحمد توفيق المدني لم يستطع التأريخ للغزو الإسباني للجزائر إلا بعد اللجوء إلى أرشيف سيمنكاس الإسباني[3]

وبذلك يصبح اعتماد الوثائق والمصادر الأوروبية ضروريا لكونها توفر المادة الأساسية، ولكونها تمثل بالنسبة إلينا أهمية مزدوجة. فهي تمكن من دراسة المد الإيبيري واكتساحه للأراضي الإسلامية من الزاوية الداخلية والخارجية على حد سواء (ربط الغزو بأوضاع إيبيريا، وبالتالي دراسة الأسباب والعوامل والوسائل المسخرة...) غير أن هذا لا يعني أبدا الاستغناء الكلي عما يتوفر لدينا من وثائق ومصادر عربية مهما كانت قليلة.

---

(1) ابن القاضي أحمد : **لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد** . تحقيق محمد حجي، الرباط، 1976، ص271.

(2) الناصري، أحمد بن خالد : **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج5، ط البيضاء، 1955، ص10، وذكر الشخص المذكور: يحيى ابن تافوت عوضا عن أوتعفوفت.

(3) أحمد توفيق المدني ، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا** (1492-1792)

وتوفر الأرشيفات الأوروبية للباحث العربي كميات هائلة من الوثائق النفيسة. ولعل المغرب اليوم أكثر الدول العربية حظا في هذا الباب، إذ توفر مجموعة «االمصادر غير المنشورة المتعلقة بتاريخ المغرب» **Sources Inédites de l'Histoire du Maroc** أكبر عدد منشور من الوثائق الأوربية، لكونها تضم 27 مجلدا ضخما يحتوي على مئات الوثائق التي تم التنقيب عنها بأرشيفات إسبانيا والبرتغال وفرنسا وإنجلترا وهولندا. وهذه المجموعة قسمان : الأول خاص بالدولة السعدية، وسمي السلسلة الأولى، والثاني خاص بالدولة العلوية، وسمي السلسلة الفلالية (6 مجلدات نسخت من الأرشيف الفرنسي). وجاءت السلسلة الأولى موزعة بين الدول الأوروبية الخمس كالتالي :

- فرنسا : 4 أجزاء.
- هولندا : 6 أجزاء.
- إنجلترا : 3 أجزاء.
- اسبانيا : 3 أجزاء
- البرتغال : 5 أجزاء.

ومما يجعل من وثائق السلسلتين أداة عمل مهمة جدا، هو أن صاحب الفكرة والمشرف على النشر (H. De Castries) وحد خطة العمل، إذ أن كل وثيقة تقدم بملخص موسع في بعض الأحيان بالفرنسية وترفق بحواشي وتعاليق تساعد كثيرا على فهمها. وكلما تم العثور على ملف متعلق بحدث ما، حرر المنقبون عن الوثائق مقالا يسلطون بواسطته الأضواء على ذلك الحدث، ويبينون إضافات تلك الوثائق الدفينة.

ولا تخفى أهمية هذه السلسلة على أحد لكونها توفر للباحث العربي مادة خام مهمة، لا تلزمه بالتنقل والتنقيب الصعب، خصوصا وأنه يستحيل على كل من ليس له إلمام بعلم البليوغرافيا(paléographie) قراءة الوثائق لكونها مكتوبة بخط يجعل عين القارئ غير المتعودة عليها عاجزة حتى عن معرفة اتجاه الحروف الصحيح؛ هذا فضلا عما تحتوي عليه من رموز واختصارات تجعل بعض كلماتها لا تحتوي إلا على حرف أو حرفين من الأبجدية اللاتينية.

ورغم ما يمكن أن يوجه للمشرفين على نشر تلك الوثائق من لوم بشأن المعايير التي كانت وراء نشر وثائق دون أخرى، فإن الباحث العربي لا يمكنه اليوم إلا أن يغتبط

لتوفر هذه المادة العلمية الهائلة المتعلقة بفترة من أخطر فترات تاريخ العالم العربي الإسلامي.

وتم العثور على وثائق السلسلة البرتغالية بالأرشيف الوطني بلشبونة Arquivo Nacional da Torrc do Tomboوبمكتبة مدينة يابرة (Evora). وقد نشرت الأجزاء الخمسة بباريز ما بين 1934 و1953.

وتجدر الإشارة إلى أن نشر هذه الأعداد المهمة من الوثائق لم يكن سهلا لأنه تطلب فرزها من بين آلاف الوثائق المحفوظة بالأرشيف الوطني البرتغالي.

وتغلب على هذه الوثائق ما تم نسخه من المجموعة المسماة Corpo Cronológicoالتي تضم 82902 وثيقة، أو من تلك المسماة As Gavetas da Torre do Tomboأي «أدراج أرشيف برج القبر» التي تضم حوالي سبعة آلاف وثيقة. أما الوثائق العربية، فتم نسخها من بين الوثائق المرتبة تحت إسم «دار المعاهدات، الوثائق العربية» Casa dos tratados, documentos Arabes

* * * *

وبالإضافة إلى سلسلة «المصادر غير المنشورة المتعلقة بتاريخ المغرب» اعتمدت منشورات أخرى على وثائق المجموعات الثلاث السابقة الذكر.

ففيما يخص مجموعة (Corpo Cronológico)، نشر الباحث البرتغالي A. Baiãoا لمدير السابق للأرشيف الوطني، نشر سنة 1925، وبأمر من أكاديمية العلوم البرتغالية، الوثائق المتعلقة بالغزو البرتغالي لسواحل المغرب. وضم مؤلفه الذي عنونه كالتاليDocumentos do Corpo Cronológico relativos a Marrocos، 69 وثيقة تغطي أحداثا تتعلق بالفترة الممتدة بين 1488 و 1514. وإذا كان الناشر قد أعطى النص الكامل للوثائق التي اعتبرها مهمة، فانه لم يرفقها مع الأسف بمقدمات أو بهوامش، ولم يورد إلا ملخصات وأرقام 87 وثيقة اعتبرها ثانوية. كما أن الوقوف عند وثائق 1514 ليس له من مبرر سوى الاكتفاء بتسليط الأضواء على فترة سطوة البرتغاليين بالجنوب، والسكوت عما عانوه من مشاكل بعد التاريخ المذكور. ومن الوثائق المنشورة بهذا الكتاب 23 أعيد نشرها على يد الباحث الفرنسي (سنفال) في الجزء الأول من سلسلة «المصادر غير المنشورة المتعلقة بتاريخ المغرب» (S.I.H.M).

وتتعلق مواضيع مؤلف (بياوA. Baião) بمراسلات تبادلها الملوك البرتغاليون مع وكلائهم التجاريين والماليين، ومع قباطنتهم بالثغور حول مراحل التحكم في الجنوب

وظروفه، وحول الأوضاع الاقتصادية التي كان يعرفها، كما تتعلق بالمعاشات والرواتب المؤداة لمن ساهموا في المجهود العسكري، وبالتحصينات المستحدثة بالثغور المحتلة، وببعض السلع وأثمانها.

أما الوثائق العربية، فلم يصلنا منها إلا ملف واحد. وكان الراهب لويش دو سوزا (F. Luís de Sousa) أول من اهتم بهذه الوثائق العربية، إذ نشر بعضها بلشبونة سنة 1790 في مؤلف سماه **«وثائق عربية تساهم في كتابة التاريخ البرتغالي»** . **«Documentos Arabicos para história portuguesa»**. والوثائق العربية التي وصلتنا (منها ما هو فارسي، ومنها ما حروفها عربية ومحتواها برتغالي، أي ما يعرف بالرسائل الأعجمية)، عبارة عن رسائل توصل بها الملوك البرتغاليون من سلاطين المغرب والخليج العربي، وأمراء الثغور التي كانت تحت حمايتهم، ومن بعض الأعيان الذين كانوا في خدمتهم.

وتسمح هذه الوثائق للباحث العربي الذي لا يفهم البرتغالية بتتبع خصائص ما سمي بـ "الحماية البرتغالية" على عدد من الثغور بالمغرب والساحل الهندي وبهرمز، كما تمكن من أخذ فكرة عن معاناة حكام وسكان تلك الثغور من تعسفات القباطنة البرتغاليين ومساعديهم.

وإذا كان مؤلف الراهب المذكور يوفر عددا من هذه الوثائق العربية، فإنه يحتوي مع ذلك على عيب كبير يتمثل في كون المؤلف أعطى للوثائق التي لم يؤرخها محرروها تواريخ بعيدة عن الصواب.

* * * *

أما الأدراج السابقة الذكر فتتكون من 23 درجا رتبت فيها بطريقة عشوائية آلاف الوثائق التي تغطي الفترة الممتدة من القرون الوسطى حتى سنة 1924. ومن حسن حظ الباحث أن وثائق هذه الأدراج نشرت على يد مجموعة من الباحثات البرتغاليات التابعات لـ «مركز الدراسات المتعلقة بما وراء البحار» **(Centro de Estudos Históricos Ultramarinos)**. وقد نشرت تلك الوثائف في اثني عشر مجلدا ما بين 1960 و 1977. وبما أن مهمة هذا المركز تهتم أساسا بالمناطق التي كانت تابعة للإمبراطورية البرتغالية، فإن المشرفات على النشر اكتفين بإعطاء عناوين وأرقام الوثائق المتعلقة بالتاريخ الداخلي للبرتغال، ونشرن النصوص الكاملة للوثائق المتعلقة بالإمبراطورية البرتغالية، وبعلاقة البرتغال مع الدول الأوروبية ومع البابوية.

وهكذا، ومن مجموع حوالي سبعة آلاف وثيقة نشرت، أصبح بامكان الباحث استغلال الوثائق الموزعة جغرافيا كالتالي :

ـ المغرب : 174 وثيقة.

ـ تونس : وثيقتان تتعلقان بالهجوم الإسباني - البرتغالي ضد هذه المدينة سنة 1535.

ـ الخليج العربي والبحر الأحمر : 27 أغلبها محور حول هرمز.

ـ الهند والشرق الأقصى : 252 وثيقة منها عدد كبير من الوثائق المتعلقة بالنزاع الإسباني البرتغالي حول (Moluques).

ـ شرق افريقيا : 6 وثائق.

ورغم الفائدة التي يقدمها نشر هذا العدد الهائل من الوثائق، فإن الشكل الذي تم به ذلك النشر قلل كثيرا من فوائدها، ذلك أنها نشرت بدون هوامش وتعاليق وفهارس، كما أن أكبر عيب يلاحظ على المشرفات على النشر هو سقوطهن في عدد كبير من الأخطاء عند تقديرهن لتواريخ الوثائق غير المؤرخة. وكانت بعض الأخطاء فادحة. والغريب أنه كان بإمكانهن تفادي الكثير منها بالرجوع إلى عدد مهم من الدراسات والوثائق المنشورة! (أعطي لوثيقة تتعلق بحصار آسفي سنة 1534 تاريخ 1501! (ج 1 ص 51)، وأرجع تاريخ وثيقة بعث بها قبطان أزمور إلى الملك البرتغالي إلى سنة 1505 في حين أن المدينتين لم تكونا آنذاك محتلتين!). ولهذا يتحتم على الباحث أن يحترس كثيرا من التواريخ المقترحة من طرف الناشرات، وأن يعود إلى سلسلة المصادر غير المنشورة المتعلقة بتاريخ المغرب (S.I.H.M) كلما تعلق الأمر بوثائق تهم هذا البلد.

واحتوت الأجزاء الإثنا عشر على وثائق جد مختلفة. وبالنسبة للمخططات السياسية البرتغالية بالخليج العربي والبحر الأحمر، يستفيد الباحث من استغلال الوثائق التالية :

1) رسالة بعث بها من مدينة (كوا) الهندية Bernandin de Sousa إلى الملك البرتغالي(2111545) يخبره فيها بوصول إشاعات حول تنظيم العثمانيين لهجوم على هرمز انطلاقا من السويس، وباسترجاعه لحصن القطيف Catifa الذي استولى عليه شيخ Mana التابع لملك الإحساء، لكونه كان دوما تابعا لملك هرمز، وذلك نزولا عند رغبة هذا الأخير (ج 1 صص 915-918).

2) تعيين الملك البرتغالي جواو الثالث للشاه محمد ابن الملك صفاء الدين ابندار ملكا على هرمز خلفا لأبيه. والوثيقة مؤرخة في 23 غشت 1519 (ج1،ص ص 923-925).

3) قسم الولاء للملك فليب الأول (الثاني بالنسبة لاسبانيا) الذي أداه شاه هرمز ؟(Farracoxa) ووزيره شرف، وذلك ف 15 نونبر1581 (ج 3 ص ص 103-106)

4) رسالة من Joáo de Arrais إلى الملك البرتغالي جوا الثالث حول مداخيل جمارك هرمز مؤرخة في 1528.7.10 (ج 4 ، ص ص84.80). والتقرير يسلط الأضواء على الشهور التي تعرف أكبر رواج تجاري (أبريل، ماي، يونيو)، وعلى ما توفره المدينة من مداخيل، ذكر منها ضريبة الولاء المؤداة من طرف هرمز، ومداخيل الجمارك التي قدرها بحوالي سبعين ألف "أشرفي" (Xarafins) تؤديها عن سلعها السفن المقبلة من الهند وكنباي والقوافل التي يرسلها سنويا الشيخ إسماعيل (بلاد فارس) أو تأتي من البصرة؛ وكذا الضرائب المؤداة عن تجارة الخيول، و الغنائم البحرية التي يحصل عليها من مطاردة السفن الإسلامية اعتمادا على أسطول خاص بمراقبة الخليج مكون من اثنين وعشرين مركبا تحمل على ظهرها ما بين 1100 و1200 جندي. وكانت قيمة تلك الغنائم البحرية خلال السنة التي يغطيها التقرير المذكور تبلغ عشرين أو خمسة وعشرين ألف أشرفي، أي ما يمثل 25 في المائة من قيمة ضرائب هرمز، مما يؤكد أن التجارة العربية لم تتوقف رغم المضايقات البرتغالية. وبعد أن أشار محرر التقرير إلى تعسفات المسؤولين البرتغاليين وطغيانهم الذي عبر عنه بما أجابه به وزير ملك هرمز، إذ ذكر أنه ليس وزيرا ولكن مجرد صبي ينفذ ما يؤمر به...، أكد على الاستفادة الكبرى التي يضمنها البرتغال من تحكمه في هرمز (ج 4 ، ص 80 ـ 84).

5) رسالة برتغالية غير مؤرخة من الوزير ركن الدين، وزير هرمز، إلى الملك شرف أطلعه فيها على الحرب التي أعلنها ابن راشد (Mening ben Rashid) ملك الإحساء على والي البحرين، وذلك رغم معارضة أعيان عاصمته. وذكر صاحب الرسالة أن بالتحاق أولئك الأعيان بالبحرين، تعذر على ملك الإحساء الهجوم عليها، وأغار على البصرة حيث هزمت جيوشه ولم يتمكن من الفرار والنجاة إلا بصعوبة. ولما علم بوفاة والي البصرة ـ وهو أحد أقاربه ـ الذي كان يدين بالولاء للعثمانيين، ومبايعة ابنه الذي لم يبلغ بعد سن الرشد، هيأ حملة جديدة ضد البصرة التي فتح له أعيانها الأبواب وبايعوه سلطانا. واستغل والي البحرين انشغال ملك الإحساء وأغار على ميناء القطيف وأحرق

له 150 مركبا استولى عليها من بين مراكب ملك هرمز. ولما علم ملك الإحساء باحراق سفنه، أمر بالاستيلاء على سفن وسلع تجار البحرين المقيمين بالبصرة. وسبب ذلك غضب البصريين الذين طردوه من مدينتهم وعينوا شخصا آخر.

وأشار صاحب الرسالة إلى استعداد برتغاليي هرمز لمد والي البحرين بمساعدة عسكرية وتفكيرهم في احتلال القطيف، وذكر محرر الرسالة عزمه إرسال جواسيس إلى السويس وعدن، وإلى أماكن أخرى للحصول على معلومات عن العثمانيين (ج 4، ص ص 357-359) .

6) رسالة من أفونصو دو البكيرك "Afonso de Albuquerque نائب الملك بالهند، إلى الملك البرتغالي أمنويل مؤرخة في1517/10/30، يخبره فيها برواج إشاعات حول تجهيز الأتراك لأسطول لتحصين مدخل البحر الأحمر وعدن. وأكد على خطورة ذلك إذا ما تم فعلا، ولهذا أخبره أنه سيكرس كل مجهوداته خلال السنة الجارية للحيلولة دون تحكم الأتراك في الموقعين المذكورين. واحتوت الرسالة كذلك على أخبار تتعلق بالهند والشرق الأقصى (ج4، ص ص 482-485).

7) رسالة من نائب الملك بالهند السابق إلى الملك أمنويل مؤرخة في 16-12-1512 يطلعه فيها على أوضاع الهند، ويخبره بوصول مبعوث امبراطور الحبشة لعقد حلف ضد المسلمين، ذلك الوصول الذي اعتبره صاحب الرسالة بداية تخريب «بيت مكة» الذي يبدو له سهل المنال لأنهاحسب زعمه منطقة ضعيفة وقليلة المحاربين (ج 5، ص ص 299-302).

8) رسالة من قبطان هرمز Cristovão de Mendoça مؤرخة في 11 يوليوز 1528 بعث بها إلى الملك البرتغالي جوا الثالث لفضح طغيان وتعسفات القبطان السابق، التي شملت ملك الحصن ووزيره اللذين ابتز أموالهما بالإضافة إلى أموال ومصالح التجار، مما سبب خراب المدينة وركودها التجاري. وتحتوي الرسالة على أخبار تتعلق بالأوضاع داخل الخليج العربي: الحروب التي دارت بين الأمراء والولاة، محاولات والي البصرة إنشاء أسطول خاص به، وخطر ذلك على هرمز، وذلك رغم أن ذلك الوالي كان يدعي ولاءه للبرتغاليين. وألح صاحب الرسالة على ضرورة الحيلولة دون تقوية نفوذ الوالي المذكور، وخروج البصرة من فلك هرمز، نظرا للأهمية الاقتصادية التي تكتسيها بالنسبة إليها. (تزودها بالمواد الغذائية وخصوصا بالقمح والمواد الدهنية وتوزع سلع الشرق الأقصى على الجزيرة العربية والشام) ج5 ص ص 108 - 116.

9) رسالة من ملك هرمز، محمد شاه ·(Mamaxa) إلى جوا الثالث مؤرخة في 13 يوليوز 1528 يفضح فيها طغيان القبطان السابق ويشيد بخصال خلفه، ويلتمس فيها من العاهل البرتغالي اعتبار تراجع مداخيل هرمز وتخفيض ضريبة الولاء المؤداة سنويا (ج 5 ص ص116-118).

10) رسالة من قاضي هرمز إلى الملك البرتغالي مؤرخة في 24 نونبر 1550 يخبره فيها أن نائب الملك بالهند منع على جميع التجار، ومهما كانت جنسيتهم، أن يلتحقوا بالبصرة، وهدد من يفعل ذلك بعقاب شديد، وبالأسر... الشيء الذي جدد العمل به القبطان الحالي الذي أعلن حالة الحصار ضد البصرة ومقاطعتها تجاريا. ولكن هذه المقاطعة لم تعط نتائجها لاستمرار التجار في الإقبال على البصرة من البحرين. وذكر صاحب التقرير أن إشاعات تروج بهرمز عن تفكير البصريين في احتلال القطيف Catifa بالبحرين، الشيء الذي تؤكده الوثيقة التالية (ج5، ص ص 38-40).

11) خطاب من أفونصو دو البكيرك (نائب الملك بالهند، وابن الشخصية التي كانت تحمل نفس الإسم وكلفت بنفس المهمة، والتي سبقت الإشارة إليها مرتين، رقم 6 و7) إلى جوا الثالث مؤرخة في (27-1-1552)، يخبره فيها باسترجاع حصن القطيف Catifa الذي سبق أن استولى عليه الأتراك، وبتحطيم الحصن الذي شيدوه بجزيرة Moizy ورد محرر الرسالة المد العثماني بالخليج إلى التعسفات التي فرضها القباطنة على ملوك المنطقة، الشيء الذي حدا بأشرافها إلى تسليمها للأتراك كما فعلوا، وكما ينوون فعله بالبحرين ... (ج . ص ص325-328).

12) تقرير مهم جدا أرسله إلى الملك البرتغالي جوا الثالث في 11 دجنبر1563 برتغالي كلف بمرافقة مبعوث باشا البصرة خلال تنقلاته بين هرمز والهند والبصرة قصد التفاوض. والتقرير يتعلق بأوضاع مدينة البصرة الطبوغرافية (موقعها، مصب النهر، جزيرة Morzique) وبأسوارها ومواقع أبوابها، وبالقوة العسكرية المتوفرة لديها (الأسلحة، الحامية، الأسطول)، وبأوضاعها الإقتصادية (رفاهية سكانها ورواج تجارتها). وأهم ما يثير انتباه قارئ التقرير هو أن محرره أرسل خصيصا لهذه الغاية، وأن المعلومات التي عمل على الحصول عليها كانت تخدم مشروع هجوم برتغالي على المدينة، ذلك أنه أولى اهتماما خاصا لأماكن إنزال الجنود ونقط الضعف في التحصينات، ووسائل الدفاع المتوفرة (ج.5.ص ص 143.137).

13) تقرير بعث به قبطان هرمز إلى الملك البرتغالي جوا الثالث في

13شتنبر 1529 يتعلق بالأوضاع داخل الخليج العربي وساحل عدن. ففيما يخص المنطقة الأولى، أشار إلى فشل هجوم برتغالي ضد البحرين التي أعلن واليها ثورته على ملك هرمز. وأعطى صاحب التقرير معلومات عن محاولات الأتراك الاستيلاء على عدن، وأخبر الملك باعلانه الحرب على البصريين لرفض حكامهم إعادة المراكب التابعة لهرمز التي استولوا عليها. وفي نهاية التقرير أكد القبطان كثيرا على الفوائد الكبرى التي يحصل عليها البرتغال من تحكمه في هرمز، وذلك لسببين : تجاري (يفد عليها التجار الإيطاليون، الأرمينيون، اليهود... فضلا عن العرب والفرس)، واستراتيجي يجعلها في مرتبة جزيرة رودس بالأبيض المتوسط (ج10، صص 254-258).

14) رسالة توصل بها الملك البرتغالي جوا الثالث من برتغالي كان مقيما بالبندقية، مؤرخة في 24-11-1531، أخبره فيها بمحاولات العثمانيين الجادة إنشاء أسطول بالسويس وبالمشاكل التي يواجهونها في ذلك (الأشرعة والمدافع ترسل من القسطنطينية، الأخشاب من لبنان اعتمادا على أسطول خاص ينزلها بمينائي الأسكندرية ورشيد حيث تحمل على 4000 جمل إلى السويس!!) . وتشير الرسالة كذلك إلى الحراسة البحرية البرتغالية المشددة عند مدخل البحر الأحمر، وإلى استيلاء البرتغاليين على مركبين بميناء (Outor). وجاء في هذه الرسالة أن «أحد تجار مكة» وصل مؤخرا إلى البندقية ! (ج 10 ،ص ص 617-620).

15) رسالة من فرنسيشكو طفريش إلى الملك البرتغالي المذكور (14-1-1535) وهي عبارة عن نسخة من الرسالة التي بعث بها إلى نائب الملك يخبره فيها بوفاة ملك هرمز. ووردت بها إشارة مهمة تتعلق باستمرار السفن العربية في التزود بالتوابل رغم مجهودات البرتغاليين الحيلولة دون ذلك (ج 10، ص ص 573-589).

16) رسالة بعث بها الملك امنويل البرتغالي إلى أسقف براغا في 16-8-1508 يبشره فيها بالانتصارات والمكتسبات التي حققها البرتغاليون بشرق افريقيا والشرق العربي وحرمان التجار العرب من أرباح تجارة الهند والشرق الأقصى. وهذه الرسالة مهمة جدا بالنسبة لمتتبع أسباب ودوافع المد البرتغالي على حساب العالم العربي الاسلامي، ذلك أنها تغطي الأسباب الحقيقية (الربح واحتكار التجارة)، وتؤكد على أولوية العامل الديني، وتعطي للتوسع بالمشرق صبغة صليبية محضة (ج 12,ص ص237-242).

ومن الوثائق التي يمكن للباحث الاستفادة منها، وثائق التشريفات الملكية

البرتغالية **Livros das Chancelarias Reais** لتوفر عشرات الكتب الضخمة المتعلقة بالملوك الذين عاصروا التوسع البرتغالي من انطلاقته الناجحة إلى بداية تراجعه، أي من عهد الملك جوا الأول إلى دون سبستيان(1). وهذه الكتب مرتبة حسب أسماء الملوك، وأحيانا حسب المناطق (الجزر، غواد يانا...) ولاستغلالها بسهولة، أعدت فهارس مرتبة حسب أسماء الأعلام، وأخرى حسب أسماء الأماكن، ونظرا لصعوبة قراءة وثائق تلك الكتب، أعيدت كتابة بعضها خلال القرن الماضي، وألحقت بكتب تسمى «القراءة الجديدة» (Leitura Nova).

وتتعلق وثائق هذه الكتب بالقوانين والتعيينات والعطاءات التي خص بها الملوك بعض الأفراد.

ونشر من هذه الوثائق قسم مما يتعلق بالغزو البرتغالي لسواحل المغرب الأقصى. ففي سنة 1915، نشر الباحث البرتغالي (أزفيدو P. de AZEVEDO) ، بأمر من أكاديمية العلوم البرتغالية (التي برمجت نشر عدد كبير من المصادر والوثائق المتعلقة بالغزو البرتغالي للمغرب، وذلك بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لاحتلال سبتة (1415)) نشر في مجلدين ضخمين وثائق تشريفات الملوك (جوا الأول، ودون دورات، وألفونص الخامس)(2). وفي سنة 1943، وبأمر من نفس الأكاديمية، نشر الباحثان البرتغاليان (كويليو ولوبش) وثائق كتب تشريفات الملك (جوا الثاني)(3).

وتسمح هذه الوثائق المنشورة، أو التي لم تعرف النشر لحد الساعة، بدراسة الغزو البرتغالي لسواحل العالم العربي بتسليطها الأضواء على الجوانب التالية :

---

(1) حكم الملوك الذين نحن بصدد الحديث عنهم البرتغال في الفترات التالية:
- جوا الأول : 1383-1433
- دورات :1433-1483
- أفنصو الخامس الملقب بالإفريقي :1438-1481
- جوا الثاني : 1481-1495
- امنويل الملقب بالسعيد 1495-1521
- جوا الثالث :1521-1557
- دون سبستيان :1557-1578. (وهو الذي قتل بمعركة وادي المخازن).

(2) Pedro de Azevedo:
Documentos das Chancelarias Reais relativos a Marrocos Anteriores a 1530 T.I (1415 - 1450), Lisboa, 1915, T II (1450 - 1456)

(3) P.M.Coelho.,
Documentos inéditos de Marrocos , Chancelaria de João II,

ـ تعيينات المسؤولين العسكريين والإداريين والماليين والدينيين العاملين بالثغور المحتلة. وتساهم هذه الوثائق في تتبع خصائص النظام المتبع بثغر ما (حماية، احتلال عسكري وتسيير مباشر)، وفي تحديد الفئات الاجتماعية المستفيدة من التوسع البرتغالي، كما تساهم في تحديد مدى استفادة البرتغال من ثغر ما، وذلك بالوقوف على تلك المناصب المذكورة.

ـ مختلف العطاءات والإقطاعات التي خصت بها الدولة النبلاء لدفعهم إلى المساهمة في المجهود العسكري. فاستغلال وثيقة تتعلق بإقطاع منطقة أو مدينة أو تنازل الملك للمستفيد عن ضرائب ثغر أو منطقة يسمح بأخذ فكرة عن معطياتها الاقتصادية أو عن مدى انتظام الأداءات بها. (مما يسمح بدوره بأخذ فكرة عن مدى تحكم البرتغاليين في تلك المنطقة).

ـ تنازلات قضائية لفائدة مجرمين مقابل الخدمة العسكرية بالثغور أو المساهمة في حملة من الحملات المنظمة ضد المغرب. وتغلب هذه الوثائق على ما نشره (أزفيدو).

ـ ولعل أهم مساهمة تقدمها كتب التشريفات الملكية تكمن في احتوائها على وثائق جد مهمة تعرف بـ : **Cartas de Quitação** أي الإيصالات أو رسائل إبراء الذمة، التي كانت تسلم لثلاثة أنواع من الموظفين: لوكيل الملك التجاري (الفيطور-Fei-tor)، للمسؤول عن التموين بالمدينة (المشرف Almoxarife) وأخيرا للمحاسب (الكنتدور). ولهذا تختلف تلك الوثائق من ناحية نوعية الأشياء المذكورة فيها. فإذا كان الإيصال يبرئ ذمة مشرف طغت عليه المواد الغذائية والأسلحة والذخيرة، وإذا سلم لوكيل تجاري طغت عليه السلع المستوردة والمصدرة...

ورغم أن هذه الإيصالات تختلف من ناحية الطول، ومن ناحية غزارة المادة، فإنها تخضع مع ذلك لتصميم موحد. فهي تبدأ بذكر الأمر الملكي بمراجعة حسابات المعني بالأمر، واسم الشخص الذي كلف بذلك، ثم تذكر نوع المهمة التي كانت منوطة به وتاريخ بدايتها ونهايتها والمكان الذي عمل به. يلي ذلك سرد كل السلع والأموال والأشياء الأخرى التي توصل بها خلال قيامه بمهمته، وأسماء الأشخاص والمؤسسات التي سلمته أو تسلمت منه شيئا ما. وينتهي الإيصال بتبرئة ذمة المعني بالأمر، وبذكر تاريخ ومكان تحرير الوثيقة، واسم الذي قام بذلك.

وتسمح هذه الوثائق بأخذ فكرة عن المبادلات التجارية التي كانت تعرفها الثغور

المحتلة، وعن السلع المتبادلة وتطور العرض والطلب عليها، وتتبع أثمانها، وبالتالي تحديد ما إذا استفاد البرتغال من احتلال ثغر ما. ولكن هذه الإيصالات لا تهتم مع الأسف إلا بتجارة الملك، ولا تشير قط إلى أنشطة التجار الأحرار. كما أن نوعا آخر من هذه الوثائق يسلط الأضواء على المصاريف التي تحملها البرتغال بسبب تحصين بعض الثغور أو الدفاع عنها.

وقام الباحث البرتغالي B. de Freire بنشر كل إيصالات فترة حكم إمنويل (1495-1521) وذلك بمجلة **Arquivo Histórico Português** في أعدادها العشرة (1903-1910). وكان منها 72 إيصالا متعلقا بالمغرب، و14 عن الهند، و19 عن غرب افريقيا المصدرة للتبر والعبيد (مركزي أرغين بالساحل الموريطاني، ولامينا بساحل الذهب)، و6 عن أفريقيا الشرقية، 23 عن المصلحتين التجاريتين المركزيتين "دار غينيا" و"دار الهند". وكان من هذه الإيصالات المنشورة واحد يتعلق بمصاريف الأسطول الذي وجه سنة 1520 لمراقبة مدخل البحر الأحمر.

ونشر الباحث (أزفيدو) في مؤلفه السابق الذكر تسعة عشر إيصالا في حين أدرج (كويليو ولوبش) في مؤلفهما إيصالين متعلقين بالمغرب.

واستطعت بعد الاطلاع على كل كتب تشريفات الملك جوا الثالث (حوالي سبعين كتابا) الوقوف على واحد وثلاثين ايصالا متعلقا بالثغور المغربية تخص عهد الملك المذكور.

وبما أن هذه الوثائق تسلط الأضواء على الأنشطة التجارية والمصاريف، فإن وثائق أخرى تكملها كمحاضر محاكم التفتيش المتعلقة بالتهريب التي سأعود إليها، وكتقارير ومراسلات الوكلاء التجاريين والماليين بالثغور المرتبة بالأرشيف الوطني مع مجموعة وثائق **Corpo Cronólogico** أو بالأدراج التي سبق الحديث عنها.

وهناك وثائق أخرى مرتبة بالأرشيف الوطني تحت اسم **Núcleo Antigo** «النواة القديمة» لم تعرف لحد الساعة النشر.

ومن حسن حظ الباحث توفر فهارس تسهل معرفة نوعية مواضيع تلك الوثائق. هذا وسبق لي استغلال عدد مهم من وثائق هذه المجموعة التي تغلب عليها الوثائق ذات الطابع المالي (الرواتب والمعاشات المؤداة للجنود العاملين بالثغور المحتلة) والجبائي.

كم توجد من بينها سجلات قضاة الثغور سجلت فيها المنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد الجالية البرتغالية.

ومن أهم هذه الوثائق تلك التي تتعلق بالضرائب. ففيما يخص الجمركية منها، استطعت الوقوف على سجل للضرائب المؤداة عن صيد سمك الشابل بأزمور (1526)[1] وقائمة الأعشار التي حصلت بميناء أصيلا بشمال المغرب ما بين 7-11-1510 و-12-1511 19، مما يعطي فكرة دقيقة عن أنواع السلع المروجة هناك[2]. وأتيح لي أن أكون أول مستغل لسجل مهم جدا يتعلق بالضرائب التي كانت قبائل دكالة والشياظمة تؤديها للملك البرتغالي ما بين 1510 و 1512. وهو سجل من 44 ورقة يحمل العنوان التالي : «سجل الضرائب الملكية المتعلقة بأعراب وبرابرة المدينة الغربية وكل دكالة وبلاد الشياظمة مع حصونها التي كانوا يؤدونها لملوك هذه المملكة، ابتداء من سنة 1510 إلى 1512)»[3]. ومن مزايا هذا السجل أنه يسد عددا من الثغرات التي تركتها الوثائق المتوفرة لدينا، خصوصا فيما يتعلق بمراحل التوسع البرتغالي داخل دكالة. هذا بالإضافة إلى تزويدنا بأسماء القبائل وفروعها، وبمعلومات قيمة عن بعض المكاييل التي لم تكن الوثائق الأخرى تسمح بتحديدها بدقة.

****

ورتبت وثائق أخرى بالأرشيف الوطني تحت العنوان التالي: «رسائل قباطنة إفريقيا (**Cartas dos Governadores de Africa**). لم تنشر منها لحد الساعة إلا رسائل قليلة ضمن مجموعة «المصادر غير المنشورة المتعلقة بتاريخ المغرب (**S.I.H.M**)».

وفيما يخص رسائل نواب الملك بالهند، نشرت بمبادرة من الأكاديمية الملكية للعلوم بلشبونة في نهاية القرن الماضي رسائل ثاني وال على الهند وأشهرهم (أفونصو البكيرك) مع وثائق أخرى تساعد على فهمها. وتم ذلك في سبعة أجزاء أعطي لها العنوان التالي: «رسائل أفونصو دو البكيرك تليها وثائق تساعد على فهمها».

Cartas de Affonso de Albuquerque seguidas de documentos que as elucidam

---

(1) Núcleo Antigo, n° 575.

(2) Núcleo Antigo n° 556.

(3) دكالة، الملاحق.

وصدر الجزء الأول سنة 1884.

وتتعلق مواضيع تلك الرسائل التي بعث بجلها إلى الملك أمنويل بمجهوداته لتنفيذ المخططات البرتغالية التي كانت تهدف قبل كل شيء إلى الحيلولة دون استمرار تعامل العرب مع شرق افريقيا والهند، ولتعويضهم كمزود لأروبا بالتوابل والعقاقير وغيرها من سلع الشرق الأقصى. وهكذا كان إغلاق الخليج العربي، وخصوصا البحر الأحمر، في وجه الملاحة العربية من أهم التعليمات التي أعطيت له، وأهم ما حاول صاحب هذه الرسائل إنجازه.

وفيما يلي مثال لبعض الوثائق الواردة في الجزء الأول.

- رسالة مؤرخة في 2-2-1508 بعث بها ألبكيرك إلى الملك من هرمز يشتكي فيها من فرار عدد من قباطنة السفن حينما كان محاصرا هرمز، الشيء الذي حال دون إتمام التحصينات التي شرع فيها بالجزيرة المذكورة (ص 6). وتجدر الإشارة إلى أن (البكيررك) لم يكن آنذاك إلا مجرد رئيس الأساطيل الموجهة للشرق.

- رسالة حررها على ظهر سفينته في 6-2-1508 أخبر فيها الملك بظروف احتلال هرمز، ويقبول ملكها الدخول تحت الحماية البرتغالية، وأداء ضريبة سنوية.

- رسالة إلى الملك مؤرخة في15-2-1508 يطلعه فيها على فرار بعض المسيحيين إلى هرمز وعلى استمرار هذه الأخيرة في أداء الضرائب، وعلى ما تعرفه من رواج تجاري (ص17).

- رسالة مؤرخة في17-10-1510 بعث بها إلى الملك يخبره بعزمه على احتلال جزيرة (گوا) نظرا لأهميتها بالنسبة للمكتسبات البرتغالية بالهند، وعلى عزمه على الالتحاق فور ذلك بالبحر الأحمر (ص 21).

- رسالة بعث بها إلى الملك من (كشين) بتاريخ 20-8-1512 يخبره فيها أنه أرسل ثلاث سفن لتحطيم حصن (سقطرى وللتوصل بضرائب هرمز، وأنها التحقت بعد ذلك بالبحر الأحمر كما كان مقررا للقضاء على التجارة بزيلغ وبربرة Barbora (ص75).

- رسالة حررها خلال رحلة إلى (كوا) في 30-10-1512 وبعث بها إلى الملك يطلعه فيها على أخبار عدن، وعلى الإشاعات المتعلقة بقرب تحرك أسطول المماليك نحو مدخل البحر الأحمر(ص 95).

ـ رسالة محررة في كننور بالهند يوم 30-11-1513 أرسلها إلى الملك يخبره بعزمه على الالتحاق بالبحر الأحمر والهجوم على السويس لإحراق السفن الراسية هناك، وذلك فور الانتهاء من تشييد حصني (ديو) و(كلكوتا) بالهند. (ص 135).

ـ رسالة بعث بها من نفس المكان إلى الملك (1-2-1513) يطلعه على نوع السفن الواجب استعمالها بالبحر الأحمر في حالة السيطرة عليه. ووردت بالرسالة معلومات عن مناطق ساحلي البحر الأحمر (ص.167).

ـ رسالة من نفس الحصن بتاريخ 2-12-1513 أخبر بواسطتها الملك عن الغنائم التي حصل عليها البرتغاليون بعد إغارتهم على السفن بالبحر الأحمر (ص 180).

ـ رسالة إلي الملك (4-12-1513) يطلعه فيها على الهجوم على عدن مرتين، وعلى دخول الأسطول البرتغالي إلى «مضيق مكة» (ص 199).

ـ رسالة إلى الملك مؤرخة في15-12-1513 يطلب فيها منه إرسال السلع ليتمكن من أداء الرواتب، ويذكره فيها أنه لا يتوفر على موارد استثنائية غير ما يحصل عليه من غنائم نتيجة الحروب بعدن والبحر الأحمر (ص 243).

ـ رسالة مؤرخة في 20-10-1514 إلى الملك تتعلق بمشاريع عسكرية بالبحر الأحمر. وتعَّرضَ في هذه الرسالة للطريقة التي يمكن بها احتلال عدن، وأوصى بعدم تحصين مدخل البحر الأحمر، وأشار إلى مينائي «زيلغ» و«بربرة» وأعطى أخبارا عن جزر القمر. وفي الأخير أوصى بالاعتماد على ميناء مصوع بأثيوبيا، للتمكن من مراقبة جدة ومكة (ص 278 وما بعدها).

ـ رسالة مؤرخة في 23-10-1514 بعث بها إلى الملك يخبره فيها بأنه أمر بصنع سفن تتلاءم وظروف الملاحة بالبحر الأحمر لاستعمالها هناك في حالة التحكم فيه (ص 295).

ـ رسالة أخرى مؤرخة في 25-10-1514 يطلع فيها الملك على مشاريع تتعلق بالبحر الأحمر(325).

ـ رسالة مؤرخة في 22-9-1515 بعث بها إلى الملك البرتغالي من هرمز أطلعه فيها على الأسباب التي كانت وراء إعطائه الأولوية لهرمز، والتي كانت ضمنها ما توفره من مداخيل وحمايتها للمصالح البرتغالية بالهند. كما وعد بالاهتمام بالبحر الأحمر فور إحكام السيطرة على هرمز. وأشار إلى الوفود التي أرسلها ملك الإحساء

وأحد ولاة الشيخ إسماعيل (فارس) لتحيته ولتسليمه هدايا، واعتذر عن عدم تمكنه من اعطاء معلومات عن القطيف وعن البصرة؛ وأكد كثيرا على الأهمية الاستراتيجية للبحرين. وذكر في الختام أن هرمز تمكن من التحكم في تجارة الخيول ببلاد فارس وبالجزيرة العربية، وذلك قبل أن ينتقل إلى وصف الحصن الذي شيد بهرمز (ص 369 وما بعدها).

- وفي رسالة غير مؤرخة، أخبر الملك باستيلاء البرتغاليين على عدد من «مراكب القاهرة» كانت تقوم بتهريب السلع بالسواحل الهندية (ص 386)...الخ.

* * * *

ومن الوثائق التي يمكن للباحث أن يعتمد عليها، محاضر محاكم التفتيش الدينية[1]. ورغم فقدان عدد كبير من تلك المحاضر، وصلنا ما يقرب من أربعين ألف محضر تغطي محاكمات تمت ما بين 1536، سنة بداية العمل بتلك المحاكم، و 1821، سنة إغلاقها نهائيا. وهذه المحاضر موزعة بين ثلاث محاكم على الشكل التالي:

- محكمة لشبونة: 17977 محضر،
- محكمة يابرة: 11743 محضر.
- محكمة كوينبرا: 10258 محضر.

وبالإضافة إلى هذه المحاضر، وصلتنا عشرات الكتب التي حررت فيها الاعترافات أو التبليغات التي توصلت بها المحكمة، وهي مرتبة كالتالي:

- سجلات التبليغات (Livros das denúncias) التي تتعلق بالمحاكم الثلاث.
- سجلات الاعترافات (Livros das confessões)
- سجلات المحامي المراقب (وكيل النيابة) Cadernos do Promotor fiscal
- سجلات الزيارات (Livros das visitações)، وهي دفاتر يسجل فيها القضاة التبليغات والاعترافات التي توصلوا بها خلال زيارتهم لمنطقة معينة.

ولكن الباحث المهتم بالعالم العربي لا يستفيد إلا من نسبة ضئيلة من وثائق ومصادر هذه المحاكم لأن البرتغال لم يعرف، كجارته إسبانيا، جالية موريسكية مهمة بقيت مدة طويلة متمسكة بأرضها، وفي نفس الوقت، بثقافتها وعقيدتها التي استمرت - ولو سريا - في اتباعها رغم تنصرها السطحي. ومن جهة أخرى، يمتاز المشكل

(1) عن إسهامات وثائق محاكم التفتيش، راجع مقالات ومحضرين بهذا الكتاب.

المورسكي بالبرتغال بخصائص تميزه عما كان موجودا باسبانيا.

فبعد بحث طويل بالأرشيف الوطني ، لم نعثر، ولم أعلم أن أحدا عثر على محضر محاكمة مورسكي برتغالي الأصل، منحدر من الجالية المسلمة التي أرغمها قرار الملك أمنويل على التنصر أو مغادرة البلاد (1497). وهنا يكمن حظ المؤرخ للغزو البرتغالي للسواحل العربية الإسلامية، ذلك أن محاضر محاكمة موركسيي البرتغال تتعلق بأفراد تم ادخالهم إلى البرتغال كأسرى وعبيد إما من دول المغرب العربي، أو من غرب افريقيا، أو من الهند، أو من الخليج العربي، أو كانوا أسرى أتراكا. وكانت المحاضر التي استطعت اكتشافها من بين تلك الأعداد الهائلة التي لا تتوفر على فهارس[1] موزعة كالتالي :

- المغاربة : 244.
- الجزائريون : 6 .
- التونسيون : 5 .
- " الأتراك" : 23 منهم 3 مصريين وبصريان وهرمزي.
- الهنود المسلمون : 24.
- مورسكيون لم تحدد مناطقهم الأصلية : 15.

وتقدم دراسة وثائق محاكم التفتيش خدمة كبرى لمؤرخ الغزو البرتغالي لسواحل العالم العربي والإسلامي وردود الفعل التي تولدت عنه، خصوصا بالنسبة لمؤرخ نتائجه الفكرية والدينية، ذلك أن هؤلاء المسلمين الذين أدخلوا إلى البرتغال وأرغموا على التنصر حوكموا ليس فقط لتمسكهم بدينهم الأصلي، ولكن كذلك لاستمرارهم في العيش حسب عادات وتقاليد بلدانهم، الشيء الذي يسمح بتحديد العقليات وخصائص الثقافة - بمفهومها الواسع - داخل تلك البلدان. والمحاضر المتعلقة بالعالم الإسلامي تتكون من ثلاثة أنواع متميزة:

(1) - محاضر تسلط الأضواء على محاكمة مورسكيين لتمسكهم بعقيدتهم وثقافتهم،

---

(1) يعتبر العمل التالي أحسن عمل للتعريف بمصادر محاكمة التفتيش البرتغالية :

charles Amiel:

les archives de l'Inquisition portugaise:regards et réflexions. Paris 1979

(2) ـ محاضر محاكمة مهربين برتغاليين اعتقلوا لاستمرارهم في التبادل التجاري مع المغاربة رغم تحريم الملك البرتغالي لذلك إثر اضطراره إلى التخلي عن عدد من الثغور المغربية، أو لتسهيلهم فرار الموركسيين بجعل مراكبهم رهن إشارتهم مقابل مبالغ مالية.

3) ـ محاضر محاكمة بعض المجاهدين البحريين الذين تم أسرهم خلال غاراتهم على السفن والسواحل البرتغالية، والذين تبين للمحكمة أنهم منحدرون من أصل مسيحي (الانكشارية العثمانية)، أو استمروا في تمسكهم بدينهم رغم تنصرهم، أو تأكد للمحكمة إعدادهم للفرار للالتحاق بالبلاد الإسلامية، وخصوصا بالمغرب.

وهذا النوع الثالث من المحاضر يسمح للمؤرخ بتتبع تصدي العالم الإسلامي للمخططات البرتغالية الرامية إلى تطويقه والتقليل من موارده، وذلك تحضيرا للاستيلاء عليه. وكان من أولئك المجاهدين من أسر بالخليج العربي خلال حروب ضد البرتغاليين.

* * * *

وهكذا تتجلى بوضوح أهمية هذه الوثائق البرتغالية، ذلك أنها توفر للباحث فرصة دراسة مرحلة من أخطر مراحل تاريخ عالمنا العربي التي لا تسمح وثائقنا ومصادرنا بدراستها كما يتجلى ذلك من خلال الوثائق الكثيرة والمهمة التي وصلتنا عن معركة وادي المخازن مثلا، أو عن المخططات البرتغالية بالخليج العربي والبحر الأحمر.

وتوفر هذه الوثائق للباحث فرصة القيام بدراسة شمولية لأي موضوع يتعلق بالتوسع البرتغالي، إذ تسمح في نفس الوقت بتتبع إمكانات وأوضاع كل من البرتغال والعالم العربي، و تمكن من ربط تلك المخططات، ليس فقط بالظرفيتين السياسية والاقتصادية للطرفين، ولكن كذلك بالظرفيتين الدوليتين كالنزاع الإسباني ـ البرتغالي حول مناطق النفوذ بالمغرب العربي والشرق الأقصى مثلا، ودور البابوية في خلق الوفاق بينهما، أو محاولات الدول الأوربية الأخرى كفرنسا، وهولندا وانجلترا إفشال نظام

الاحتكار الذي فرضه البرتغاليون ...الخ.

ولكن كثرة ما وصلنا من وثائق برتغالية لا تمنع الباحث من الأسف على ضياع عدد كبير من المراسلات والتقارير، مما جعل معلوماتنا عن بعض الأحداث تبقى ناقصة كما هو الشأن مثلا بالنسبة لسنتي احتلال وإخلاء آسفي المغربية. وهذا الضياع يحتم أحيانا اللجوء إلى بعض المصادر التي عاين مؤلفوها الأحداث أو استغلوا بعض تلك الوثائق الضائعة. هذا، وتلزم هذه الوثائق الباحث، فضلا عما هو ملزم به إزاء أية وثيقة أو مصدر، تلزمه بالتسلح بحيطة خاصة تفاديا لما وقع فيه بعض المؤرخين الأجانب من أخطاء. ففضلا عما تزخر به الوثائق البرتغالية من أحكام القيمة التي استهدفت عقيدة ونظم البلاد الإسلامية، لا تسجل إلا ما يثير استغراب محرريها، أو ما يعبر عن اهتماماتهم، أو ما كانوا يعتبرونه فخرا لبلادهم كالإطناب في الحديث عن الانتصارات والسكوت عن الهزائم. وللوصول إلى هذا الهدف الأخير، لم يتردد بعض محرري تلك الوثائق في الكذب وتزييف الحقائق. ويمكننا المثالان التاليان من أخذ فكرة عن بعض عيوب تلك الوثائق:

1) إذا كانت مساهمة الإيصالات السابقة الذكر مهمة في التعريف بالتجارة الملكية البرتغالية في بعض الثغور، فانها تسكت عن نشاطات التجار الأحرار المهمة، الشيء الذي يحرمنا من معلومات وإشارات قد تساهم في التعريف باهتمامات مخالفة لاهتمامات الملك، وبالتالي، الإلمام بكل جوانب التجارة البرتغالية بالثغور المغربية. كما أن تلك الوثائق، وكذا تقارير الوكلاء التجاريين والماليين...، لا تهتم إلا بالمناطق الساحلية وبأنواع معينة من المنتوجات ، الشيء الذي لا يسمح بتاتا بتسليط الأضواء على أوضاع البلاد الاقتصادية كلها.

2) أوقعت هذه الوثائق عددا من المؤرخين الأجانب في أخطاء فادحة. فمنهم من أخذ ما تزخر به من مشاريع ومخططات وكذب كحقيقة ونسب للتوسع البرتغالي مخططات وأحيانا مكتسبات لم تكن إمكانات البرتغال المالية والبشرية تسمح بها. ويمكن اعطاء مقالة للباحث (سنفال) السابق الذكر كمثال على هذا [1].

(1) P. Cenvial , in : **Sources Inédites** ... I,p. 396

كما أن عددا من المؤرخين الأجانب كرروا بدون تمحيص التبريرات الواردة بالوثائق البرتغالية عن أسباب تراجع النفوذ البرتغالي بالمغرب، ولم يأخذوا قط بعين الاعتبار رفض المغاربة الرضوخ لمشيئة البرتغاليين وضرب حصار شبه مستمر على قلاعهم. وهكذا برروا ذلك التراجع بتفضيل البرتغاليين الهند والبرازيل على المغرب الذي لم يكن - في رأيهم - يسمح بأرباح، ولم يكن يتوفر على موانئ جيدة..[1]

ورغم كل هذه العيوب، يمكن لهذه الوثائق، إذا ما استعملت مع الحيطة اللازمة، أن تسد الكثير من الثغرات التي تركتها مصادرنا العربية، وأن توفر المادة الضرورية لدراسة جوانب مهمة من تاريخ الغزو البرتغالي ومخططاته على حساب العالم الإسلامي. ويمكن إعطاء الأمثلة التالية عن مساهمات تلك الوثائق في دراسة بعض المواضيع المهمة :

1 - الدوافع التي حدت بالبرتغاليين إلى اكتساح مناطق النفوذ الإسلامي، وتحديد مكانة كل واحد من تلك الدوافع لفهم أسباب إصرار البرتغاليين على تنفيذ مخططاتهم.

- **العوامل الدينية :** هل كان اكتساح البرتغاليين للأراضي الإسلامية استمرارا للحروب الصليبية ضد الإسلام بايبيريا ؟ وفيما يلي أنواع الوثائق التي يمكن استغلالها لدراسة هذا الموضوع.

القرارات البابوية (Les Bulles pontificales) التي كانت تمنح للملوك البرتغاليين امتيازات مالية وجبائية مهمة قصد تشجيعهم على الاستمرار في محاربة الإسلام والمسلمين وغزو أراضيهم. ويمكن للباحث الرجوع إلى آخر عمل أنجز حول هذه القرارات على يد الراهب البلجيكي Ch. Witte الذي جمع ودرس سبعة وستين قرارا بابويا متعلقا بالحروب البرتغالية التي دارت بالمغرب، وبدور البابوية في توفير شروط النجاح لها[2].

ويمكن الرجوع كذلك إلى بعض المراسلات التي تبادلها الملك وبعض المسؤولين السياسيين والدينيين. ويمكن أخذ فكرة عن مدى طغيان الروح الدينية على تلك

---

(1) R. Ricard, : "le problème de l'occupation restreinte dans l'Afrique du Nord" **Annales d'histoire économique et sociale** ,Septembre, 1936 pp. 426-34
- Durval Pires de Lima :
História da dominação portuguesa em çafim. Lisboa, 1930. p. 107.

(2) Witte (Ch. M.): Les Bulles pontificales et l'Expansion portugais au XV° siécle **Revue d'Histoire ecclesiastique**, XLVIII (1953), XLIX(1954), LI(1956),

المراسلات ومدى صدق محرريها بالرجوع إلى رسالة الملك البرتغالي أمنويل إلى أسقف (براغا) السابقة الذكر، أو إلى الرسائل التي بعث بها الملك البرتغالي إلى بعض كبار المسؤولين السياسيين والدينيين سنة 1534 حول مشروع إخلاء آسفي وأزمور وأجوبة بعضهم[1].

-الدوافع الاقتصادية : إن الوقوف على وثائق برتغالية جديدة، وإخضاع الوثائق ذات الطابع الديني للنقد والتحليل جعل عددا من المؤرخين يتخلون عن إعطاء الأولوية للعامل الديني. فاذا اعترفوا بوجود هذا الدافع، فانهم أكدوا مع ذلك على طغيان العوامل الإقتصادية خصوصا بعد الوصول إلى المراكز التجارية بغرب افريقيا ونجاح (دو غاما .V. de Gama) في ربط لشبونة بالهند اعتمادا على طريق رأس الرجاء الصالح البحرية، وذلك رغم احتفاظ الملوك البرتغاليين بشعار الحرب الصليبية لدفع البرتغاليين إلى المساهمة في المجهود العسكري وتحمل تكاليفه وتضحياته، وللحصول على مساعدة البابوية المهمة.

وبالإضافة إلى تسليطها الأضواء على دوافع الغزو، تمكن هذه الوثائق كذلك من تتبع مدى استفادة البرتغال من تحكمه في كل منطقة، ودور تلك الاستفادة في تحديد السياسة المتبعة بها. وبذلك يمكن تفادي تعميمات خاطئة سقطت فيها دراسات لم تعتمد على هذه الوثائق. وسأعطي على دور العوامل الاقتصادية والبحث عن الربح في توجيه السياسة البرتغالية مثالين، واحد من المغرب الأقصى، وآخر من الخليج العربي.

لقد اعتمد البرتغاليون بشمال المغرب على عدد كبير من الأساطيل والرجال للاستيلاء على المدن، وكانت سياسة المخططين للغزو واضحة : التخريب ومطاردة المغاربة وانتهاج سياسة الأرض المحروقة، الشيء الذي يتناسب وعقلية الفرسان والنبلاء الذي عاثوا لذلك في الأرض فسادا. أما في السهول الغربية، فقد كانت الوسائل المعتمدة للتحكم فيها مخالفة، وذلك لأسباب تجارية. فاذا كان المسؤولون البرتغاليون على علم بما كانت تعاني منه مدن تلك المناطق من فتن واضطرابات، ورغم أنهم زادوا تنافس الأعيان حول السلطة حدة بتدخلاتهم ورشاويهم ومختلف الضغوط التي مارسوها، فانهم تفادوا مع ذلك التدخل العسكري لاحتلال أهم تلك المدن، وذلك رغم الفرص التي أتيحت لهم. لقد كانوا يكتفون كلما تبين لهم أن مجرى الأحداث أصبح يهدد مصالحهم بتنظيم انقلابات وبتسليم السلطة لمن كانوا يتوقعون منه حماية

1) Sources Inédites... II, pp. 640-44, 652, 665, 690, 692...; III p. I. -

مصالحهم وتنميتها. ولم يقرر الملك البرتغالي احتلال آسفي سنة 1508 إلا وهو شبه مرغم، وتحت ضغط التجار المحليين، الذين كانوا ينتظرون من ذلك الاحتلال إرجاع الأمن إلى المدينة وجعل حد للفتن التي قضت على الرواج التجاري الذي كانت تعرفه.

وبعد احتلال المدينة، عمل الملك كل ما في وسعه للحيلولة دون دخول البرتغاليين في حروب ضد القبائل المجاورة، ودون انتهاج سياسة الأرض المحروقة المتبعة بالشمال. وأوصى بالاعتماد على الرشاوي وخلق عملاء والاعتماد على الدبلوماسية أكثر من الاعتماد على الأسلحة. وقام الملك بعدة تنازلات سياسية وجبائية لضمان ولاء القبائل واستمرار إقبالها على الموانئ، ولضمان طاقات المنطقة الإنتاجية والاستهلاكية لصالح البرتغال. وتساهم الوثائق ذات الطابع التجاري المحض في فهم هذه السياسة وتحديد أسبابها. فمناطق الجنوب، وخصوصا دكالة، أصبحت منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر، تمثل أهمية قصوى داخل الإمبراطورية التجارية البرتغالية، إذ أصبحت ضرورية لاستمرار استفادة البرتغال من تعامله التجاري مع غرب إفريقيا لتوفرها على المواد الضرورية للحصول هناك على التبر والعبيد (أنسجة صوفية، نحاس، حبوب، خيول...) ولترويج توابل وعقاقير الهند... ونظرا لهذه الأهمية، عمل البرتغاليون على الاحتفاظ بدكالة وساحل غرب افريقيا داخل كتلة جغرافية لا يمكن أن تجزأ أو أن يتخلى عن قسم منها لإسبانيا التي عبرت في عدة مناسبات عن مطامعها في المنطقة[1].

أما بالمشرق العربي، فقد كانت السياسة البرتغالية مرتبطة بهدف واضح تمثل في القضاء على الوساطة العربية بين أوروبا والمناطق الأسيوية المنتجة للتوابل والعقاقير والعطور كشرط أساسي لتعويض الإيطاليين الذين كانوا الوسطاء الضروريين لأوروبا ومزوديها بتلك السلع التي كانوا يحصلون عليها من مصر أو سواحل الشام. ولهذا كان إغلاق البحر الأحمر في وجه الملاحة العربية أهم ما كلف به الأسطول البرتغالي الذي أرسل إلى المنطقة سنة 1505. ولهذا كذلك ألح قائد الأسطول المذكور على الموانئ العربية بالغارات وخرب عددا منها توجد على ساحل عدن ومدخل البحر الأحمر والخليج، وقام باحتلال هرمز. ولكن ذلك القائد سرعان ما أدخل تعديلا مهما على سياسته، وذلك بعد أن عاين معطيات التجارة بالمنطقة. لقد لاحظ أن العلاقات

(1) R. Ricard: "Le commerce de Bérbérie et l'organisation économique - de l'Empire portugais aux XV ème XVI ème siècles". **Etudes sur l'Histoire des Portugais au Maroc**. p. 103.

بين آسيا والعالم العربي عريقة، وأن إغلاق البحر في وجه التجارة العربية لن يؤدي في نهاية الأمر إلا إلى تنشيط الطرق البرية التي لا يمكن للبرتغاليين مراقبتها. كما أن الهند لا يمكنها الاستغناء عن مواد تعودت على التوصل بها من العالم العربي كالخيول والفضة. لذا لم يعد المسؤولون البرتغاليون ينظرون إلى التحكم في هرمز نظرتهم إلى احتلال عدن أو جزر القمر مثلا.

وهكذا تقرر عدم إغلاق تلك المبادلات في وجه العرب وفرض الوساطة البرتغالية عليهم تفاديا لاتصالهم بالمناطق المنتجة. وكلفت هرمز بامتصاص سلع الجزيرة العربية والعراق والشام وتوزيع مواد الشرق الأقصى اعتمادا على البصرة على الخصوص.[1] وتمكن رسائل «ألبكيرك» السابقة الذكر من تتبع مراحل انتهاج تلك السياسة. ففي رسالة موجهة إلى الملك مؤرخة في4-10-1510 (ص423)، وأخرى تعود إلى 27-12-1514 (ص346-349)، تتجلى خلفيات ذلك المخطط بكل وضوح. لقد أدى فتح هرمز في وجه التجار العرب إلى امتصاص نسبة مهمة مما كان يرسل إلى الهند من فضة وخيول. وفي رسالة أخرى، (هرمز،22-9-1415، ص ص 371). أخبر الملك أنه يعلم جيدا أن العالم العربي والتركي والفارسي يتزود بالتوابل من البصرة، وأنه لا يرى في ذلك أي خطر على مصالح البرتغال ما دامت تلك المناطق خارجة عن النفوذ العثماني، وما دامت الكميات المحصل عليها لا تسمح قط بمنافسة البرتغال بأروبا. وأكد للملك حقيقة أخرى قد تبعث على الاستغراب : لقد سمح للعرب بركوب البحر بالخليج، ولكن شريطة الحصول من البرتغاليين على تسريح ("Cartaz) وشريطة الاتجار مع هرمز ومع هرمز وحدها ![2].

وللمزيد من الإيضاح حول مساهمة هذه الوثائق ذات الطابع التجاري في التعريف بالأنشطة التجارية التي كان العالم العربي يعرفها، وبمدى اهتمام البرتغاليين بالمنتجات والأثمان وأهم المراكز التجارية وأنشط الطرق والمسالك، أشير إلى أن إيصالا متعلقا بالمتجر الملكي (فيطورية) بفلندرا (بلجيكا الحالية) مؤرخ في1-4-1547 أشار

(1) "Pareceres sobre os Turcos que estao em Bassora". Bibliothèque de Ajuda (Lisboa) códice 51 - VIII - 42 folios 293-331. cité par Vitorino M. Godinho: **Os Descobrimentos e a economia mundial** ,T2, p. 161, n 186.

(2) ما ان احتل العثمانيون البصرة في دجنبر من سنة 1546 بعد 10 سنوات من الولاء، حتى توصلت الادارة المركزية بتقرير حول الاوضاع الجديدة التي أصبحت عليها المدينة (1547): «وجهات نظر حول الأتراك الموجودين بالبصرة».وقد سبقت الاشارة إليه بهامش سابق.

إلى أهم الطرق التجارية بين البصرة ودمشق وباقي المدن التركية، وأكد أن المدينة الثانية استطاعت بفضل البصرة تعويض القاهرة كأكبر خزان وموزع للتوابل والعقاقير، وذلك نتيجة تضييق البرتغاليين الخناق على الملاحة بالبحر الأحمر[1].

2) بالإضافة إلى تسليط هذه الوثائق الأضواء على الدوافع، تسمح كذلك بدراسة الوسائل المسخرة من طرف البرتغاليين لغزو البلاد الإسلامية، ذلك أنها توفر معلومات وأرقاما عن أعداد الجنود والأساطيل ونوعية الأسلحة المستعملة من طرف البرتغاليين للهجوم على ثغر معين، أو للدفاع عنه، أو لخوض معركة بحرية...إلخ. كما تعرف هذه الوثائق بأنواع وأشكال التحصينات المستحدثة، وأحيانا بمصدر موادها الخام والمصاريف التي تطلبها بناؤها أو ترميمها... واعتمادا على هذه الوثائق، تمكن دراسة سياسة التوغل السلمي وفرض نظام الحماية على مجموعة من الثغور لأسباب سبقت الإشارة إليها.

2 ـ المراحل والمكتسبات المحققة :

بما أن مصادرنا ـ لا أتحدث عن الوثائق لانعدامها ـ تحتوي على مجموعة من العيوب التي سبقت الإشارة إليها، وأهمها افتقارها للتواريخ الدقيقة ـ وهي أهم عنصر للتأريخ لحدث ما ـ فإن مساهمة الوثائق الأوروبية في كتابة تاريخ اعتداء الإيبيريين على البلاد الإسلامية أساسية لتوفيرها إمكانية تتبع مراحل ذلك الاعتداء بدقة كبيرة أحيانا.

ومن جهة أخرى، تسمح تلك الوثائق بإدخال بعض الفوارق على تلك المراحل كما يتجلى ذلك مثلا من خلال مرحلتي الشمال والجنوب المغربيين اللتين سبقت الإشارة إلى وجودهما لأسباب استراتيجية (الشمال) وتجارية (الجنوب).

كما تسمح بتتبع مدى متانة تلك المكتسبات. وعلى ضوء ما تزودنا به من معلومات، وبالرغم من سكوت المصادر البرتغالية عن الكثير من الهزائم والنكسات البرتغالية، تسمح للمؤرخ بالخروج بنتائج مدهشة. فإذا كانت تلك المكتسبات التي استطاع البرتغال تحقيقها بالمغرب والمشرق العربيين سريعة ومهمة وسهلة نسبيا، فإن نسفها بسبب مختلف ردود الفعل التي تولدت عن ذلك الغزو لم يكن أقل منها سرعة. وهكذا، وبخلاف ما حاول بعض المؤرخين الأجانب إخفاءه، لم تدم سطوة البرتغاليين بالسهول الغربية المغربية ـ حيث كان نجاحهم أكبر ـ أكثر من أربع سنوات (1511 ـ 1514)

(1) Vitorino M. Godinho: op. cit., 160.

لتصبح أوضاعهم بعد ذلك شبيهة بما كانوا يعانون منه بباقي الثغور، أي العيش في حالة حصار مستمر[1]. واعتمادا على هذه الوثائق يمكن للباحث أن يتتبع مختلف التنظيمات المستحدثة من طرف البرتغاليين داخل الثغور : الإدارية، والعسكرية و المالية و التجارية، والدينية[2].

3- ردود الفعل العربية الإسلامية :

يجد الباحث بالوثائق البرتغالية مادة غزيرة لدراسة هذا الموضوع. ولقدسبقت الإشارة إلى إسهام محاضر محاكم التفتيش التي قد تبدو جد بعيدة عن موضوع كهذا في دراسة ردود الفعل العربية الإسلامية التي تولدت عن محاولات البرتغاليين الحيلولة دون ركوب المسلمين البحر. وفضلا عن هذه المحاضر،

تسلط تقارير ومراسلات كثيرة الأضواء على الحروب البرية والبحرية، الشعبية والرسمية التي أعلنها العرب والعثمانيون على البرتغاليين بالبحر الأحمر والخليج والمحيط الهندي والسواحل المغربية والهندية. وهكذا يمكّننا استغلال هذه الأعداد المهمة من الوثائق من استخلاص مجموعة من النتائج، أشير إلى أهمها :

1) إن ردود الفعل العربية الإسلامية كانت فورية وعنيفة واكتست طابعا شعبيا واضحا لتنبه شعوب المنطقة المعرضة للغزو لخطورة المخططات البرتغالية. وكان هذا سبب تراجع نفوذ البرتغاليين ونسف مكتسباتهم بسرعة كبيرة، ووراء تقلبات سياسية مهمة عرفها العالم العربي كتنحية الوطاسيين العاجزين عن مواجهة البرتغاليين، ومبايعة الشرفاء السعديين بالمغرب، واستنجاد الجزائريين بالأتراك بعد يأسهم من دولة بني عبد الواد.

2) تشهد هذه الوثائق نفسها على إفشال ردود الفعل العربية الإسلامية للمخططات البرتغالية السابقة الذكر. فإذا كان الغزو البرتغالي يهدف أولا وقبل كل شيء إلى حرمان العرب من دور الوساطة بين أوروبا والسودان الغربي من جهة، والشرق الأقصى من جهة أخرى، فإن تعامل العرب مع تلك المناطق لم يتوقف أبدا، وإن تضرر من الحصار البرتغالي. فلقد استمر المغاربة في عرض التبر ببعض الموانئ التي

(1) أحمد بوشرب، **دكالة**... ص ص237-205

(2) خصصنا لهذا الموضوع فصلا خاصا بالتنظيمات المستحدثة من طرف البرتغاليين.ص ص 262-272.

بقيت حرة، وازداد العرض مع السنوات رغم كل المحاولات البرتغالية لقطع الطريق على القوافل، إلى حد جعل المؤرخ البرتغالي الكبير (غودينيو) يعتبر أن "انتقام القافلة من الكرفيلا" البرتغالية مثل أهم أسباب انتصار المغاربة السياسي والعسكري على البرتغاليين[1]. ولم يستطع البرتغاليون إغلاق البحر الأحمر أو الحيلولة دون وصول التجار العرب إلى السواحل المنتجة للتوابل كما تشهد على ذلك اعترافات المسؤولين البرتغاليين أو الغنائم التي كان البرتغاليون يحصلون عليها من مطاردة السفن العربية بساحل عدن والبحر الأحمر والخليج.

3) - إن ردود الفعل العربية الإسلامية لم تعط نتائج فورية وسريعة نظرا لتفوق البرتغاليين في ميدان الأسلحة النارية، ولافتقار المناطق المعرضة للغزو لقوة سياسية قادرة على الرد على التحدي البرتغالي. وأخر التحرير كذلك تناحر أمراء وملوك المناطق المعرضة للغزو أو القريبة من مناطق النفوذ البرتغالي، ذلك التناحر الذي زاده البرتغاليون حدة.

كما تمكن تلك الوثائق من الوقوف على سبب رئيسي حال دون إحراز انتصار نهائي وسريع ضد البرتغاليين، ويتمثل في عجز الدول العربية والإسلامية على مجابهة البرتغاليين بأسطول في مستوى ما كان بأيديهم، لقد حال افتقار المغاربة لأسطول قادر على منع توصل البرتغاليين بالرجال والعتاد والأقوات من البرتغال دون حصولهم على نتائج مهمة من إعلانهم حروبا برية على برتغاليي الثغور المحتلة.

وتؤكد نفس الوثائق حقيقة أخرى مهمة : لقد أدى استعمال المصريين أولا، والعثمانيين بعد ذلك لأساطيل خاصة بالأبيض المتوسط في حروبهم ضد البرتغاليين بالمحيط الهندي إلى حصول هؤلاء على انتصارات هائلة رغم قلة أعداد مراكبهم.

وتسمح بعض التقارير والمراسلات بأخذ فكرة عن محاولات المصريين والعثمانيين انشاء أسطول بحري بالسويس لإفشال المخططات البرتغالية، وتطلعنا على المشاكل التي واجهتهم في ذلك . فقد كانت الأشرعة والمدفعية وغير ذلك ترسل من اسطنبول، ولم تكن المنطقة تتوفر على المواد الخام وعلى الأخشاب على وجه الخصوص ، إذ كانت تجلب من لبنان إلى مصر حيث كانت السفن تنزلها بمينائي الأسكندرية ورشيد لتجد في انتظارها 4000 جمل لنقلها إلى السويس، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

المخططات البرتغالية ضد العامل الإسلامي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر*

مقدمة :

ابتدأ التوسع البرتغالي فيما وراء البحار باحتلال مدينة سبتة صيف 1415. وكان البرتغاليون ينوون اتخاذ هذه المدينة منطلقا لغزو المغرب كله.[1] إلا أن قلة الإمكانات المالية والبشرية التي كان البرتغال يعاني منها في مطلع القرن الخامس عشر، والحصار الذي ضربه المغاربة على المدينة، وخصوصا هزيمة البرتغاليين الكبرى بطنجة سنة 1437 جعلتهم يتأكدون من استحالة غزو المغرب، وأرغمتهم على الاهتمام بالسواحل الافريقية المصدرة للتبر والعبيد لتخطي الوساطة المغربية. ولم تكن تلك المخاطرة الجديدة بدورها سهلة، ذلك أن مجرد تجاوز رأس بوجدور، الذي كان يعتبر بداية «بحر الظلمات»، تطلب اثني عشرة سنة من المحاولات الفاشلة.

ولم تتوقف عملية الكشوف بعد تحكم البرتغاليين في سواحل ما عبر عنه «بغينيا»، بل استمرت تحت إشراف الدولة نفسها بعد موت الأمير هنري الملاح (1460) وتبني مشروع الربط البحري بين البرتغال والشرق الأقصى قصد الوصول إلى مناطق إنتاج التوابل والعقاقير وغيرها، وانتزاع تجارة الشرق الأقصى من أيدي العرب والمسلمين أولا، والإيطاليين ثانيا. وبذلك تكون غاية البرتغاليين من هذه الكشوف هي ضرب مصالح العالم الإسلامي بشطريه الشرقي والغربي، وحرمانه من أهم عناصر قوته المتمثلة في الوساطة التجارية بين أوروبا ومناطق إنتاج التبر وتصدير العبيد والتوابل والحرير وغيرها. وسمح هذا الصدام بالعالم العربي و الإسلامي في كل أطراف

---

* نشرت ضمن مؤلف: **في النهضة والتراكم** ،أعمال مهداة للاستاذ محمد المنوني، الدار البيضاء، توبقال، 1985 ص ص 183 ـ 222.

(1) D. Lopes, "Os Portugueses em Marrocos "in, **História de Portugal**, direct. de D. Pires, Barcelos, 1931, III, p. 401

P. Chaunu, **l'Expansion européenne du XIIIème au XV ème siècle**, Paris: P.U.F, nle Clio 26, 1969 p. 126

الامبراطورية التجارية البرتغالية للمشرفين على الكشوف بتغطية أهدافهم التجارية وبصبغ مخططاتهم تلك بصبغة صليبية محضة، إذ جعلوا من توجه مراكبهم إلى سواحل إفريقيا السوداء بعد فشلهم بالمغرب محاولة لتطويق هذا البلد وضربه من الخلف، والبحث عن مملكة «الراهب يوحنا» قصد التحالف معه ضد المسلمين. وسنرى أن البرتغاليين أعطوا لحروبهم بالخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي نفس التبرير.

ولفهم اندفاع البرتغاليين في هذه المغامرة الاستكشافية والعسكرية، وإصرارهم على تحقيقها رغم التضحيات الجسيمة التي تطلبتها، لابد من التذكير بأن ذلك مثل منذ القرن الثالث عشر مشروع أوربا الغربية كلها، إلا أن البرتغال كان خلال القرن الخامس عشر البلد الوحيد الذي يتوفر على الدوافع والوسائل اللازمة لتحقيق مثل تلك المشاريع.

لقد أصبحت أوربا منذ القرن الثالث عشر تعمل على تجاوز الوساطة العربية الإسلامية لثلاثة أسباب رئيسية :

أ) **النهضة الاقتصادية والديمغرافية** التي مر بها قسمها الغربي خلال ذلك القرن، والتي ضمنت له تحسنا ملموسا في وسائل الإنتاج بعدد من الاكتشافات في الميدان الزراعي والتجاري وفي ميدان الملاحة. ووفرت تلك التقنيات لأوروبا الوسائل اللازمة لركوب البحر. فلقد كانت تلك القارة تتوفر خلال القرن الرابع عشر على طاقة بشرية وحيوانية وطبيعية تعادل طاقة خمسين مليون عبد ـ آلة، أي ما يفوق ما كان بأيدي الصينيين ـ الذين كان مستواهم يقارب مستوى الأوربيين ـ خمس مرات. إلا أن هذه الوسائل لم تكن كافية في حد ذاتها، لأن المهم ليس هو المستوى التكنولوجي والوسائل المتوفرة، بل هو نوع استغلالها ومدى إلحاح الدوافع إلى ذلك الاستغلال. فلقد كانت الصين متمكنة من كل الوسائل الضرورية للملاحة على المدى البعيد، بل أكثر من هذا، سبقت السفن الصينية الكرفيلات البرتغالية إلى منطقة رأس الرجاء الصالح وشرق افريقيا، وكانت الصين سنة 1420 في المستوى التكنولوجي والمعرفي الذي لم يصله البرتغال إلا سنة 1480، ومع ذلك لم يتم الربط بين الشرق والغرب على يد الصينيين لافتقارهم إلى الحوافز، إذ أن مجيئهم إلى شرق افريقيا كان يهدف فقط إلى الحصول على الزرافات، وتوقف بتخليهم عن الاهتمام بهذا الحيوان.[1] أما أوروبا فقد أرغمها القرن الرابع عشر على استغلال ما يتوفر لديها من وسائل لتجاوز ما

(1) P. Chaunu, pp. 334 - 336.

كانت تعرفه من أزمات.

ب) **السبب الثاني : خلق القرن الرابع عشر الدوافع** لكونه كان قرن أزمات خانقة فرضت على أوروبا رفع التحدي والبحث عن حلول للمشاكل القائمة. وكان ركوب البحر من بين تلك الحلول. فلقد عبر المؤرخ الفرنسي(بيير شوني) Pierre Chaunu عن علاقة التوسع الإيبيري بتلك الأزمات بقوله «مرة أخرى نبعت الكشوف (الجغرافية) كجواب على أزمنة المشاكل والهموم التي دامت طويلا...»[1]. وتتجلى تلك المشاكل في أزمتين حادتين:

وباء الطاعون الأسود (1348) الذي حصد خلال ثلاث سنوات فقط نصف سكان أوروبا التي لم تفلت منها إلا مناطق قليلة. (جنوب بولونيا، بوهيميا، بعض مدن فلندرا، ميلانو...)[2].

ولم تستطع أوروبا في مطلع القرن الخامس عشر الوصول إلا إلى 60٪ من أعداد السكان الذين كانت تتوفر عليهم سنة 1330. وبذلك أصبحت هذه القارة، وخصوصا منها إيبيريا التي اتسعت أراضيها مع تزايد عمليات الاسترداد، في أمس الحاجة إلى الأيدي العاملة. وتتجلى أهمية العامل الديموغرافي في تهافت البرتغاليين والإسبان على العبيد إلى حد أن المؤرخ شوني اعتبر تنظيم أول قنص بمثابة «... الدافع والمحرك الإقتصادي للكشوف...»[3]. كما تتجلى في الاجراءات الإدارية والقانونية المتخذة من لدن الدولة البرتغالية لتشجيع استيراد العبيد إلى البلاد، كإعفاء التجار من أداء الضرائب الجمركية، وكمعارضة الكورتيس البرتغالي لإعادة تصدير ما يجلب من عبيد إلى البلاد. ولهذا سرعان ما أصبح العبيد يكونون عشر سكان العاصمة لشبونة.[4]

وسيزداد اهتمام البرتغاليين بالعبيد بعد بداية استغلال الجزر الأطلنطيكية :

---

(1) Ibid, 104.

(2) Ibid, 105.

(3) Ibid., p. 141.

V.M. Godinho: **Os Descobrimentos e a economia mundial**. Lisboa: Arcádia, 1965, II. pp. 517-587.

(4) V.M. Godinho, **Estrutura antiga da sociedade portuguesa**, Lisboa, Arcádia, 1980 4 édit, p. 41; Carlos Frédérico Montenegro de sousa, article: "Escravatura", in: **Dicionário de História de Portugal**, direct, Joel Serrão, Porto, livraria Figueirinhas, II, p. 423

(مديرا، بْرِينْسِيبْ، سَاوْطُومِي، الأَسُورْ) والقارة الأمريكية.

الأزمة النقدية خلال القرن 14 : كانت أوربا منقسمة في ميدان العملة إلى قسمين: قسم أوسط وشمالي يعتمد على الفضة لتوفرها بمناجم أوروبا الوسطى (ألمانيا، بوهيميا، هنغاريا)، وقسم جنوبي يعتمد على تبر السودان الذي يحصل عليه بسواحل المغرب العربي. وبذلك كانت قيمة الفضة بالنسبة للذهب تنخفض كلما اتجهنا نحو الشمال:

- المغرب العربي : 9 فضة =1 ذهب سنة 1435.
- اسبانيا : 10 فضة =1 ذهب سنة 1435.
- شمال أوروبا : 11 فضة =1 ذهب سنة 1435 (1)

وكان المغرب العربي يلعب دور الوسيط الضروري بين بلاد السودان الغربي وأوروبا، وخصوصا القسم الجنوبي منها. وللحصول على التبر، تزايد إقبال التجار الإيطاليين والفرنسيين (مرسيليا) والبرتغال على السواحل المغربية منذ مطلع القرن 13. إلا أن المغرب العربي أصبح خلال القرن التالي عاجزا عن تغطية كل الطلب الأوربي لكونه كان يعاني من مشكلين :

× مشكل هيكلي : ذلك أن تجارة القوافل لا يمكنها تخطي مستوى معين من العرض: يتطلب جلب طن من التبر عشرين جملا وعشرة أسابيع من السفر (أي بمعدل يصل إلى 30 ـ 40 كلغ، وسرعة 35 ـ 40 كلم في اليوم لكل جمل). (2)

× مشكل سياسي : ومما زاد المشكل الهيكلي حدة تزايد الاضطراب بالجنوب المغربي بعد ضعف السلطة المركزية خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر، ووصول قبائل بني معقل إلى الجنوب المغربي. ويرى بعض المؤرخين أن اهتمام المرينيين بالمغربين الأوسط والأدنى كان يهدف إلى التحكم في الطرق الصحراوية التي تحولت نحو الشرق فرارا من الفتن التي سببتها قبائل بني معقل. (3)

وصادف تراجع العرض المغربي تزايد احتياج أوروبا إلى التبر، ذلك أنها عرفت في الفترة بين 1000 ـ 1350 ثورة اقتصادية نتج عنها :

(1) V.M. Godinho: "Les Grandes Découvertes", **Bulletin des Etudes Portugaises,** XVI, 1952, p. 35.

(2) P. Chaunu, 271.

(3) J. Brignon et collab. **Histoire du Maroc**, Paris: Hatier, 1967, p 155-156.

M. Kabli, **Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen - Age**, Paris Maisonneuve-Larose, 1986, pp 72-73 et surtout 97-99, 124, 128-129, etc.

- تزايد عدد السكان أربع مرات،
- تزايد الإنتاج مرتين،
- تزايد المبادلات عشر مرات.(1)

كل هذا فرض عليها ضمان مدّخرات من الذهب تصل إلى 40 مرة ما كانت تتوفر عليه سنة 1000! وبذلك يكون القسم الجنوبي من أوروبا قد عرف خلال القرن الرابع عشر مجاعة نقدية لم يسبق أن عرفها من قبل.(2)

وإذا كانت هذه الظاهرة عامة بجنوب أوروبا، فإنها عرفت حدة خاصة بإيبيريا. فقد نتج عن انعدام الذهب بالبرتغال مثلا توقف سك العملة الذهبية منذ سنة 1383، واستمرت الحال على ذلك إلى سنة 1435، أي مدة 50 سنة. وبذلك اختفت العملات الذهبية البرتغالية، وكانت التي تتداولها الأيدي أجنبية، الشيء الذي نتج عنه تضخم مالي خطير يتجلى في الجدول التالي :

- 1409، للحصول على أوقية قديمة يجب دفع 50 جديدة.
- 1417، للحصول على أوقية قديمة يجب دفع 250 جديدة.
- 1435، للحصول على أوقية قديمة يجب دفع 700 جديدة(3).

وكان هذا التضخم المالي وراء أزمة اقتصادية واجتماعية حادة أضرت بالتجار والدولة وبذوي المداخيل القارة كالنبلاء والكنيسة، الشيء الذي جعل كل الفئات الاجتماعية بالبرتغال تتبنى عملية الغزو وركوب البحر بحثا عن سند لعملة البلاد المتدهورة، خصوصا وأن شعار الحرب الصليبية ضد المغاربة سيستغل أحسن استغلال.

ومما يؤكد هذه العلاقة بين احتياج أوروبا للذهب وبداية البحث عن وسيلة لضمان تموينها مباشرة من المناطق المنتجة له وتخطي الوساطة المغربية :

1) محاولة جوم فرير (Jaume Ferrer) الذي انطلق يوم 10 غشت 1346 من برشلونة للوصول إلى «وادي الذهب» عن طريق البحر، والاتصال مباشرة بمملكة «مالي» التي أصبحت الخرائط الأوروبية توليها أهمية كبرى. كما يتجلى ذلك من خلال خريطة ميورقية وضعت سنة 1339 وأوردت معلومات عن البلاد وطرق الوصول إليها.(4)

---

(1) P. Chaunu, p. 312.

(2) Idem, loc. cit.; V.M. Godinho;" Les Grandes Découvertes" op. cit., p.35

(3) V.M. Godinho, op. cit, loc. cit.

(4) Jaime Cortesão: **A Expansão dos Portugueses no período henriquino,** Lisboa: Livros Horizonte, 1975, V, p. 57; P. Chaunu, 95-96.

2) احتلال سبتة سنة 1415 على يد البرتغاليين الذين كانت الأهداف التجارية مسيطرة عليهم.(1) وبعد أن تبين لهم أن احتلال سبتة لا يوفر الذهب بالقدر الذي كانوا يتوقعونه، شرعوا في استكشاف السواحل الافريقية التي أولوها بالغ اهتمامهم بعد فشل الهجوم الذي نظموه ضد طنجة سنة 1437، والتي أصبحت مفتوحة في وجههم بعد تمكنهم من التغلب على رأس بوجدور سنة 1434 كما سنرى.

3) إرسال مدينة جنوة سنة 1446 لوكيل تجاري إلى منطقة توات ، مالفينت Malfante، لضمان تموينها بالتبر(2).

ج) السبب الثالث : التفكير في الاتصال بالشرق الأقصى تخطي الوساطة العربية الإيطالية : لقد أصبح هذا المشروع يشغل بال جل مثقفي أوروبا منذ القرن 13. ذلك لأن القسم الغربي منها كان يعتمد كثيرا على منتجات منطقتين كان العالم الإسلامي يحول دون اتصاله بها مباشرة، الشيء الذي كان يفقده أموالا طائلة بسبب تحكم المسلمين وحلفائهم الايطاليين في سلعهما : التبر والعبيد بالنسبة للسودان، والتوابل والعقاقير والعطور والأحجار الكريمة، الخ، بالنسبة للشرق الأقصى. وازداد هذا الاقتناع بضرورة الاتصال المباشر بتلك المناطق بعد تفشي الأزمة النقدية السابقة الذكر. ومعلوم أن ما كان البرتغاليون يطمحون إليه في فترة إشراف الأمير هنري الملاح على الكشوف، هو الوصول إلى مناطق التبر والعبيد قبل أن تصبح الدولة بعد وفاته تعمل على فتح طريق بحرية للوصول إلى الهند. ولقد تزايدت مكانة الشرق لدى الأوربيين لأسباب تجارية ودينية واستراتيجية.

أسباب تجارية : تزايد إقبال الأوربيين على مواد الشرق الأقصى بسبب:

- تحسن مستوى المعيشة الذي وفرته نهضة القرن الثالث عشر.
- تزايد العرض لإقبال الإيطاليين على موانئ الشام والاسكندرية أولا، ثم

---

1) António Sérgio, "A conquista de Ceuta", in: **Ensaios**, Lisboa: Sá da Costa, 1920, I, pp. 255 . "Repercussões duma hipótese: Ceuta, as navigações e a genese de Portugal". **Ensaios**, IV, p. 193 et ss.
Oliveira Martins, "Ceuta", In: **Os filhos de João I**. Lisboa, Guimarães e ca Editores, réedit. 1973, pp. 41-76; D Lopes, **História de Arzila durante o dominio português (1471-1550 e 1577-1589)** Coimbra, 1924, introd.
J. Cortesão, "A tomada e ocupação de Ceuta", In: **expansão...** op cit..pp 139 et ss: V.M. Godinho, **A Expansão quatrocentista portuguesa**, Lisboa, pp. 51-73 etc...

2) I J. Cortesão, **Os Descorbimentos portugueses**, Lisboa: Livros Horizonte,

بعد فتح الطريق البحرية عبر جبل طارق للاتصال بأسواق فلندرا وانجلترا، وذلك قبل نهاية القرن الثالث عشر[1]. لكن الوساطة العربية أولا، والإيطالية ثانيا، كانت تؤدي إلى ارتفاع في الأثمان، وكانت تدر أموالا طائلة على مصر والبندقية.

وكان الايطاليون أول من عمل على ربط اتصال مباشر مع أهم أسواق الشرق الأقصى والتعرف على أحوالها. وتم استغلال ما سمي «بالسلم المغولي»، وإنشاء إمبراطورية جنجيس خان خلال القرن الثالث عشر. إلا أن فشل المحاولات البرية دفعت بالجنويين إلى التفكير في الاتصال بالشرق اعتمادا على المحيط الأطلسي، غير أن الأخوين ڤيڤلدي (Vivaldi) اللذين خرجا لتنفيذ هذه المهمة سنة 1291، لم يتمكنا من العودة بعد تجاوزهما لرأس بوجدور[2]. وساهم بعض الرحالة في إعطاء الأوربيين صورة شبه خيالية عن الشرق الأقصى زادتهم ارتباطا بفكرة تنفيذ مشاريعهم على حساب العالم الإسلامي. ومن هؤلاء نذكر:

أولا :ماركو بولو (Marco Polo) من تجار البندقية بالقسطنطينية، رافق بعض أفراد أسرته سنة 1271 في رحلة إلى الصين، بعد آسيا الوسطى (بلاد فارس، خراسان...) وإثر وصوله إلى الصين، دخل في خدمة الشاه، مما سمح له بمعرفة شمال وجنوب تلك البلاد. وفي سنة 1291 بدأت رحلة العودة بحرا عن طريق هرمز فالبندقية التي وصلها سنة 1295. وبعد أسره على يد الجنويين سنة 1298، أملى بالسجن مؤلفه **«عجائب الدنيا»** (**Il Milione**) الذي سرعان ما عرف انتشارا كبيرا وترجم إلى جميع اللغات الأوروبية، وأضحى أهم مرجع حول الشرق الأقصى، لكونه سمح بالتخلي عن المصادر الاغريقية واللاتينية، وأصبح يعتمد من طرف واضعي الخرائط.[3].

وانكب المثقفون على دراسة مؤلفه، فلقد كان أثره واضحا على واضع الخريطة الكطلنية سنة 1375. وكان من بين كتب ملك البرتغال (دون دوارت. Duarte). وتمت ترجمته ونشره بالبرتغال. وأثر كثيرا على مشاريع مكتشف العالم الجديد كريسطوف كولمب الذي أضاف إلى نسخة من مؤلف ماركوبولو عددا من الحواشي والهوامش.[4]

(1) P; Chaunu, 93; **História de Portugal**, III, pp. 339-345; **História da expansão,** I. p. 123; J. Cortesão: **Os Descobrimentos**, I, pp 98-99.

(2) P. Chaunu, 93-95; J. Cortesão: **A expansão**... op. cit. pp. 21, 23, 25, 31, etc.

(3) Ibid, p. 28; J. Cortesão: **Os Descobrimentos**... op. cit. I, pp. 116-120

(4) Ibid, 120 - 121.

ثانيا : جان دو ماندفيل (Jean de Mandeville) اختلف المؤرخون حول مصدر معلوماته، إذ منهم من يرى أنها منقولة عن غيره، وأنه لم يسبق له قط أن سافر إلى الشرق الأقصى، بينما ذكر البعض الآخر أن رحلته دامت من 1332 إلى1366، قبل أن يتوفى سنة 1372 بمدينة لييج البلجيكية.

وعرف مؤلفه الذي نشر سنة 1357 تحت عنوان «**عجائب الدينا**» انتشارا كبيرا واستمر في النشر حتى القرن السابع عشر، إذ طبع أكثر من أربعين مرة في كل اللغات الأوربية. ولقد زاد هذا المؤلف من الصبغة الخيالية التي منحت لمنطقتي كابانجو (اليابان) وكاطاي (الصين) بما أورده المؤلف من إشارات غريبة : سقوف ذهبية، نمل هائل على أبواب مناجم الذهب، الخ..[1]

ثالثا : ومن الذين شدوا الرحال إلى الشرق الأقصى نذكر كذلك (فرنسيسكو بيغولوتي) (Francisco Pigolotti)، وكيل شركة تجارية من فلورنسا، الذي ألف سنة 1335 كتابا سماه **Pratica della Mercatura** كان بمثابة مرشد بالنسبة للتجار الأوروبيين الوافدين على الصين، إذ ذكر أهم الطرق البرية ومراحلها وأنشط أسواقها، وأشار إلى الأوزان هناك والمكاييل والعملة.[2]

أسباب تبشيرية واستراتيجية : حاولت الكنيسة من جانبها استغلال إنشاء الامبراطورية المغولية لفائدة عمليات التبشير. وهكذا أرسل الفاتكان سفارتين إلى بلاد الخان سنة 1245 ، وذلك قصد الحصول منه على حلف عسكري ضد المسلمين.

وفي نفس الوقت، التحق عدد من الرهبان بالشرق الأقصى، وكان جلهم من جماعة الفرنسسكان (Franciscains) . وبما أن هؤلاء جالوا كثيرا في الشرق الأقصى وكتبوا عن رحلاتهم، فإنهم ساهموا بذلك مساهمة كبرى في التعريف بتلك المناطق.[3]

ولكن هذه الفرصة التي أتيحت للغرب لغزو الشرق تجاريا ودينيا أو لاستغلاله لتطويق الإسلام سرعان ما اختفت بسقوط الامبراطورية المغولية سنة 1368، إذ أصبح

---

(1) P. Chaunu, pp. 87 - 88, J. Cortesão, op., cit.,pp. 14 - 15.

(2) J. Cortesão, **Os Descobrimentos**...p. 122.

(3) **História de Portugal**, III p. 344; **História da expansão**, I, pp. 122, 217 - 218.

حكام الصين الجدد معادين للوجود المسيحي ببلادهم، في حين عرفت آسيا الوسطى مدا إسلاميا مهما بعد أن فشلت الحروب الصليبية نهائيا وأصبح الإسلام متحكما في كل المناطق البرية والبحرية المؤدية إلى الشرق الأقصى: مصر، آسيا الصغرى، بحر قزوين. وبذلك أضحى توزيع كل السلع الشرقية حكرا على مصر وعلى حليفتها البندقية. وهكذا أضحت مسألة البحث عن طريق جديدة لتخطي الوساطة العربية تستأثر باهتمام مفكري ومسؤولي القرن الرابع عشر والقرن التالي. ففي مرحلة أولى، تم التفكير في حرب صليبية جديدة لاحتلال شمال إفريقيا ومصر كما أوصى بذلك الراهب الميروقي (Raymond Lulo) في مؤلفه "Acquisitione Terrae Sanectuc" في حين نصح (Marino Sanuto, Guilherme Adam) بإغلاق مدخل البحر الأحمر والخليج العربي في وجه العرب لحرمانهم من دور الوساطة، وذلك باحتلال عدن ومدخل الخليج، وبالتحالف مع ملك الفرس الذي بعث إليه البابا سفارتين لنفس الغاية سنتي 1285 و 1291.[1] وهذا ما سيعمل البرتغاليون على تنفيذه في مطلع القرن السادس عشر.

وفي مرحلة ثانية، بدأ التفكير الجدي في البحث عن طريق بحرية جديدة. وهكذا تم الرجوع إلى جغرافية بطلومي التي انكب على دراستها عدد كبير من العلماء الأوروبيين. وكان أشهر من آمن بأفكاره المتعلقة بنسبة توزيع المياه واليابسة على سطح الكرة الأرضية العالم الإيطالي (Paolo da Pozzi Toscanelli) الذي راسل الملك البرتغالي في 15 يونيو 1474 وأكد له إمكانية الوصول إلى الصين اعتمادا على المحيط الاطلسي، وذلك بركوبه في اتجاه الغرب. ومعلوم أن هذا العالم أثر كثيرا على كولومبوس[2]. كما راسل العالم الألماني (J. Munzer) الملك يوحنا الثاني سنة 1493 وأكد له نفس الحقيقة[3]. ومعلوم أن نزول البرتغاليين على طول السواحل الإفريقية كان يهدف إلى فتح طريق بحرية بالدوران حول القارة السمراء.

(1) J. Cortesão, **Os Descobrimentos**...op. cit.I, p. 128.
Damião Pires. "Génese da expansão. portuguesa: antecedentes históricos." In: "**Historia da Expansão portuguesa no mundo,** direct, António Baião, Lisboa, Atica, Editorial. , 1937, Ip. 122-123 **História de Portugal**, III, pp. 344-345.

(2) J. Cortesão, **Os Descobrimentos**...op. cit. IV,p. 1140, et pp. 940, 983-984.

(3) Ibid, 935.

وفي الوقت الذي بدأ التفكير في غزو البلاد الإسلامية، أو على الأقل في حرمانها من دور الوساطة، اهتم الأوربيون كثيرا بالاتصال بمملكة مسيحية وصلتهم أصداء قوتها واعتقدوا في بداية الأمر أنها موجودة بآسيا، ثم حددوا موقعها فيما بعد بالحبشة. فحينما كلف الأمير هنري الملاح أحد خدامه بالتوجه إلى السواحل الصحراوية، طلب منه أن يعمل على الحصول على معلومات تتعلق بـ «الهند» وبمملكة «الراهب يوحنا» التي أصبحت تعني في هذه المرحلة مملكة الحبشة المسيحية،[1] وبقيت تلك الفكرة تستحوذ على أذهان المسؤولين البرتغاليين، ذلك أن الملك يوحنا الثاني (1481 - 1495) أرسل مبعوثا خاصا للاتصال بذلك العاهل المسيحي كما سنرى. وبذلك تتداخل الاهتمامات الدينية والتجارية لتزيد أوروبا الغربية ارتباطا بالشرق الأقصى، وبالتالي اهتماما بالعالم العربي و الإسلامي.

وكانت جنوة، لتضررها من احتكار منافستها البندقية لتجارة الشرق الأقصى بمصر، سباقة إلى محاولة الاتصال بالهند اعتمادا على المحيط الأطلسي، إلا أن الرحلة التي نظمها الأخوان (ڤيڤلدي) سنة 1291 باءت بالفشل بسبب صعوبة الملاحة عند مستوى رأس بوجدور. وكان مصير محاولة كطلنية نظمها جوم فرير السابق الذكر شبيها لنفس السبب. وبذلك نلاحظ أن محاولة الوصول إلى السودان الغربي أو إلى الشرق الأقصى اعتمادا على المحيط لتجاوز الوساطة التجارية العربية الإسلامية تمت على يد أكثر مناطق غرب أوروبا نشاطا آنذاك، وأنها فشلت لكون محاولة اقتحام المحيط تمت بوسائل بحرية عتيقة تتلاءم والملاحة بالأبيض المتوسط فقط[2].

وإذا كانت تلك المحاولات المبكرة قد فشلت، فإنه يحق لنا الآن أن نتساءل عن أسباب نجاح البرتغاليين في هذه المهمة التي استأثرت باهتمام أوروبا الغربية لمدة قرنين.

ويمكن تفسير هذا السبق البرتغالي بالأسباب التالية :

دور الدولة في تبني عملية الكشوف وتسخير وسائلها الضخمة لنجاحها. تتطلب الكشوف والبحث عن تعويض الوساطة العربية الإسلامية وقتا طويلا واستثمارات ضخمة وحماية سلطة مركزية للدفاع عن المكتسبات ومنع الآخرين من الاستفادة منها. ومعلوم أن تجاوز رأس بوجدور تطلب من هنري الملاح 12 سنة من

(1) **Historia da Expansão**.. I, p. 307, Cortesáo, **Os Descobrimentos Portugeses** no **periódo henriquíno**, pp. 28,58,110.

(2) P. Chaunu, pp. 96-97.

المحاولات الفاشلة. ومما يؤكد كثرة ما تطلبته الكشوف الأولى من أموال، هو أن الأمير هنري الملاح كان سنة موته (1460) مثقلا بالديون التي بقيت الدولة تؤديها حتى 1520 على الأقل .[1]

وكانت الظروف بإيبيريا تساعد الدولة على تبني تلك العملية. فلقد ورث البرتغال عن حروب الاسترداد سلطة مركزية قوية استطاعت توحيد البلاد ، كما ورث عنه عداء للإسلام وخوفا من غزو إسلامي جديد لأراضيها ، مما وفر لها محركا ضروريا لدفع شعوبها إلى المساهمة في الغزو والتوسع وتحمل تكاليفه. ومعلوم أن غزو المغرب فسر كاستمرار لحروب الاسترداد التي دارت بالبرتغال وإسبانيا ، في حين قدم النزول على طول سواحل إفريقيا كعملية تهدف إلى تطويقه ومحاولة لضربه من الخلف. ولعبت البابوية دورا كبيرا في نجاح تلك الكشوف، وذلك بتزكيتها للتوسع والمساهمة في تغطية مصاريفه وإعطائه نوعا من المشروعية ضمن له شروط الاستمرارية، وبالتالي النجاح[2].

كما كان التوسع أمرا مفروضا على الدولتين الإيبيريتين، وعلى البرتغال على وجه الخصوص، وذلك لأسباب اقتصادية واجتماعية مرتبطة بالأزمة المالية التي كانت عليها البلاد ، وبثورة 1383 السياسية والاجتماعية[3].

لقد نتج عن نجاح الثورة البورجوازية والحضرية، التي أدت إلى وصول أسرة (افيش)(Avis) إلى الحكم، ارتباط الحكام بالمال. وبما أن الرأسمالية الخاصة كانت ما تزال ضعيفة، فإن ذلك ألزم الدولة بالتدخل. ونظرا لفقر البلاد ، ولوجود نظام جبائي يعفي الفئات المحظوظة من كل المغارم، فإن الدولة عملت على الرفع من مواردها بالاهتمام بالتجارة ، وقدمت كل الحجج المقنعة لدفع البابوية إلى السماح لها بالاتجار مع المغاربة[4]. وتعزز هذا الاهتمام بالتجارة لدى الدولة إثر احتلال بعض المدن المغربية وبداية التعامل التجاري بسواحل غرب افريقيا. وهذا ما دفع المؤرخ البرتغالي غودينو

(1) **História de Portugal**, III, p. 381.

(2) Charles-Martial de witte. "Les bulles pontificales et l'expansion portugaise. "**Revue d'Histoire ecclésiastique**, Louvain, XLVIII (1953. XLIX (1954), LI(1956), LI(1956), LIII(1958)

(3) J. Cortesão, I, p. 330, 375 - 376.

(4) C.M. Witte, op, cit, pp. 692-706 راجع كذلك دراستنا :

احمد بوشرب : **دكالة** ، ص152.

V.M. Godinho," Les finances publiques et la structure de l'Etat portugais au XVIe siècles" **Economia**, XIV, juin 1962, p. 165

V. M Godinho إلى كتابة «... وهكذا استولت، ومبكرا، على المملكة وعلى الدولة البرتغالية عادة تجارية رسخت مع السنوات...»[1]. وشرعت الدولة في تنفيذ مخططات التوسع والغزو ابتداء من سنة 1415 استجابة كذلك لضغوط التجار والنبلاء الذين تضرروا من الأزمة النقدية السابقة الذكر. ففيما يخص الطبقة الأولى تؤكد المصادر البرتغالية أنها لعبت دورا مهما في دفع الحكام إلى غزو المغرب أولا، ثم إلى الشروع في اكتشاف السواحل الإفريقية ثانيا، وأنها كانت وراء اختيار سبتة كأول هدف لكونها كانت آنذاك أهم أسواق التبر بالمغرب. وأصبح النبلاء المتضررون كثيرا من تراجع مداخيلهم يبحثون عن موارد جديدة لتحسين ظروف عيشهم. وبما أن إمكانيات البرتغال كانت محدودة وضعيفة، وبما أن الأزمة ازدادت تفاقما مع مرور السنوات، فانهم شرعوا في بداية الأمر في الهجرة إلى خارج البلاد لعرض خدماتهم على بعض الدول الأوروبية (كاد الأمير دون فرناندو أن يهاجر بدوره) [2] قبل أن يفرضوا على الدولة تبني مشروع الغزو. ومعلوم أن الدولة نفسها وجدت في ذلك وسيلة لشغل تلك الطبقة التي أبعدتها ثورة 1383 عن السلطة.[3]

وإذا كانت هاتان الطبقتان الاجتماعيتان تتبنيان مشروع الغزو والتوسع، فانهما اختلفتا كثيرا حول طرقه، ذلك أن النبلاء كانوا يتبنون مشروع الغزو العسكري للحصول على الغنائم والأسرى ولاحتلال أراضي جديدة لضمان معاشات وإقطاعات ومناصب إدارية إضافية، في حين كان التجار يرون في ذلك مسا خطيرا بمصالحهم لكون سياسة الأرض المحروقة لا تتوافق واستمرار التبادل التجاري. ولهذا كانوا يفضلون غزوا تجاريا وسلميا يمكن من استغلال أسواق وخيرات المناطق التي وصلها نفوذ البرتغاليين، وكانوا لا يرون في العنف إلا وسيلة لحماية تلك الأسواق ضد أطماع الدول الأخرى وضد ما قد يظهر من معارضة ومقاومة محلية.

وأثر ذلك التصور المخالف للغزو وللتوسع على السياسة الرسمية للدولة البرتغالية، إذ أن البلاط ومستشاري الملك كانوا منقسمين حول الموضوع بحيث كان وراء التيار العسكري الأمير هنري الملاح، في حين كان أخوه دون بيدرو يساند التيار التجاري ويعارض مشروع غزو المغرب، ويفضل عليه عمليات الكشوف للوصول إلى

---

(1) V.M. Godinho, "les grandes découvertes", op, cit.

(2) عن الهجرة إلى خارج البرتغال، راجع: V.M. Godinho: **Estrutura**... op. cit. pp 45 et ss:
وعن تفكير الامير في الهجرة: R. de Pina, **Crónica de dom Durate**, Porto, 1979, pp. 512..513

(3) احمد بوشرب: دكالة، 157.

مناطق التبر والعبيد. ويلاحظ أن التيار العسكري استطاع فرض كلمته عدا في فترات قصيرة، وأنه تم في نهاية الأمر (بعد 1437، أي بعد نكسة طنجة الكبرى) غزو المغرب وفي نفس الوقت تبني عمليات الكشوف، وذلك تفاديا للمنافسة المغربية فيما يخص عرض التبر.(1)

وإذا كان هنري الملاح قد أشرف على عمليات الكشوف واحتكر استغلالها بين 1434 و 1460، فإن الدولة أصبحت تشرف مباشرة عليها منذ القرن الرابع عشر. ولإحكام مراقبة التجارة بالمناطق المكتشفة، تم نقل مصالحها من لاغوش (Lagos)، بجنوب البرتغال، إلى لشبونة، وكلف الأمير يوحنا، خلال ولايته للعهد، بالإشراف عليها.(2)

وباختصار، يتجلى تدخل الدولة البرتغالية في التوسع والكشوف فيما يلي :

1) في المنافسة الحادة بين إسبانيا والبرتغال حول المناطق المكتشفة وحول توزيع مناطق النفوذ بشمال افريقيا والجزر الاطلنطيكية والعالم الجديد، وفي التجائهما إلى البابوية واستعمالهما لكل الضغوط السياسية والمالية، ولكل الحجج للحصول على تزكية البابوية واعترافها لأحد الطرفين دون الآخر باحتكار المناطق الجديدة، ومنع الآخرين من الوصول إليها. ومعلوم أن تقسيم مناطق النفوذ بين الدولتين لم يكن سهلا وتطلب مفاوضات طويلة، وعدة مؤتمرات.(3)

2) كما يتجلى تدخل الدولة في تحملها مصاريف الحملات التي كانت تتطلب أموالا ضخمة.

3) في احتفاظ الدولة بسرية الكشوف وحرصها على عدم إطلاع باقي الشعوب على الطرق البحرية المؤدية إلى المناطق المكتشفة. وهكذا كانت الدولة البرتغالية تروج إشاعات مخيفة عن صعوبة الملاحة واستحالة العودة من "غينيا" إلى أوروبا، وكانت تلزم الملاحين والبحارة بأداء القسم بشأن الاحتفاظ بسرية الكشوف قبل المساهمة في الحملات، ولم تتردد في بتر بعض المؤلفات التي يمكن للأجانب استعمالها لمضايقة

(1) V.M. Godinho, "les grandes découvertes", op., cit.p. 43
J. Cortesão, **Os Descobrimentos**, 358.

(2) V.M. Godinho," Les grandes découvertes", op. cit., D. Pires, "D João II: O seu pensão e acção.".. In: **História da expansão**... op. cit., II, pp. 7 et ss. et 360.

(3) يمكن أخذ فكرة عن المنافسة الحادة بين اسبانيا والبرتغال حول المغرب وغرب افريقيا والعالم الجديد بمراجعة **Sources Inédites de l'histoire du Maroc, 1ère série, saâdienne, Portugal**, Paris: Geuthner, I, 1934, pp. 203 - 212.

البرتغاليين بمستعمراتهم الجديدة. لقد وصف الإخباري البرتغالي ريزاند G. de Resende (ق.16) هذه السياسة الرسمية بقوله: « ... لكي يتمكن الملك من حماية (لامينا)، جعل الآخرين يعتقدون طوال فترة حكمه أن المراكب المستديرة لا يمكنها الرجوع من (لامينا) بسبب التيارات القوية عدا السفن اللاتينية، وذلك لأنها لم تكن موجودة في أية منطقة من البلاد المسيحية باستثناء كرفيلات البرتغال والغرب وكليوطات روما التي لا يمكنها السفر بعيدا. وفي أحد الأيام، وبينما كان الملك يعلل أثناء تناوله غداءه أسباب استحالة رجوع المراكب المستديرة من لامينا، إذا ببيدرو، الذي كان ملاحا كبيرا ومتعودا على السفر إلى غينيا التي اكتشفها، يذكر أنه يستطيع إرجاع أية سفينة من (لامينا) مهما كانت كبيرة. وأجابه الملك أنه لا يمكنه ذلك لأنه

جربه عدة مرات، وأن كل المراكب التي أرسلها إلى هناك لم تستطع الرجوع. وأصر بيدرو على أنه قادر على ذلك، وأنه يتعهد بالقيام به، فرد عليه :" لا يوجد بالنسبة لكل حقير غبي، أمر يستحيل عليه إنجازه، ولكنه في النهاية لا يقوى على فعل شيء...".

وبعد الانتهاء من الأكل، ناداه الملك على انفراد وأخبره عن سبب إجابته تلك، وطلب منه أن يسامحه، ورجا منه أن لا يعود مرة أخرى إلى قول ذلك، وأن يحتفظ به كسر خطير (...) وهكذا اعتبر في حياة الملك أنه لا يمكن فعلا للمراكب الرجوع من (لامينا) أو من تلك المناطق الغينية. وبذلك احتفظ دوما بغينيا جد محروسة... »(1).

4) في احتكار المناطق المكتشفة ومنع باقي الشعوب الأوروبية من الوصول إليها. وهكذا لم يكن البرتغاليون يترددون في مصادرة سفن من تم إلقاء القبض عليهم بتلك المناطق المحتكرة، وفي إلقاء ملاحيها في البحر أو بيعهم كعبيد(2).

كما يعود السبق الإيبيري إلى استفادة البرتغال الكبرى من التجارب الإيطالية ومن خبرة الجالية الإيطالية المقيمة بأهم موانئه.

أ) لقد تزايد اهتمام الإيطاليين بـ «الأندلس» والبرتغال بعد استرجاع تلك المناطق من أيدي المسلمين أولا، ثم بعد بداية الاعتماد على طريق مضيق جبل طارق البحرية للتعامل مع شمال غرب أوروبا، ولهذا شرع عدد من التجار الإيطاليين في

---

(1) **História da expansão**... op. cit, II, p. 17 1

J. Cortesão, **Os Descobrimentos**... I, pp. 225 et ss.

(2) Ibid, III pp. 766-779; **História de Portugal**, op. cit. III, p. 547.

الاستقرار في أنشط موانئ إيبيريا : اشبيلية، قاديس، سان لوكار، لشبونة، وأرسلت شركات تجارية ومالية (بنوك سانتوريوني Centurione الجنوية وبيراردي Berardi الفلورنسية) ممثلين عنها إلى هناك. واهتم الإيطاليون اهتماما كبيرا بفلاحة قصب السكر بجنوب الأندلس وجنوب البرتغال أولا، ثم بالجزر الأطلنطيكية ثانيا. ولعبت رؤوس الأموال الإيطالية دورا مهما في تسهيل الكشوف وإنشاء الامبراطوريتين البرتغالية والإسبانية. وساهم الإيطاليون كذلك في التوسع بجعل عدد من العلماء وواضعي الخرائط والبحارة رهن إشارة الدولتين... ولعل أحسن معبر عن تلك المساهمة الإيطالية هو أن كلومبوس وڤيسبوسي وجان كابوت، الذين يعود إليهم الفضل في اكتشاف القارة الأمريكية، كانوا إيطاليين.

كما لعب الإيطاليون، وخصوصا منهم الجنويون، دورا مهما في دفع البرتغال إلى الهجوم على سبتة.

وكان التطور الذي عرفته الملاحة بالبرتغال خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر من أهم أسباب سبقه إلى تبني عمليات الكشوف.

لقد استفاد البرتغال كثيرا من تعود بحارته على ركوب المحيط الأطلسي وبحر الشمال إما للتجارة مع شمالي غرب أوروبا، أو للصيد في أعالي البحار. وتعود البرتغاليون أكثر على ظروف الملاحة بالمحيط الأطلسي وعلى توزيع الرياح والتيارات البحرية بعد إعادة اكتشاف أرخبيلات الأصور وماديرا والكناري. وتمثل السيطرة الإيبيرية على هذه الأرخبيلات مكسبا في حد ذاته، ذلك أن المسافة الفاصلة بين الجزيرة الموجودة بأقصى غرب الأسور، والموجودة في أقصى شرق الجزر الخالدات تبلغ 2200 كلم، الشيء الذي يوفر للبحارة الإيبيريين فرصة التعود على ظروف الملاحة بالمحيط الأطلسي ضمن رقعة بعيدة جدا عن الساحل تغطي مساحة مليوني كيلومتر مربع، أي ما يمثل ثلثي مساحة الأبيض المتوسط. وكون تلك الأرخبيلات اكتشفت خلال القرن الثالث عشر الميلادي يفسر في حد ذاته السبق الذي أحرزه الإسبان والبرتغاليون في ميدان الملاحة، ويفسر كذلك قدرة البرتغاليين على التغلب مبكرا على «بحر الظلمات»[1].

ولم يكتف المسؤولون البرتغاليون بهذه التجارب التي تراكمت لدى البحارة، بل طورتها «مدرسة ساغرش» (Sagres) التي كان الأمير هنري الملاح يشرف عليها بجنوب

(1 P. Chaunu, p. 122

البرتغال، والتي جمع بها حوله أشهر علماء الفلك وواضعي الخرائط وأجود البحارة.[1] وبفضل تلك التجارب، وإشراف الأمير المذكور على الكشوف، تم تخطي أكبر عقبة كانت تعترض الملاحة في اتجاه القارة السمراء، إذتم تخطي رأس بوجدور سنة 1434، وتم الوصول إلى سواحل غرب إفريقيا المصدرة للتبر والعبيد.

ولم يصبح ذلك ممكنا إلا بالتخلي عن طرق الملاحة العتيقة واختراع أخرى. وهكذا تم الانتقال تدريجيا من الملاحة التقريبية، ومن المساحلة، إلى الملاحة الفلكية، أي أنه أصبح من الممكن الابتعاد عن السواحل وتحديد مكان السفينة بالنسبة لخطوط العرض والطول بشكل دقيق، وذلك بواسطة مراقبة وضع الشمس أو النجوم. ومكن هذا التطور البحارة من رسم خرائط حقيقية، الشيء الذي سمح بتراكم التجارب وبالاستفادة من «دفاتر الرحلات البحرية» التي تسجل بها خصائص الملاحة بكل المناطق التي تمر بها السفن.[2]

وكان من أسباب تغلب البرتغاليين على ما تطرحه الملاحة بالمحيط الأطلسي من عقبات، اختراعهم لمركب من نوع جديد يلائم معطيات الملاحة بذلك المحيط، كان عبارة عن امتزاج لتقنيات بناء السفن بكل من الأبيض المتوسط وبحر الشمال، «الكرفيلا» «Caravela»،التي لا تعتمد إلا على الطاقة الطبيعية من رياح وتيارات بحرية، وذلك لكي لا يحتل الجدافون ومؤونتهم القسم الأكبر من المركب[3].

ولعب موقع إيبيريا، والبرتغال على وجه الخصوص، دورا في سبقه إلى تبني عمليات الكشوف، ذلك أنه بموقع يجعل منه توزيع الرياح والتيارات البحرية نقطة انطلاق وعودة ضرورية بالنسبة للسفن الذاهبة إلى إفريقيا أو العالم الجديد، أو العائدة منهما، خصوصا بعد تمكن إسبانيا من الجزر الخالدات، وتحكم البرتغال في أرخبيلي الأصور ومديرا.[4]

وإذا كانت هذه الوسائل قد توفرت للبرتغاليين، فما هي المراحل التي قطعوها في إنشاء امبراطوريتهم التجارية؟

سبقت الإشارة إلى فشل البرتغاليين في الحصول على التبر والعبيد وغيرهما من

(1 J. Costesão, **Os Descobrimentos**...op. cit I p.334, **História de Portugal,** op. cit .III, p.372-373

(2) **História da expansão**... op. cit. I, 246 et ss.

(3) J. Cortesão,**Os Descobrimentos**, V, pp.1376 - 1401; P. Chaunu, pp. 284 - 288.

(4) Ibid, pp. 108 - 109..

السلع التي كانوا يتوخونها من احتلال مدينة سبتة، كما سبقت الإشارة إلى انعكاس خيبة أمل البرتغاليين والصعوبات التي واجهتهم بالمغرب على تخليهم المؤقت عن غزوه، وتبنيهم لسياسة جديدة للتوسع تهدف إلى الوصول إلى المناطق المصدرة للسلعتين السابقتي الذكر، وتجاوز الوساطة المغربية في هذا الميدان.

ومرت عمليات الكشوف البرتغالية بمرحلتين أساسيتين : لقد ارتبطت الأولى بسواحل غرب افريقيا، وكانت تهدف إلى إحلال الكرفيلات البرتغالية محل القوافل التجارية المغربية، وكلف الأمير هنري الملاح بالاشراف على ذلك المجهود التوسعي. وخلال المرحلة الثانية التي تمتد من سنة 1474 إلى 1498، كرس البرتغاليون جهودهم للبحث عن طريق بحرية توصلهم إلى الهند. وامتازت هذه المرحلة باشراف الدولة على الكشوف. وخلالها استهدف المجهود التوسعي البرتغالي مصالح العالم العربي والإسلامي بكل من شرق افريقيا والمحيط الهندي.

وانطلقت المرحلة الأولى مباشرة بعد دخول البرتغاليين في مغامرتهم المغربية سنة 1415. وتعتبر سنة 1434، الانطلاقة الحقيقية لمزاحمة تجارة التبر والعبيد المغربية، ذلك أن الملاح جيل يانش Gil Eanes استطاع تجاوز رأس بوجدور والعودة منه، الأمر الذي لم يسبق لغيره أن قام به. ومعلوم أن ظروف الملاحة في هذه النقطة من الساحل الصحراوي، والتي تركت لنا المصادر البرتغالية وصفا دقيقا لها،[1] كانت سبب فشل كل المحاولات السابقة. وبالتغلب على هذا الحاجز، فتحت «بلاد السود» أو «غينيا» كما تسميها المصادر البرتغالية، في وجه المراكب الاستكشافية والتجارية البرتغالية.

واستطاع البرتغاليون بين 1434 و 1460 اكتشاف المنطقة الممتدة من الصحراء المغربية إلى سيراليون.[2]

---

(1) Eanes de Zurara: **Crónica de Guiné**. Lisboa, Livraria Civilização, 1933, pp.49 51; D. Pacheco Pereira: **Esmeraldo de Situ Orbis**, Lisboa, Socidade de Geografia deLisboa 1975, pp. 71 - 72.

(2) **História da expansão**... op. cit. I, pp. 305 - 310; P. Chaunu, pp. 128 et ss.

وبذلك يكون البرتغاليون قد تمكنوا في حياة الأمير هنري الملاح من الوصول إلى سواحل التبر والعبيد ومن تنظيم التجارة بها، ومزاحمة تجارة القوافل بمحاولة تحويل الطرق الصحراوية في اتجاه الساحل وقطع الطرق على القوافل بانشاء وكالة ودان بقلب الصحراء، وبالعمل على الاتصال المباشر بممالك السودان، وبمطاردة القوافل المنطلقة من جنوب المغرب.

ولا نعرف بالضبط متى تم التفكير في الربط البحري بين البرتغال والهند قصد تجاوز الوساطة العربية الإسلامية أولا والإيطالية ثانيا. وعلى كل، فبعد توقف نتج عن موت الأمير المذكور وما تلاها من عقبات إدارية وسياسية، وبعد تجاوز انشغالات داخلية (الخلاف بين وارث الأمير المتوفى وملك البرتغال حول وراثة الإشراف على الكشوف الذي دام عقدا كاملا) ودولية (الإنشغال بحروب المغرب وبالحروب ضد قشتالة ومحاولة ابعاد منافسة الدول الأوروبية في المناطق المكتشفة)، وبعد التغلب على ما تطرحه الملاحة بتلك الربوع من مشاكل جديدة، والقضاء على ما ظهر من مقاومة محلية، انطلقت الكشوف من جديد بعد 1470 تحت إشراف الدولة المباشر (1474). وبتجاوز خط الإستواء، وانتباه البحارة إلى تشابه توزيع الرياح والتيارات البحرية بين نصفي الكرة الأرضية، فتحت الطريق بكل سهولة في وجه الكرفيلات البرتغالية. وتمثل الإكتشاف الحاسم في هذا الباب في وصول دياش (B.Dias) سنة 1486 إلى "رأس العواصف" الذي سماه الملك يوحنا الثاني تفاؤلا " رأس الرجاء الصالح".

وبما أن الملك أصبح يهدف إلى الوصول في أقرب وقت إلى الهند، فإن رحلة دياش لم تكن إلا عنصرا من برنامج متكامل يعتمد الكشوف عن طريق البحر والبر في نفس الوقت. وكان العنصر الثاني ممثلا في رحلة بيرو دو كافيليا(P. (Cavilhão وأفونصو دو بايفا (A Paiva) اللذين غادرا البرتغال سنة 1487 ووصلا إلى الإسكندرية بعد مرورهما من لشبونة، برشلونة، نابولي، ورودس، ووصلا القاهرة في زي تاجرين، ومنها توجها إلى السويس حيث أبحرا في اتجاه عدن التي وصلاها خلال صيف 1488، أي خلال المرحلة المناسبة للملاحة بالمحيط الهندي. ومن عدن اتجه أفونصو صوب الحبشة حيث توفي، بينما انطلق بيرو نحو الهند حيث أقام سنة تعرف خلالها على مدن كَلِيكُوتَة، غُواً وكَنَنُورْ. وعاد من هناك إلى هرمز. وفي سنة 1489 وصل (دو كافيلياو) إلى صوفالا بالساحل الافريقي الذي عاد منه إلى عدن فالقاهرة التي وصلها في نهاية 1490 أو بداية 1491. واستطاع إطلاع ملكه على تقاريره اعتمادا على

يهوديين أوفدهما من العاصمة المصرية، وذلك قبل الالتحاق بالحبشة.(1)

واهتم التقرير الذي بعثه الرحالة البرتغالي بتجارة التوابل وبالأثمان وأماكن العرض والتوزيع، وبظروف الملاحة بالمحيط الهندي. وكانت أكبر مساهمة لرحلة (دو كافيليا) تتمثل في تأكيدها إمكانية الاتصال بالهند بحرا لارتباط المحيطين الهندي والأطلنطي. ولهذا غير الملك البرتغالي اسم «رأس العواصف» لكونه يعد باكتشاف الهند التي طالما انتظره، وعمل على تحقيقه لسنوات طوال.

وسهلت رحلة(دياش) و(دوكا فيلياو) رحلة دا كاما (V. da Gama) التي انطلقت يوم 8 يوليوز 1497 لتصل إلى كلكوتة سنة 1498 مرورا بساحل شرق افريقيا الإسلامي.(2)

وهكذا نلاحظ أن البرتغاليين الذين خططوا في البداية لغزو المغرب فقط، وجدوا أنفسهم مدفوعين بدوافع تجارية لاكتساح مناطق بعيدة جدا عن بلادهم. وإذا كان وصولهم إلى الهند أولا، وإلى باقي مناطق الشرق الأقصى ثانيا، قد حتم عليهم منذ مطلع القرن 16 الاهتمام بشرق إفريقيا والجزيرة العربية، فإن ذلك الاهتمام سيؤدي إلى فتح ثلاث جبهات ضد الإسلام، واحدة بالمغرب، وأخرى بشرق إفريقيا وثالثة بالمحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي. فهل سينجح البرتغاليون في مسعاهم الرامي إلى انتزاع تجارة التبر والعبيد والتوابل والحرير والعقاقير من أيدي التجار العرب والمسلمين؟ وما هي الوسائل التي سخروها لذلك والنتائج التي حققوها؟

وتجدر الإشارة إلى الشبه الواضح في موقف البرتغاليين من شطري العالم العربي الإسلامي، وفي التبريرات التي أعطوها لاكتساح مناطقه. وقبل التعرض لمراحل اعتداء البرتغاليين على السواحل العربية الإسلامية، نتعرض للتبرير الذي أعطاه المسؤولون لذلك الاعتداء، ليتسنى لنا فهم أسباب المعاملة الوحشية التي عومل بها سكانها.

لقد أعطى البرتغاليون لغزوهم للمغرب تبريرا دينيا صليبيا، ويتجلى ذلك في الطقوس الدينية التي كانت تسبق كل هجوم على المدن المغربية، ومشاركة رجالات الدين المكثفة فيها، وفي تحويل المساجد إلى كنائس، وإنشاء الاسقفيات وإرسال

(1) J. Cortesao, **Os Descobrimentos**, III, 844 - 872; **História da expansão...** pp. 53 - 54
História de Portugal, III, pp. 566 et ss.

(2) J. Cortesao, **Os Descobrimentos**, III, p 873et ss.**História de Portugal,** III, pp. 574 et ss..

الكهان والرهبان للعمل بها، وفي محاولات التبشير التي صاحبت الغزو. ويتجلى هذا التبرير الديني كذلك في تزكية البابوية اللا مشروطة لغزو المغرب، وفي المساعدات المالية والمعنوية التي خصت بها البرتغال. فلقد جعلت غزو المغرب حكرا عليه ، وخصته بسبعة وأربعين قرارا بابويا، بينما لم تحظ عمليات الكشوف إلا بقرارين اثنين كان أحدهما في رأي البابوية استمرارا لحروب المغرب.(1)

ونقف على نفس التبرير الصليبي في عمليات الكشوف الجغرافية التي لم يصرح قط بخلفياتها الإقتصادية. فالإخباري زورارا(Zurara) الذي أرخ للكشوف في عهد الأمير هنري الملاح في مؤلفه «**تاريخ غينيا**»، أكد على طغيان العامل الصليبي في اهتمامات ذلك الأمير سواء بالمغرب أوبغرب افريقيا. فالكشوف في رأي هذا الإخباري استمرار لحروب البرتغاليين بالمغرب، ومحاولة لتطويقه وحرمانه من موارد تجارة الذهب والعبيد لإضعافه أكثر. وبذلك حدد هذا الاخباري خمسة دوافع صليبية لاكتشاف «غينيا» :

1) رغبة الأمير هنري في التعرف على المناطق الموجودة جنوب الجزر الخالدات ورأس بوجدور، ليتمكن من محاربة المسلمين في ظروف أحسن،

2) رغبته في التعامل التجاري مع المسيحيين الذين قد يعثر عليهم بتلك المناطق،

3) حرصه على معرفة الحدود الجنوبية للممالك الإسلامية لمحاربتها في ظروف أحسن،

4) البحث عن أمير مسيحي يعينه على القضاء على المسلمين الذين أمضى 31 سنة في محاربتهم،

5) رغبته في التبشير وإدخال أهالي المناطق المكتشفة إلى المسيحية (2).

وبقي التبرير الديني مسيطرا حتى بعد وصول البرتغاليين إلى الهند، كما يتوضح لنا ذلك من خلال رسالة بعث بها الملك البرتغالي أمنويل إلى أسقف «براغا» يخبره فيها بوصول (فاشكو دا كاما) إلى تلك المنطقة من الشرق الأقصى.(3)

ومن السهل الوقوف على سبب تبني البرتغاليين لهذا التبرير لأن إنشاء

(1) أحمد بوشرب : **دكالة** ... مرجع سابق، ص ص 148 - 153.

(2) E. de Zurara, **Crónica de Guiné**, op. cit., pp.43-47.

(3) **As Gavetas da Torre do tombo**.op. cit: XII, pp. 237 - 242.

الامبـراطورية التـجـارية البرتغـالة تم بالدرجة الأولى على حساب الوجود العربي الإسلامي بغرب وشرق إفريقيا وبالشرق الأقصى، ولأن الاستفادة من تلك الامبراطورية تحتم إبعاد المنافسة العربية الإسلامية.

لقد أعطى كل كتاب القرن السادس عشر البرتغالي، من شعراء وإخباريين، لتوسع بلادهم فيما وراء البحار هدفا واحدا هو القضاء على الإسلام وانتزاع الأراضي التي كانت مسيحية وسقطت تحت سلطته، وأخيرا نشر العقيدة الكاثوليكية في المناطق الوثنية. وتتجلى هذه المهمة، التي خص البرتغاليون بها أنفسهم دون باقي الشعوب المسيحية، في مقدمة إحدى الرسائل التي حررها يوحنا الثاني. لقد حصر مهمة كل الملوك المسيحين في نشر العقيدة المسيحية، ولم يفته أن يذكر بأن ذلك هو ما قام به فعلا أسلافه رغم التضحيات التي تطلبها مثل ذلك العمل.[1] وذكر الإخباري البرتغالي جُوَاوْدُو بَارُوشْ (ق16) أن البرتغاليين يتفوقون على باقي الشعوب الأروبية بهذا العمل التبشيري، وبالحرب التي أعلنوها على الإسلام. فلقد ذكر بكل افتخار أن بلاده هي الوحيدة من بين باقي الدول الأرووبية التي لا تتحالف مع المسلمين، ولا تعمل ما يمكن أن يخدم مصالحهم[2].

إن المؤلفات التي حررت خلال القرن السادس عشر تزخر بمختلف مظاهر حقد البرتغاليين على الإسلام. وبما أن إنشاء امبراطورية برتغالية لا تغيب عنها الشمس، وبما أن التحكم في ثلاثة محيطات كان ظاهريا فوق طاقة البرتغال الصغير والقليل الموارد والسكان، فإن «المعجزة» وجدت تفسيرها في تدخل إلهي لمساعدة البرتغاليين. لقد كان برتغاليو القرن السادس عشر مقتنعين بمساعدة الإله لهم في مهمتهم تلك، وكانوا يعتبرون أنفسهم «شعب الله المختار»(Povo Eleito). وقد صرح بهذه القناعة كل من المؤلفين الدينيين وغير الدينيين . لقد ذكر الإخباري دُو بَارُوشْ السابق الذكر، أن القدرة الإلهية هي التي كلفت البرتغاليين بالانتقام للمسيحية من الإهانات التي تعرضت لها على يد الإسلام، وإلا كيف يفسر كون أبعد الأمم المسيحية عن المشرق الإسلامي في حروب لا تتوقف ضد الإسلام في شطريه الغربي والشرقي.[3]

(1) Maria, José Pimenta Ferro Tavares." Judeus e Mouros no Portugal dos séculos XIVe XV, tentativa de estudo comparativo" **Revista de História económica e social**, n. 9, Jan-Juin, 1982, pp. 87-88.

(2) João de Barros, **As Décadas da Asia**. Lisboa,Agencia das Colonias, 1945, IIp.43

(3) Idem, loc. cit.

ومن جهة أخرى، كان مثقفو القرن السادس عشر البرتغاليون مقتنعين بتبادل الخدمات بين الإله وشعبه المختار. فعلى هذا نشر العقيدة المسيحية، وعلى الإله «رعاية أرواح شعبه». ووردت بتلك المصادر البرتغالية عدة إشارات اعتبرت كأمارة على ذلك التبادل في الخدمات بين الإله وشعبه المختار. فلقد اعتبر الإخباري دُو كُويشْ إلقاء البحر بأعداد هائلة من الجراد البحري بساحل (كَنَنُورْ) بالهند المحاصرة على يد المسلمين علامة على عون إلهي للمحاصرين المسيحيين، وأضاف أن ذلك الجراد البحري أشفى المرضى وغذى الأصحاء[1]. وتكثر مثل هذه الأدلة، وهذا التفسير للأحداث والظواهر الطبيعية بمصادر القرن السادس عشر البرتغالي.[2]

وإذا كانت العوامل التجارية بكل تأكيد هي السبب الرئيسي في ركوب البرتغاليين البحر والسيطرة على السواحل الإفريقية والأسيوية، فإن التبريرات الدينية التي تعرضنا لبعض جوانبها وجدت آذانا صاغية لدى الرأي العام، لأن الأمر كان يتعلق بالدرجة الأولى بصراع إسلامي مسيحي حول المحاور الثلاثة الرئيسية التي قامت عليها الإمبراطورية التجارية البرتغالية. لقد نتج عن تبني ذلك التبرير تجنيد الرأي العام الداخلي والبابوية لخدمة المخططات التجارية البرتغالية بحماس. كما أعطى للمكلفين بتنفيذ تلك المخططات تبريرا للتصرفات الوحشية وعمليات السرقة والابتزاز التي استهدفت سكان سواحل شطري العالم العربي و الإسلامي وتجارهما.

وإذا كان وصول البرتغاليين إلى سواحل غرب إفريقيا وبداية الاتجار هناك قد أثر على السياسة البرتغالية بالمغرب، وألزم المسؤولين عن التوسع بتبني وسائل جديدة للغزو كما سنرى، فان وصول البرتغاليين إلى الهند جعل أولئك المسؤولين يخططون هذه المرة على حساب العالم العربي كله. لذا نلاحظ تحولا واضحا في تعامل البرتغاليين مع السواحل العربية الإسلامية كلها ابتداء من العقد الأول من القرن السادس عشر.

****

وبسبب هذا الانعكاس الذي كان لبداية التعامل التجاري بالمناطق التي وصلتها الكرفيلات البرتغالية، مر الغزو البرتغالي لسواحل المغرب بمرحلتين مختلفتين من الناحية الزمنية والجغرافية، وخصوصا بسبب الدوافع التي دفعتهم إلى الاهتمام

(1) H. Cidade, **A literatura portuguesa e a expansão ultramarina**, 2e.édit. Coimbra, Studium, 1963.I. 63.

(2) Ibid, pp. 62-64.

بهما، والوسائل التي سخروها للتحكم فيهما.

فالمرحلة الشمالية تمت خلال القرن الخامس عشر، إذ احتلت سبتة سنة 1415، والقصر الصغير سنة 1458، وأصيلا وطنجة سنة 1471. وتمتاز هذه المرحلة بكونها تطلبت من البرتغال مجهودا ضخما جدا كان أحيانا فوق طاقته. وتم احتلال تلك المدن اعتمادا على طريقة الحرب التقليدية (أساطيل وجيوش جرارة) الأمر الذي يجعله شبيها بحروب القرون الوسطى، ومخالفا لما تم بجنوب المغرب وبغرب إفريقيا. وتعود هذه السياسة إلى الغاية المتوخاة من غزو مدن شمال المغرب، والتي كانت استراتيجية بالدرجة الأولى، وذلك قصد حماية الملاحة البرتغالية بمضيق جبل طارق وبالمحيط الأطلسي. وكانت تلك الحماية تتطلب القضاء على الجهاد البحري الذي كان نشيطا بتلك المدن، والحيلولة دون سقوطها في أيدي العثمانيين. وتتجلى أهمية ذلك العامل الاستراتيجي في تحمل البرتغال تكاليف مالية وبشرية هائلة للحفاظ على تلك المدن التي لم يكن يجني منها أدنى فائدة اقتصادية، كما تتجلى في كون احتلال طنجة وأصيلا يصادف اكتشاف أكبر منطقة بغرب إفريقيا لإنتاج التبر، لامينا (1471).[1]

ونظرا للأهمية الاستراتيجية القصوى التي كانت تحتلها هذه المنطقة، أولى المسؤولون البرتغاليون لاحتلالها عناية خاصة، الأمر الذي شغلهم كثيرا عن الاستمرار في استكشاف سواحل غرب افريقيا كما لاحظنا. إلا أن البرتغاليين لم يستطيعوا احتلال كل الثغور الشمالية، وبقيت تطوان والعرائش وسلا حرة. وأدى احتلال تلك المدن إلى بروز مقاومة مغربية عنيفة أكرهت المحتل على البقاء داخل أسوار الثغور الأربعة التي سيطر عليها.

أما المرحلة الجنوبية[2] فتختلف عن الشمالية من الناحية الزمنية ومن ناحية الدوافع والوسائل المسخرة. لم يعمل البرتغاليون على احتلال مدن جنوب المغرب بعد تحكمهم في مدن شماله الرئيسية. وللقضاء على الجهاد البحري بأنفا، اكتفوا بتخريب القرية وتحطيم أسوارها سنة 1469. وقد يعود ذلك إلى السببين التاليين:

1- إن هذه الثغور، ببعدها النسبي عن سواحل البرتغال، ولما كانت تعاني منه من انقسامات سياسية، لم تكن تمثل أي خطر مباشر على استقلال وأمن البرتغال.

2- إن البرتغاليين سرعان ما تنبهوا إلى صعوبة «المغامرة المغربية»، كما

(1) Chaunu, p. 153 وعن خصائص هذه المرحلة راجع دراستنا : **دكالة**... مرجع سابق ص ص : 161-164.

(2) أحمد بوشرب : **دكالة** ... مرجع سابق، ص ص 113-115 ، 173-197.

يتجلى ذلك في تخلي الأمير هنري الملاح عن مشاريعه بالمغرب وتبنيه لفكرة الكشوف والعمل على الوصول إلى المناطق المنتجة للتبر والمصدرة للعبيد. كما أن ما أصبحت المدن الشمالية الأربع تفرضه من مصاريف جعل البرتغال، القليل الموارد، يعمل على تفادي احتلال عسكري جديد يزيد مشاكله المالية حدة.

ولكن عدم احتلال البرتغاليين لمدن الجنوب المغربي لا يعني عدم اهتمامهم بها، بل على العكس من ذلك، كانوا حريصين على احتكار السهول المغربية (الشاوية، دكالة، والسوس) والحيلولة دون تحكم الإسبان فيه

وتعود أهمية السهول الغربية بالنسبة للبرتغاليين إلى سببين :

1- استفادتها من الظرفية الاقتصادية التي خلقها الغزو الإيبيري لشمال المغرب، ومن بداية تعامل البرتغاليين مع سواحل غرب إفريقيا.

لقد نتج عن احتلال الموانئ الشمالية أفول نجم سبتة التي كانت نافذة المغرب على الأبيض المتوسط، ومحج تجار أوروبا، في حين لم تعد أصيلا عاصمة التوابل والعقاقير كما كانت خلال القرون الوسطى. ونتج عن هذه الوضعية تحول الطرق التجارية الداخلية نحو الموانئ التي لم تسقط بعد في يد البرتغاليين، ومنها موانئ دكالة، وإقبال الأوربيين عليها. وبذلك أصبحت دكالة من منافذ منتوجات الجنوب : التبر، والنيلة والجلود، والشمع... ونتج عن إقبال التجار فتح آفاق جديدة للمنتجات المحلية.

وتلا تخريب أنفا، التي كانت أكبر ميناء مصدر للحبوب والصوف بالجنوب، تحول التصدير نحو أزمور القريبة منها. وزيادة على هذه العوامل المرتبطة بالغزو، استفادت دكالة كثيرا من تحول الطرق التجارية البحرية نحو المحيط، وخصوصا من بداية تبادل البرتغاليين مع سكان سواحل إفريقيا شمال خط الاستواء، التي أصبحت مصدرة للعبيد والتبر والتوابل...الخ.

لقد تم وصول البرتغاليين إلى جزيرة (أرغين)، المقابلة للرأس الأبيض، بالساحل الموريطاني، سنة 1443. وتم تنظيم التجارة بها سنة 1455. وكانت أول إشارة وصلتنا عن بداية وصول التجار البرتغاليين إلى آسفي تعود إلى سنة 1450. وفي سنة 1456 أرسل الملك أفونصو الخامس سفينة إلى آسفي كانت مهمتها التجسس على أوضاع المدينة. فهل كان بين هذا وذاك علاقة؟

تعود تجار غرب إفريقيا على تسليم التبر والعبيد مقابل مجموعة من المواد كان

التجار المغاربة يزودونهم بها منذ قرون، وكان أهم تلك السلع الأنسجة الصوفية والقمح، والخيول والأواني النحاسية، زيادة على الملح. ولم يعمل البرتغاليون - أو لم يستطيعوا - إقناع المتعاملين معهم بأخذ سلع أخرى تنتج بالبرتغال. وهكذا شرعوا في جلب الحبوب من شمال غرب أوروبا، والحياك والحنابل والجلابيب من تونس وبجاية وتلمسان ووهران. وتنبهوا بعد ذلك إلى أن دكالة، الواقعة على طريقهم، والتي عرضوا بها قسما من تلك الأنسجة، تتوفر على تلك المواد وبإمكانها، نظرا لكثرة مواشيها، تغطية كل حاجياتهم منها. هذا فضلا عن توفرها على القمح والخيول اللازمة لتجارة «غينيا». وهكذا أصبحت السفن المتجهة نحو (أرغين) تتوقف بآسفي للتزود بتلك الأنسجة الصوفية وبالحبوب والخيول، والأساور والاقراط النحاسية، وذلك على الأقل منذ سنة 1455. وحاول الأمير «هنري الملاح» ربط علاقات تجارية مع المدن المغربية الموجودة جنوب كونتي، ومع آسفي على الخصوص، سنة 1446، أي بعد اكتشاف جزيرة (أرغين) وقبيل تنظيم التجارة بها، مما يؤكد هذه العلاقة بين دكالة وتجارة السودان. وعمل البرتغاليون على إبعاد المنافسة التجارية والسياسية الإسبانية، وذلك باحتكار ما يوجد جنوب رأس كونتي. وبذلك تم الربط بين جنوب المغرب وأرغين في كتلة واحدة.[1]

وازدادت مكانة آسفي وأزمور بعد اكتشاف أشيم (Axim) ولامينا، وبداية التعامل مع المناطق المجاورة لهما، وبعد أن أصبح الملك البرتغالي يعمل على تغطية ثمن السلع المغربية ببيع سلع يرسلها إلى آسفي وأزمور وماسة، الأمر الذي زاد الموانئ الجنوبية المغربية رواجا، ورفع من عدد التجار البرتغاليين بها. وأضحى الجنوب المغربي يمثل في نظر البرتغاليين منطقة أساسية ليس فقط لكونه منطقة إنتاج وتصدير لعدد من السلع التي كانوا يرغبون في الحصول عليها كالقمح، ولكن لكونها أضحت تلعب دورا أساسيا في مبادلاتهم التجارية مع سكان غرب إفريقيا. وانعكست هذه الأهمية التجارية التي أصبح الجنوب المغربي يكتسبها على السياسة التي انتهجوها به للتحكم فيه.

لقد تخلوا عن سياسة الاحتلال المباشر لتأكدهم أنها لن تؤدي إلا إلى مضاعفة مشاكلهم المالية، وإلى إلحاق الضرر بمصالحهم التجارية بتلك الموانئ وتحويلها إلى

(1) نفسه، ص ص 115-113، وكذا :

R. Ricard: "Le commerce de Berbérie et l'organisation économique de l'Empire portugais". In : **Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc**, Coimbra, 1954, pp. 98 et s.s.

مجرد ثكنات عسكرية جامدة كما تم في الشمال. وهكذا تبنى البرتغاليون مكرهين سياسة تهدف إلى التحكم غير المباشر في أهم الموانئ الجنوبية، وذلك بالاعتماد على الهياكل السياسية القائمة التي سخرت كل الإغراءات، من رشاوي ووعود، لدفعها إلى الدخول تحت الحماية البرتغالية.

وهكذا اعترفت آسفي بسلطة التاج البرتغالي عليها قبل 28 غشت 1481، وتلتها كل من أزمور (1486) وماسة (1496).

غير أن البرتغاليين فشلوا في الحصول على عملاء أوفياء بتلك الموانئ التجارية. وهكذا اضطر الملك البرتغالي، أمام تزايد الفتن بتلك المدن، بسبب عصيان قوادها وتناحر أعيانها حول السلطة، إلى التدخل واحتلالها احتلالا فعليا. لقد احتلت آسفي سنة 1508 وتلتها أزمور سنة 1513 بعد فشل محاولة نظمت في التاريخ الأول. وأكمل البرتغاليون تحكمهم في باقي موانئ الجنوب، أگادير سنة 1505، أمگدول (الصويرة الحالية) سنة 1506 و مازيغن (الجديدة) 1514. ومن تلك الثغور، انطلق البرتغاليون في غارات متتالية على المناطق الداخلية قصد اخضاع قبائلها ودفعها إلى أداء الضرائب والإقبال على أسواق الثغور المحتلة لعرض منتوجاتها وشراء السلع التي يعرضونها.[1] ويعود هذا التحول في السياسة البرتغالية إلى الهجمة الشاملة على العالم العربي الإسلامي في مطلع القرن السادس عشر التي سبقت الإشارة إليها.

ورافق هذا الغزو العسكري لسواحل السهول الغربية غزو تجاري كبير كانت له نتائج وخيمة على أوضاع البلاد الاقتصادية. وتولد هذا الغزو التجاري عن المكانة التي أصبح المغرب يحتلها داخل الامبراطورية التجارية البرتغالية.

فإذا كان ذهب أرغين ولامينا ضروريا للحصول على سلع الشرق الأقصى، فإن الحصول على التبر ألزم البرتغاليين باقتناء الأنسجة الصوفية والحبوب والخيول وفرض على البرتغاليين تخصيص نسبة مهمة من مبيعات التوابل والعقاقير بمركز أنفير Anvers بفلندرا لشراء أثواب ومواد مصنعة أوروبية قصد عرضها بأزمور وآسفي

(1) أحمد بوشرب : دكالة ... ص ص 197-173

لتغطية أثمان شراء الحياك والحنابل التي أضحت تعرف بـ "أثواب أرغين".[1]

ونظرا لتزايد إقبال البرتغاليين على السلع المغربية، وتنبههم لطاقة البلاد الاستهلاكية المهمة، ارتفعت الكميات المعروضة ارتفاعا مهولا. فلقد ارتفع عرض التوابل بآسفي بنسبة 3900 بين 1498 و 1519، في حين ارتفع عرض الصمغ بين 1491 و 1519 بـ 2200. وعرفت سلع أخرى ارتفاعا كبيرا كذلك. وأكد تقرير بعث للملك البرتغالي أن آسفي أضحت في بداية القرن السادس عشر قادرة على تسويق كل ما يشترى من صمغ الهند.

ويتجلى الرواج التجاري كذلك في مداخيل جمارك بعض الموانئ. فلقد أعطت تلك الضرائب المؤداة بآسفي خلال ستة أشهر (يونيو - دجنبر 1512) 200000 ريال، مما يمثل تصدير سلع قيمتها111000 ريال كل يوم، مع العلم أن تجارة الملك، التي كانت تمثل أكبر الصفقات التجارية بالمدينة كانت معفاة من أداء الضرائب الجمركية.

وسخر البرتغاليون ما كانوا يتوفرون عليه من قوة عسكرية للضرب على أيدي التجار الأوربيين الذين ينافسون تجارتهم ويتعاملون مع موانئ غير خاضعة لهم[2]، كما عملوا على جلب جل سلع المناطق الداخلية نحو الموانئ المحتلة . ولمزاحمة تجارة القوافل المغربية، شيدوا مركز أرغين بالساحل الموريطاني وأرسلوا وكيلا تجاريا إلى ودان الموجودة في قلب الصحراء الكبرى لتحويل القوافل الرابطة بين السودان الغربي والمغرب العربي نحو الساحل.[3] وبذلك يكون البرتغاليون قد شنوا حربا اقتصادية على المغرب، وكانت الوسائل العسكرية مجرد وسيلة من بين الوسائل لضمان استفادتهم أكثر ما يمكن من غزوهم التجاري للمغرب وانتزاع الوساطة التجارية من يده، وتسخير اقتصاده لصالح التجارة البرتغالية في غرب إفريقيا.

لقد اكتفى البرتغاليون بغرب إفريقيا، من أرغين إلى أنغولا، بانشاء المراكز التجارية ووضع الشواهد على سبقهم لتلك المناطق التي لم يهتموا قط بالسيطرة عليها عسكريا والتحكم في داخلها، وكانت القلاع القليلة التي شيدوها بتلك السواحل وسيلة لحماية مصالحهم ضد باقي الأمم الأوروبية، لا ضد شعوب تلك

(1) نفسه، ص ص 324-281 .

(2) R. Ricard: **Les Portugais au Maroc**, Rabat,1937,pp.215-216

(3) V.M Godinho: **Os Descobrimentos**, I p, 154 et ss.

الربوع التي لم تبد مقاومة تذكر. غيرأنهم ما إن حاذوا الساحل الشرقي لأول مرة حتى عاينوا عالما مخالفا تماما لما تعودوا عليه. فسكان تلك المنطقة مسلمون وعلى مستوى حضاري متقدم، وكانت مظاهر الغنى بادية عليهم من خلال ملبسهم وطريقة بناء منازلهم وقصورهم. كما عاينوا كثرة التجار الوافدين عليه من الجزيرة العربية والشرق الأقصى. لذا كان موقفهم مخالفا لما وقفوه من غرب إفريقيا الوثنية. ونظرا لارتباط الشرق الإفريقي بتجارة الشرق الأقصى، فإن المخططات البرتغالية همت المنطقتين معا، وكانت تهدف بالدرجة الأولى إلى انتزاع تلك التجارة من أيدي التجار المسلمين واحتكارها لصالح البرتغال. فرغم البعد بين الهند وشرق إفريقيا، كان المسؤولون البرتغاليون ينظرون إلى المنطقتين ككتلة واحدة لا تتجزأ.

لقد كانت مهمة (داكاما) تنحصر في ربط لشبونة بالهند بحرا، ولم يكن يتوفر خلال هذه المرحلة الاستكشافية على الوسائل العسكرية لفرض كلمته على حكام المنطقة الذين لم ينظروا بعين الرضى لوصول السفن البرتغالية.

وشجعت عودة (داكاما) إلى البرتغال المشرفين على سياسة البلاد التوسعية على الشروع في تنفيذ مخططاتهم. ففي مارس 1500، أرسل الملك (أمنويل) إلى الهند أسطولا مكونا من ثلاثة عشر مركبا جعله تحت رئاسة (بِدْرُو أَلْفَرِيشْ كَبْرَالْ) الذي لم يستطع رغم كل المحاولات الحصول على التوابل وعلى التحالفات التي كان ينوي الاعتماد عليها لتعزيز الوجود البرتغالي. وأعطت عودة هذا الأسطول إلى لشبونة الدليل القاطع للمسؤولين البرتغاليين على صعوبة المهام التي تنتظرهم طالما أن الأمر «لم يكن يتعلق بأناس مسالمين كوثنيي غينيا وأثيوبيا، الذين كانوا مقابل أشياء تافهة، يسلمون البرتغاليين تبرا كثيرا وسلعا نفيسة أخرى. لقد وجدوا بالشرق المسلمين، ألد أعدائهم، في أعداد لا تحصى، وقد تحكموا في المناطق الأكثر رواجا، والتي تضمن أهم ربح. ففي الرقعة الساحلية الضيقة الممتدة بين (كوا) و(كوشين) كانوا حسبما ذكر (كابرال) يفوقون من ناحية العدد كل سكان الساحل الشمالي لإفريقيا من سبتة إلى الاسكندرية. وبما أنهم كانوا يتحكمون في تجارة التوابل والملاحة في تلك الربوع، فقد تراكمت الثروات لديهم حتى إن «بعضهم كانوا أثرياء إلى حد أنه كان بامكانهم إعلان الحروب وتحمّل مصاريفها أطول مما يستطيع تحمله ملوك بادس أو تلمسان أو وهران أو الجزائر أو عنابة أوتونس الذين يمثلون نخبة أمراء الساحل الافريقي الذي نجاوره». (2)

História de Portugal, IV, p. 26.(1)

Ibid, 27 (2)

وكان البرتغاليون مقتنعين بأن طرد التجار المسلمين من شرق إفريقيا والشرق الأقصى أمر لا بد منه لتتويج مجهودهم الاستكشافي. وأعطتهم تزكية البابوية المبرر الشرعي للقيام بذلك وتنحية المزاحمة الأوروبية. وهكذا بادر أمنويل إلى تلقيب نفسه، مباشرة بعد عودة (داكاما) من رحلته الأولى، بـ «ملك الملاحة وغزو وتجارة أثيوبيا وبلاد العرب والفرس والهند». وبهذا جعل الطرق البحرية عبر رأس الرجاء الصالح حكرا على بلاده ، كما احتكر لنفسه حق احتلال ما شاء من المناطق هناك والاتجار بها.(1)

ولتحقيق هذا البرنامج أرسل (داكاما) من جديد إلى الهند سنة 1502 على رأس أسطول يضم عشرين أو ثلاثة وعشرين مركبا اقتصرت مهمة خمسة منها على إغلاق البحر الأحمر في بداية الصيف لمنع «سفن مكة» من الالتحاق بالهند. وقبل وصوله إلى هناك، سارع (داكاما) إلى إخضاع سواحل شرق إفريقيا. ولإفزاع المسلمين وإخماد روح المقاومة لديهم، تفنن البرتغاليون في مختلف مظاهر الوحشية، سواء بمدن شرق إفريقيا أو بالمحيط الهندي. فعلى مقربة من السواحل الهندية، استولى البرتغاليون على مركب تابع لسلطان مصر، وبعد أن تم نهب سلعه، أحرق المركب والثلاثمائة شخص الذين كانوا على ظهره.(2)

وأرسلت لشبونة سنة 1503 أسطولا آخر كانت مهمته مراقبة باب المندب والساحل العربي، الأمر الذي ضايق كثيرا الملاحة بالبحر الأحمر وساحل عدن. وكُلف أسطول آخر، أرسل في السنة التالية، باستكشاف مدخل البحر الأحمر «وانتظار مراكب مسلمي مكة بمدخله».(3)

واعتمادا على تلك السفن شرع البرتغاليون في مطاردة المراكب الإسلامية في كل من المليار وساحل صوفلة ومدخل البحر الأحمر، الأمر الذي ضيق الخناق على الملاحة العربية الإسلامية بتلك الربوع.(4)

ولتعزيز الوجود البرتغالي بالشرق الأقصى، تقرر إنشاء نيابة للملك بالهند، وكلف بها سنة 1505 (فرانسيشكو دي ألميدا) F. de Almeida الذي غادر البرتغال على رأس اثنين وعشرين سفينة حربية. وكان من أهم التعليمات التي أعطيت له،

(1) Ibid, 29.

(2) Ibid, 29-30; V.M. Godinho, **Os Descobrimentos**... op. cit., II, p. 130.

(3) Ibid, loc. cit

(4) **História de Portugal**, IV, p. 35.

إنشاء مجموعة من الحصون بالجزر المحاذية لشرق إفريقيا والهند والبحر الأحمر. وتم التأكيد بالدرجة الأولى على هذه المنطقة الأخيرة «لأنه يبدو لنا - يقول الملك البرتغالي - أن أي موقع آخر لا يخدم مصالحنا مثلما يخدمها حصن بمدخل البحر الأحمر أو على مقربة منه، إما داخله أو خارجه، لأن ذلك سيمنع التوابل من المرور إلى بلاد السلطان، وسيلزم سكان الهند بالتعامل معنا دون غيرنا».

وأكدت التعليمات الملكية على ضرورة منع وصول توابل الهند إلى كل من عدن وهرمز أو أي مكان آخر من الخليج. كما أوصى الملك نائبه بالعمل على التحالف مع «أي ملك من ملوك الهند، شريطة أن لا يكون مسلما». وأوصى بالتحالف على الخصوص مع ملك كنباية «لأن سلع مملكته جد مربحة بصوفلة»، كما أمر الملك البرتغالي نائبه على الهند باستكشاف السيلان ومالقة وغيرهما من المناطق الموجودة شرق الهند.(1)

وقبل وصول (ألميدا) إلى الهند، عزز الوجود البرتغالي بشرق افريقيا بعزل حاكم كلوة وتعويضه بآخر أكثر رضوخا، وببناء قلعة بتلك المدينة وبصوفلة، وأخيرا باحتلال مدينة منبسة الإسلامية.

وبالهند سارع إلى إثبات الوجود البرتغالي بتدابير عسكرية وتجارية. فلمراقبة هذا النشاط، فرض على كل المراكب الحصول على تساريح خاصة (Cartazes) مقابل مبالغ مالية، وحرم السفن الإسلامية من تلك التساريح.(2)

وبهذه الإجراءات الإدارية والعسكرية، ضيق البرتغاليون الخناق على الملاحة العربية الإسلامية بعد سيطرتهم على بحر الملبار وإغلاقه نهائيا في وجه السفن العربية الإسلامية التي غنموا منها العدد الكثير. غير أن البرتغاليين فشلوا في إغلاق البحر الأحمر رغم تحصينهم سنة 1507 لجزيرة سقطرى.(3) وباغلاق بحر الملبار وبقاء البحر الأحمر بعيدا عن العمليات العسكرية البرتغالية، التجأ التجار إلى كل من ملقا

(1) Ibid, 36.، عن أوضاع شرق افريقيا حين وصول البرتغاليين إليها راجع كذلك: شوقي عطا الله الجمل : **تاريخ كشف افريقيا واستعمارها** . القاهرة، 1971 صص 161 / 167.

(2 V.M. Godinho, op. cit. p.130; Ibid, loc., cit.

(3) V.M. Godinho, op. cit. 137-39 وعن الخليج العربي : أحمد بوشرب : مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر. أحمد العناني: البرتغاليون في البحرين وحولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر". وهما بحثان تقدم بهما مؤلفاهما للمؤتمر العالمي : البحرين عبر التاريخ، وقد نشرتهما مجلة **الوثيقة** البحرينية في عدد خاص، ص ص 74-140.

وسومترا، وذلك إلى أن احتل (ألْبُكيرْكْ) المنطقة الأولى سنة 1511 ليجعل حدا للتجارة العربية الإسلامية من المنبع. وأكمل هذه الإجراءات كلها بالتحكم في الخليج العربي منذ 1507 وإدخال هرمز تحت حماية التاج البرتغالي وتسخيرها لخدمة مصالح البرتغاليين بالخليج.(1)

وإذا كان (ألْبُكيرْكْ) قد استطاع إرساء ركائز الدولة البرتغالية بالشرق، فان هذا العمل شغله كثيرا عن الاهتمام بالبحر الأحمر. وفي يوم 18 فبراير 1513 غادر (كوا) التي اتخذها مقرا له على رأس أسطول مكون من عشرين مركبا تحمل 1700 محارب. وبعد فشل محاولة الاستيلاء على عدن، دخل الأسطول البرتغالي البحر الأحمر قصد الالتحاق بالسويس واحراق الأسطول المصري. غير أن ظروف الملاحة، وعدم تحمس جنوده حالا دون تحقيق هدفه. وبعد إقامة بجزيرة كمران ثلاثة أشهر، غادر البحر الأحمر يوم 15 يوليوز ليلتحق بهرمز التي وصلها في فبراير 1513(2). وبذلك يفشل البرتغاليون في إغلاق باب المندب في وجه سفن جدة والسويس. وذكر ابن اياس في مارس 1514 أن الميناء الأول لم يدخله ولو مركب واحد لمدة عشر سنوات بسبب المضايقات التي سببتها السفن الحربية البرتغالية.

إلا أن دخول الأتراك إلى مصر سنة 1517 والعراق 1534 سيغير الأوضاع بكل من البحر الأحمر والخليج العربي.(3)

(1) **História de Portugal,** IV , 41 et ss.; V.M. Godinho, op, cit, pp. 157 et ss.

(2) V.M. Godinho, pp. 139-140.

(3) صالح أوزبران : **الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي** (1534-1581) ترجمة عبد الجبار ناجي ، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، 1979 ، المقدمة.

محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية (1559) *

تقديم الوثيقة :

تتعلق هذه الوثيقة التي عثرت عليها بدار الوثائق الوطنية البرتغالية (Arquivo Nacional da Torre do Tombo) والتي ترجمتها عن اللغة البرتغالية القديمة، بمحضر من محاضر محاكم التفتيش الدينية البرتغالية. وهي مرتبة ضمن محاضر محكمة تفتيش يابرة (Evora) تحت الرقم التالي:

Inquisicão de Evora, processo n° 6868. وتسجل هذه الوثيقة مراحل اعتقال ومحاكمة امرأة مغربية عجوز من دكالة عاشت بالبرتغال ما يفوق اثنين وعشرين سنة. وكانت التهمة الموجهة إليها هي الرجوع إلى الدين الإسلامي والقيام بشعائر وطقوس إسلامية. وتم اعتقال (آنة دو ميلو) التي لم تذكر اسمها الأصلي رغم أنه طلب منها ذلك في اليوم الثالث عشر من شهر ماي من سنة 1559، وشرع في محاكمتها في اليوم الثاني والعشرين من نفس الشهر. وتم النطق بالحكم بالسجن في 24 أبريل من سنة 1560، أي بعد سنة من المحاكمة والاعتقال.

ويحتوي الأرشيف البرتغالي على عدد كبير من المحاضر المتعلقة بمحاكمات عدد مهم من المغاربة الذين أرغمتهم المجاعات والفتن التي تلت احتلال البرتغاليين لعدد من الموانئ المغربية على الالتحاق بالبرتغال والإقامة به، إما عن طواعية، بعد أن أوهموا أنه بإمكانهم ضمان قوتهم هناك، أو بعد أن تم أسرهم أو اختطافهم أو بيعهم خلال المجاعات، وخصوصا خلال مجاعة 1521 الكبرى. ومعلوم أن الجوع أرغم المغربي آنذاك على بيع أبنائه قبل بيع نفسه. ولقد كان العرض كبيرا إلى حد أنه لم يعد أي شيء أرخص من الإنسان...[1] وإذا كانت المصادر البرتغالية قد تركت لنا صورة عن عمليات البيع قد تدعو إلى الشك،[2] فان تصريحات أولئك المغاربة أمام محاكم التفتيش تؤكد وصول جلهم إلى البرتغال ما بين 15201521.

* نشرت هذه الدراسة بمجلة **المناهل**، ع21، 1980، ص ص 229-278.

(1) Diégo de Torres, **Origine et succès des Chérifs**... Paris, 1636,I, p 94.

(2) B. Rodrigues . **Anais de Arzila**..., Lisboa. 1915, T. I,p. 327.

D. de Góis, **Les portugais au Maroc**, trad. R. Ricard p. 228

ومن محاضر محكمة تفتيش يابرة وصلنا 79 محضرا يتعلق باعتقال ومحاكمة مغاربة كانوا مقيمين بالبرتغال بدعوى اعتناقهم لدينهم الأصلي، والاستمرار في العيش حسب العادات والتقاليد المغربية. ورغم أن محاضر محكمة لشبونة لم تحص بعد، فإن تحرياتي الأولى أعطت عددا يفوق بكثير عدد محاضر محكمة يابرة. ومن بين محاضر محكمة لشبونة عدد من محاضر محاكمة بعض المجاهدين البحريين المغاربة الذين تم إلقاء القبض عليهم خلال غاراتهم على السفن والسواحل البرتغالية.

وترتبط محاكمة أولئك المغاربة بإنشاء محاكم التفتيش الدينية بالبرتغال سنة 1536 قصد محاربة البدع والردة والمعتقدات التي تتنافى وتعاليم الكنيسة الكاثوليكية. وكان قرار إحداث تلك المحاكم مرتبطا بتزايد التعصب الديني وتبنيه من طرف الحكام لتسخيره لأغراض سياسية [1]. فمن المعلوم أن البرتغال عرف خلال حروب الاسترداد وبعدها تعايش الديانات الثلاث، وتبنى ملوكه باستمرار سياسة متسامحة إلى حد ما، وعملوا على استمرار إقامة اليهود والمسلمين ببلادهم نظرا للدور الاقتصادي المهم الذي كانوا يلعبونه. وبذلك تم الاعتراف لغير النصارى بحرية التدين، وإن فرضت عليهم بعض الشروط القاسية كالإقامة في أحياء خاصة، والحيلولة دون اتصالهم بالنصارى وأداء ضرائب متنوعة وثقيلة[2]، وكان من المسلمين من أصبح من أقرب المقربين لملوك البرتغال[3].

وكان هذا التسامح مناقضا لسياسة ملكي إسبانيا، «فردنان وإزبيلا» التي امتازت بالتعصب الديني ومطاردة المسلمين واليهود، وإنشاء محاكم التفتيش الدينية منذ سنة 1478، وإحراق المئات منهم.

وتخلى حكام لشبونة عن سياسة الملوك السابقين منذ بداية القرن السادس عشر، وذلك قصد تحقيق أهداف شخصية. فقد نتج عن طمع الملك امنويل، (1495 - 1521) في إسبانيا وامبراطوريتها الشاسعة من خلال مصاهرة «الملكين الكاثوليكيين» رضوخه

(1) Lúcio de Azevedo, **História dos Cristãos Novos portugueses**, Lisboa 1975, p.63.

(2) كانوا يؤدون فضلا عما يؤديه النصارى ضرائب مختلفة من بينها الشرعية، وهكذا أحصى مؤرخ برتغالي ما يفوق 15 ضريبة :

J. leite Vasconcellos, **Etnografia portuguesa**, Lisboa, imprensa Nacional, vol. IV, 1958.

(3) راجع مثلا من بين كتب "التشريفات الملكية ":

Chancelaria real de D. Duarte - **Livro da Guadiana**. Il ,fol 194 V.
Afonso V . Livro, 95.
de João II, Livro 8, fl . 165 V etc.

لضغوط إسبانياوإلزامه سنة 1496 اليهود والمسلمين بالتنصر أو مغادرة البلاد.

وخوفا من انتقام إسلامي، كانت معاملته وشروطه المفروضة على المسلمين أخف بكثير مما فرضه على اليهود قصد تنصيرهم والاحتفاظ بهم بالبرتغال. وهكذا تمكن جل مسلمي البرتغال من الالتحاق ببلاد الإسلام(1).

ولهذا كان عدد من حوكم بالبرتغال بسبب تمسكه بالدين اليهودي أكثر بكثير ممن حوكم لكونه مسلما، كما أنه لا يوجد ولو محضر واحد يتعلق بمسلم من مسلمي البرتغال، فكل المحاضر تتعلق بمسلمين تم جلبهم إلى البرتغال كعبيد، إما من المغرب، أو من غرب إفريقيا، أو من تركيا والهند.

وبتخلي (أمنويل) عن سياسة التسامح الديني السابق الذكر، بدأ يعمل على الحصول من البابوية على اذن بانشاء محاكم تفتيش دينية. غير أن البابوية التي لم تكن تنظر بعين الرضى لما يجري بإسبانيا، رفضت حتى الرد على خطاب الملك. ولم يعد (أمنويل) ثانية إلى الموضوع.

وكان ابنه وخلفه جوا الثالث (1557.1521) متزمتا وشديد العداء لليهود(2).

ولهذا ألح في الطلب على البابوية، ولم يتردد أمام الكذب والرشوة للوصول إلى هدفه.

ورغم أنه حصل على قرار بابوي مؤرخ في 17 دجنبر 1531 يسمح له بإنشاء محاكم تفتيش دينية لمعاقبة اليهود المتنصرين الذين تأكدت ردتهم إلى دينهم الأصلي، والمسيحيين المعتنقين الديانة اليهودية أو الثائرين ضد الكنيسة الكاثوليكية، فإنه لم يحصل على موافقة البابا على إنشاء محاكم على الشكل الذي يريده، لا تكون خاضعة لإشراف البابوية المباشر عليها، إلا سنة 1536 عقب صدور القرار المؤرخ في 25 ماي.

وهكذا شرعت محكمة تفتيش يابرة في أعمالها منذ سنة 1536 في حين افتتحت محكمة لشبونة في السنة التالية. وتقرر في بداية الأمر إنشاء محاكم في عدد مهم من

(1) D. de Góis , op. cit. p. 5

(2) A. Hercunalo, **História da orígem e estabelecimento da Inquisição em Portugal**, op. cit, I, p. 96, 117.

مدن البلاد، ولكنه لم يحتفظ في نهاية الأمر إلا بثلاث فقط : محكمة يابرة، ومحكمة لشبونة، وأخيرا محكمة (Coimbra) قد استمر العمل بمحاكم التفتيش إلى سنة 1821.

وكان يشرف على تلك المحاكم في بداية الأمر أسقف سبتة الذي سرعان ما استقال بسبب غلو القضاة وبشاعة الطرق المستعملة من طرف المحكمة وقساوة الاحكام الصادرة عنها[1]. واستغل الملك تلك الاستقالة لتعيين أخيه (دون هنري) في منصب المفتش الأول، وذلك رغم أنه لم يكن يتوفر على السن القانونية.

وكان المفتش العام يعين قضاة للنيابة عنه في رئاسة الجلسات. وللدفاع عن مصلحة محكمة التفتيش وضمان معاقبة المحالين عليها، كان يعين «محاميا مراقبا» كانت مهمته شبيهة بمهمة وكيل النيابة.

وكان من حق المتهم الالتجاء إلى محام لاثبات براءته، غير أن ذلك الالتجاء إلى المحامي لا يكون عمليا إلا في حالة ما إذا اعتبرت المحكمة اعترافات المتهم غير كافية، وسمحت «للمحامي المراقب» بالمرافعة. وكانت المحكمة هي التي تعين المحامي، الذي كان دوره يقتصر أحيانا على حث المتهم على الاعتراف.

ولمعاقبة من كانت تصرفاته أو معتقداته مخالفة لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية، اعتمدت محاكم التفتيش اعتمادا كبيرا على التبليغات. ولتسهيلها حددت بناءً على «ملصقات الإيمان» (Edital da Fé) التي كانت تلصق مرة في السنة عند مدخل المعابد والأديرة، حددت الخطايا الواجب التبليغ بها. وألزمت الكل بالتبليغ بها، وهددت من امتنع عن ذلك بطرده من الجماعة (excommunication)، وبالتالي تكفيره. وكانت لائحة الخطايا طويلة، وجلها قابل لأن يرتكب حتى من لدن أكثر الناس تمسكا بتعاليم الكنيسة، كارتداء أقمصة نظيفة يوم الجمعة أو السبت (بالنسبة لليهود) وكره لحم الخنزير أو تناول بعض الأطعمة كالكسكس و«الفتات» واستعمال مائدة قصيرة الأرجل... (راجع النص المترجم)!

واستطاعت الكنيسة تحويل كل البرتغاليين إلى متجسسين على بعضهم البعض : «من الآن فصاعدا، استحوذت على الأمة موجة من التجسس...أصبح الذين يغطيهم نفس السقف، والذين يتقاسمون نفس العمل، والذين تجمعهم نفس المائدة يبلغون

(1) Ibid, pp. 184 - 186 .

ببعضهم البعض...»[1] وتدخلت الكراهية الشخصية، والميز العنصري والديني لتلقي بمئات الأبرياء داخل زنزانات محاكم التفتيش. ووصل تخدير الكنيسة للرأي العام إلى حد أن الإبن أصبح يبلغ بأبيه.

وبعد اعتقال من بلغ بهم، كانت المحكمة تعتمد على عدد من الوسائل لارغامهم، ليس فقط على الإعتراف «بخطاياهم» و«جرائمهم»، ولكن كذلك على التبليغ بذويهم وأصدقائهم ، وذلك بزرع جواسيس بين المعتقلين، وإكراه السجناء على التجسس، وخصوصا بتمديد مدة الاعتقال خلال المحاكمة في ظروف جد صعبة، الشيء الذي يرغم المتهم على طلب المثول أمام المحكمة «لإرضاء ضميره» حسب ما تدعيه المحاضر.

وكلما استنفدت المحكمة تلك الوسائل، التجأت إلى التعذيب الذي كان مقننا ويخضع لعدة درجات حسب صمود وتحمل المتهم. ومات لذلك عدد من المتهمين، اما داخل زنزانات السجن، أو بين أيدي المعذبين. وتقدم دراسة واستغلال مادة محاضر محاكم التفتيش خدمة كبيرة لمؤرخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب، وخصوصا لمؤرخ نتائجه الفكرية والدينية على المغرب. وهذه المحاضر التي لم يتم بعد استغلالها بالبرتغال بالمقارنة مع الاهتمام الخاص الذي أولي لمحاكمات اليهود، تكمل المعلومات التي زودتنا بها المصادر البرتغالية الأخرى، وتسد بعض الثغرات التي تركتها. والمحاضر المتعلقة مباشرة بالمغرب تتكون من ثلاثة أنواع متميزة :

1 ـ المحاضر المتعلقة بقيام المغاربة بطقوس وشعائر اسلامية

بالاضافة إلى اهتمام هذه المحاضر بأوضاع أولئك المغاربة المادية (مهنهم، ظروف عيشهم) والقانونية (كان منهم العبد والحر، ونصف الحر، ومن هو في وضعية ثلاثة أرباع الحر...!)، فإنها تسلط كذلك الأضواء على مدى تمسكهم بالدين الإسلامي وأحكامهم على المسيحية، وتخبرنا عن عقليتهم (فكر غيبي، إيمان بالسحر...) وعن كيفية تنظيم أفراحهم (الزواج، العقيقة، الأعياد...) وأحزانهم.وهذا النوع من المحاضر المتعلقة بالمغرب هو أكثر الأنواع الثلاثة عددا.

(1) Lúcio de Azevedo , op. cit .p. 90، ووصف المؤرخ البرتغالي O. Martins تلك الأوضاع الجديدة التي فقد فيها الإنسان انسانيته «بالطاعون» راجع: 32 / **História de Portugal** وعن تلك المحاكم راجع أطروحتنا : **مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر** : منشورات كلية الآداب ، الرباط ،1996.

2 ـ محاضر تتعلق بالتهريب بسواحل المغرب

تتعلق هذه المحاضر بتجار برتغاليين استمروا في التعامل التجاري مع المغاربة رغم التحريم الذي أعلن عنه الملك إثر اضطراره إلى التخلي عن عدد من الموانئ المغربية بعد سنة 1541. كما كان هؤلاء التجار يحصلون على أموال طائلة من نقل مغاربة مقيمين بالبرتغال الى الموانئ المغربية. وإذا كانت هذه المحاضر دون كثرة النوع الأول[1] فإن مساهمتها في التعريف بالنشاط التجاري البرتغالي أساسية، ذلك أنها تخص تجارة أفراد أو شركات لم تخبرنا الوثائق الرسمية إلا عن الشيء القليل من أنشطتهم.

كما أن اعترافات المهربين المعتقلين تسلط الأضواء على أنواع السلع التي كانوا يروجونها، وأثمانها، وتطور الطلب عليها، وتشير إلى تلك التي كانوا يقتنونها بالموانئ المغربية. وإذا أضيف إلى هذه المحاضر ما يعرف بـ «الإيصالات»، أو «وثائق إبراء الذمة»[2]، وكذا الوثائق الرسمية المتبادلة بين الملك ووكلائه التجاريين، أصبح بالإمكان تحديد المكانة الاقتصادية التي كان المغرب يحتلها داخل الامبراطورية التجارية البرتغالية، وتحديد مدى استفادة كل من البرتغال والمغرب من تلك المبادلات التي تمت في وقت كانت الغلبة فيه للبلد الأول.

3-محاضر تتعلق بالجهاد البحري المغربي خلال القرن السادس عشر

تسلط هذه المحاضر أضواء جديدة على موقف المغاربة من الغزو الإيبري لسواحل بلادهم. فبخلاف ما ادعاه بعض المؤرخين الاجانب، لم يؤد احتلال موانئ شمال المغرب إلى توقيف كل العمليات البحرية التي كانت تستهدف سفن وسواحل البرتغال. فقد تم إلقاء القبض على عدد من المغاربة كان من بينهم أعراب من ناحية القصر الكبير تعاطوا لهذا النوع من الجهاد.

وتخضع كل محاضر محاكم التفتيش الدينية لتصميم شبه موحد. فهي تبدأ بالأمر الصادر عن المفتش الديني باعتقال المتهم، يليه محضر الاعتقال والإيداع بالسجن الخاص بالمحكمة. وتأتي بعد ذلك محاضر الجلسات بالتتالي مع تواريخها واعترافات المتهم. ويلحق بتلك الاعترافات تدخل «المحامي المراقب» وتقويمه لتلك

(1) استطعت الحصول على نسخ لـ 23 محضرا مما يوفر أكثر من 700 ورقة من الوثائق النفيسة.راجع أدناه .ترجمة أحد تلك المحاضر.

(2) للتعرف على هذه الوثائق، ولأخذ فكرة عن أهميتها، راجع دراستنا : أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي ...** مصدر سابق ص ص : VI, VII, VIII ،وملحق الدراسة الذي يحتوي على ترجمة 23 إيصالا.

الاعترافات. فاذا اعتبرها كافية أصبح بامكان القاضي أو القضاة النطق بالحكم. وإذا اعتبرها غير كافية قام بمرافعته التي يليها رد المتهم أو محاميه. وبعد تدخل الطرفين يتم النطق بالحكم. وبعد ذلك يأتي محضر التخلي العلني للمتهم عن خطاياه في حفل ديني كبير. وتختم المحاضر بحصر مصاريف المحاكمة الواجب أداؤها من طرف المتهم، يليه تاريخ تسريح المتهم وخلع «لباس التوبة» عليه.

الترجمة :

اتهامات واعترافات (آنة دو ميلو Ana de Melo)، المورسكية، الحرة الساكنة بهذه المدينة (Evora) الحبيسة بسجن محكمة التفتيش المقدسة، وذلك بسبب جريمة البدعة والردة[1].

1559

(و. 1.و) محضر حبس واستنطاق (آنة دو ميلوAna de Melo) المورسكية التي كانت في ملكية (روي دو ميلوRui de Melo) الساكن بهذه المدينة يابرة، والتي توجد رهن الاعتقال بسجن محكمة التفتيش هذه.

الكاتب (جوان منديش Joane Mendes)

في سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين من ميلاد سيدنا المسيح، وبمدينة يابرة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، ضمن الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو António de Castro)، المفتش الديني البابوي ضد البدع والردة بأسقفية يابرة هذه ومقاطعتها، الخ.، مثلت أمامه مورسكية تسمى (آنة دو ميلو Ana de Melo) عبدة (لويش دو ميلوLuís de Melo) معلم بمدرسة كتدرائية مدينة يابرة هذه، ومقيم بها. ولما مثلت أمامه لكونها اقترفت آثاما من اختصاصات محاكم التفتيش المقدسة، أمر السيد المفتش المذكور بحبسها. ولهذا استدعى (أنطونيو فرنانديش António Fernandez) قائد السجن، وأمره بقيادتها إلى زنزانتها، الشيء الذي نفذه فورا وأمضى هنا إلى جانب السيد المفتش. وحررت هذا، أنا (جوان منديش)، الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة.

---

(1) عنوان المحضر، وبأعلى الورقة، بالزاوية اليسرى كتب : (آنة دو ميلو)، المورسكية، وبالزاوية اليمنى كتب : القسم الثاني. وتجدر الإشارة إلى أن المحضر يصف المتهمة بالمورسكية (mourisca) مع أنها مغربية كما سنرى، وذلك لأن محكمة التفتيش البرتغالية لم تكن كالمحكمة الإسبانية تخص بتلك الصفة المسلمين الأندلسيين المتنصرين. راجع دراستنا: المورسكيون بالبرتغال، **المناهل**، ع.24، 1982، صص 354-392 و**المجلة التاريخية المغربية**، (تونس) ع. 25-26، 1982، ص ص 31-52.

(و.1.ظ) وفور ذلك، وفي نفس اليوم والشهر والسنة، وبأمر من السيد المحقق المذكور، التحقت أنا، (جوان منديش)، الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة، بالسجن حيث توجد رهن الاعتقال (آنة فرنانديشAna Fernandes) المورسكية، وذلك بمحضر (أنطونيو فرنانديش António Fernandes) قائد السجن المذكور، وطلبت من (مرغريدا لورنسو Margarida Lourenço) الحبيسة كذلك بالسجن المذكور، أن تقسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها، وكلفتها تبعا لذلك بالذهاب لتفتيش (آنة فرننديش دوميلو)، المورسكية السابقة الذكر، ومعاينة ما إذا كانت تحمل أموالا أو سكينا أو شيئا آخر. ووعدت (مرغريدا) اعتبارا للقسم السابق الذكر بتنفيذ ذلك، والتحقت فورا بالمكان الذي كانت توجد به (آنة فرنانديش) المورسكية المذكورة، وفتشتها وأخبرتني أنها رأت وفتشت (آنة فرنانديش) المذكورة ولم تعثر على شيء عدا سبعة أو ثمانية «سبتي»[1]، وأطلعتني على المبلغ المذكور بمحضر قائد السجن، حرره (جوان منديش).

(و.2.و)في اليوم الثاني والعشرين من شهر ماي، من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين بيابرة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، وخلال الجلسة التي يرأسها كالعادة الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، المحقق الديني بأسقفية يابرة هذه، ومقاطعتها...الخ، أمر بإحضار (آنة فرنانديش)، المورسكية الحبيسة بسجن هذه المؤسسة المقدسة. ولما مثلت أمامه أمرها بالقسم بالأناجيل المقدسة التي لمستها بيدها ووعدت بقول الحق. وبعد ذلك سألها السيد المفتش عن اسمها وسنها وأصلها ومحل سكناها، وعما إذا كانت عبدة أم حرة. قالت: إنها تسمى (آنة فرنانديش دوميلو)، وإن سنها كما يتجلى من مظهرها هو ستون سنة تقريبا.

وذكرت أن أصلها من ناحية آسفي، من مكان يعرف بالمدينة،[2] وأنها عاشت بلشبونة

---

(1) عملة نحاسية سكها البرتغال بعد احتلال المدينة المغربية سنة 1415.

(2)هي «المدينة الغربية» أو «مدينة دكالة» التي كانت حتى بداية القرن السادس عشر من أكبر مدن دكالة، والتي تسرب اليها الخراب بسبب الحروب التي أشعلها البرتغاليون بالمنطقة بعد احتلالهم لأسفي (1508) وأزمور (1513)، وبسبب المجاعة الكبرى التي عرفتها المنطقة سنة 1521 ووباء الطاعون الذي تلاها .

الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1. ص 120

كربخال مارمون، **افريقيا**. ج2. ص 100

ما يفوق العشرين سنة، وأنها تعيش بهذه المدينة، يابرة، منذ سنتين. وذكرت أنها حرة، كانت متزوجة وأصبحت أرملة، وأن زوجها كان يسمى (ديغو فرنانديش Diogo Fernandes) الذي كان موركسيا وافته المنية، ومنه رزقت بنتا تسمى (إزبيل رودريغش Isabel Rodrigues)، وهي متزوجة مع شاب أبيض يدعي[1] أنه من أصل نصراني، مهنته حلاق، ويسكن بـ (Covillan).

وسئلت عما إذا كان لها أخ أو أخت (بالبرتغال). أجابت أن لها أختا بلشبونة تسمى (مريا رودريغش) متزوجة مع (جوان دو باجة Joáo de Beja)، عبد الملكة سيدتنا، وهو مورسكي يعتني بتحركات وتنقلات سموها. وذكرت أنه ليس لها غيرها، وأن أختها المذكورة بدون ذرية.

سئلت عما إذا سبق لها أن سجنت أو عوقبت هي أو أحد أقاربها على يد محكمة التفتيش المقدسة. قالت إن اختها السالفة الذكر (مريا رودريغش) (و،2.ظ) حبست من طرف محكمة التفتيش المقدسة بلشبونة، وأطلق سراحها على أن تبقى مرتدية لباس التوبة[2]، وذلك حسب تقديرها قبل ثلاث سنوات تقريبا، وأن زوجها تم كذلك تسليمه للقضاء المدني[3]، وكان يسمى (كرشتفاو فرننديش Cristovão Fernandes) وأنها (آنة دوميلو) لم يسبق لها قبل اليوم أن سجنت من قبل محكمة التفتيش المقدسة، وأنها لا تعرف أي قريب سبق حبسه باستثناء أحد أقارب أبيها الذي سجن من طرف محكمة التفتيش المقدسة، وأطلق سراحه بلشبونة خلال السنة الماضية، والذي كان يسمى (جوا سلغادوJoão Salgado). سئلت عما إذا كانت مسيحية معمدة، وعن اسم الذي أشرف على تنصيرها، وعن أسماء آباء المعمودية، وعما إذا كانت قد أكدت تنصيرها، وعلى يد من ، وفي أي مكان، ومن هم الشهداء على ذلك،وما هو إسمها الأصلي؟

قالت: نعم إنها نصرانية توصلت بالمعمودية والإسم المسيحي بدير سان بينتو (S. Bento) الذي يوجد خارج هذه المدينة، وذلك نظرا لكونها كانت آنذاك بذلك الموضع صحبة الراهبات، وأنها لا تعرف اسم الراهب الذي أشرف على تنصيرها نظرا لطول

(1) يلمس من هذه الجملة شك الكاتب في كون من قبل الزواج ببنت امرأة متنصرة من أصل نصراني حقيقة. ويتجلى من خلال هذه المحاضر معاناة المغاربة كذلك من الميز العنصري.

(2) لباس خاص بالذين حوكموا من طرف محاكم التفتيش يميزهم عن باقي السكان قصد إحكام مراقبتهم.

(3) أي أنه اعدم، وهي صيغة تسمح للكنيسة التي هي مبدنيا ضد القتل بالحكم بالإعدام اعتمادا على المحاكم المدنية، وكان هذا يعني الإحراق.

المدة. وكانت أم التعميد مولدة اسمها فرنسيشكا تريغا (Francisco Tourega) توجد على قيد الحياة. (وقالت) إنها تجهل اسم الأسقف الذي أشرف على تأكيد تنصيرها ببيت روي دوميلو (Rui de Melo). وكانت الشاهدة على ذلك فرنسيشكا دا سيلفا (F. da Silva)، المورسكية التي توجد في ملكية (روي دوميلو). وكان الشاهد على ذلك رجل يشرف على كنيسة نسيت اسمه[1].

سئلت عما إذا كانت تعترف بذنوبها وتتناول القربان وقت الصوم الكبير من كل سنة، وعما إذا كانت تسمع القداس (و3. و.) والوعظ أيام الأحد والأعياد.

قالت : إنها تعترف في كل سنة بخطاياها خلال الصوم الكبير وتتناول القربان وتسمع القداس والوعظ في الآحاد والأيام المقدسة.

وبما أنها تقول إنها نصرانية، فقد طلب منها بالطبع أن تقوم برشم الصليب وأن تحمد الإله وأن تقول الصلوات المسيحية.

قامت (آنة دوميلو) السالفة الذكر برشم الصليب، ولكنها عجزت عن ترتيل الصلوات وعن رشم الصليب كما يجب، ورددت صلاة 4) و (آف مريا) و(Credo) ووصايا دين الله كما يجب .أ ما صلاة (Salve Regina) فإنها تجهلها.

سئلت عما إذا كانت تعلم أو تتكهن سبب اعتقالها بسجن محكمة التفتيش هذه.

قالت يبدو لها أنها متعلقة بسبب أنه لما توفي زوجها حضرت إلى جانب عدد من المورسكيين والمسيحيين عشاء أعده أخو زوجها، ولكنها خلال ذلك العشاء لم تقم بأي شيء مما يقوم به المسلمون.. قيل لها إنها رهن الاعتقال بهذه المحكمة المقدسة بسبب اقترافها جرائم تستحق عليها ذلك. ومع ذلك، توسل إليها (المحقق) بمولانا السيد المسيح، وبأمه المقدسة، أن تعترف اعترافا شاملا بكل خطاياها، وبكل ما تعرفه عن نفسها وعن غيرها، لأنه بفعلها هذا، ستستفيد من الرحمة والشفقة التي تخص بها الأم المقدسة الكنيسة المعترفين والتائبين الحقيقيين. وعلى العكس من ذلك، فإنها إذا ما استمرت على عنادها وسلبيتها، ستعامل بالصرامة التي ينص عليها القانون (و.3ظ). وعبرت (آنة دوميلو) المذكورة عن رغبتها في التفكير في أمورها، ووعدت بقول كل ما ستتذكره، الشيء الذي حبذه السيد المحقق، وأمر بإرجاعها إلى

(1) يلاحظ أنها نسيت ذكر إسمها الاسلامي. وجاء في محاضر أخرى بعض الأسماء كعائشة، عزيزة، فاطمة، وسعيد ،وعبد الله، ومبارك، وأحمد ومحمد، و عبد الله...

زنزانتها.

وطلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، الإمضاء هنا عوضا عنها لكونها لا تستطيع ذلك.

وأمضيت إلى جانب السيد المفتش المذكور.

حرره (جوان منديش) الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة مع الخط المتعلق بـ (a) والتشطيب المتعلق بـ (فرنانديش) الذي لم يكن من أجل التزوير.

- أنطونيوش دكتور.

- جوان منديش.

*****

وبعد هذا، وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، وخلال الجلسات التي يرأسها السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، المتفش...الخ، أمر بإحضار (آنة دوميلو) الموركسية التي تخصها هذه المحاضر، وذلك نظرا لكون قائد السجن ذكر أنها ترجو ذلك. ولما مثلت أمامه أمرها بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق.

وبعد ذلك قالت: إنها لما كانت بلشبونة خلال المدة التي ذكرت أنها كانت تسكن هناك، قالت لها أختها (مريا رودريغش) التي أشارت إليها سابقا إن زوجها كْرِشْتَفاوْ فرنانديش يريد أن يصحبها معه من لشبونة إلى بلاد المسلمين[1]، وأنها لا ترغب في ذلك، وأن زوجها السابق الذكر اعتقل من طرف محكمة التفتيش بلشبونة، وتم تسليمه للمحاكم المدنية (و. 4.و). كما اعتقلوا أختها (مريا رودريغش) وأطلق سراحها بعد ذلك شريطة أن ترتدي لباس التوبة بعد أن ردت إلى الكنيسة الكاثوليكية. ولم تقل غير هذا، نظرا لكونها لم تتذكر غيره، وقالت انها مسيحية صادقة.

وآنذاك أمرت بالعودة إلى زنزانتها. وطلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أمضي نيابة عنها، الشيء الذي قمت به نظرا لكونها لا تستطيع ذلك، وأمضيت إلى جانب السيد المتفش المذكور.

وحرره (جوان منديش)، مع التشطيب المتعلق بـ (منديش).

(1) أي المغرب.

وبعد هذا، وفي اليوم السادس والعشرين من ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (انطونيو دو كاشترو)، المحقق... الخ، أمر بإحضار (آنة دوميلو) المذكورة، والمورسكية التي تتعلق بها هذه المحاضر، وذلك نظرا لكون قائد السجن ذكر أنها ترجو ذلك. ولما مثلت أمامه أمرت بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق. وفور ذلك قالت بأنه منذ ثلاث سنوات، أقول ست سنوات، لما كانت هي (آنة دوميلو) بلشبونة، توفي زوجها (ديغو فرنانديش)، المورسكي، فبكته المصرحة وناحت عليه كمسلمة، وعلى طريقة المسلمين، مبعثرة شعرها، وخادشة خديها، ومتوسلة في شأن روح وجسد زوجها المذكور إلى محمد والى سيدي أبي العباس السبتي[1] وإلى مولاي علي[2] الذين يعتبرهم المسلمون أولياء لكي (و.4 ظ) يكونوا مع روحه وجسده. وأن ذلك فعلته كمسلمة وبنية من هو مسلم، معتقدة أن ذلك سيفيده، وأنه من الأحسن أن تفعل وأن تقول كذلك لفائدة

روح زوجها المذكور. (وذكرت) انه بعد موت (ديغو فرنانديش) المذكور بحوالي ثلاثة أسابيع، تصدق أخو زوجها المذكور، الذي كان يسمى ميغل دو سنتوش (Miguel de Santos) والذي وافته المنية، تصدق بمدينة لشبونة المذكورة بعشاء على طريقة المسلمين. وقدم ذلك العشاء بدار مورسكي من لشبونة، حر ومتزوج كان يسكن بباب البحر، وغادر لشبونة لمكان تجهله. واستدعيت (آنة دوميلو) لذلك العشاء من طرف أخي زوجها، وذلك لطبخه على طريقة المسلمين، ووجدت بتلك الدار خروفا مذبوحا، ولكنها لا تعرف من ذبحه، ولا ما إذا تم ذبحه على طريقة المسلمين. ومن لحمه حضرت (آنة دوميلو) نفسها كسكسا أكلوه. وعند الشروع في الأكل قالت (آنة دوميلو) وباقي المسلمين المتنصرين الذين ستذكرهم أسفله : باسم الله، أي ما معناه[3] وذكرت أنها تجهل ما إذا قال باقي المسلمين المتنصرين : «باسم الله» لأنها لم تأكل معهم على نفس المائدة لكونها كانت منهمكة في تحضير الأكل، ولكنها قالت «باسم الله» حينما شرعت في الأكل. وكان المورسكيون الذين علمت بهم (و.5 و) وعاينت أنهم تعشوا هناك هم الآتية أسماؤهم: (مغيل دو سَنْتُوشْ) المذكور الذي توفي، وهو

(1) في النص الأصلي ، Cid belabez ceti، وهو غني عن التعريف.

(2) في النص الأصلي ، Molei Halee وهو من سبعة رجال مراكش.وجاء في محضر آخر أنه «فارس محمد»، ولعل الاشارة هنا تقصد عليا بن أبي طالب.

(3) أورد الكاتب الترجمة البرتغالية للبسملة

أخو زوجها السالف الذكر، و(أنطونيو فرنانديش) و(مريا فرنانديش)، زوجته، وهما موركسيان حران، وهما اللذان تم العشاء في بيتهما. وكما سبق أن ذكرت، لا تعرف أين ذهبا وإن سمعت أنهما التحقا بقشتالة. وتعشى كذلك هناك ابن لـ (أنطونيو فرنانديش) و(مريا فرنانديش) المسمى (لويش Luís)، والذي قد يكون سنه تسع أو عشر سنوات تقريبا. ورأت كذلك في ذلك اليوم (غيومار رودريغش فرا غوزا -Frago sa) المورسكية المعتقلة بهذا السجن، رأتها تدخل ولكنها لا تعرف ما إذا كانت قد أكلت أم لا. كما دخل كذلك مورسكيون آخرون من لشبونة لا تعرفهم، ولا تتذكرهم. وطلب منها أخو زوجها المذكور تحضير ما سبق ذكره كمسلمة، وبنية من هو مسلم. ولا تتذكر الآن غير هذا، ولكنها ستذكر كل ما ستتذكره. وبما أنها لا تستطيع أن تمضي، فقد طلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أقوم بذلك هنا نيابة عنها. وأمضيت إلى جانب السيد المفتش المذكور، الذي طلبت منه أن يشفق عليها. وحررت هذا، أنا جوان منديش، الكاتب بالمحكمة المقدسة.

- أنطونيوش دكتور.

- جوان منديش

وبعد هذا، في اليوم التاسع والعشرين من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد المحقق الدكتور (أنطونيو دوكاشترو) (و.5 ظ) الخ. أمر بإحضار (آنة دوميلو) المورسكية السابقة الذكر، التي تتعلق بها المحاضر السالفة، وذلك نظرا لكون قائد السجن ذكر أنها ترجو ذلك. ولما مثلت أمامه أمرت بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق. وفور ذلك، ذكرت أنها نفسها لما كانت بلشبونة منذ ما يقرب من سبع سنوات حسب تقديرها، وكان ذلك قبل وفاة (دييغو فرنانديش) المورسكي، زوج المعترفة، توفي كذلك هنا، بلشبونة، مورسكي لا تعرف اسمه لكونهم كانوا لا ينادونه إلا «بالقائد»، و كان في ملكية(فْرْنَاوْ أَلْفْرِيشْ دُو بُرْتُغَالْ) وكان زوج مورسكية حرة كانت من قبل عبدة آل (كمويش Camões) وتسمى لويزا دوكمويش (Luisa Camões)، والتي كانت آنذاك بلشبونة، وبسبب موت زوجها التحقت بهذه المدينة، يابرة، حيث تسكن أسرة (كمويش) عند مدخل شارع الأمراء. وعندما توفي بلشبونة المورسكي المذكور المكنى بالقائد، زوج

(لُويزَا دُوكَمُويْش) المذكورة، التقتا بالقنطرة[1] حيث ذهبتا للنهر من أجل الغسيل، وهناك قامتا بـ "الدماع"(Adimaa)، الذي هو النواح الذي يقوم به المسلمون كلما توفي أحدهم.

وناحت المعترفة و(لويزا كمويش) على المورسكي، «القائد» زوج (لويزا دوكمويش) المتوفى، وبعثرتا شعرهما، وخدشتا خديهما كما يفعل المسلمون. وقامت المعترفة بذلك كما لو كانت مسلمة، ويبدو لها أن (لويزا دوكمويش) المذكورة فعلت ذلك بنفس النية، نظرا لكونها ناحت وخدشت خديها كما يفعل المسلمون، وكما فعلت المعترفة. وصادف ذلك النواح والخدش حضور ومشاركة (مَرِيَا فْرَنَانْدِيشْ)، و(إزبيل سْوَاَرِشْ) و(فْرَانْسِيشْكَا دَا سِلْيفَا) المورسكيات اللواتي التحقن بقشتالة، واللواتي تجهل مكان وجودهن، واللواتي حضرن كذلك العشاء الذي تكلمت عنه المعترفة سابقا، وكذلك العشاء الذي أعده (ميغل سانتوش)، المورسكي، ترحما على (دييغو فْرْنَانْديش)، أخيه وزوج المعترفة. ونظرا لموت زوجها السابق الذكر، استدعت كذلك (لوِيزَا دُو كمويش) المذكورة المعترفة لحضور عشاء كانت تنوي إعداده (لويزا دو كمويش) المذكورة ترحما على زوجها، وذلك على الطريقة التي يعده بها المسلمون. ولكن المعترفة وعدتها بالحضور إذا ما أمكنها ذلك، ولم تستطع الذهاب إلى ذلك العشاء (في الوقت المحدد) بسبب زوجها (دييغو فرنانديش) المذكور، ووصلت متأخرة فألفتهم قد انتهوا من الأكل، ووجدت (لويزا دوكمويش) المذكورة صحبة المورسكيات المذكورات أعلاه، واللواتي التحقن بقشتالة، وأخريات لا تتذكرهن.

وأضافت أن (لويزا دو كمويش) المذكورة، حينما التقت بها المعترفة بالنهر، رأتها وسمعتها تستغيث بسيدي أبي العباس السبتي لكي يساعدها فيما تتمناه، معتبرة إياه وليا. وكانت تتوسل كذلك إلى محمد، وتقول إن دين المسلمين أفضل من دين النصارى، الشيء الذي قالته كذلك (آنة دو ميلو) نفسها وهي تتوسل إلى محمد (و 6 ظ) وإلى سيدي أبي العباس السبتي لكي يساعداها في ما صعب عليها، معتبرة إياهما وليين. ورجت عن كل هذا المغفرة والشفقة، مؤكدة أنها ستصلح نفسها. وذكرت أنها الآن لا تتذكر شيئا غير هذا، وأنها ستقول كل ما ستتذكره. ولم تقل شيئا عن علاقتها بالمبلغ بهم، وذكرت أنها لا تريد شرا لأي واحد منهم .

وبما أنها لا تستطيع الإمضاء، فقد طلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أوقع هنا عوضا عنها. وأمضيت إلى جانب السيد المحقق المذكور.

(1) حي بلشبونة، قرب الميناء

وحرر هذا جوان منديش، الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة.

- أنطونيوش دكتور

- جوان منديش

قبل المحامي المراقب[1] بالمؤسسة المقدسة باسم العدالة اعترافات المتهمة، على الأقل فيما يجعل منها متهمة.

- جرونموش دو بيدروزو Jerónimos de Pedroso

****

يابرة، في اليوم الخامس من يونيو من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة ، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة المحقق الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)... الخ، أمر باحضار (آنة دو ميلو) المذكورة نظرا لكون قائد السجن ذكر أنها ترجو ذلك. ولما مثلت أمامه، (.و 7 و) أمرت بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق. وبذلك ذكرت أنها تتذكر أشياء أخرى، وأنه بعد مدة طويلة من مغادرة الملك رحمه الله لمدينة يابرة بعد إقامته الأخيرة بها، استدعت (إزبيلا كريا Isabela Correa) زوجة (جِرُنِمُو كريا Jerónimo Correa)، التي توجد رهن الاعتقال بسجن محكمة التفتيش هذه، استدعت في أحد الأيام المعترفة لكي ترافقها إلى تريگيلاTorreguela( ) بمقاطعة هذه المدينة، من أجل الفسحة وتناول الطعام هناك. وذهبت المتهمة للقائها بـ (تريگيلا) حيث وجدت إلى جانب (ازبيلا كريا) (جوانا منديش Joana Mendes) الموريسكية التي كانت في ملكية (منديل منديش)، والتي توجد رهن الاعتقال بسجن محكمة التفتيش هذه، وكذا (مرغريدا داسلفا Margarida da Silva) الموريسكية، زوجة (فرنسيشكو دياشFrancisco Dias) التي كانت بدورها بسجن محكمة التفتيش هذه، (ومريا منديش) الموريسكية الأرملة الحبيسة بنفس السجن، و(غرسيا فرنانديش Garcia Fernandes) الموريسكية المعتقلة كذلك بنفس السجن، و(أوبيل فرنانديش) الموريسكية كذلك، زوجة (جوا فرنانديش João Fernandes) المعتقل بنفس السجن، وقد جلست كل هؤلاء الموريسكيات على الأرض، الشيء الذي قامت به (إزبيلا كريا) المذكورة، والمعترفة، وأكلن جميعا. وعند الشروع في الأكل قلن جميعا، «باسم الله»، أي ما معناه[2]، وبعد الأكل عادت

(1) مهمة هذا القاضي شبيهة بمهمة وكيل النيابة.

(2) أورد الكاتب الترجمة البرتغالية.

كل واحدة إلى بيتها. وقالت المعترفة الكلمة المذكورة (كذا) «باسم الله» كما لو كانت مسلمة. وتعتقد أن الأخريات كان عليهن أن يقلن كذلك بنفس تلك النية. وهي الآن لا تتذكر غيرهذا، ولكنها ستذكر كل ما ستتذكره (و. 7 ظ). وكعادتها ذكرت أنها لا تريد أي ضرر لأية واحدة من المورسكيات المذكورات أعلاه، ورجت العفو. وطلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أمضي هنا نيابة عنها لأنها لا تستطيع التوقيع، وأمضيت إلى جانب السيد المحقق.

حرره (جوان منديش)

- أنطونيوش دكتور.

- جوان منديش.

****

وبعد هذا، وفي اليوم التاسع من شهر يونيو، من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، وبقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة. وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد المحقق الدكتور (أنطونيو دوكاشترو) ... إلخ، أمر بإحضار (آنة دوميلو)، المسلمة المورسكية التي تتعلق بها هذه المحاضر السابقة، وذلك نظرا لكون قائد السجن ذكر أنها ترجو ذلك.

ولما حضرت لكي ترضي ضميرها كما ادعت ذلك، أمرها بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق. وفور ذلك ذكرت (آنة دوميلو) المورسكية المذكورة أنها بالإضافة إلى ما صرحت به، تتذكر أنها منذ توصلها بالماء المقدس للمعمودية، وإلى حين اعتقالها من طرف محكمة التفتيش المقدسة، كانت دوما مسلمة، وآمنت باستمرار بدين محمد، إذ كانت تستغيث به وبسيدي أبي العباس السبتي، وتتوسل إليهما، وكذا إلى مولاي علي اللذين يعتبرهما المسلمون وليين من أولياء محمد. وكانت تقول وقت أكلها ونومها وقيامها: «باسم الله» كما يفعل المسلمون، رافعة يديها المفتوحتين نحو السماء، وذلك على طريقة المسلمين. وكانت تقول كلما تجشأت: «الحمد لله، محمد رسول الله»،[1] أي ما معناه: «أتوسل إلى الله، أوأطلب من الله أن يعينني، ومحمد هو خادمه»[2].

---

(1) Alandrulaa, Mafoma Lacorolaa

(2) تكثر بالمحاضر الترجمات الخاطئة للعبارات التي نطق بها المتهمون أمام المحكمة.

وكانت تقول كذلك : «الله أكبر»[1] كلما اصطدمت بشيء أو حدث لها شيء آخر، أي ما معناه :" الله أكبر، الله يرعاني ويساعدني". ومن جهة أخرى، صامت المعترفة لعدة مرات صوم رمضان الذي هو صوم المسلمين، وكانت لا تأكل طول (و.8و) اليوم ولو لقمة واحدة ما عدا خلال الليل، بعد بروز النجوم. وآنذاك كانت تأكل حتى تشبع كما يفعل المسلمون. ورغم أنها صامت عدة مرات صيام رمضان المذكور، فانها لم تكمل أبدا الثلاثين يوما المتتالية التي تكون صيام رمضان الإسلامي. وكانت تصوم فقط خمسة عشر يوما تقريبا. وذكرت (آنة دوميلو) أنها كانت كذلك ترغب في الامتناع عن العمل خلال أيام الجمعة، وذلك كما يفعل المسلمون، إلا أنها كانت تشتغل خلال ذلك اليوم لكونها كانت تعيش مع أشخاص آخرين[2].

وهكذا كانت تشتغل من يوم الإثنين إلى يوم السبت. وبعد أن أصبحت حرة بقيت تعمل يوم الجمعة كذلك حتى تضمن قوتها، ولكنها كانت تتمنى أن تمتنع عن ذلك كما سبق ذكره، (وذلك) بنية من هو مسلم.

سئلت عما إذا كانت تمتنع عن العمل خلال عيد من أعياد المسلمين، أي «العيد الصغير»[3]، «وعيد الكبش»[4] و[5] وغيرهما من الأعياد والحفلات الإسلامية، وطلب منها أن تقول الحق. قالت (آنة دوميلو) المذكورة إنها لا تمتنع عن العمل في أي عيد من أعياد المسلمين لكونها لا تعرف تواريخ الاحتفال بها، وإنها لم تقم بطقس ديني غير ما ذكرت لكونها تجهلها بسبب انتمائها للأعراب الذين يعيشون بالبوادي[6] وأضافت أنها تتذكر كذلك أن (مسيا دو ميلو Mocia de Melo) الموركسي الذي

(1) Aloa quibir

(2) أي أنها كانت عبدة وتعيش ببيت سيدها.

(3) Pascoa dalguice guea، وهو عيد الفطر.

(4) Pascoa do carneiro، وهو عيد الاضحى

(5) a do corpo مشطب عليها.

(6) حاول عدد من المحاكمين الدكاليين التهرب من التهم المنسوبة اليهم بتقديم هذه الحجة ،مؤكدين على الفرق بين الحضريين والأعراب في القيام بالفرائض. وذكرت امرأة أنها لا تصلي لكون النساء لا يقمن بذلك.

كان عبدا لـ (سيماو دوميلو Simão de Melo) ورفيقته (مريا منديش)، الموركسية كذلك، اللذين يعيشان بلشبونة، بشارع الأكياس، وكذا (بيرو دا الميدا Pedro d'Almeda)، المورسكي الحر الذي كان من قبل عبدا لـ (دون بيدرو دا ألميدا) وزوجته (جوانة فرنانديش)، هي الأخرى مورسكية تذري القمح بسوق الحبوب بلشبونة، واللذين يعيشان معا بشارع الأكياس المذكور بنفس دور (دون بيدرو)، وكذا (جوا غونسلفيش João Gonçalvez)، المورسكي الذي كان عبد (دوق أفيرو) وزوجته (مدنيلا رودريغش (Madanella Rodrigues) المورسكية الحرة الساكنين بجانب دير (سنتا كترينا Santa cat-arina) بلشبونة، من الجهة الداخلية لشارع أكتوبر [1] على مقربة كذلك من دور (دون بيدرو) المذكور، و(مرغريدا)، المورسكية الحرة التي كانت في ملكية (بيدرو دا فونسيكا)، والتي كانت متزوجة مع مورسكي كان عبد دوق (براغنصا)،[2] والتي هي الآن أرملة وتعيش بدار متصلة بكنيسة (سان إزان Sán Isan) بـ «الحمة»[3] بلشبونة، استدعت المعترفة كل أولئك المورسكيين لحضور العشاء الذي تكلمت عنه سابقا، والذي أعدته المعترفة بلشبونة.

وتعشى كل أولئك المورسكيين، وفي بداية الأكل قال الجميع: «باسم الله». وعند نهايته توسلت المعترفة والسابقو الذكر (و. 8 ظ) إلى محمد وإلى سيدي أبي العباس السبتي، وكذا إلى مولاي علي من أجل رحمة زوجها المذكور، وتأسفوا عليه هناك جميعا، وبكوه على طريقة المسلمين. وصرحت أن أخا زوجها (ميغل دو سنتوش)، المورسكي، أمر بإعداد العشاء المذكور ترحما على زوج المعترفة نفسها الذي هو أخوه. وهو الذي نادى المعترفة لكي تذهب لطبخ العشاء، وقد ذكرت أنها ذهبت فعلا.

---

(1) كلمة غير واضحة بالوثيقة، لذا فقراءتها غير مؤكدة.

(2) نسبة إلى مدينة (برغانصة Bragança) بالشمال البرتغالي. من أمجد الأسر البرتغالية وأقواها في ظل حكم أسرة (أفيش) التي وصلت إلى السلطة بعد ثورة 1383 الشعبية. و تم احتلال مدينة أزمور على يد (دوق برغانصة).

(3) يعتبر اليوم من أشهر أحياء لشبونة، ويمتاز بأزقته الضيقة والملتوية. وكان خاصا بيهود العاصمة، والكلمة عربية الأصل عرفت تحويرا في النطق والإملاء.

وبذلك تعشى الأشخاص الذين أعطت المعترفة أسماءهم بتفصيل في هذا الاعتراف، وهم الذين استدعتهم للعشاء المذكور كما صرحت بذلك أعلاه. وذكرت أيضا أنه بعد موت (ديبغو فرنانديش)، زوجها هي (آنة دوميلو)، بما يقرب من خمس سنوات، سألتها وعرضت عليها (مَريَا دَا سِيلْفَا)، الموركسية الحرة والمتزوجة مع (ديبغو دا أبرانش Diogo d'Abranches)، الموركسي الذي كان عبد الأمير (دون لويش Dom Luís) رحمه الله، والذي يذري القمح بسوق لشبونة، واللذين كانا يسكنان بإسطبل نفس الأمير، سألتها واقترحت عليها الذهاب معها ومع زورجها إلى بلاد المسلمين لكي تعودا هناك مسلمتين، ولكن المعترفة رفضت ذلك.

كما صرحت أن (مريا دا سيلفا) المذكورة قالت لها ذلك منذ خمس سنوات تقريبا، وأن زوجها (ديبغو فرننديش) توفي منذ ما يقرب من سبع سنوات، وأنه كذلك منذ ثلاث سنوات قالت لها (كترينا دوسا[1] Catarina de Eça) الموركسية الحرة والمتزوجة التي لا تعرف اسم زوجها الموركسي الذي يعيش بلشبونة، بالمدارس العامة، قالت لها إنها تنتظر الوقت الذي ستتمكن فيه من الذهاب إلى بلاد الإسلام، والذي تعثر فيه على من يقبل مرافقتها وزوجها إلى هناك لتعود هي وزوجها إلى الاسلام. ولم تقل شيئا عن علاقتها بمن ذكرت، ورجت المغفرة والعفو عن خطاياها، وقالت إنها لا تريد أي ضرر لأي واحد من الأشخاص الذين بلغت بهم. وطلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أوقع هنا نيابة عنها لكونها لا تستطيع ذلك، وأمضيت إلى جانب السيد المحقق.

وحرره (جوان منديش)، مع التشطيب الذي يتعلق بـ (؟) والتعديل المتعلق بـ (Com)

- أنطونيوش دكتور.

****

قبل المحامي المراقب نيابة عن العدالة اعترافات المتهمة، على الأقل في ما يجعل منها متهمة.

- جرونيموش دو بدروزا Jerónimos de Pedrosa

---

(1) ورد بعدد من محاضر محكمة لشبونة أن هذه السيدة كانت من أكثر المغاربة المقيمين بالعاصمة البرتغالية اصرارا على العودة إلى بلادها. وقامت بعدة اتصالات وادت عدة مرات مبالغ لبعض البحارة البرتغاليين المتخصصين في نقل المغاربة - سريا - إلى موانئ المغرب.

(و.9 و) وبعد هذا، وفي اليوم التاسع عشر من شهر يونيو من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين بيابرة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، المحقق...الخ مثل أمامه المجاز (جرونيمو دو بيدروزا) المحامي المراقب بمحكمة التفتيش المقدسة، وذكر أنه تأمل النازلة، وألفى العدالة تقبل اعترافات المتهمة، وطلب من سماحته أن تأمر بالحاق الخطايا المنسوبة لـ (آنة دو ميلو) المذكورة بمحضرها، وأن توجه إليه للاطلاع عليها ليتمكن من المرافعة النهائية، الشيء الذي أمر السيد المحقق المذكور بالقيام به وبتسليمه إلى المحامي المراقب المذكور لكي يرافع في نهاية الأمر، وذلك نزولا عند رغبته. وتنفيذا لذلك، أضفت، أنا الكاتب، لهذا المحضر، الخطايا المذكورة التي تأتي أسفله بالتتالي.

وحرره جوان منديش.

****

(و.10 و) الخطايا المنسوبة لـ (آنة فرنانديش دوميلو)، الموركسية

في اليوم الثالث عشر من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة حيث كان موجودا السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو) المحقق... الخ مثل أمامه المجاز (جرمينو دو بيدروزا) من المستشارين القضائيين لمولانا الأمير الكردنال،[1]، والمحامي المراقب بمحكمة التفتيش المقدسة، وطلب من السيد المذكور أن يأمر بإلقاء القبض على مورسكية تسمى (آنة فرنانديش) كانت عبدة (روي دوميلو) الساكن بهذه المدينة، يابرة، نظرا لكثرة ما تنسبه محكمة التفتيش المقدسة لها من ذنوب تستوجب اعتقالها، ويتمنى إحالتها على المحكمة. ولهذا يرجو ويلتمس من سيادته تنفيذا شاملا للعدالة. وذكر السيد المحقق المذكور أنه وافق على ما رجاه والتمسه لكونه لا يخالف القانون، وأمر بإطلاعه على الخطايا المنسوبة لـ (آنة فرنانديش) الموركسية المذكورة.

1) دون هنري (1522 ـ 1580)، ابن الملك (امنويل)، وهو لذلك أخو الملك (جوا الثالث). تم تعيينه في 22 يونيه 1539 مشرفا على كل محاكم التفتيش الدينية البرتغالية. وهو الذي خلف (دون سبستيان) بعد موته بالمغرب (1578 ـ 1580).

وبعد الإطلاع عليها، ونظرا لكونها بدت له كافية، فإنه أمر بنسخها لكي تبرر اعتقال (آنة فرنانديش) الموريسكية المذكورة. وتنفيذا لذلك، نسخت أنا، (جوان منديش)، الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة، هنا خطايا (آنة فرنانديش)، الموريسكية المذكورة، تلك الخطايا التي ستأتي أسفله بالتتالي.

وحرره (جوان منديش)، الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة.

****

شهادة (مريا نونش)، الموريسكية الحرة الساكنة بهذه المدينة، يابرة، المعتقلة بسجن محكمة التفتيش هذه، ضد (آنة فرنانديش دوميلو) الموريسكية المعتقلة كذلك بالسجن المذكور، هذه الشهادة التي توجد ضمن اعترافات (مريا نونش) المذكورة، بالورقتين: 3 و4.

وبعد هذا، وفي اليوم الثلاثين من شهر مارس من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، وبعد حضور السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، المحقق...الخ، مثل أمامه (أنطونيو فرنانديش)، قائد السجن، وأخبر السيد المحقق أن (مريا نونش)، الموريسكية المعتقلة بهذا السجن، ترجو المثول أمامه. وفور ذلك أمر السيد المحقق المذكور بإحضارها. ولما حضرت سألها عما إذا كانت قد طلبت ذلك، فأجابت أنها فعلت ذلك لرغبتها في إرضاء ضميرها بقول أشياء تذكرتها. وفور ذلك أمرها السيد المحقق بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق. قالت: إنه قبل أربع عشرة سنة أو خمس عشرة، ومن ذلك الوقت إلى الآن، أقول من ذلك الوقت إلى الأربع سنوات الأخيرة، كانت (مريا نونش)، وفلان (كذا)، [1] وبعض الموريسكيات، وكذا موريسكية أخرى تسمى (آنة دوميلو) (و 10 ظ) التي كانت عبدة (روي دوميلو) رحمه الله، وكذا أخرى تسمى فلانة، تسكن بالمكان الفلاني، وأيضا فلان وفلانة الموريسكية، عبدة فلان، وذكرت أن (آنة دوميلو) المذكورة تسكن مع فلانة الموريسكية المذكورة، وأنها كانت لها معهن جميعا، ومع كل واحدة منهن محادثات وصداقة. فكلما مرت بالشارع والتقت مع كل واحدة منهن تحدثن في ملة محمد، وتوسلن إلى سيدي أبي العباس السبتي، أحد

---

(1) طريقة كي لا يفصح الكاتب عن إسم المبلغ أو ما يمكن أن يشير إليه، والجدير بالذكر أن هذه التبليغات منقولة من محاضر محاكمة المبلغين، لذا يحيل الكاتب أحيانا على صفحاتها.

أوليـاء المسلمين، وتوسلن إلى محـمـد، وأن المورسكيـات المذكـورات كن يعتـبرن أبا العباس السبتي و محمد وليين، وأن (مريا نونش) كانت تتوسل إلى محمد وسيدي أبي العباس السبتي كما لو كانت مسلمة، وأنها تعتبر أنهما قادران على مساعدتها في كل أمورها، وادعت أن الخطيئة أضلتها، وأنها قامت بهذا عدة مرات من الوقت الذي ذكرته إلى الآن، وأنها كذلك كانت كلما أكلت أو انتهت من ذلك تقوم بطقوس إسلامية، قائلة «باسم الله»، «والحمد لله».[1] كما يفعل المسلمون، وقالت أيضا ذلك بعض المورسكيات من الوقت المذكور إلى الآن. وكانت تلك المورسكيات ، وكذا فلانة و (مريا نونش)، كن يذهبن في بعض المرات إلى بيت (البارون) حيث تقيم فلانة وفلانة صحبة زوجيهما فلان وفلان، وهناك كانوا يتوسلون جميعا إلى محمد وإلى سيدي أبي العباس السبتي. وكانوا يتوسلون كلما أرادوا الجلوس أو الوقوف كما سبق ذكره. وكانت (مريا نونش) بدورها تفعل كذلك بنية من هو مسلم دون أن يمنعها عن ذلك كونها توصلت بماء المعمودية المقدس.

سئلت عما إذا قاموا بطقوس أخرى من ملة محمد، وعما إذا قالوا إنها أفضل من دين النصارى لأنه توجد معلومات تثبت أنها قالت وفعلت أمورا أخرى بالإضافة إلى ما ذكرت ضد ديننا المسيحي المقدس، وطلب منها قول الحق لأن قوله الآن سيفيدها أكثر مما لو قالته بعد ذلك، و توسل إليها بسيدنا المسيح وبأمه المقدسة جدا أن تقول الحقيقة كلها، لأنه بفعل ذلك ستمنح لها الرحمة التي تضمنها الكنيسة الكاثوليكية للمعترفين الحقيقيين، وبالسكوت عنها، وبإخفائها، ستعرض للصرامة التي ينص عليها القانون.

(و.11 و.)، وبعد ذلك مباشرة ذكرت (مريا نونش) المذكورة أنه أيضا بدار البارون المذكورة قام بالشعائر الدينية (الإسلامية) كل الذين سبق ذكرهم، وقالوا إن ملة محمد أفضل من دين النصارى، ولم تعارض ذلك القول، بل على العكس، كان يعجبها أن تسمع ذلك، ولكنها الآن تتأسف كثيرا لكونها فعلت وقالت ما سبق ذكره، ولكونها آمنت بملة محمد. ورجت المغفرة عن كل هذا لأنها نادمة عليه.

وصرحت أن (آنة دوميلو) المذكورة، وفلانة،المورسكية السوداء، وفلانة، أسيرة فلانة، وفلانة، أسيرة فلان، هاته النساء الخمس المذكورات أعلاه لم يكن يرافقنها إلى النهر من أجل الغسيل، ولا إلى دار البارون التي أشارت إليها. ومع ذلك، كانت كلما

(1) Andrulaa, byzmilaa

صادفتهن بالشارع أو في أي مكان آخر، تراهن وتسمعهن يتوسلن إلى محمد وإلى سيدي أبي العباس السبتي، ويستغثن بهما. ولم تسمع قط غير هذا لأنها ليست ذات صلة وطيدة بهن أو بغيرهن من اللواتي ذكرتهن أعلاه. وعن كل هذا رجت المغفرة. وبما أن الجلسة دامت مدة طويلة، فإن السيد المحقق أمرها بالعودة إلى زنزانتها، وأمرها بالتفكير جيدا في أمورها، وبالتعجيل في التخفيف عن ضميرها، لأنه بذلك قد لا يطيل محاكمتها. ولم تذكر شيئا عن علاقتها بالمبلغ بهم. وبما أنها لا تعرف كيف توقع، فقد طلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أوقع نيابة عنها، وأمضيت إلى جانب السيد المحقق.

وحرره بنتو نونش (Bento Nunes)، كاتب أسرار العدالة.

****

الشهادة التالية توجد ضمن اعترافات (غيومار رودريغش فراغوزا Guiomar Rodrigês Fragosa)، المورسكية المعتقلة بسجن محكمة التفتيش هذه بالأوراق[1].

وبعد هذا، وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة بمحكمة التفتيش المقدسة، وبمحضر السيد الدكتور (انطونيو دو كاشترو)، المحقق البابوي بأسقفيه هذه المدينة ومقاطعتها...الخ، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة، حضر (أنطونيو فرنانديش) قائد سجن محكمة التفتيش المقدسة، وأخبر السيد المحقق أن (غيومار رودريغش فراغوزا)، المورسكية المعتقلة بالسجن المذكور ترجو المثول أمامه. وفور ذلك أمرها السيد المحقق المذكور بالمثول أمامه.

(و. 11 ظ)، ولما حضرت أمرها بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق بشأن كل ما ستسأل عنه أوتعلمه.

وبعد ذلك مباشرة ذكرت أنها تذكرت أيضا أن (آنة دوميلو) المورسكية الحرة التي كانت في ملكية (روي دوميلو) المعتقلة بسجن محكمة التفتيش المقدسة هذا، قالت لها إنه بعد موت زوجها هي (آنة دوميلو)، استدعاها أحد إخوة زوجها، واستدعى آخرين، وبالكسكس أعدا طعاما كما يعده المسلمون كلما توفى أحدهم.

وذكرت أنه يبدو لها أن (آنة دوميلو) المذكورة قالت إنهم أكلوا آنذاك ذلك الكسكس الذي أعداه بالطريقة التي يأكل بها المسلمون. وقالت لها كذلك (آنة

(1) لم يذكر الكاتب أرقام الأوراق التي يحيل عليها.

دوميلو) المذكورة إنها جاءت من لشبونة إلى هنا[1] خوفا من أن يبلغ بها لدى محكمة التفتيش، وأن تعتقل بسبب الكسكس المذكور الذي تناولوه. وأن هذا هو ما تذكرته الآن، وإن تذكرت غيره فإنها ستأتي لذكره. لذا أمر السيد المحقق بإرجاعها إلى زنزانتها. وبما أنها لا تعرف كيف توقع، فقد طلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أمضي نيابة عنها. وأمضيت إلى جانب السيد المحقق.

كتبه (بنتو منديش)، الكاتب الشرعي بمحكمة التفتيش المقدسة .

****

تم نسخ الشهادات أعلاه عن أصولها الخاصة بعناية وأمانة على يدي. أنا (جوان منديش)، الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة، ووقعت هنا بعلامتي الخاصة المنبسطة.

وحرر بيابرة، في اليوم السابع والعشرين من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين مع التشطيب المتعلق بـ (Hox)، والذي لم يكن من أجل التزوير.

- جوان منديش.

****

هذه الخطايا تفرض اعتقال (آنة فرنانديش دوميلو).

- أنطونيوش دكتور.

(و 12و.) الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، المحقق ضد البدع الممقوتة وضد الردة بأسقفيه يابرة هذه ومقاطعتها...الخ، آمركم (غنصلو فلوسو Gonçalo Valloso)، الحاجب بمحكمة التفتيش المقدسة، أن تلقوا القبض على (آنة فرنانديش دو ميلو) المورسكية، أسيرة (لويش دوميلو) المعلم بمدرسة توجد بكتدرائية مدينة يابرة هذه، والتي تقطن بنفس المدينة، وذلك بسبب خطايا تهمها هي من اختصاص محكمة التفتيش المقدسة. وبعد اعتقالها خذوها إلى سجن محكمة التفتيش هذه، وسلموها (لأنطنيو فرنانديش)، قائد السجن المذكور.

يابرة، في اليوم الثالث عشر من شهر ماي من سن ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين.

---

(1) أي مدينة يابرة.

وحرر على يد (جوان منديش) الكاتب.

- أنطونيوش دكتور.

(و. 12 ظ)، وبعد إلحاق هذه الخطايا (بالمحاضر) كما سبق أن ذكرت، أطلعت عليها،(و.12.ظ) أنا الكاتب، المجاز المذكور (جرنيمو بيدروزا)، المحامي المراقب بمحكمة التفتيش المقدسة تنفيذا لأوامر السيد المحقق المذكور.

كتبه جوان منديش.

للمحامي المراقب بمحكمة التفتيش المقدسة، وذلك للتمكن من المرافعة النهائية.

ومباشرة بعد ذلك، وفي نفس اليوم والشهر والسنة المذكورين أعلاه، بمحضر السيد المحقق المذكور، مثل المجاز المذكور (جرمينو بيدروزا) المحامي المراقب بمحكمة التفتيش المقدسة، وقدم هذه النازلة القانونية صحبة مرافعته النهائية التي تأتي أسفله.

كتبه (جوان منديش).

- أنطونيوش دكتور.

****

(و.13 و.)السادة المفتشون الموقرون جدا.

من هذه المحاضر ورقات عدد[1] يتبين أن المتهمة نصرانية معمدة ومعروفة بهذه الصفة، ومن محاضرها الشخصية، وكذا من خطاياها، وأيضا من اعترافاتها نفسها، يتبين أنها ابتعدت عن عقيدة سيدنا المسيح وعادت إلى ملة محمد، واستمرت في ذلك من يوم تنصيرها إلى أن تم اعتقالها بسجن هذه المؤسسة المقدسة. ونظرا لهذا، تستحق أن تعتبر ملحدة ومرتدة، وذلك باعتناقها الملة المحمدية وقيامها بشعائر وطقوس محمدية...[2] واعتبارا لكون اعترافاتها تسمح لها بأن ترد ثانية إلى الكنيسة الكاثوليكية وتحول دون تعرضها لأشد العقوبات التي ينص عليها القانون، فإنها، عقابا لها على تلك الخطايا، تستحق الحبس ولباس التوبة المؤبد ومصادرة أملاكها...[3]

(و. 13 ظ) وبعد هذه المرافعة أمر السيد المحقق باطلاع المتهمة عليها، وباستدعاء كل الأطراف لسماع النطق بالحكم النهائي.

كتبه (جوان منديش).

(1) لم يذكر.

(2) كلمات لاتينية وبعض الرموز.

(3) كلمتان لاتينيتان.

التصريح الذي قامت به (غيومار رودريغش دو فراغوزا)، ضمن شهادتها ضد (آنة دوميلو) المذكورة، والتي توجد بمحضر (غيومار رودريغش دو فراغوزا) المذكورة، بالورقتين 19 و20.

وبعد هذا، وفي اليوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، وضمن الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، المحقق ... الخ، أمر بإحضار (غيومار فرغوزا) المورسكية المعتقلة التي تتعلق بها المحاضر السالفة. ولما مثلت أمامه أمرها بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق بشأن كل ما ستسأل عنه أو تعلمه. وفور ذلك طلب منها السيد المحقق أن تقول له منذ متى توفي زوج (آنة دو ميلو) لأن المتهمة ذكرت واعترفت أن (آنة دو ميلو) المذكور أخبرتها أنه بعد موت زوجها المذكور قامت بطقوس وشعائر دينية من ملة محمد، وأنها هي كذلك شاهدتها تقوم بالطقوس المذكورة. فلتقل منذ متى توفي زوجها المذكور. وفور ذلك ذكرت المتهمة المذكورة (غيمار ردريغش) أن زوج (آنة دو ميلو) المذكور توفي منذ ما يقرب من ست سنوات. وبعد وفاته أخبرتها بما صرحت به واعترفت به المتهمة ضد (آنة دو ميلو) المذكورة، كما سبق أن ذكرت أعلاه، وأن ذلك حدث فعلا نظرا للقسم الذي قدمته.

وبما أنها لا تعرف كيف توقع، كلفتني، أنا الكاتب، بالإمضاء هنا نيابة عنها. وأمضيت إلى جانب السيد المحقق.

حرر هذا (بنتو نونش)

****

تم نسخ هذا كما يجب، وبأمانة، من النسخة الأصلية نفسها التي توجد بمحضر (غيومار فراغوزا) على يدي أنا، (جوان منديش)، الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة. وللتصديق على ذلك، وقعت هنا بواسطة خاتمي المنبسط المعتاد.

بمدينة يابرة، في اليوم السادس والعشرين من أكتوبر من السنة المذكورة، ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، مع التعديل الذي يتعلق بكلمة (nos)، الذي لم يكن من أجل التزوير.

- جوان منديش

يابرة في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل من سنة ألف وخمسمائة وستين، التحقت، أنا (جوان منديش)، الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة، وبأمر من السادة المفتشين بسجن هذه المحكمة، حيث توجد رهن الاعتقال (آنة دوميلو) الموركسية التي تتعلق بها هذه المحاضر، وطلبت منها أن تستمع إلى النطق بالحكم المتعلق بها، والذي تحتوي عليه محاضرها. واعتمادا على هذا، أنجزت المحاضر التي بلغتها للسادة المفتشين نزولا عند رغبتهم. وأنا (جوان منديش)، الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة، حررت هذا مع التشطيب المتعلق بكلمة (Assy) لأن ذلك صحيح.

النطق بالحكم

(و.15 و.) اتفق المحققون الموقعون أسفله... إلخ على أنه من خلال هذه المحاضر والاعترافات التي قدمتها المتهمة (آنة فرننسيشكو [1] دوميلو)، الموركسية الحاضرة، يظهر ويتجلى أنها تنصرت وتوصلت بالمعمودية المقدسة، وأضحت مرغمة على الإيمان بتعاليم الأم المقدسة الكنيسة. غير أن المتهمة قامت بالعكس، وابتعدت عن ديننا المسيحي وارتدت إلى الملة المحمدية اللعينة التي كانت تؤمن بها من قبل، وأصبحت تضم نفسها لمسلمين متنصرين آخرين في بعض المأدبات، حيث كانت الوجبات التي تؤكل، والدعوات التي ترتل على المائدة تتم بطريقة المسلمين. وكانت المتهمة تقوم بكل ذلك كمسلمة، وبسبب إيمانها بملة محمد. وبهذه الصفة كانت تتوسل إليه، وكذا إلى سيدي أبي العباس السبتي، وإلى آخرين يعتبرهم المسلمون أولياء. وبذلك الإيمان نفسه، وبسبب موت أحد الأشخاص، استدعت المتهمة مسلمين ومسلمات متنصرين. وخلال تلك المأدبة قاموا بكل طقوس المسلمين، وبعد انتهاء المأدبة بكت صحبة الأفراد الآخرين الميت على طريقة المسلمين، وتوسلوا لمحمد أن يرحمه. وقامت المتهمة بكل ذلك بنية من هو مسلم، وبهذه الصفة كانت تمتنع عن العمل أيام الجمعة وتصوم صيام رمضان لعدة أيام، وإن كانت لا تتم الشهر كله. وقامت بذلك خلال السنوات التي ظلت مبتعدة عن الإيمان، (تلك السنوات) التي كانت كثيرة كما صرحت بذلك ضمن اعترافاتها. وقد احتفظت بذلك الإيمان إلى أن تم اعتقالها. وخلال المدة المذكورة لم تعترف بتلك الخطايا لأب الاعتراف، ولم تكن تؤمن حتى بكون الخبز والخمر المقدسين يمثلان الجسم الحقيقي لسيدنا المسيح. واعتمادا على كل هذا، بالإضافة إلى ما تحتوي

(1) الصحيح ، فرنانديش.

عليه المحاضر، يصرحون أن المتهمة كانت مبتعدة عن ديننا المسيحي المقدس ومرتدة عنه، وأنها معرضة للحكم بالفصل الأعظم وغيره من العقاب الذي ينص عليه القانون بشأن مثل هذه الخطايا الأكيدة.

ومع ذلك، واعتباراً لكون المتهمة اقتدت بالنصائح التي قدمت لها ورجت بسرعة العفو عن خطاياها، مقدمة دلائل على توبتها، واعتبارا لقلة الإرشادات التي أعطيت لها في أمور الإيمان، هذا فضلا عما يلاحظ من المحاضر، قرروا قبول توبة المتهمة (آنة فرنانديش دو ميلو) وانضمامها إلى الأم المقدسة الكنيسة كما رجت ذلك، وأمروها بالتخلي حسب الأصول عن بدعها الضالة. وعقابا لها يحكمون عليها بالسجن وبارتداء البدلة إلى أجل غير مسمى، وحسب مشيئة المحققين، حيث ستلقن كما يجب تعاليم الدين.

ويأمرون أن تكون معفاة حسب الأصول القانونية من الفصل المذكور عن الجماعة المسيحية الذي كانت معرضة له، وأن تؤدي المصاريف

أربعة توقيعات

****

(و 15 ظ). تم النطق بالحكم المكتوب أعلاه بالحفل الديني العمومي[1] الذي احتفل به بهذه المدينة، يابرة، بساحة دور محكمة التفتيش المقدسة، وأعلنته (أنا) (بنتو نونش)، الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة تنفيذا لأوامر السادة المحققين، في شخص (آنة دوميلو)، المورسكية المذكورة التي تتعلق بها المحاضر السابقة، والتي خرجت خلال الحفل المذكور لسماع النطق بحكمها المذكور في يوم الأحد 12 من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وستين بمحضر السادة : الدكتور (أنطونيو دوكاشترو)، والمجاز (منويل دو كوادروش) المحققين. .إلخ والسادة المحترمين جدا (منويل سَنْتُوشْ)، أسقف تارغا[2]، ودون (جيرمينو بريرا) اسقف سلا؟ (Celle) [3]،

(1) ما يعرف ب Autodafé

(2) قرية على ساحل الابيض المتوسط قرب تطوان.

(3) كلمات غير واضحة بالاصل واستحالت علي قراءتها.

(وبيرو دوميراندا)، المشرف على كنيسة الأمير دون هنري مولانا، بمدينة يابرة هذه، و(ماركوش فْريرا)، المشرف على أسقفية يابورة، و(جوان بيريرا) المشرف الكبير بها، والدكتور (منويل دو ننسيكا) و(منتروي) القاضي بهذه المدينة، يابرة، وضواحيها والمستمد سلطته من سموه، والدكتور (منويل فييزيغاش) القاضي خارج (المدينة وضواحيها) بنفس العدالة، وغيرها، وحضرها أيضا أصحاب السمو الرهبان واللائكيون وعدد كبير من الكهان القانونيين من الكاتدرائية المذكورة. وحضر كذلك عدد كبير من العامة، سواء من الرهبان أو اللائكيين.

وحررت هذا أنا، (جوان منديش)، الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة.

****

(و.15 ظ)وبعد الإعلان عن الحكم المذكور، جلست (آنة دوميلو) المورسكية المذكورة على ركبتيها ويدها على الأناجيل التي كانت في حوزتها، والتي كان يعلوها صليب، جلست على ركبتيها وتخلت علانية عن خطاياها، وعبرت عن توبتها حسب الأصول، تلك التوبة الواردة أسفله، والتي قرأت عليها بصوت مرتفع ومفهوم. وبعد ترديدها، صرحت (آنة دوميلو) المذكورة أنها تقبلها، وأقسمت ووعدت بتنفيذها تماما كما ينص على ذلك (بينتو نونش)، الكاتب الشرعي المذكور بمحكمة التفتيش المقدسة رفقة أنطونيو نابو (António Nabo)، كاهن الصلوات والتراتيل، و(منويل نونش) و(بيرو كويليو)...[1] بهذه الكاتدرائية، القاطنين بهذه المدينة الذين حضروا وعاينوا كل شيء ووقعوا جميعا.

وحررت هذا أنا، (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

****

(و.16.و.) التوبة

أنا (آنة دوميلو) المورسكية الساكنة بمدينة يابرة هذه، أقسم أمامكم سادتي المحققين ضد البدع الضالة وضد الردة، أقسم بهذه الاناجيل المقدسة التي أضع عليها

---

(1) كلمات غير واضحة بالاصل واستحالت علي قراءتها.

يدي، أنه من تلقاء نفسي، ونزولا عند رغبتي الخاصة، ألعن كل أنواع الردة والبدع كيفما كانت، وأبعد نفسي عنها، (وأعد) بأن لا أثور ضد الديانة الكاثوليكية المقدسة والكنيسة البابوية، خصوصا في ما يتعلق بالخطايا التي سقطت فيها، والتي اعترفت بها أمام سماحتكم، والتي أمليت علي الآن خلال النطق بالحكم المتعلق بي، والتي رددتها وكررتها هنا بوضوح. وأقسم بالتمسك دوما بالدين الكاثوليكي المقدس الذي تلقنه أمنا الكنيسة الرومانية المقدسة، وسأكون دوما مطيعة لأبينا البابا المقدس جدا (بي الرابع)، سيدنا الرئيس الحالي لكنيسة الإله، ولخلفائه المنتخبين قانونيا. وأعترف أن كل من عارض أو سيعارض ديننا المقدس هذا يستحق العقاب. و أعد بأن لا أجتمع قط معهم، وبأن أبلغ بهم لدى المحققين وأساقفة أمنا المقدسة الكنيسة، وأقسم وأعد بالتكفير عن ذنوبي كلما فرض علي ذلك، وفي حالة ما إذا عدت في وقت ما إلى السقوط في نفس الخطايا، أو غيرها من البدع، وإذا ما امتنعت عن التوبة عن خطاياي المفروضة علي حاليا أو حسب القانون، وإذا ما تبين مني في أي وقت ما يخالف ما اعترفت به وصرحت به بعد قسمي، أقبل أن لا تفيدني هذه التوبة في شيء، وأُخضع نفسي للعقاب ولصرامة القانون المقدس. وأطلب من الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة الحاضر أن يصادق على كل شيء، وأطلب من الحاضرين أن يكونوا شاهدين علي، وأن يمضوا هنا عن نفسهم ونيابة عني.

- أنطونيو نابو.
- جوان منديش.
- بنتونونش .

(و 16 ظ) مصاريف محاكمة (آنة دو ميلو): 292 ريال.

يابرة، في اليوم الواحد والعشرين من شهر يناير من سنة ألف وخمسمائة وواحد وستين، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وبمحضر السادة الدكتور (انطونيو دوكاشترو)، والمجاز (منويل دو كوادروش) المحققين...إلخ، وبعد الاطلاع على قرار القبول ثانية بالكنيسة الموجود أعلاه، والمتعلق بـ (آنة دوميلو)، المورسكية التي تتعلق بها المحاضر السالفة، وبما أنه تبين أن (آنة دو ميلو) المذكورة نادمة، ومبدية علامات على كونها مكونة تكوينا معقولا فيما يخص الصلوات والعقيدة المسيحية، فإنهما بعد الاطلاع على كل هذا، ولاعتبارات أخرى عادلة، اعتبرا أنه من الصواب اعفاء (آنة دو ميلو) المذكورة من السجن الذي حكم به عليها بسبب خطاياها،

وخلعا على (آنة دوميلو) المذكورة لباس التوبة الذي لبسته تنفيذا للحكم الصادر في حقها. ونصحا (آنة دوميلو) المذكورة التي كانت حاضرة أن تعيش من الآن فصاعدا عيشة مسيحية حقيقية ووفية، وأن لا تتكلم مع الموريسكيين، وبأن تذهب أيام الأحد والأعياد لسماع التراتيل والصلوات والعقيدة المسيحية، وذلك كلما أمكنها ذلك، الشيء الذي وعدت بفعله. وبما أنها لا تعرف كيف توقع، طلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أوقع هنا عوضا عنها. ووقعت إلى جانب السيدين المفتشين المذكورين اللذين أمرا بإنهاء هذا المحضر.

حرر هذا (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

- منويل دو كوادروش.
- أنطونيوش دكتور.
- جون منديش.

Arquivo National da Torre do Tombo. Inquisição de Evora, M.74 n° 6868.

محضر محاكمة بحار برتغالي من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية بتهمة الاتجار بالمغرب ونقل المغاربة من البرتغال إلى بلادهم (1554)

إن الوثيقة التي تعرف اليوم النشر لأول مرة، عبارة عن محضر من محاضر محكمة تفتيش لشبونة التي يبلغ عددها 17977، وهو مرتب تحت عدد 167 (Inquisicão de Lisboa)* وعدد أوراقه 72.

وكباقي المحاضر، تسلط هذه الوثيقة النفيسة الأضواء على مراحل اعتقال أحد ضحايا محكمة التفتيش، وهو بحار برتغالي، وذلك في سنة 1554 بعد أن وجهت له تهمة الاتجار بالمغرب ونقل المغاربة الذين كانوا يعيشون أنذاك بالبرتغال إلى بلادهم، وخصوصا إلى مدينة آسفي.

ومعلوم أن محاكم التفتيش التي بدأ العمل بها في البرتغال منذ سنة 1536 بعد حصول الملك البرتغالي يوحنا الثالث (1521 ـ 1557) على ترخيص بابوي بإنشائها على الشكل الذي كانت عليه بإسبانيا. أي دون أن يكون للبابوية إشراف عليها ـ أعطت لنفسها حق مطاردة كل المسيحيين -دون أي استثناء- (سيسقط أحد الملوك البرتغاليين في شباكها) الذين ينحرفون قولا أو فعلا عن الديانة الكاثوليكية.

ولتنفيذ هذه المهمة خصت نفسها بهياكل إدارية لا يتسع المجال لذكرها هنا، ووزعت جواسيسها وعيونها في كل مكان، وألزمت عامة المجتمع وخاصته بالتبليغ بكل ما يدل على الانحراف عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، أو يوحي به، حتى ولو كان الأمر يتعلق بالأب أو الإبن[1].

ومعلوم أن البابوية حرمت في إطار الحرب الصليبية التي أعلنتها على الاسلام، الاتجار مع المسلمين وتزويدهم بكل ما يمكّن من تسليحهم أو إغنائهم. لذا لم يسمحوا للملوك البرتغالين بالاتجار مع المغاربة إلا بعد ترخيص خاص، وبعد أن قدم هؤلاء تبريرات مقنعة[2].

---

*نشر **مجلة كلية الآداب**، فاس، عدد خاص بشعبة التاريخ، 1985 ـ ص ص 247 ـ 320.

(1) يمكن أخذ فكرة عامة عن هذا الموضوع راجع أطروحتنا : **مغاربة بالبرتغال خلال القرن السادس عشر** (تحت الطبع)

(2) راجع دراستنا : **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة اخلال آسفي وازمور، البيضاء**، 1984، ص: 152.

غير أن الملك البرتغالي، الذي أصبح بعد احتلال الثغور الجنوبية أكبر تجار بلاده اهتماما بالمغرب، سمح للتجار الأحرار بالقيام بنشاطهم مقابل دفع الضرائب الجمركية[1].

إلا أن تراجع البرتغاليين بالمغرب بعد تحرير أكادير وإخلاء آسفي وأزمور سنة 1541 جعل الملك يحرم الاتجار مع المغاربة ويعتبره تهريبا، وجعل النظر فيه من اختصاصات محاكم التفتيش الدينية. لذا مثل أمام المحكمة عدد من التجار والبحارة استطعنا العثور على محاضر محاكمة ثلاثة و عشرين منهم تغطى الفترة الممتدة بين 1551 - 1554.

ولابأس من أن نؤكد مرة أخرى على أهمية مصادر محاكم التفتيش الدينية البرتغالية التي تساهم في كتابة تاريخ المغرب خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، خصوصا فيما يخص جوانب سكتت عنها مصادرنا. وإذا سبق لنا أن حددنا في محل آخر الجوانب التي تغطيها هذه المصادر،[2] فلا بأس من الإشارة مرة أخرى إلى أن محاكمة هؤلاء البحارة والمهربين تغطي لوحدها عدة جوانب من تاريخنا خلال المرحلة السابقة الذكر، نذكر منها :

1) التبادل التجاري بين المغرب والبرتغال بعد اندحار البرتغاليين ببلادنا وتحرير جل الثغور التي كانت بأيديهم : أكادير وآسفي وأزمور(1541)، أصيلا والقصر الصغير(1550).

ويبدو من خلال التبليغات التي توصلت بها المحكمة، ومن خلال اعترافات المتهمين، استمرار إقبال التجار البرتغاليين على موانئ المغرب رغم تحريم المسؤولين ذلك. ويخبرنا المحضر بالإجراءات التي يتخذها هؤلاء التجار تفاديا لمصادرة أملاكهم وللاعتقال : فلقد كانوا يخفون بالمغرب أسماءهم ويعطون أنفسهم أسماء أخرى (ورقة 46 ظهر)، وكانوا يشحنون ويفرغون سفنهم الذاهبة إلى المغرب أو الراجعة منه بعيدا عن ميناء العاصمة، وخلال الليل (و 14ظ و15 و49 ظ)، وكانوا يروجون إشاعات خاطئة عن اتجاه سفنهم، كأن يدعوان الذهاب إلى قادس أو اشبيلية. (و 50 و). وكان بعضهم يستغلون مناسبة مغادرة المراكب التي تحمل القمح إلى مازيغن (الجديدة)

---

(1) راجع دراستنا : **دكالة والاستعمار** ... مرجع سابق ص: 304.

(2) أنظر أعلاه صص 3-26 .

لمرافقتها حتى اذا ما وصلت إلى السواحل المغربية غيرت اتجاهها نحوآسفي وأكادير (و 55 و). وبما أن مازيغن كانت بأيدي البرتغاليين، فإن هؤلاء التجار حولوها إلى مخزن لسلعهم، ومرحلة لسفنهم قبل التوجه إلى آسفي أو أكادير(و5 و).

ويفهم من مغامرة هؤلاء التجار بسلعهم وحريتهم استفادتهم الكبرى من المبادلات بالمغرب. فلقد أرسل بعضهم سلعا إلى آسفي مباشرة بعد إطلاق محكمة التفتيش سراحه، إثر اعتقاله بتهمة التهريب (و47) .كما يخبرنا المحضر باستعداد تاجرين آخرين للشروع في الاتجار مع المغاربة (و66 و). ومما يؤكد استفادة البرتغاليين من مبادلاتهم بالمغرب، اهتمام قبطان مازيغن بها، إذ كانت نسبة من السلع المعروضة بآسفي ملكا له، وكان له نصيب في أحد المراكب المتعودة على الذهاب إلى ذلك الميناء المغربي. (55 و).

ووردت بالمحضر معلومات قيمة عن السلع التي كان هؤلاء التجار البرتغاليون يعرضونها، والتي كانوا يقتنونها بالمغرب. ويلاحظ أن أهم سلعة كان البرتغاليون يعرضونها هي الصمغ المستعمل في الصباغة، والتوابل، والأثواب الهندية، والقبعات. وبالمقابل، كانوا يشترون مواد زراعية وحيوانية كاللوز، والتمر، والشمع، والجلود، والنيلة، والسكر الذي أشار المحضر إلى اعتماد المغاربة في انتاجه على الخبرة البرتغالية، إذ كان بالمعاصر عدد من الأطر البرتغالية، وفي تسويقه إذ كان المغرب يعتمد في التعليب على الخشب المستورد من ماديرا. وأشار المحضر كذلك إلى إقبال التجار الفرنسيين والانجليز والجنويين على أكادير وآسفي حيث كانوا يعرضون الأسلحة على الخصوص، ويأخذون مقابلها السكر. كما أشار عدة مرات إلى تضرر التجارة البرتغالية من القرصنة الإسبانية، وخصوصا من الفرنسية التي امتازت بجرأة كبيرة، إذ استولى قراصنة فرنسيون مرة على مركب برتغالي كان بميناء آسفي.

وبالطبع، تسمح هذه المعلومات بدراسة مقارنة للتجارة خلال وبعد الغزو. لقد سبق لنا القيام بدراسة طويلة للتجارة البرتغالية بدكالة، حددنا فيها أنواع السلع المروجة وتطور العرض والطلب، وبالتالي الأثمان[1]، و سنكتفي هنا بالإشارة إلى ما جد في هذا الموضوع.

فإذا استمر عرض الصمغ، فإن كمياته تراجعت كثيرا، ذلك أنها كانت خلال

(1) **دكالة**، مرجع سابق ص ص 281 - 318.

تحكم االبرتغاليين مهمة جدا، إذ وصل الارتفاع الذي عرفه عرض هذه السلعة نسبة 2200٪ بين 1491. 1516. كما تراجع عرض التوابل والأثواب، بينما اختفى عرض بعض السلع التي كانت مهمة جدا في تجارة البرتغاليين كالبردات المصرية والأثواب الانجليزية (انطونا)... وفيما يخص السلع التي كان البرتغاليون يقبلون عليها بكثرة خلال فترة الاحتلال، نجد القمح والأنسجة الصوفية المغربية التي لم تشر اليها المحاضر نهائيا، وذلك لتراجع انتاج المغرب للمادة الأولى لأسباب بيناها في محل آخر، وعدم احتياج البرتغاليين للثانية بعد تراجع تجارتهم بأرگين ولامينا حيث كانت تعتبر أهم سلعة[1]. ويؤكد المحضر استمرار البرتغاليين في تزويد المغرب بكميات مهمة من الفضة (و 4 و، 65 ظ).

ومن جهة أخرى، تكمل هذه الوثائق أخرى تغطي النشاط التجاري، وخصوصا منها الإيصالات[2] لكون المحاضر تسلط الأضواء على نشاط التجار الأحرار، في حين أن الإيصالات ومراسلات الوكلاء التجاريين والمشرفين على مصالح الملك بالثغور تغطي النشاط الملكي.

2) وتغطي هذه المحاضر كذلك جانبا مهما من جوانب نتائج الغزو الإيبيري بالمغرب، والتي ما تزال في حاجة إلى دراسة، وهو الجانب الديموغرافي والفكري. ومن هذه الجوانب تغطية المحاضر لظروف عيش المغاربة الذين أرغمتهم الأحداث التي عرفها المغرب خلال النصف الأول من القرن السادس عشر على الهجرة من تلقاء أنفسهم أو مكرهين إلى البرتغال.

وتسمح محاضر محاكم التفتيش الدينية بالاطلاع على ظروف عيش هؤلاء المغاربة بالبرتغال، وعلى معاناتهم من العنصرية والتعصب الديني. فرغم تنصرهم السطحي، احتفظوا لأنفسهم بتقاليدهم وعاداتهم ولغتهم ودينهم، وذلك رغم المحاكمات والاضطهاد، وردوا على عداء المجتمع البرتغالي برفضهم الاندماج وبتمسكهم بثقافتهم، وبتنظيم حفلات كبرى في حالة انتصار المغاربة على البرتغاليين. (و 39) وإذا كان هذا المحضر لا يغطي كل الجوانب السابقة الذكر التي نقف عليها بمحاضر محاكمات المغاربة، فإنه يغطي مع ذلك أهم جانب من جوانب رفض المغاربة الاندماج داخل المجتمع البرتغالي المسيحي وتمسكهم بثقافتهم وعقيدتهم الاصلية، وذلك من

(1) **دكالة** ... مرجع سابق ص ص 114 . 307.

(2) لأخذ فكرة عن هذه الوثائق ونوعية مساهمتها في هذا الباب، راجع: **دكالة**، ص ص 24 . 26.

خلال الإشارات الكثيرة التي وردت به إلى محاولاتهم الفرار والعودة إلى بلادهم، واتصالاتهم المتكررة بالبحارة البرتغاليين، وبالمبالغ المؤداة عن ذلك، وبالوسطاء الذين برزوا بين المغاربة وأولئك البحارة (و 64 و). كما يسلط هذا المحضر الأضواء على الاستغلال البشع الذي كانوا عرضة له، اذ كان البحارة يبتزون منهم مبالغ مهمة دون تنفيذ وعودهم (و 58 و). كما يفضح المحضر وحشية بعض البحارة البرتغاليين. لقد كانوا يحملون المغاربة في سفنهم، وبعد الابتعاد عن الساحل يستولون على أموالهم وأمتعتهم ثم يلقون بهم في البحر. ورغم أن المتهم اعترف بقتله لمغربية كان ينوي نقلها، وباستيلائه على أمتعتها التي ضبطت في حوزته، فإن المحكمة خلال نطقها بالحكم لم تعاقبه إلا على الاتجار مع المغاربة ونقلهم إلى بلادهم! وبالطبع يسهل على قارئ هذا المحضر الوقوف على سبب السكوت على هذه الجريمة البشعة، وذلك لشدة عداء البرتغاليين للمغاربة المسلمين. (و12 و 56).

ويخبرنا المحضر عن بعض أسباب فشل محاولات فرار المغاربة ، والتي يوجد على رأسها الجواسيس الذين بثتهم المحكمة بين الموركسيين (و 23).

3) كما يسمح هذا المحضر بأخذ فكرة عن مدى قدرة المغاربة على استعمال البحر بعد تحرير الثغور. ويتجلى من خلال هذه الوثيقة تبعية المغاربة للخارج في ميدان وسائل الملاحة وجهلهم لتقنياتها، وافتقار المغرب لوسائل ركوب البحر. فإذا كان المغاربة يجهلون الخرائط البحرية وطرق استعمالها، فإنهم كانوا كذلك مرغمين على استيراد المراسي (ancres) والأشرعة والبوصلات وصواري المراكب...الخ وعلى الاعتماد على بعض الأوروبيين الذين يقبلون على مدنهم لتعلم تلك التقنيات (ورقة 21 ظ و 22 ظ). فلقد طلب قائد آسفي من صاحب المحضر تعليم بعض رجاله كيفية استعمال الخرائط ، وتزويده ببعض الآلات البحرية (و 25 ظ)، وطلب من أحد مساعديه صنع مسند لمدفعية مركب انتهى من بنائه، (و 16) ومساعدته على اختيار الخشب الذي يصلح كصاري مركب، (و 16ظ). كما طلب من نفس المتهم المجيء إلى آسفي للاقامة بها، واحتراف القرصنة تحت إشرافه. وبذلك نقف على نتيجة من أخطر النتائج التي تولدت عن الغزو البرتغالي لسواحل المغرب، والتي سبق لنا أن أكدنا عليها في دراسة

سابقة[1]، وهي أن ركوب البحر بآسفي لم يعد ولو إلى المستوى الذي كان عليه خلال القرون الوسطى، والذي وصلتنا عنه إشارة عابرة، ولكنها معبرة.[2]

واهتمت محكمة التفتيش ب (فرانسيشكو باياوو) الألكن خلال مرحلتين :

ا) مرحلة إعداد الملف، والتوصل بالتبليغات قصد الحصول على مبرر لاعتقاله

وبلغ عدد الجلسات التي توصلت خلالها المحكمة بتلك التبليغات والشهادات المدينة 22 جلسة كانت أولاها في 9 يوليوز "1552 وآخرها في 24 اكتوبر 1554. وطبعا، لم تسارع المحكمة خلال هذه المرحلة إلى اعتقال المتهم، لأنها كانت في مرحلة تحديد التهم التي ستتابعه بسببها. ولذلك تم استدعاء كل الاشخاص الذين عاينوا أو سمعوا عن قيام المتهم بشيء مما ينسب اليه، كما كلفت المحكمة موريسكيا هو (كوشم غونصلفيش) بالتجسس على الموريسكيين وعلى المتهم لمعرفة وقت إبحارهم للتمكن من القاء القبض عليهم في حالة تلبس. وهذا ما تم فعلا، إذ اعتقل (فرانسيشكو باياوو) يوم 26 أبريل 1954 وادخل سجن محكمة التفتيش الدينية بعد يومين.

هذا، وتجدر الإشارة إلى أن هذه التبليغات كانت بالغة الأهمية بالنسبة للمحكمة التي كانت تبني على ضوئها تقويم اعترافات المتهم الذي يبقى بالنسبة إليها معترفا غير صادق طالما لم يذكر نفس الخطايا التي توصلت بتبليغات تتعلق بها. وسببت هذه المسطرة المتبعة من لدن محكمة التفتيش مآسي لآلاف الأشخاص الذين كانوا يقفون أمام المحققين دون أن يكونوا على علم بالتهم المنسوبة اليهم، ودون أن يعرفوا أسماء من بلغ بهم. ويلاحظ أن القضاة كانوا حين توصلهم بالتبليغات يسألون المبلغين عن "علاقتهم بالمبلغ بهم" لتحديد ما إذا كان التبليغ يستحق الثقة.

2) أما المرحلة الثانية فتغطي مدة المحاكمة التي مرت عبر ست جلسات كانت أولاها في 29 أبريل 1554 وآخرها في 4 يونيو 1554. ومعنى هذا أن مدة المحاكمة كانت قصيرة بالمقارنة مع أغلب المحاضر التي وقفنا عليها. ورغم انتهاء المحاكمة، لم يتم النطق بالحكم إلا يوم 2 مارس 1555 لكونه كان مرتبطا بالحفل الديني الذي كان يحضره الملك ورجال الدولة والكنيسة وسكان المدينة. وكان المتهمون يخرجون خلاله في حفل رهيب إلى مكان المنصة حيث يخبرون بقرار المحققين ويقومون بالاعتراف العلني بخطاياهم (و69).

---

(1) **دكالة**، ص ص 459 ـ 460.المغاربة والبحر المنشور أعلاه.

(2)أحمد بن ابراهيم الماجري، **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**، ط. مصر، 1933، ص 295، الناصري، **الإستقصا**، ج 129/2.

وحكم على (باياوو) بعشر سنوات من النفي إلى السفن الحربية ليعمل بها جدافا.

وتجدر الإشارة إلى الصعوبة التي تمثلها ترجمة نص من هذا النوع. فنظرا لطابعه القانوني، لم يهتم محرره بالأسلوب قدر اهتمامه بتفادي الالتباس وسوء الفهم. لذا لم يكن يتردد أمام تكرار الأسماء وعبارة (المذكور) أو (المذكورة). وبما أنه كان يسجل ما كان يدور بالجلسات، فإن المحضر احتوى على ما قد يبدو للقارئ تناقضا، كأن يختم محضر جلسة بقوله: «ولم يقل غير هذا، وحررته أنا (منويل كورديرو)» ثم يعود إلى القول " «وأضاف» ويذكر الإضافة قبل أن يعيد كتابة «وحررته أنا... إلخ».

ونظرا لكون النص أورد عدة عبارات تدل على مختلف أنواع السفن من (fusta) و(mulata)... إلخ، فإننا ترجمناها باللفظ العام «مركب» أو «سفينة»، واحتفظنا بلفظ كرفيلا لدلالته الخاصة.

ترجمة المحضر

ورقة 1 وجه : خطايا (فرانسيشكو باياوو (Françisco Bayão o Gago) الألكن صاحب مركب مقيم بستوبال.

ورقة 1 ظهر : بيضاء.

و 2 و. في اليوم التاسع من شهر يوليوز من سنة ألف وخمسمائة واثنين وخمسين بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر السيدان : الدكتور (أنبروزيو كانبيلو Ambrósio Campello) والمجاز (جورج غونصلفيش ريبيرو (Gonçalvez Ribeiro Jorge) مندوبا محكمة التفتيش المقدسة، واستدعيا للمثول بين يديهما (Francisco Nunez)، القاطن بـ (Alcoutim)، وأمراه بأداء القسم بالأناجيل المقدسة، وسألاه عما إذا كان يعرف شخصا ينقل سلاحا أو سلعا أخرى لبلاد المسلمين، فذكر أنه منذ ما يقرب من ثمانية أو تسعة أشهر خلت، لما كان برأس غير[1]، وصل إلى هناك شخص يسمى (جوا فاش Joham Vaz) أحد سكان جزيرة ماديرا، وأخ (Vicente Lourenço) وابن (Diogo Lourenço) ونقل مائة صندوق، أي الخشب الذي يصلح

(1) رأس غير، أي حصن Santa Cruz do Cabo de Gué أي أگادير الذي تمكن البرتغاليون من احتلاله سنة 1505 بعد منافسة حادة مع الإسبان، وانتزعه محمد الشيخ السعدي من أيديهم في ربيع 1541، وأصبحت (فونتي) أكبر ميناء

لمائة صندوق المذكورة المستعملة في تعليب السكر، وسلمها لأخيه المذكور (Vicente Lourenço) الذي كان آنذاك هناك لبيعها. إلا أن أخاه المذكور ملأها سكرا وشحنها في مركب كان متوجها نحو فلندرا. وذكر أنه لا يعرف ما إذا وصلت إلى هناك أم لا. وفي نفس الوقت وصلت إلى هناك سفينة انجليزية مشحونة رماحا وقبعات ودروعا وسلعا أخرى جد مختلفة بيعت إلى الشريف[1]. كما وصلت كذلك سبعة أو ثمانية مراكب فرنسية محملة كتانا وسكاكين وسيوفا، ووصلت أيضا في ذلك الوقت سفينة كان ربانها يكنى بالألكن (O Gago) المقيم بستوبال، والذي نقل إلى هناك الصمغ والكتان وأثوابا ملونة[2].

وعن علاقته بمن بلغ بهم، لم يذكر شيئا. وحررته أنا، انطونيو رودريغش.António Rodriguez

* * * *

وفي اليوم السادس من شهر اكتوبر من سنة ألف وخمسمائة واثنين وخمسين، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر السيدان المحققان وأمرا (فيسانت لورنسو) بالمثول أمامهما، وبأداء القسم بالأناجيل المقدسة حسب القانون، وذلك لكي يقول الحق بشأن كل ما سيسأل عنه، فوعد بذلك.

ومما ذكره أن السلع التي نقلتها تلك السفن الفرنسية والكرفيلات البرتغالية، والتي أرسل هو نفسه بعضها، أفرغت بكل من آسفي [3] ورأس غير، حيث تباع للمسلمين وتشحن من جديد بالنيلة والسكر والشمع لنقلها إلى فرنسا وفلندرا؛ وأحيانا إلى هذه المدينة التي وصلتها منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر كرفيلا محملة سلعا من رأس غير، وكان ربانها هو (فرانسيشكو بياوو)، المكنى بالألكن، المقيم بستوبال،

(1) أي السلطان السعدي محمد الشيخ الذي خصته الوثائق والمصادر البرتغالية بهذه الصفة.

(2) وعن دور التهريب في تسليح الشرفاء السعديين راجع دراستنا : **دكالة** ... ص 383 ـ 384 وكذا

Sources Inédites de l'histoire du Maroc; 1ère série. Portugal, I,p. 561 . 63

ـ الصمغ الهندي والأثواب الأوروبية من أهم ما يعرضه البرتغاليون بموانئ المغرب الجنوبية قبل تحريرها، وتؤكد هذه الوثيقة استمرار عرض البرتغاليين واقتنائهم لنفس السلع. وعن المبادلات التجارية بموانئ الجنوب قبل 1541 راجع :. **دكالة والاستعمار** ... ص ص 281 ـ 324.

(3) أخلاها البرتغاليون في اكتوبر 1541 خوفا من هزيمة شبيهة بالتي تكبدوها بفونتي. ومرت آسفي في تعاملها مع البرتغاليين بمرحلتين مختلفتين : مرحلة الولاء والحماية (1481 على الأقل ـ 1508) ومرحلة الاحتلال المباشر (1508 ـ 1541). وعرفت آسفي خلال الربع الاخير من القرن الخامس عشر والعقدين الأولين من السادس عشر رواجا تجاريا كبيرا. رغم أن آسفي أصبحت بعد تحريرها ميناء مراكش والحوز، وحظيت بعناية خاصة من طرف السلاطين السعدين، فإنها لم تستطع الانتعاش .وللمزيد من التفاصيل راجع الفصول التالية من دراستنا : **دكالة والاستعمار** ... مرجع سابق، الفصل الثالث من الباب الأول ، و الفصل الثاني من الباب الثالث.

والذي أرسى مركبه بالقنطرة [1] حيث أفرغ سلعه، إلا أن موظفي الجمارك صادروا له أكياس اللوز وقوالب الشمع التي كانت آنذاك بالمركب لكونه كان قد ألقى بباقي السلع في البحر.

ومن الأشخاص الذين كانوا على علم بإنزال تلك السلع بالقنطرة، ذكر (جيل فاش Gil Vaz) الساكن بحي الحمة [2]، وادعى أن بإمكان هذا الأخير ذكر أسماء باقي الحاضرين.

وأضاف أنه منذ حوالي عشرين يوما، وصل الألكن المذكور بكرفيلته مشحونة بسلع بلاد المسلمين، وأخبر الألكن المبلغ نفسه بوصوله من آسفي، وبأنه يحمل سلعا دون أن يحدد له نوعها، وبإفراغها بالرابلدا Arrabilda [3].

وسبق للشاهد أن أشار إلى تاريخ الرحلة التي التحق فيها الألكن المذكور ببلاد المسلمين، إلا أنه لا يعرف ما إذا كان (دوارت فاش Duarte Vaz) المذكور يرسل السلاح ضمن تلك السلع، وإن كان قد حمل معه بعض السكاكين. ولم يذكر شيئا عن علاقته بالمبلغ بهم، وأكد أن ما ذكره عنهم مشهور ويعرفه عدد كبير من الأشخاص؛ فأمره المحققون بالاحتفاظ بالسر بشأن ما صرح به، وحررته أنا، (انطونيو رودريغش).

****

وفي يوم 21 من ماي من سنة 1552، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر السيدان الدكتور (انبروزيو كانبيلو Ambrósio Campello) والمجاز (جورج غونصلفيش ريبيرو Jorge Gonçalvez Ribeiro)، المحققان بمحكمة التفتيش المقدسة، وأمرا بالمثول أمامها (فيسانت لورنصو)، الفارس ببلاط مولانا الملك، المقيم بهذه المدينة، برصيف الكاتب.

وبعد أداء القسم بالأناجيل المقدسة، أضاف إلى ما سبق ذكره أنه منذ سبعة أو ثمانية أشهر، أخبره (هنريك نونش Amryque Nunez) التاجر المقيم (بساو نيكولاو(São Nicolão) بدار (بيدرو مارتينش Pedro Martinez) أن كرفيلا الألكن المقيم بالمنظر الجميل، اكتريت من لدن (فرناو رودريغش Fernão Rodriguêz)لحمل سلع إلى رأس غير، وأن أحد أقاربه المسمى (بيرو مارتينش Pero Martins) المقيم بنفس الدار، ذهب كذلك في نفس الكرفيلا ونقل بدوره سلعا، وأن (كريشطفاوو دو سكيرا

(1) القنطرة Alcantara تعتبر اليوم من أحياء لشبونة، إلا أنها كانت خلال القرن السادس عشر خارج الأسوار، على الضفة اليمنى لنهر TEJO . وورد ذكر هذا الموقع عدة مرات بمحاضر محاكمات المغاربة.

(2) Alfama، من أقدم أحياء لشبونة، كان خاصا باليهود قبل أن يفرض عليهم التنصر.

(3) سلسلة جبلية ساحلية بين لشبونة وستوبال.

(Christovão de Sequeira)، وكيل (دوق أفيرو Duque de Aveiro) أخبره أن تلك الكرفيلا كانت متجهة نحو رأس غير، وأنها أكتريت من طرف المذكور أعلاه الذي كان له ابن هناك، وأن هؤلاء الأشخاص، وكذا (كريشطوفاوو بايش Christovão Paez) وخدامه، يمكنهم إعطاء معلومات أدق بشأن الموضوع. وأضاف أن الألكن مالك الكرفيلا يقيم بـ (ستوبال)، والتحق بهذه المدينة منذ ما يقرب من ثلاثة أو أربعة أشهر. ولم يقل شيئا عن علاقته بالمبلغ به. وحررته أنا، (باولو دا كوشطا Paulo da Costa).

* * * *

في اليوم الخامس من شهر نونبر من سنة الف وخمسمائة واثنين وخمسين، بقاعة الجلسات، بمحكمة تفتيش لشبونة المقدسة، حضر المحقق السيد المجاز (بيدرو الفاريش دو بريدش) وأمر (جيل فاش Gil Vaz)، ربان إحدى المراكب المقيم بهذه المدينة، بحي الحمة، بالمثول أمامه وبأداء القسم بالأناجيل المقدسة ، وسأله.

ومما ذكره : أن (فرناوو رودريغش Fernão Rodriguêz)، الذي سبق ذكره، يتاجر ببلاد المسلمين منذ سنة؛ وسبق له أن أرسل إلى هناك سفينة (فرانسيشكو باياوو الألكن F. Bayão Gago)، البحار المقيم بستوبال، محملة أثوابا ملونة وصمغا، ذهب بها إلى رأس غير حيث أفرغها. وفي العودة نقل جلودا وسلعا أخرى. إلا أن القشتاليين [1] استولوا له عليها وحملوها إلى قشتالة. (وأضاف) أنه حين إقامته برأس غير، قامت سفينة من (بسكايا Biscaynha) (و 4 و) برحلتين إلى هناك ونقلت سلعا لـ (فيسانت لورنصو Vicente Lourenço و (كريشطفاوو بايش Christovão Paez)، كانت عبارة عن أثواب وصمغ. ولم يقل شيئا عن علاقته بالمبلغ بهم. وحررته أنا، (أنطونيو رودريغش).

* * * *

وبلشبونة، في فاتح دجنبر من سنة 1552، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر السيد المحقق المجاز (بيدرو الفاريش دوبريدش Perdro Alvarez) وأمر (بالتزار دياش Baltezar Dias) البحار المقيم بـ (تافيلا Tavila) بالمثول أمامه وبأداء

(1) عن الاضرار البليغة التي الحقتها القرصنة الاوروبية، وخصوصا الفرنسية، بالإمبراطورية التجارية البرتغالية راجع :
V.M Godinho," Les incidences de la course sur l'économic portugaise au XVIe siècle", **Economia** (Lisbonne) Déc. 1960- pp. 143-155.
احمد بوشرب: **دكالة** ... مرجع سابق ص 414 وورقة 8 من هذا المحضر.

القسم بالأناجيل المقدسة التي وضع عليها يده كما هو منصوص عليه في القانون. وكان مما صرح به أنه لما كان بميناء رأس غير، وصل إلى هناك شخص يسمى (فرانسيشكو باياوو الألكن (F. Bayão Gago)، من (ستوبال)، كان يصاحبه كمسؤول عن السلع أحد أبناء (فرناو رودريغش Fernão Rodriguez) الذي نقل إلى هناك الصمغ وبعض الرزم من الثوب الملون. ومن هناك نقل التاجر المذكور تلك السلع إلى تارودانت. وقد عاد الألكن مرة أخرى إلى نفس الميناء في مركب، وسمع (المبلغ) أنه حمل إلى هناك قبعات وفضة لا يدري ما إذا كانت مسكوكة أم لا، وسمع كلا من (جيل فاش Gil V) و(غونصلو رودريغش Gonçalo Rodriguez) و(يوحنا فرنانديش João Fernandez يقولون ذلك. وعاد الشاهد إلى (ستوبال) رفقة الألكن المذكور، وحملا معهما أربعة أو خمسة أكياس من اللوز وكيسين من التمر. وكانت تلك السلع مرسلة من لدن ابن (فَرْنَاوْ رُودْرِيغَشْ Fernão Rodriguêz) إلى أبيه، وتم وضعها هنا بالجمارك. و وصل في المركب المذكور (إلى هنا) قبل (São João) بأيام قليلة من السنة الحالية، وبعد ذلك بسبعة أوثمانية أيام ،عاد الألكن المذكور إلى بلاد البرابرة. وبعد عودته من هناك أخبر أحد البحارة الذين رافقوا الألكن المذكور، والمقيم بالمنظر الجميل، والذي يجهل اسمه، أخبر الشاهد أنه والألكن المذكور، وباقي البحارة، ذهبوا إلى مازيغن (1)، ومن هناك إلى آسفي، ونقلوا الصمغ الذي كان في ملكية (دورات الفاريشDurate Alvarez) المقيم بـ (Tojo)، أحد أماكن هذه المدينة. وأخبره نفس البحار أنهم شحنوا جلودا من هناك وأفرغوها (بسْتوبَالْ). وأكد أنه لا يعلم غير ما ذكر، وأنه صحيح بحكم القسم الذي أداه. ولم يذكر شيئا عن علاقته بمن بلغ بهم. وحررته أنا، (منويل كورديرو).

وصرح كذلك أنه سمع أن الفضة والقبعات التي ذكرها أعلاه قد نقلت في مركب الألكن، وأنها أرسلت من هذه المدينة من طرف (فرناو رودريغش) إلى ابنه الذي توصل بها فعلا حسبما بلغه. وحررته، أنا، (منويل كورديرو).

---

(1) الاسم البربري لمدينة الجديدة الذي عرفت به خلال القرون الوسطى وخلال احتلالها الطويل من لدن البرتغاليين (Mazagão)، راجع **دكالة** ... ص 91.

وفي اليوم الثاني عشر من شهر نونبر من سنة 1552، بلشبونة، بقاعة جلسات محكمة التحقيق المقدسة، حضر المحقق السيد المجاز (بيرو الفاريش دو بريدش) وأمر (فيسانت لورنسو) بالمثول أمامه وبأداء القسم بالأناجيل المقدسة حسب القانون.

سئل عما إذا كان يتذكر أشخاصا آخرين يتاجرون ببلاد المسلمين، فكان مما قاله: لقد شحن كل من (فرنساو رودريغش) و(دوارت الفاريش) مركبين بفلندرا (و 5 و) ورافقا الأسطول الذي يحمي مراكب البلد[1] حتى لشبونة، ومنها اتجها نحو رأس غير، إلا انه يجهل نوعية السلع التي حملوها إلى هناك. وذكر له (فرانسيشكو باياوو) الألكن، الساكن بستوبال، أنه منذ شهر ونصف تقريبا، لما عاد من (رأس غير) بالأصواف التي أفرغها بستوبال، ترك هناك مركبين دون أن يحدد له نوعية السلع التي حملاها، أو التي عادا بها.

وعن علاقته بمن بلغ بهم، ذكر أنه على خلاف مع(كْرِيشْطُفَاوْ بَايْشْ) المذكور وباقي الاشخاص، وأنه صادق فيما ذكره عن الآخرين، وكذا عن (كْرِيشْطُفَاوْ بَاشْ) السابق الذكر، وأنه لم يقله لحقد أو كراهية، وإنما لكونه حدث فعلا، وحررته، أنا، (انطونيو رودريغش).

* * * *

وفي اليوم السابع عشر من شهر نونبر من سنة 1552، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة،حضر المحقق، السيد المجاز (بيدرو الفاريش دو بريدش)، ونادى على (دوارت الفريش Duarte Alvarez) الساكن بلشبونة، وأمره بأداء القسم بالأناجيل المقدسة.

وبعد أن سئل، كان مما صرح به أنه منذ شهرين تقريبا، أوفد مركبا إلى مازيغن لنقل الصمغ وثياب هندية وأقمشةكانت له هناك، فحملها المركب المذكور ونقلها إلى آسفي حيث سلمت لـ (لوبو منديش Lopo Mendez) المذكور، وأُن المركب المذكور كان ملكا لشخص يسمى (فرانسيشكو باياوو) الألكن القاطن بستوبال الذي شحنه في العودة جلودا وصوفا. ولم يذكر غير هذا، ولم يقل شيئا عن علاقته بمن بلغ بهم. وذكر ان ما قاله صحيح. وحررته، أنا، (أنطونيو رودريغش).

(1) يشير هنا إلى الأساطيل الحربية التي جهزتها الدولة البرتغالية لحماية تجارتها وسواحلها، عن هذه الاجراءات راجع : **دكالة** ... مرجع سابق ص 414.

(ورقة 5 ظ) وفي اليوم السادس عشر من شهر نونبر من سنة 1552، بلشبونة، بقاعة الجلسات، بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر المحقق، السيد المجاز (بيدرو ألفريش دو بريدش)، ونادى على (كْرِيشْطُوفَاوْ بايش christovão Paez) الساكن بهذه المدينة، أمام كنيسة (Mercês)، والذي ذكر أن سنه تبلغ الخامسة والثلاثين أو السادسة والثلاثين، وأمره بأداء القسم، وسأله. ومما جاء في جوابه أن (فرناو رودريغش) أكترى مركب أحد بحارة ستوبال، يدعى الألكن، لنقل سلعه إلى رأس غير؛ وأنه عاد من هناك محملا سلعا، وذلك منذ شهرين أو ثلاثة تقريبا. ولم يضف شيئا، وذكر أنه يتابع (فيسانت لورنصو) بسبب الحسابات المتعلقة بتلك السلعة، كما يتابع (فرناو رودريغش) بشأن مجاذيف اشتراها منه. إلا أن هذا لم يمنعهم من الكلام مع بعضهم البعض. وعن باقي الأشخاص، لم يذكر شيئا، وحررته، أنا، (انطونيو رودريغش).

* * * *

وفي اليوم الثامن عشر من شهر نونبر من سنة 1552، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التحقيق المقدسة، حضر المحقق، السيد المجاز (بيدروألفريش دو بريدش)، ونادى على (فرناوْ رودريغش) المسيحي المحدث، [1] الساكن بهذه المدينة، بالصخور السوداء، وأمره بأداء القسم على الأناجيل المقدسة.

(و6 و) وبعد أن سئل، كان مما أجاب به أنه منذ سنة وشهرين التحق أحد أبنائه المسمى (روي فرنانديش)، الذي كان آنذاك بفلندرا، التحق برأس غير هروبا من مقترضيه، ونقل إلى هناك أثوابا هندية ومسكا وسلعا أخرى نسيها الآن، إلا أنه وعد بالبحث عن مستنداته وتقديم مسودتها إلى المحكمة. وذكر أنه حمل تلك السلع من هذه المدينة، في سفينة كانت في ملكية ألكن ستوبال، وأن ابن المصرح الذي يسمى (أندر رودريغش) الذي وافته المنية، أشرف على شحن تلك السفينة، وأن قسما من رأس المال كان للمصرح. وصاحب ابنه (رُوِي فَرْنَا نْدِيشْ) تلك السلع حتى رأس غير، ومن هناك حملها إلى تارودانت، حيث لايزال إلى الآن، وبعث له في نفس المركب وقت رجوعه سلعا تم الاستيلاء عليها صحبة المركب بميناء (سانتا مريا Santa Maria)[2].

(1) أي يهودي متنصر. ومعلوم أن الملك امنويل فرض التنصر على كل يهود ومسلمي البرتغال سنة 1497.

(2) ميناء إسباني يوجد بين قادس واشبيلية. وتؤكد هذه الإشارة تضرر البرتغاليين من القرصنة الإسبانية.

وكان ضمن السفن التي وصلت المدينة خلال هذا الصيف سفينتان كانتا تحملان سلع (أندر دياش) وسلع المصرح (فرناو ردريغش) وسلع آخرين لا يعرفهم. وكانت سلعه عبارة عن رزم من (bilajens) ومواد أخرى لا يتذكرها الآن، ووعد سعادة المحقق بالبحث عن المستندات المتعلقة بها والإتيان بها. وبعث (المصرح) بتلك السلع إلى ابنه (روي فرنانديش) الذي كان برأس غير حيث كان وكيل أبيه وممثل شخص آخر يسمى (أندر دياش) يوجد بمدينة (أنفيرس Anvers)[1] بفلندرا، وكذا أحد إخوة (اندردياش) المسمى (بلشيور داكوشطا)، (و6 ظ) وهو تاجر يقيم بهذه المدينة.

وشحن المركبان المذكوران السكر والجلود من تارودانت[2] وتوجها بعد ذلك نحو (انفيرس)، وأضاف أن ابنه شحن هناك بتارودانت نصيبه في المركبين المذكورين.

وذكر انه خلال الصيف الماضي، عاد (بياوو) المذكور من رأس غير ووصل إلى هذه المدينة، وحمل سبعة أكياس من اللوز وكميات أخرى في كيس آخر، وصندوقا من السكر للبيع، وربعين[3] من الشمع و26 أو 27 من الجلود كانت في ملكية (بياوو) المذكور. وأضاف أنه لم يرسل سلعا أخرى. ولم يذكر شيئا غير هذا. وحررته، أنا، أنطونيو رودريغش).

---

(1) أنشط موانئ شمال غرب أوروبا خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، كان أهم مركز تجاري بالنسبة للبرتغاليين الذين كانت لهم به وكالة تجارية مهمة جدا مكلفة ببيع توابل وعقاقير الشرق الأقصى واقتناء الأثواب والأسلحة واقتراض الأموال التي كانت الدولة في حاجة اليها. توجد أنفيرس ببلجيكا، وكانت ضمن الإقليم المسمى خلال القرن السادس عشر بفلندرا.

(2) هل يفهم من هذه الإشارة، ومن التي جاءت بعدها، أن السفن كانت تصل تارودانت. واذا صح ذلك تكون أنهار المغرب خلال القرن السادس عشر على وجه مخالف لما هي عليه اليوم. ولقد تأكد لنا ذلك بالنسبة لمارتيل، واللكوس وسبو وأم الربيع.

(3) من الأوزان البرتغالية، كان يعادل ربع القنطار البرتغالي، مما يمثل وزنا يتراوح بين 13 و 16،9 كلغ، وذلك لكون الأوزان لم تكن موحدة عبر التراب البرتغالي. عن الأوزان والمكاييل البرتغالية والمغربية خلال ق. 16، راجع: **دكالة**، ص 393.

تم نقل هذه التبليغات بكل أمانة على يدي، أنا، (مانويل كورديرو)، الكاتب بمحكمة التفتيش المقدسة، وراجعتها مع (أنطونيو رودريغش) الكاتب الآخر بمحكمة التفتيش المقدسة.

وعبارة "سمع" الموجودة بين سطرين، غير مضافة من أجل التزوير. ووقعنا هنا معا. (منويل كردييرو).

****

وفي اليوم الثالث عشر من شهر دجنبر من سنة 1553، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر المحقق السيد الدكتور (أنبروزيو كنبيلو) من مستشاري مولانا الملك القضائيين، والمندوب بمحكمة التفتيش المقدسة، ونادى على (ديوغو مارتينش Diogo Martins) ابن (بيدرو مارتينش) التاجر المقيم بهذه المدينة، بجماعة (سان نيكولاو، São Nicolão) وأمره بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي لمسها بيده، وقال : إنه في (Santyspryto) الماضي، أبحر المبلغ بميناء (ستوبال) في كرفيلا يملكها شخص بحار يدعى (فرانسيشكو باياوو) المكنى بالألكن. وكان يساعده (أفونصو ألفاريش) و(لورنصو رودريغش) الساكنين بـ (ستوبال). وأقلعت السفينة من الميناء ليلة العيد المذكور لتتجه نحو رأس غير. وسافر المبلغ (دييغو مارتينش) بنية الوصول إلى رأس غير المذكور، ومن هناك إلى تارودانت ليرى ما إذا كان بإمكانه اختطاف أحد إخوته المسمى (إنريك مارتينش) الموجود هناك منذ ما يقرب من خمس سنوات، أو تحريره بوسيلة أخرى، لكونه كان منذ سنتين محجوزا كضمانة على شخص يدعى (فيسانت لورنصو)، كما تشهد على ذلك بعض الوثائق التي سلمها المبلغ للسادة المحققين.

وخلال رحلتهم المذكورة، شاهد رجلين في السفينة ، أحدهما طويل القامة يميل إلى السمرة، جعد الشعر، يرتدي لباسا صوفيا خشنا، ومعطفا خفيفا أسود، وسراويل بالية، وقبعة شبيهة بقبعات الرهبان، وكان يتقلد سيفه وهو في مغمده المخملي.

أما ثانيهما فكان أقصر وأسمر وجعد الشعر، وذا لحية خفيفة. وكانت ثيابه بالية وسراويله سوداء، ولم تكن قبعته تحوي زينة عدا جديلة، وكان يربط سيفه بحزام.

وكانا يتكلمان معا باللغة القشتالية، وكذا بلغة أخرى لم يفهمها، غير أنهما كانا يرددان بين الفينة والأخرى عبارة : "Nytc Frystol". ويبدو له أنهما كانا يقولان ذلك لكي لا يعرف حقيقة أمرها. ورآهما المبلغ لأول مرة بعد يومين من بداية السفر يخرجان من تحت الفراش، فسأل عنهما الربان الذي كان هو (بياو)، فأجابه أنهما تاجران أجنبيان، وأنه يحملهما إلى آسفي.

وفي يوم "Corpus christi" أنزل (فرانسيشكو بياوو) المذكور الرجلين في البر عند مستوى رأس القصب[1]، قرب آسفي، وذلك اعتمادا على قارب الكرفيلا، وأنزل معهما رزمتين من الثياب (و8 و) وحقيبة من الجلد كانت تحت مقدمة المركب. وما أن أوصل (فرنسيشكو بياوو) و(أفونصو الفاريش) الرجلين إلى البر حتى عادا في نفس القارب إلى الكرفيلا التي بقي المصرح فيها رفقة بحار آخر يسمى (لورنصو رودريغش)، وذلك دون أن ينزلا إلى اليابسة. ومن هناك تابعوا رحلتهم إلى رأس غير. ولقد رأى المصرح الرجلين وهما يتجهان نحو بلاد المسلمين برا، مرورا باحدى القرى الموجودة على بعد نصف (لغوا)[2] من آسفي. ولا يدري ما إذا كانا قد توجها إلى هناك أم إلى مكان آخر، ولم يرهما بعد ذلك. وقبل وصول (بياوو) المذكور والبحارة الذين كانوا مع المصرح إلى رأس غير، طاردتهم سفينة فرنسية وألقت بمركبهم بساحل بلاد المسلمين حيث أسرهم المسلمون وحملوهم برا إلى مكان يسمى (تمراك Tama-raque)[3] يبعد عن رأس غير بـ (2 لغواش). وبعد يوميون من ذلك، التحقت الكرفيلا المذكورة براس غير حيث ذهب البحارة المذكورون للبحث عنها لكون المسيحيين الذين كانوا هناك تسلموها كضمانة. ومن رأس غير، أرسل المصرح نفسه رسالة إلى أخيه الموجود (بتارودانت) لاشعاره بمشاكله هناك. والتحق به أخوه تحت حماية السلطان (و 8ظ)، وذلك بعد أن قدم ثمانية تجار مسيحيين أنفسهم كضمانة على عودته إلى تارودانت؛ وما أن وصل أخوه حتى أطلق سراح المصرح وأركبه في الكرفيلا المذكورة مع (بياوو) المذكور والبحارة بسرعة كبيرة جدا خوفا من أن يأسروهم من جديد؛ وعادوا إلى هذه المدينة دون أن يحملوا أية سلعة. وبقي أخوه المذكور برأس غير ليعود منها إلى

(1) رأس سيدي بوزيد الخالي، المشرف على الميناء.

(2) قدرها هنري دو كاستر ب 5555 متر. راجع :

H. de Castries , **Description du Maroc sous le règne de Moulay Ahmed Mansour d'après un manuscrit de la Bibliothèque Nationale**, Paris, 1909 ,p.9.

(3) لعلها قرية تمري الساحلية، الموجودة شمال رأس غير.

تارودانت بسبب الضمانة التي تركها هناك، والمتمثلة في ثمانية أشخاص، وذلك بعد أن طمأنه وأكد له أنه سيبحث لنفسه هناك عن حل لكونه يعرف البلد، وأن بقاء المصرح وربان السفينة والبحارة قد يؤدي إلى أسرهم.

(وأضاف) أن أباه بعث له رسالة خلال هذا الاسبوع من إشبيلية حيث يوجد، كما كاتبه أحد اخوته المسمى (فرانسيشكو مارتينش) الموجود بقادس، وأخبره بأن الرجلين اللذين نقلهما (بياوو) لبلاد المسلمين كانا موركسيين [1] عادا هناك إلى الاسلام؛ وأنهما علما ذلك بواسطة التجار الذين عادوا من بلاد المسلمين إلى إشبيلية وقادس. ولهذا أتى المصرح الآن للتبليغ بذلك وإطلاع محكمة التفتيش المقدسة عليه، وذلك للقيام بواجبه.

ولم يضف شيئا (و9 و) ولم يقل شيئا عن علاقته بمن بلغ بهم.

وسئل عما إذا كان بالكرفيلا المذكورة شخص آخر غير من ذكر فقال، لم ير غير رجل يسمى (جوا دو إيفورا João de Evora) من جزيرة ماديرا، أخبره أنه يعمل بمعاصر السكر،[2] وكان برأس غير حيث نقله أخو المصرح سريا ليعود معهم إلى لشبونة.

وسئل عما إذا سبق له أن رأى الرجلين المذكورين اللذين أنزلهما الربان والبحارة ببلاد الاسلام، وهل تعرف عليهما؟ فأجاب أنه لا يتذكر أنه سبقت له رؤيتهما، وأنه إذا ما رآهما في نفس الزي، فبإمكانه التعرف عليهما، وأنه سمعهما في بعض المرات يتناديان بـ (تيشيرا Teyxcyra) أعني الأطول، بينما كان الآخر ينادى بـ (لوبو فاش). ويبدو له أن الذي كان ينادى (تيشيرا Teyxeyra) كان يعامل كمن له سلطة على الآخر، وذلك رغم أنهما كانا يأكلان معا.

---

(1) أي مسلمين متنصرين. وعن أسباب التحاق جالية مغربية مهمة بالبرتغال وظروف عيشها هناك، ومعاناتها من الاضطهاد والعنصرية، راجع : أحمد بوشرب،.

-الموركسيون بالبرتغال. **المجلة التاريخية المغربية** (تونس) عدد 25 ـ 26 (يونيو 1982) **المناهل** (الرباط) عدد 24 يوليوز 1982.

- محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية. أنظر أعلاه.

(2) كان عدد من البرتغاليين يعملون بمعاصر السكر لتقدمهم على المغاربة في هذا الميدان. هذا وتجدر الاشارة إلى ان المعاصر كانت تعتمد كذلك على كميات كبرى من الخشب المستورد لصناعة الصناديق وكذا محاور ودواليب المعاصر. وعن صناعة السكر بالمغرب في عهد السعديين، راجع :

Paul Berthier: **les anciennes sucreries au Maroc**, Rabat, 1960.

وسئل عما إذا كان يعلم أن أسلحة معينة أو سلعا محرمة[1] قد نقلت في الكرفيلا المذكورة، فأجاب بالنفي، وأنه لم ير بالمركب أية سلعة محرمة؛ وأنه لم ير غير الرزم والحقيبة المذكورة أعلاه. صحيح أن الربان المذكور كان يحمل قاذفة نبال، إلا أنه أرجعها معه.

وسئل عما إذا علم من شخص أو من أشخاص أن أسلحة أو سلعا محرمة تنقل إلى بلاد المسلمين، فنفى ذلك، وذكر أن عددا كبيرا من التجار المسيحيين، القشتاليين والبرتغاليين يذهبون إلى رأس غير، منهم (ميغيل دياش) المزداد بهذه المدينة، والذي يشرف على مصالح (بينتو رودريغش) و(دوارت ألفاريش) كما ذهب إلى هناك (لويش فرنانديش) ابن (فرناو رودريغش) و(طوماش دو ليان thomas de Lyan) الذي عاد من هناك. ولقد رآهم المصرح بالمخازن يعدون، كتجار، السلع لإرسالها إلى فلندرا وقادس، وكان (ليان Lyan) آنذاك على أهبة ركوب البحر للذهاب إلى البرتغال، الأمر الذي قام به فعلا.

(وأضاف) أنه شاهد بميناء رأس غير المذكور عدة سفن، أي ما مجموعه إحدى عشرة سفينة منها الفرنسية والإنجليزية والقشتالية والجنوية[2]؛ ولم ير ولو واحدة برتغالية، عدا الكرفيلا التي ذهب فيها.

ولم يضف شيئا، وذكر أن سنه قد تقرب من السابعة والعشرين، الأمر الذي يتجلى فعلا من ملامحه. ووقع هنا. وطلب المحقق منه الاحتفاظ بالسر بشأن كل ما بلغ به هنا، وأمره بأداء القسم عن ذلك. وحررته، أنا، (منويل كورديرو) مع التشطيبين وما بين السطور، الأمر الذي لم يكن من أجل التزوير.

إمضاءان

---

(1) أي السلع التي يمكن استعمالها في محاربة المسيحيين كالخشب والسلاح والمعادن والكبريت والحبال... وفي اطار محاربة الاسلام حرم الاتجار مع المسلمين، ولم يحصل ملوك البرتغال على تسريح بابوي للاتجار بالمغرب الا بعد تقديمهم تبريرات اقنعت الفاتكان. للمزيد من المعلومات راجع :. **دكالة** ... ص 152، وكذا:

"Les Bulles pontificales et l'expansion portugaise au XVe siècle". **Rev.d'Histoire ecclésiastique**, louvain, n°. XLVIII, 1953, p. 692.

(2) عن التهريب خلال العقود الاولى من القرن السادس عشر، راجع : . **دكالة** ... ص 414.

D. de Góis: **Les Portugais au Maroc**. Trad. R. Ricard, Rabat 1937 p 215 216 --

Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 1ère Série. Portugal, I. p. 561 et s.s.

(و 14 و)[1] وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر ماي من سنة 1554، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر المحقق السيد المجاز (بيدرو ألفاريش دوبريدش) ونادى على (غاشبارGaspar)، ابن (الفارو أنشAlvaro Annes) وابن أخ (فرانسيشكو بياوو) الذي عثر عليه رفقته بالكرفيلا، والذي قد يكون عمره أربع عشرة سنة، كما يتجلى ذلك من مظهره. وفور ذلك سأله السيد المحقق عن المدة التي قضاها إلى جانب عمه (فرانسيشكو بياوو) ، وعن عدد الرحلات التي قام بها رفقته إلى بلاد المسلمين، وعن نوع السلع التي نقلها، وعما إذا نقل بالكرفيلا بعض المورسكيين المسيحيين أو أشخاصا آخرين إلى بلاد المسلمين، إما لآسفي أو لغيرها من المناطق، وعن إسم البحارة الذين رافقوهما. قال : لقد قضى إلى جانب عمه حوالي سنتين قام خلالها بثلاث رحلات من هذه المدينة إلى بلاد المسلمين. فخلال أولاها حملا في الكرفيلا المذكورة موريسكيا يدعى (دون بيدرو) وآخر كان يرافقه، نقلهما عمه إلى آسفي حسبما أبلغه، لكونه لم يرافقه آنذاك، إذ بقي بالبيت إلى جانب عمته بحي الحمة لعدم سماح عمه له بمرافقته. وكان البحارة هم : (أفونصو الفاريش) (و 14 ظ) وابنه (دييغو رودريغش) و(لورنصو رودريغش) ابن" Irmytan de Troya وحسبما سمع، لم يحمل في هذه الرحلة أية سلعة.

وقام عمه بعد ذلك برحلة أخرى إلى بلاد المسلمين شارك المصرح فيها، وكان البحارة خلالها هم السابق ذكرهم. وبالمكان المسمى (cata que faras)، المحادي لدير (روح القديس)، شحن عمه الكرفيلا صمغا تسلمه من (دوارت الفاريش)، التاجر المقيم بهذه المدينة، والذي لا يعرفه المصرح، إلا أنه سمع عمه يقول إن تلك السلعة لـ (دوارت ألفاريش) و(بينتو رودريغش) و(منويل كلديرا).

وذكر أنه ذهب مع عمه إلى بيت (دورات ألفاريش)، غير أنه بقي بالباب . ومن هناك نقلوا الصمغ خلال الليل بواسطة النقالين. ولم يعرف عدد الأكياس التي نقلوها، إلا أنه لاحظ أن السفينة كانت جد مثقلة. كما حملوا أربع رزم من أثواب الهند، بعضها أبيض والبعض الآخر أحمر. وأبحروا جميعا أي : (بياوو) المذكور، و (أفونصو

---

(1) الاوراق 10 و، 11، 12، 13 تحتوي على قائمة ما استولى عليه البحار الحاكم من أموال وحلي وألبسة كانت في حوزة المغربية التي قتلها وألقى بها في البحر، كما تحتوي على استنطاق زوجة المتهم بشأن تلك الأشياء، وعلى محضر تسليمها لسيد الضحية لكونها كانت أسيرة. وبما أن ذكر تلك الأموال والحلي وغيرها سيرد ضمن اعترافات المتهم، فقد فضلنا عدم ترجمة تلك الأوراق .

ألفاريش)، وابنه (ديبغو رودريغش)، والمصرح. ولم يرافقهم (لورنسو) في هذه الرحلة. وتم نقل تلك السلعة إلى آسفي حيث سلموها لرجل كان مقيما هناك، (و 15 و) ومنها نقلوا الجلود والنيلة. وأضاف أنهم وصلوا ليلا إلى هذه المدينة؛ وبها أفرغوا تلك السلعة بمحل يعرف بـ (كوبا Cuba) بدار هناك. وأخبره عمه أن (دوارت ألفاريش) حضر خلال إفراغ السلعة رفقة رجلين آخرين مسلحين. وأضاف أن عمه شحن مرة أخرى سفينته بالصمغ الذي كان ل (دوارت ألفاريش) حسب ما ذكر عمه (بياوو). وبينما كانت كرفيلا عمه بالبحر، أرسل إليها (دورات ألفاريش) في مركب ذلك الصمغ وكذا أربعة أكياس من البهار وخمس عشرة رزمة من الأثواب الحمراء. وبمقلع الحجارة (San Gyam) الموجود قرب (Santa Catarina)، نقلوا موركسيتين كانتا تتكلمان العربية، إحداهما بيضاء البشرة تغلب عليها سمات الرفاهية، والأخرى قصيرة القامة ونحيفة. وخلال رحلتهم هذه، هبت عواصف عنيفة أرغمتهم على القاء البهار في البحر، وعلى التوجه نحو (فارو، Faro). إلا أنه عاد إلى القول انهم في تلك المرة لم يلقوا بالبهار في البحر، وأنهم نزلوا إلى الأرض اعتمادا على قارب. و(بفارو)، صادرت السلطة تلك السلعة قبل أن ترجعها لهم. ومن جديد حملوا المسلمتين المذكورتين ليلا من غابة تين بقيتا بها مختبئتين. ومرة أخرى، هبت عواصف اضطروا إثرها إلى إلقاء البهار في البحر. أما رزم الأثواب، فقد بقيت ب (فارو) واعتبرت مفقودة. وأرغمتهم تلك العاصفة على النزول مرة أخرى بـ (ستوبال) التي اتجهوا منها نحو (سان جيان) المحادية ل (سانطا كاترينا) التي أنزلوا بها المسلمتين خلال الليل. وذكر أنه يجهل اسمهما ولا يعرف سيدهما، وأن عمه (بياوو) نقلهما إلى البر في القارب بمعية رجل اصطحبه معه من (ستوبال) ليعوض (ديوغو رودريغش) الذي بقي هناك جريحا. وذكر أنه يجهل اسم ذلك الرجل.

وأضاف أن شخصين هما (أفونصيكا) و(فرانسيشكو فرنانديش) صاحبا عمه من ستوبال، وأن الكرفيلا بقيت بسان جيان محملة ببراميل الصمغ الخمسة، وبقي المصرح فيها رفقة (فرانسيشكو فرنانديش) و(أفونصيكا). ومن هذه المدينة أخذ عمه قارب صيد مع شباك وضعها في الكرفيلا واتجه نحو (ستوبال) التي عاد منها إلى هنا (لشبونة) برا بعد أيام قليلة (و16 ر)، وذلك لنقل المسلمتين المذكورتين، وكذا بعض المورسكيين. وكان من المقرر في حالة عدم العثور عليهم أن ينقل سلعا. وذكر المصرح

أنه أتى مع عمه برا وذهبا إلى (cata que faras). وبعد تجاوز الصليب، دخلوا بيتا يوجد قرب دكان حيث يعيش بعض الموركسيين. وهناك وجدوا المورسكية الجميلة التي حملوها ورفيقتها، واللتين كان من المقرر أن يحملهما عمه إلى آسفي. ولم يعلم شيئا مما دار بين عمه وبينهما. ويبدو له أن (فرانسيشكو غونصالفيش) يعرف بدوره أين تسكنان. ولما كانوا ب (سان جيان) التحق بهم مورسكي ومعه برميل من الخمر، واتفقوا على أن يكون يوم الإقلاع هو الأحد. إلا أنهم اعتقلوا يوم السبت.

وذكر أنه لم يبلغ بهذا قبل اليوم لأن عمه أمره بالسكوت، ونبهه إلى أن قوله لأي شيء سيؤدي إلى إحراقه، ونفس الشيء قاله له مورسكي سجين يسمى (جوا غونصالفيش). وأضاف أن شخصا كان يود بدوره الذهاب إلى بلاد البرابرة (Berberya) وصنع لذلك سفينة جديدة، إلا أنه لا يعرفه ويجهل إسمه، غير أن (فرانسيشكو غونصلفيش) يعرفه. وأضاف أنه لما كان بآسفي أخبره (أفونصو ألفاريش) أن القائد (و 16 ظ) أمره بصنع سند لمدفعية مركبة لكي لا تسقط [1]، وأن عم المصرح و(أفونصو الفاريس) المذكور، ابتعدا عن آسفي مسافة ثلاث (لغواش) للبحث عن صارية سفينة لتركيبها بالمركب المذكور، وأن المصرح وعمه و(أفونصو ألفاريش) وابنه ركبوا الكرفيلا لمرافقة المسلمين الذاهبين في مركبهم لكي يدخلوا النهر الموجود بين آسفي ومازيغن[2]، وذلك لانتظار الصيادين الذين يخرجون من مازيغن للصيد، وأنهم ما أن أوصلوهم إلى ذلك النهر حتى عادوا إلى آسفي مرة أخرى.

وأخبره عمه أنهم (أي المسلمون) استولوا لهم على ثلاثة مجاذيف، وأنه أعطاهم مرساة، كما أهدى لقائد آسفي خريطة بحرية، بينما أعطاه القائد أخرى صغيرة ليعتمد عليها في العودة إلى البرتغال.

وأضاف أن عمه غادر الكرفيلا عدة مرات للذهاب للحديث مع المسلمين، إلا أنه لا يدري ما دار بينهم، وأن الدار التي تقطن بها المورسكيتان المذكورتان توجد بين الحدادين والمكان المسمى (Bota).

ولم يقل غير هذا الذي حررته ووقعته أنا، (أنطونيو رودريغش)، مع التشطيب والمضاف بين السطور، والذي لم يكن قصد التزوير.

---

(1) ترجمة غير اكيدة للعبارات : "hum sobrecostado, e que nom penderya "

(2) لعل المصرح يقصد الوليدية، وعلى كل حال، لا يوجد نهر بين المدينتين المذكورتين.

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر دجنبر من سنة 1554، بلشبونة، بسجن محكمة التفتيش المقدسة، حضر المحقق، السيد المجاز (بيدروألفاريش دو بريدش)، إلى قاعة الاستنطاق وأمر (ليونور فاش Leonor Vaz) بالمثول أمامه، فقالت : إنها تود أن تطلع سماحته على ما تعرفه عن موريسكي يسمى (دون بيدرو) فر إلى بلاد المسلمين.

فمنذ بضعة أيام دخلت بيتها مسلمة تقول إنها تقطن بالمنظر الجميل، تسمى (منين Menyn)، وذكرت لها أنها أتت لشراء ديوك. وحينما تحدثتا عن (دون بيدرو) المذكور، والذي كان متزوجا هنا مع ابنة موريسكيين، أخبرتها (Menyn) المذكورة أن (دون بيدرو) المذكور فر صحبة موريسكي قصير القامة، كان يعيش هنا بدير (ساو دومينغوش) قصد تعلم مبادئ العقيدة، وأنهما أبحرا من ستوبال، ومن هناك اتجها نحو بلاد المسلمين، وأن من نقلهما رجل أبيض[1] من سكان (ستوبال). وأخبرتها المسلمة المذكورة أن من أطلعها على ذلك موريسكي يعيش من حمل الشباك بالميناء، ويقيم بستوبال (و 18 ظ) . وأضافت أن الموريسكي المذكور أخبرها أنه يعرف الرجل الأبيض الساكن بستوبال الذي نقل (دون بيدرو) ورفيقه إلى بلاد المسلمين، وأن المسلمة المذكورة هي التي أطلعت المصرحة على كل هذا، إلا أنها لم تطلعها على اسم مالكها [2] ولا تعرفه، وأخبرتها فقط بإقامتها بالمنظر الجميل؛ وذكرت المصرحة أن كل ما صرحت به صحيح بحكم القسم بالأناجيل المقدسة التي لمستها بيدها. وأضافت أن المسلمة المذكورة (Menyn) لم تطلعها على إسم الموريسكي الذي أخبرها بما ذكرت أعلاه، واكتفت بالإشارة إلى أنه يعمل بالميناء، وأنها لا تعرف أين يقيم بهذه المدينة. ولم تقل غير هذا. ونزولا عند رغبتها، وقعت نيابة عنها؛ وحررته، أنا، (منويل كورديرو) مع العبارة «... سبق ذكره» التي كتبتها بين السطرين، والتي لم تكن من أجل التزوير.

****

(و.19.و)وفي اليوم التاسع من شهر أبريل من سنة 1554، بلشبونة، بقاعة

(1) إشارة إلى أن المعني بالأمر برتغالي لا ملون ولا منحدر من أصل إسلامي

(2) إشارة إلى عبودية المغربية التي كانت في حالة أسر.

الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر المحقق، السيد المجاز (بيدرو الفاريش دوبريدش)، ونادى على (كوشم غونصلفيش Cosme Gonçalvez)، المورسكي

الولوف[1]، الحر المتزوج .والمقيم بهذه المدينة، بباب (سانتا كاترينا) من الجهة الخارجة عن الأسوار، بدور (أنطونيو داسيلفا)، والذي ذكر أنه أتى لقول أمور من اختصاصات محكمة التفتيش المقدسة.

وبما أن السيد المحقق أمره بأداء القسم حسب القانون لكي يقول الحق في كل شيء، فإنه نفذ ذلك.

وفور ذلك قال : إنه منذ ستة أو سبعة أشهر، أخبرته في سرية كبرى مسلمة تسمى (Menyn)، وهي عبدة (فرانسيشكو نوبر Francisco Nobre)، المقيم بـ (شاغاش Chagas) أن صديقها المورسكي المسمى (دون بيدرو)، ومورسكيا آخر يسمى (كريشطفاو تيشيرا) فرا إلى بلاد المسلمين، وأنهما أبحرا من (Xabregas)، ونقلهما بحار من ستوبال يكنى بالألكن يتلعثم كثيرا في كلامه، والذي كان يساعده كبحار شخص من نفس المدينة يسمى (بيدرو ألفاريش)، وهو رجل قصير القامة وبدين، بدأ الشيب يظهر بشعره. وأضاف أن المسلمة المذكورة أخبرته أنه حينما تم نقل (دون بيدرو) المذكور ورفيقه، نُقلت معهما سلع لم تحدد نوعيتها. وأخبرته كذلك (و 19 ظ) أن الألكن المذكور ينوي نقلها إلى بلاد المسلمين، إلى آسفي، حيث نقل (دون بيدرو). وخلال عشية البارحة، حوالي الثانية تقريبا، أخبر مسلم في ملكية أخ (دوق براغانصا Duque de Bragança) يسمى حسن، والذي يعمل بالإسطبل ويجر سلاسل، أخبر المصرح أن المسلمة المذكورة فرت إلى افريقيا، إلى بلاد المسلمين، وأن من نقلها إلى هناك هو الألكن المذكور وأحد أبناء (بيدرو ألفاريش)؛ وأنهم أبحروا بمركب صغير من (سانتا كترينا)، وأنه فضلا عن المسلمة، كان يحمل كذلك سلعا، إلا أنه لم يحدد نوعيتها. وبما أن المصرح كان يرغب في الاطلاع أكثر على الموضوع،فإنه ادعى أنه يود بدوره الفرار إلى إفريقيا، وطلب منه أن يطلعه على تاريخ ذهاب الألكن، غير أن المسلم المذكور طلب منه، لكي يفصح له عن ذلك، أن يقسم بدين محمد أنه سيحتفظ بالسر، فوعده المصرح بذلك. وآنذاك وعده المسلم بإشعاره بوقت وصول الألكن، وافترقا بعد ذلك.

وقبل هذا، كان المصرح يوم الأربعاء الماضي بباب (أنطونيو البيرتو António)

(1) Wolof، بالسنغال.وهي قبائل مسلمة .

Alberto) المورسكي الخمار، المقيم بباب البحر، واقفا بجانب بعض البراميل التي كانت هناك (و 20 و)؛ فسمع (أنطونيو) المذكور يتحدث مع زوجته التي لا يعرف اسمها، ويقول لها : «لقد تكلمت فعلا مع الألكن ومع ابن (بيدرو ألفاريش) واتفقنا على نقلي ونقل ابنة اختك إلى بلاد المسلمين، غير أن الألكن لا يمكنه نقلنا إلا من (بلاين Belém)[1]. لذا أنوي الانتقال إلى هناك وفتح حانة، ولقد اكتريت فعلا دارا هناك». وكان جواب زوجته : «... لماذا لا يأتي بنفسه للحديث معي، ألست من يوفر له المأكل والمبيت...؟[2]» فقال لها أنطونيو المذكور : إنه يتعذر عليه المجيء للكلام معها.

وذكر أنه جاء للتبليغ بهذا مدفوعا برغبته في التخفيف عن ضميره لا بحقد أو عداء معين للأشخاص المذكورين، لأنه لا يتوفر على مبرر لذلك. وطلب السيد المحقق منه أن يحتفظ بالسر وأدى عن ذلك القسم. وأمضى هنا. وحررته أنا، (انطوينو رودريغش)، مع ما بين السطرين، والذي لم يكن من أجل التزوير. ووعد بالمجيء إلى هذه المحكمة المقدسة لإخبارها بمجيء الألكن من (ستوبال). وهذا ما نصح بفعله.

إمضاءات

****

(و.20 ظ:) وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل من سنة 1554، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر المحقق السيد المجاز (بيدرو ألفاريش دو بريدش)، ونادى على (غاشبار غونصلفيش Gasper Gonçalvez) المزداد بالجزر الخالدات، الأعزب المقيم حاليا بهذه المدينة، حيث يسكن بالمجازر القديمة، بدار امرأة تكري أسرة وتسمى (A. cortesam).

وبعد أدائه القسم بالأناجيل المقدسة التي لمسها بيده بلغ بما يلي : لما كان جنديا بمازيغن منذ ما يقرب من سنتين، أسره المسلمون بعد أن أقام أربع سنوات بمازيغن، وحملوه إلى آسفي التي بقي بها ما يناهز السنتين . وحينما كان أسير القائد، رأى المسيحيين ينقلون إلى هناك أسلحة كثيرة وسلعا محظور بيعها، وخصوصا منهم الإنجليز الذين شاهد لهم هناك ثلاث سفن، وشاهد كرفيلا برتغالية، وكان بعض تلك السفن يحمل ثمانية آلاف من عصي الرماح، ومنها ما كانت تحمل رؤوس الرماح والدروع، تمت مقايضتها بالسكر الذي شحن برأس غير (و 21 و) حسب ما ذكر له شخص توجه إلى هناك في هذه المهمة. وأضاف أنه عاين إنزال الأسلحة وإن كان لا

---

(1) مكان قرب مصب التيجو، بنى به الملك امنويل حصنا يعتبر من أحسن نماذج ما يعرف بالفن المعماري الامنويلي.

يعـرف المكان الإنجليـزي الذي جلبت منه. وذكـر أن تاجـرا برتغـاليـا متـزوجا يسـمى (غاشبار لويش Gaspar Luís) الساكن بين ساقيـة الملك وساقيـة الخيـول، ذهب مرتين من هنا إلى آسفي في كرفيلا يقال إنها لقبطان مازيغن، نقل فيها أثوابا وصمغا. وبلغه أنه يتـوقف بمازيغن، ثم يلتـحق بآسـفي حيث يقـيم برتغـالي من لشـبـونة يسـمى (فـرناو مـانديش) أو (دييـغو مـانديش) يرسل له أحد أخوته السـاكن بلشبونة، والذي لا يعـرف اسمـه، سلعا في كـرفـيلا الألـكن، هي عبـارة عـن أثواب وقبعـات وصـمغ. وقـد شاهد المصـرح فعلا الألكن المذكور بآسفي ثلاث أو أربع مرات، وكـان يرافـقه بحاران وصبي. وكان شائعا هناك أن الألكن المذكور من سكان الحمة، وأنه أرمل. وشاهد هناك مسلمين بلغـه عنهـما أن أحدهمـا يسـمى هنا (دون بيـدرو)، وأن الآخـر الذي يرافـقـه (و 21ظ) أسمر وقصـير القامة، وأن الألـكن المذكور هو الذي نقلهـما. وشـاهد المصـرح الكرڤيـلا التي نقلت (دون بيدور)، والتي ألقت به وبرفيقه في بر رأس القصب البعيد عن آسفي بما يقرب من نصف (لغْوَا). وأضـاف أن الشائع لدى المسلمين هناك أن ذلك الألكن هو الذي نقلهـما، وأنه لما كان منهمكا في كنس دار سيده القائد، كان بهـا الألكن المذكور الذي سيـتـعرف عليـه في حـالة ما إذا رآه، وكـان معـهـما مسلمـان يسـمـيـان (Morato) و(Condim). وكـان الألكن المذكـور يمسك بخـارطة بحرية ليـعلمـهـما شـؤون البـحر ذاكـرا لهـما أن بـتلك الرياح يمكنهم الذهاب إلى قـادس، وبتلك إلى الجزر الخـالدات[1]. وكـان المسلمـون يقـولون هنـاك أن الألكن المذكور وعـد القـائد بنـقل مـسـلمة كـانت توجـد بهـذه المدينة. وقـال قـائد آسفي المذكـور للألـكن المذكـور : ...«هل يصـعب عليـك المجيء إلى هنا بسلعك؟» فـأجـابه : كـلا، فـرد عليـه القـائد: «...إذن لم لا تأتـي أنت (و 22و) وزوجتك وأبناؤك إلى هنا، وسأضـمن لك حـماية الشريف لكي لا يصـلك أذى، ويمكنك آنذاك أن تذهب في كـرفـيلتك وفي مـركبي لنهـب ومهـاجمة المسـيحيين». فـوعـد الألـكن المذكور بفـعل ذلك، وبنقـل المسلمـة المذكـورة، وبالذهـاب للإقـامـة هنـاك في حـالة مـا إذا تعرض هنا لأي أذى.

وذكـر أن هذا تم خـلال الصـيف الماضي، وأن الألـكن لم يعـد بعـد ذلك خـلال المدة التي بـقي أسـيرا بـآسـفي هو ورفـاقـه. وأضـاف أنه شـاهد بـهـذه المدينة (فْـرَانْسِـيـشْكُوا رُودْرِيغَشْ) المسـيحي المحدث، الذي ذهب إلى آسـفي، وذلك منذ مـا يـقـرب مـن سنـتـين،

(1) تؤكد هذه الاشارة ما ذهبنا إليه في دراستنا عن دكالة بعد تعرضها للغزو البرتغالي. فلقد أصبح اهتمام السكان بالبحر أقل مما كان عليه خلال القرون الوسطى، وأصبح الآسفيون عاجزين عن صنع المراكب وركوب البحر. راجع : **دكالة** .. ص 460. وكذا إشارات لاحقة بهذا المحضر. انظر كذلك مقالنا: "المغاربة والبحر" المنشور بهذا الكتاب.

وأنه نقل في المركب الذاهب إلى مازيغن أثوابا وقبعات وصمغا باعه هناك للمسلمين، وأرسل إلى هنا جلودا وشمعا. وذكر أنه يجهل أين يقيم (فرانسيشكو رودريغش)، وأن مسيحيا محدثا من طفيرا (Tavira) يسمى (دوارت رودريغش) ينتقل بين آسفي ومراكش لكونه وكيل تجار هذه المدينة الأخيرة. ويقال إن (و 22ظ) هذا الشخص له أب بمراكش يسمى (رَفَايِيلْ رُودْرِيغش). وأضاف أنه شاهد الألكن المذكور يعطي لقائد آسفي مرساة من حديد ومجذافا كبيرا والعمود الذي يحمل الشراع الثلاثي قصد استعمالهم في المركب الذي يملكه نفس القائد. وبينما كان المصرح هناك بآسفي، وصلها مركب برتغالي يحمل سلعا. ولما كان راسيا باغته الفرنسيون واستولوا عليه؛ وبما أن ربانه كان قد أنزل منه دفة المركب والأشرعة، فإنه باع هذه الأخيرة للقائد. والمصرح يجهل أين يوجد مالك هذا المركب، وكيف يسمى، إلا أن الألكن يعرفه. وهو لا يتذكر غير هذا، ولم يسبق له أن رأى ذلك الألكن إلا بآسفي. ولما سئل عن الأشخاص الذين عاينوا ما ذكر قال : لقد فر من آسفي صحبة أربعة أسرى، هم (ميغيل ماشادو Miguel Machado) الذي يعيش بقصور الحصن القديم، (و دياش بَارَاشْDias Barras) الذي يقيم الآن رفقة المصرح، و(دوارات دياش Duarte Dias) الذي يعمل الآن بقناة ساقية الخيول، وهؤلاء يعرفون ما جرى هناك. (و 23 و) ولم يقل غير هذا، وحررته، أنا، (أنطونيو رودريغش) مع التشطيب الذي لا يقصد منه التزوير. وأضاف أن رفيقه الرابع بقي بإشبيلية. ولما سئل عما إذا كان الألكن قد نقل أسلحة إلى هناك، أجاب أنه لم يرها، وأنه لا يعرف من رافق الألكن المذكور.

إمضاءان

****

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر أبريل من سنة 1554، بلشبونة،بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر المحقق، السيد المجاز (بيدروألفاريش دوربريدش)، والدكتور (أنبرونيو كانبيلو)، النائب بمحكمة التفتيش المقدسة، وناديا على (كوشم غُونْصَلْفِيشْ)، المورسكي الحر الذي يعيش بهذه المدينة، خارج باب (سانتا كترينا)، بدور (أنطونيو دسيلفا) والذي ذكر أنه جاء للتبليغ ببعض الأمور التي تبدو له من اختصاصات محكمة التفتيش المقدسة.

وفور ذلك أمره السيد المحقق بأداء القسم بالأناجيل المقدسة كما هو معمول به، وذلك لكي يقول الحق في كل شيء.

ذكر أن سماحته أمرته (و 23 ظ) في الأيام الماضية بالتجسس على (فرانسيشكو بياوو) الألكن المقيم بستوبال، وعلى رجل يسمى (بيدرو الفاريش)، وأحد أبنائه الذين ينقلون المورسكيين إلى بلاد المسلمين، وأمرته أن يشعرها برجوعه، الأمر الذي اهتم به كثيرا. فقد تكلم مع مورسكية حرة وأرملة تسمى (لْيونُورْ لُويَشْ) تقيم بجوار (Sprytal dos Palmeiros) في اتجاه المجازر القديمة، التي ذكرت له أنها تنوي الذهاب مع الألكن المقيم بستوبال الذي قبل نقلها إلى بلاد المسلمين. وأضاف أنها أخبرته بعزمها على مرافقته قبل عيد (سان جوا São João).

ولمعرفة وقت إبحار الألكن، ذهب المصرح البارحة للحديث مع مسلم في ملكية (دون كونشتانتينوDom Constantino). ولكي لا يطلع على نواياه، سأله (المصرح) عن الموعد الذي يمكنه أن يذهب معه فيه إلى بلاد المسلمين. وبعد مغادرته لذلك المسلم التحق به بمقر إقامته شاب بحار بدون لحية، يرتدي دثارا بقبعة ومعطفا قصيرا رمادي اللون وسراويل زرقاء، والذي قد لا يتجاوز عمره العشرين سنة، وسأله عن إسمه فقال له إنه (كوشم غونصلفيش) فقال له : "إنه يحمل له رسالة". ولما انعزل به، أخبره أن مسلم الدوق بعثه إليه (و 24 و) لكي يخبره أنه مستعد لنقله إلى بلاد المسلمين إذا كان يرغب في الفرار، فعبر له المصرح عن رغبته في ذلك، وآنذاك أخبره ذلك الشاب أنه يتوفر على مركب بنهر على بعد ثلاث (لغواش) من هنا، حيث يوجد الألكن المذكور، وأن به أكثر من عشرين برميلا من السلع وحبات القرمز[1].وآنذاك سأله المصرح عما إذا كانوا قد عادوا من إفريقيا بعد نقلهم مسلمة (فرانسيشكو نوبر) إلى هناك، فأخبره أنهم لم ينقلوها بعد، وأنها لا تزال بالكرفيلا. وطلب منه ذلك الشاب أن يعد أمتعته لأنه سيأتي للبحث عنه في بيته ليلة الجمعة القادمة التي ستكون موعد الإبحار؛ وذكر له أنه سيحمل معه مورسكية أو مورسكيتين. وآنذاك نزل الظلام فخرجا معا إلى الشاطئ بجهة (Faras) حيث يوجد حطب الأفران، وأدخله إلى مركب كان راسيا هناك، كان به صبي يحرسه. وبما أن المصرح سأله عن سبب عدم وجود الألكن بذلك المركب، فإنه أجابه أنه بالكرفيلا، وأنه لا داعي لمجيئه إلى هنا، وطلب منه أن يعد نفسه للسفر في يوم الجمعة ليلا، لأنه سيأتي لإشعاره بوقت الإبحار. وأضاف (المصرح) أن (ليانور لويش) المذكورة تبيع الخمر، وهي التي قالت له بأن مسلمة (فرانسيشكو نوبر) اختفت ببيتها لمدة يومين، وذلك قبل نقل الألكن (و 24 ظ) لها منذ أكثر من

(1) عن هذه السلعة وتطور الطلب عليها :راجع **دكالة** ... ص 312 ـ 314.

عشرين يوما. وذكر أن هذا هو ما حدث لحد الساعة، (...) ولم يضف شيئا، وطلب المحققان منه عدم إطلاع أحد على ما أخبر به المحكمة. وحررته أنا، (أنطونيو رودريغش).

إمضاءان

* * * *

وفي اليوم التاسع من شهر ماي من سنة 1554، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر المحقق، السيد الدكتور (أنبروزيو كانبيلو) المندوب بمحكمة التفتيش المقدسة، ونادى على (ألفاريش منويل ماشادو Alvarez Manuel Machado) الساكن بمازيغن، والموجود الآن بلشبونة حيث يقيم بقصور (Alcaçova)، وطلب منه أداء القسم بالأناجيل المقدسة، التي لمسها بيده لكي يقول الحق.

وسئل عما إذا سبق له أن أسر بآسفي، فأجاب أنه كان كذلك لمدة أربع سنوات ونصف، وأنه أسر بمازيغن التي نقل منها إلى آسفي. وفر من هذه المدينة في فاتح يناير، والتحق رفقة أسرى آخرين بمازيغن.

وسئل عما إذا رأى خلال أسره بآسفي(25 و) بعض المسيحيين يحملون إلى هناك أسلحة أو سلعا محرمة لبيعها للمسلمين. قال : في السنة الماضية، خلال شهر لا يتذكره، رآى مركبا صغيرا ألقي به من سفينة عند مستوى رأس القصب، وذلك قصد إنزال رجلين رآهما بعد وصولهما إلى آسفي، لايدري اسمهما؛ تبدو على أحدهما علامات الغنى والجاه، وهو معتدل القامة وأسود، لا يزال في عنفوان شبابه، وذو لحية سوداء، يرتدي ألبسة برتغالية، ويحسن الكلام باللغة البرتغالية، توجه عند القائد الذي اعتنى به كثيرا وبعثه فور وصوله لتغيير لباسه وارتداء أخرى مغربية. وأعطى للقائد مطرقة خشبية مبرنقة، ويقال إنه أعطى أخرى للقاضي، كما سمع أن الموركسي المذكور نقل معه ألبسة كثيرة. وكان الموركسي الثاني ذا لحية كثيفة، قصير القامة، ويقال إنه من دكالة، وبها التحق فعلا. وهو لا يعرف صاحب المركب الذي نقلهما، وإن كان يعتقد أنه الألكن الساكن بستوبال، والذي رآه المصرح قبل ذلك بمرسى آسفي مرتين، نقل خلال أولاهما صمغا قيل إنه أتى به من مازيغن، ونقل خلال الثانية(و 25 ظ) أثوابا قيل له إنها من لشبونة. وخلال هذه المرة الأخيرة رأى الألكن المذكور يسلم لقائد آسفي مرساة حديدية وصارية مركب كانتا بسفينته، أمر القائد بوضعهما بالشاطئ. وخلال المرتين المذكورتين وغيرهما كان الألكن المذكور يأتي للكلام مع القائد. وآنذاك توصل القائد المذكور بمجذاف آخر يبدو له أن الألكن المذكور هو الذي أعطاه إياه.

وسئل عما إذا كان يعرف أشخاصا آخرين كانوا يرافقون الألكن إلى هناك، فقال : كان يراه هناك وحيدا في بعض المرات، و بمعية شخصين أو شخص واحد خلال مرات أخرى. وذكر أنه لا يعرف أولئك الأشخاص، وأنه يعرف الألكن المذكور لأنه رآه بآسفي خلال تلك الرحلات، وهو رجل ألكن وأشقر، وتحدث المصرح معه؛ وعلم آنذاك أن الألكن المذكور كان يذهب إلى الشاطئ ليعلم الملاحة لمسلم كان يريد أن يصبح رئيس مركب ، وذلك اعتمادا على خريطة بحرية كان يمسكها في يده ويعلق عليها بقوله : في هذه الجهة توجد المنطقة الفلانية من بلاد النصارى، واعتمادا على هذه الرياح يمكن الوصول إلى قادس، وعلى تلك إلى الجزر الخالدات... الخ، وذكر أنه سمع المسلمين يقولون هذا. وأضاف أنه خلال إقامته بآسفي، وصلها مركب كان يرافق بعض المرات الأسطول الحربي، ويقال إنه من مازيغن، وإن ربانه أحد أبناء (فرانسيشكو دو فريطاش Fransico de Freytas) المقيم بمازيغن،(و 26 و) والمسمى (غابرييل دو فريطاش Gravyel de Freytas). وقد نقل هذا المركب سلعا كانت حسب الإشاعات من لشبونة، وكانت عبارة عن أثواب وصناديق يجهل محتواها. ونسبت بعض الإشاعات السلع والمركب لمولانا الملك، بينما تنسب أخرى المركب إلى قبطان مازيغن (ألفارو دو كارفاليو Alvaro de Carvalho) الذي تجعل منه مالك نسبة من تلك السلعة بالاشتراك مع أخيه (بيرنالدين دو كارفاليو) و(جورج سيكُو Jorge Sequo). وتم تسليم تلك السلعة لشخص يسمى (دييغو غوميش) أو (بيدرو) الذي كان وكيلهم التجاري. والتحق المركب المذكور بآسفي عدة مرات؛ واتجه منذ حوالي خمسة عشر يوما إلى مازيغن. وحسب ما يروج هنا ، سيلتحق بآسفي كما يفعل كلما توجه إلى تلك المدينة.

وسئل عما إذا كان يعرف شخصا يمكنه أن يعطي معلومات أكثر عن الموضوع فقال : إنه لا يعرف الآن أحدا ، وإن كان من الممكن أن يكون هنا عدد من الأشخاص يعلمون ذلك، وقد يكون منهم (غاشبار فاش) و(لوبو فرنانديش) المقيمان بمازيغن. أما (غاشبار فالانت) ، فإنه لم يعد يعمل بتلك السفينة التي لم تتوقف رغم ذلك عن الذهاب إلى آسفي ومازيغن، والعودة منهما كما سبق ذكره. وأضاف أن البعض يدعون أن للمركب المذكور رخصة ملكية تسمح له بالذهاب إلى هناك. ولم يقل شيئا عن علاقته بالأشخاص المذكورين. وأمضى هنا ، وحررته، أنا ، (منويل كورديرو).

إمضاء

(و 26 ظ) وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر ماي من سنة 1554 بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التحقيق المقدسة، حضر السيد المجاز (بيدرو ألفاريش دو بريدش) ونادى على (كوشم غنصلفيش)، المورسكي الحر، وأمره بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي لمسها بيده وقال: بعد اعتقال الألكن المقيم بستوبال رفقة المرسكيين بسجن محكمة التحقيق المقدسة، وبينما كان يتحدث مع (أنطونيو البيرتو)، المورسكيين الخمار المقيم بباب البحر، ومع أحد أبناء عمه المسمى (أنطونيو فرنانديش)، قال له (أنطونيو ألبيرتو) المذكور: إن المصرح هو المسؤول الأول عما حدث، وإنه عمل على اعتقال كل المورسكيين، وإنه لولا تبليغه بهم لتمكنوا من الفرار. وقالت له زوجة (أنطونيو ألبيرتو) المذكور إنها لا ترغب في شيء أكثر مما ترغب في قول هذا الكلام له، وأضاف (أنطونيو ألبيرتو) المذكور أن المصرح ما أتى من مسقط رأسه إلى هنا إلا من أجل ملء بطنه وإكساء جسمه، لذا فهو جد مسرور ببقائه هنا، لأنه سيموت ببلاد المسلمين جوعا، وسيرعى الماعز هناك. وطلب المصرح من سماحته أن تسأل (كرشطفاو) و(جوا فرنانديش) المبتور الأصابع، وشخصا آخر يحمل نفس الإسم، الذين يمكنهم إطلاعها على الموضوع لأنهم يعرفون تفاصيله بدقة. ولم يقل غير هذا. ووقع هنا إلى جانب السيد المحقق. وحررته، أنا، (منويل كورديرو).

إمضاء

* * * *

تبليغ ضد (بيدرو ألفاريش Pedro Alvarez) والألكن المقيم بستوبال والمورسكيين الآخرين الذين فروا من هنا.

(و 29 و)[1]وفي اليوم الحادي عشر من شتنبر من سنة 1553، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر السيدالمحقق الدكتور (أنبووزيو كانبيلو)، المندوب بمحكمة التفتيش المقدسة، ونادى على رجل أسود ولوف[2]، متزوج ومقيم بهذه المدينة، بباب (سانتا كترينا)، تنصر منذ ما يقرب من عشر سنوات بمدينة يابرة، والذي تقرب سنه من الثلاثين سنة. وبعد أداء القسم بالأناجيل المقدسة التي لمسها بيده، قال: كان خلال هذه السنة جار مورسكي يسمى (دون بيدرو) تنصر منذ سنتين تقريبا، وكان

(1) الصفحات 27 ظ و 28 وجه وظهر بيضاء.

(2) من قبائل السنيغال المسلمة.

أبو معموديته حسبما بلغه هو(دوق براغانصا). وخلال إقامته بجوار (دون بيدرو) المذكور بـ(سان روك) لاحظ المصرح (كوشم غونصلفيش) أن رجلين أقاما لمدة خمسة أو ستة أيام ببيته حيث كانا يأكلان وينامان. وسأل المصرح (دون بيدرو) المذكور عن هويتهما فذكر له أنهما من ألمانيا، إلا أنه سمع (دون بيدرو) المذكور ينادي أحدهما (بيدرو ألفاريش)، وهو رجل ضخم الجثة وقصير القامة، ذو لحية (و .29 ظ) نصف بيضاء. ولم يسمعه ينادي الرجل الآخر باسمه، إلا أنه لاحظ أنه ألكن وطويل وذو لحية شقراء وقليلة الشعر، لا يزال في عنفوان شبابه. غير أنه بعد أن عاد (إناصيو نونش) مؤخرا من بلاد المسلمين أخبر المصرح أن تاجرا رأى (دون بيدرو) المذكور بآسفي، وطلب (إناصيو نونش) المذكور (من المصرح) أن يسأل بعض المورسكيين عمن نقل (دون بيدرو)المذكور إلى بلاد المسلمين، فأخبره المصرح (كوشم غونصلفيش) آنذاك أنه رأى في بيته رجلين، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وأن أحدهما يسمى (بيدرو ألفاريش)، وأن الأخر كان أَلْكَنَاً، وأنه يجهل اسمه، وأنه إذا ما رآهما فإنه سيتعرف عليهما، وسأله (إنانصيو نونش) آنذاك عما إذا كان هناك ل:(دون بيدرو) صديقة، فقال له نعم. وآنذاك التحق المصرح بالمنظر الجميل، حيث توجد دار (فرانسيشكو نونبر)ليسأله عن المسلمة التي توجد في ملكيته، والتي تسمى (Menyn)، والتي كانت صديقة (دون بيدرو) المذكور. وتكلم المصرح معها مرتين، وسألها عمن نقل (دون بيدرو) إلى بلاد المسلمين، مظهرا أنه يود بدوره الذهاب إلى هناك، وذلك لكي تثق به وتصدقه القول. وبما أنها ادعت جهلها لاسمه خلال المرتين الأولتين، فإنه عاد مرة أخرى وسألها نفس السؤال، (و 30 و) فأخبرته أن من نقل (دون بيدور) هو رجل من (ستوبال) يسمى (بيدرو ألفاريش)، وأنها سلمت ل:«دون بيدور» المذكور أربعين الف ريال كانت في حوزتها، وذلك لكي ترافقه إلى بلاد المسلمين، وأنها لم تتمكن من الذهاب لكون سيدها وسيدتها التحقا آنذاك بـ (كولارش Colares) وأخذاها معهما. والتحق (دون بيدرو) المذكور ببلاد المسلمين وأخذ معه أحد أبناء عمه المسمى (كريشطفاوو تيشيرا) المتنصر منذ خمسة أشهر.

وأضاف أن المسلمة المذكورة اتفقت مع (دون بيدرو) على إعطاء (بيدرو ألفاريش) المذكور عشرة آلاف ريال عن كل واحد منهم لنقلهم، مما يمثل ثلاثين ألف ريال، وأنه أنفق خلال إقامة (بيدرو ألفاريش) المذكور بدار (دون بيدرو) المذكور أكثر

من خمسة آلاف ريال في المأكل وشراء الدجاج وأشياء أخرى. كما أخبرته المسلمة المذكورة أن (بيدرو ألفاريش) المذكور انتظر بضعة أيام لكي يتمكن من نقل سلع إلى بلاد المسلمين. وأضافت المسلمة المذكورة أنه بعد ذهاب (دون بيدرو) المذكور بأيام، كلمها ذلك الرجل الألكن مرتين وأخبرها أن (دون بيدرو) وابن عمه بقيا بآسفي (و30ظ)، وأن الأول يطلب منها أن تلحق به، وأن الرجل الألكن المذكور سينقلها، ولإثبات قوله أراها أحد أقمصتها كان (دون بيدرو) قد أخذه معه، وطلب منها أداء الثمن، وهو عشرة آلاف ريال، إلا أنها لم تفعل ذلك لعدم ثقتها في ذلك الرجل الألكن، وخوفها من أن يلقي بها في البحر لعدم عثورها على مرافق يصحبها. وذكر المصرح أن المسلمة المذكورة قالت له هذا بالعربية، وذلك بعد أن أقسم لها على الطريقة الاسلامية أن يحتفظ بالسر لكي لا يعلم سيدها بذلك. وذهب (المصرح) لاطلاع (إناصيو نونش) على ما دار بينه وبينها، وذلك منذ اثنى عشر أو خمسة عشر يوما، فذكر له أنه سيأتي إلى المحكمة لتحديد وقت مجيء المصرح للتبليغ.

وبما أنه طلب منه البارحة أن يأتي اليوم، فإنه أتى للتبليغ بما حدث. ولم يقل غير هذا. وسئل عن الوقت الذي التحق فيه (دون بيدرو) ببلاد المسلمين، فقال : يبدو أن ذلك تم ليلة Santo spryto) الماضي، لأن المصرح ذهب يوم السبت إلى "Emxabregas" للبحث عن اللحم، واشترى هناك نصف خروف، اقتسمه مع (دُونْ بيدرو) المذكور، ولما عاد في الليل لم يجده بالبيت، فبقي في انتظاره إلى ساعة متأخرة، وحينذاك سأل عنه مورسكية حرة تسكن بجواره وتسمى (لْوِيزَا كَمُويْشْ)، (و 31 و) فأخبرته أنه في نفس يوم السبت أتى يبحث عن قميصين كانا يجفان ببيتها وقال لها : إنه يتعذر عليه الانتظار حتى يجفا بدارها، وإنه سيضعهما بنافذة بيته، ولم تره بعد ذلك. ولم يعلم المصرح بمكان وجوده إلى أن أخبره مؤخرا (إناصيو نونش) المذكور كما سبق ذكره، ويبدو له أن ذلك تم فعلا كما ذكر لأن المسلمة المذكورة قالت له نفس الشيء. وأضاف المصرح أنه قبل هذا سأل صهرة (دون بيدرو) المذكور التي يجهل اسمها، والتي تقيم ب (Calçada de Sam Francisco)، وكذا زوجة (دون بيدرو) المذكور، التي تسمى (دُونَا جُولْيَنَا) فأخبرته صهرته المذكورة أنه كان ب (Vila Viscosa) بيت الدوق الذي كان أبا معموديته.

سئل عن الوقت الذي رأى فيه الرجلين المذكورين ببيت (دون بيدرو)، وعما إذا تم ذلك بمدة طويلة أم بأيام قليلة قبل (santo spryto)، فقال: كان ذلك قبل الصوم الكبير، وأنه لم يرهما هناك بعد ذلك. سئل عما إذا كان يعرف شخصا يعلم شيئا عن الموضوع، وعمن نقل (دون بيدرو) المذكور، فقال إنه لا يعرف أحدا، إلا أنه لما كان آنذاك ببيت (دون بيدرو) المذكور زاره ببيته موريسكي حر يسمى (بيدرو مينزش) يعيش ب (Corte Real)، كان يدين (لدون بيدرو) بألف ريال، ولما ذهب لدفعها له كان الرجلان المذكوران هناك يلعبان بالورق مع دون (و 31 ظ) (بيدرو)، وذلك حسب ما علمه من (بِيدْرُو مينزش) المذكور، الذي سأله عن هويتهما لكي يتخذهما شاهدين على رده لـ (دون بيدرو) الألف ريال، فقال له المصرح : إن (دون بيدرو) يقول إنهما من ألمانيا. وحسبما أبلغه (بيدرو منيزش) المذكور يمكنه التعرف عليهما في حالة ما إذا رآهما. وذكر أن الموريسكي (جوا نونش) و(جوا سوزا) و(دون لويش) الموجود بكوينبر Coimbra، و(دون جوا)، كانوا يذهبون إلى هناك عدة مرات للعب مع (دون بيدرو) المذكور، إلا أن المصرح يعتقد أنهم لم يكونوا يعلمون عن كل ذلك أي شيء لبعدهم عن تلك المشاكل، هذا فضلا عن أنه لما فر (دون بيدرو) المذكور كان (دون جوا) و(دون لويش) آنذاك بكوينبرا.

وسئل عما إذا كان يعرف موريسكيين آخرين يعملون على الذهاب أو ذهبوا فعلا إلى بلاد المسلمين، وهل يعرف من ينقلهم أو يساعدهم على ذلك، فأجاب بالنفي عدا أن (جوا ونش) المذكور المقيم الآن بشارع (Coude da Vidigueira) أخبره أن أربعة موريسكيين فروا من هذه المدينة حين مغادرة المولى محمد لها، وذكر له أنهم كانوا أحرارا وأنه يعرفهم. فقد كان واحد منهم يسمى (جوا)، وكان الآخر في خدمة الكونت دو بورتاليغر (Portalegre، بينما وصل الثالث من بلاد المسلمين منذ مدة قصيرة (و 32 و)، وتنصر بطنجة. وجاءت الموريسكية من قشتالة رفقة ملك بادس. وأكد أنه لم يرهم مرة أخرى منذ ذهاب ابن عم ملك بادس.[1].

وعن هذا يمكن استفسار المترجم (أنطونيو لويش) أو (إيزابيلا لويش) الموريسكية الحرة المقيمة بجانب (Santo André)، والتي تبيع المكانس بالميناء.

ولم يقل غير هذا، وعن علاقته بالمذكورين لم يقل شيئا. وطلب المحقق منه أن

(1) إشارة إلى التجاء بوحسون الوطاسي للملك البرتغالي طلبا للمساعدة بعد دخول محمد الشيخ السعدي فاس سنة 1549.

يحتفظ بسرية ما ذكر، وأمره بأداء القسم على ذلك، فوعد بالتنفيذ وأمضى هنا. وحررته أنا، (منويل كورديرو). وأضاف أن الرجلين اللذين كانا ببيت (دون بيدرو) المذكور كانا يتخاطبان باللغة البرتغالية. وحررته أنا، (منويل كورديرو)، مع التشطيبين وما كتب بين السطرين، والذي لم يكن من أجل التزوير.

إمضاءان

* * * *

وفي 20 من شهر شتنبر من سنة 1553، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر السيدان مندويا المحكمة المذكورة (أنبروزيو كامبيلو) والمجاز (جورج غونصلفيش) ونادیا على (انطونيو لويش) البواب ببلاط مولانا الملك، وأمراه بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي لمسها بيده (و 32 ظ) وسألاه عما إذا كان يعرف موريسكا أو موريسكيين مسيحيين فروا إلى بلاد المسلمين، أو اشخاصا ينقلونهم إلى هناك، وطلبا منه أن يقول الحق في كل شيء، وأن يخفف عن ضميره.

قال : في الوقت الذي أراد مولاي محمد [1] مغادرة هذه المدينة، شرع المصرح (انطونيو لويش) في إعداد نفسه لمرافقته، وبينما كان يوما صاعدا الدرج المؤدي إلى البيت الذي كان مولاي محمد المذكور مقيما به، سمع (دون بيدو) المورسكي الذي فر بعد ذلك إلى بلاد المسلمين، يتحدث بالعربية ويقول : إن رجلا من (ستوبال) يوجد الآن بالسجن، يأخذ عن كل شخص عشرة آلاف ريال، وإن الذين يعدون للفرار معه حوالي عشرة أو اثنى عشر فردا ومسلمة توجد في ملكية (فرانسيشكو نوبير)؛ وأنها أعطت عن نفسها وعن (دون بيدرو) المذكور عشرين ألف ريال.

وبما أنهم انتبهوا إلى صعوده السلم، فقد توقفوا عن الحديث في الموضوع. ولما وصل المصرح انطونيو لويش) إلى السقيفة وجد هناك مولاي محمد وأباه و(دون بيدرو) المذكور وموريسكيا آخر يجهل اسمه يقولون أنه فر مع (دون بيدرو) المذكور، والذي كان بدير (Sam Domyngos).

وفور ذلك، وقبل مغادرة (دون بيدرو) المذكور للبيت، طلب المصرح من مولاي محمد أن يطلعه على الموضوع الذي كانوا يتحدثون فيه (و 33 و) لأنه سمع بعض العبارات ويرغب في معرفة كل ما دار بينهم لتطمئن نفسه. وعندئذ أخبر المولى محمد الشاهد أن (دون بيدرو) المذكور يعرف رجلا سينقله ورجالا آخرين، رفض أن يسمي

---

(1) ابن عم بوحسون الوطاسي حسبما ورد أعلاه

أحدا منهم باستثناء مسلمة (فرانسيشكو نوبير)، وأن (دون بيدرو) اقترح على موركسي حر يسمى (بيدرو) يعيش بدور (Bernaldo Corte Real) أن يرافقه غير أنه رفض. وبامكان (بيدرو) المذكور إطلاع (المحكمة) على أسماء الأشخاص، لأنه كان على علم بأمر الرحلة. وخلال تلك الليلة واليوم التالي، التحق المصرح ومولاي محمد بدار (دون بيدرو) المذكور، وذلك دون أن يشعر بهما قصد اكتشاف هوية الشخص الذي كان ينوي نقلهم. ورغم كل المحاولات، لم يستطع المصرح أن يطلع على أكثر مما ذكر.

وفي اليوم التالي التقى الشاهد بسوق الحبوب ب (بيدرو) المذكور، وسأله عما إذا كان صحيحا أنه يريد الفرار إلى بلاد المسلمين، وأنه اتفق مع شخص على نقله إلى هناك، وترجاه أن يصارحه، ووعده بالتدخل لصالحه لدى الملك لكي يشمله بفضله. وأخبر المصرح موركسي يسمى (جوا نونش) يعمل بأسطبل الملك ويقيم بشارع (Comde de Vidigueira) أن (بيدرو) المذكور يعرف كل شيء عن رحلة أولئك الموركسيين وعن أسمائهم. وفي يوم الأحد التالي، التحق الشاهد رفقة (جوا نونش) المذكور بدار موركسي يحمل منديل الأمير [1]، وهو متزوج ويسكن إلى جانب الأسطبل. وبينما هما هناك، زاره موركسيان، أحدهما كان من قبل عبد (فرناو الفاريش أنطونيو) ويعيش من بيع التبن، ويسكن خارج باب (سانتا كترينا) بقسم من بعض الدور الكبرى التي توجد هناك قبل الوصول إلى دور (جورج دو ميلو)، والثاني يجهل اسمه ويعمل بإسطبل دوق (أفيرو)، وهو موركسي حر يرتدي ألبسة حمراء، يسكن بدار الدوق. وارتمى هذا الاخير على الشاهد وقالا له معا : "إنه يقضي وقته في التجسس على الآخرين ومعرفة ما إذا كانوا يرغبون في الفرار، ومن سينقلهم"، وشتماه كثيرا وأساءا معاملته ولم ينقذه سوى تدخل (جوا نونش) المذكور، والآخر الذي يحمل منديل الأمير اللذين دافعا عنه. وأطلع المصرح القاضي، (فليب أنتونش) على ما حدث، وهو لا يدري ما تم بعد ذلك، لأنه رافق في اليوم التالي المولى محمد المذكور، وذلك بأمر من مولانا الملك، وحال ذهابه هذا (و 34 و) دون مجيئه لإشعار هذه المحكمة المقدسة بما حدث.

وأضاف أنه خلال سفره مع المولى محمد، أخبره هذا الأخير أن الشريف [2] أرسل

---

(1) كان عدد من العبيد يرافقون أسيادهم حين تجولهم عبر المدينة، وكان كل واحد منهم يقوم بمهمة ما، كالإمساك بلجام الدابة أو مسح عرقها، إلخ. . وكان عدد العبيد المرافقين يعكس الوضعية الاجتماعية للسيد.

(2) محمد الشيخ السعدي.

لبعض المورسكيين تعهدات بالحماية، وذلك حتى يتمكنوا من الذهاب إلى هناك، وأن من حمل تلك الضمانات مورسكي يعيش هنا ، جاء قصد التنصر ، وهو يرتدي معطفا أزرق، وأن (أنطونيو دو أتايد) ، المورسكي الحر اطلع على تلك الأوراق، و يمكنه أن يطلع المحكمة على ذلك. ولم يقل غير هذا ، وأضاف أن (دون بيدرو) اختفى من هنا خلال الوقت الذي قدم فيه المصرح شكاية إلى القاضي كما سبق الذكر. وذكر المورسكيون أنه التحق ب (Vila Viçosa) لكون الدوق كان أبا معموديته. وهو الآن يجهل المكان الذي يوجد به، وإن سمع بهذه المدينة أن (دون بيدرو) المذكور التحق ببلاد المسلمين. ولم يضف شيئا. وعن علاقته بمن بلغ بهم، لم يشر إلا إلى تشاجره مع المورسكيين كما ذكر، واللذين يكرههما. وأمضى هنا ، وحرره (منويل كورديرو) .

ثلاثة إمضاءات

* * * *

وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر شتنبر من سنة 1553 ، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر المحقق، السيد المجاز (بيدرو ألفاريش) (و 34 و). ونادى على (أنطونيو لويش) الشاهد المذكور أعلاه، الذي أخبره أنه جاء ليضيف ما تذكره بعد أن أدلى بشهادته المسجلة أعلاه. وليقول الحق، أمره السيد المحقق بأداء القسم بالأناجيل المقدسة حسب القانون. فور ذلك ذكر أن مورسكيا يعمل بإسطبل الملك يسمى (جوا نونش) على علم بالضمانات والوثائق التي ذكر في الجلسة السابقة أنها وصلت إلى هذه المدينة؛ وأن آخر يسمى (جوا دو سوزا) ، زوج ا بنة (بيدرو فرنانديش) المورسكي المقيم بباب كنيسة (Sam Lourenço) ، وكذا آخر يسمى (ألفارو كرفاليو) المقيم بالمصبغة، والذي تصنع زوجته سجادات للملكة، يعلمون بدورهم وصول هذه الوثائق التي توصل بها المورسكي (أنطونيو دو أتايد). وأضاف أنه سمع مورسكيا يسمى (سالفادورSalvador) يعمل بإسطبل الملك، يقول إن مورسكيا يسمى (أغوشتينيو) يقيم بدار المورسكي الآخر المسمى (أنطونيو دو أبرو) ، أخبره أن (أغوشتينيو) المذكور على وشك نقل مورسكيين أحرار إلى قشتالة. ولم يضف شيئا ، وعن علاقته بمن بلغ بهم، لم يقل شيئا. وحرره (أنطونيو رودريغش) ،

امضاءان

(و 35 و) وفي اليوم السادس والعشرين من شتنبر من سنة 1553، بلشبونة، حضر المحقق السيد المجاز (بيدرو ألفاريش) إلى قاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، ونادى على موركي سبق ذكره أعلاه، فقال إن اسمه هو (بيدرو دو سوزا)، وأنه يقيم بدار (Manuel Corte Real). ولكي يقول الحق، أمره بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي لمسها بيده. واعتبارا للقسم المذكور، سأله عما إذا كان يعرف موركيين مسيحيين، سواء من هذه المدينة، أو من مناطق أخرى من هذه المملكة، يعدون للعبور إلى بلاد المسلمين لكي يعيشوا هناك حسب الملة المحمدية كما كانوا قبل تنصرهم، وطلب منه قول الحق دون إخفاء أي شيء.

قال: لامه بعض موركيي هذه المدينة على مجيئه إلى هذه البلاد، وذلك منذ أربع سنوات تقريبا، وعلى تنصره،فتم اعتقالهم بسجن محكمة التفتيش المقدسة حيث سجنوا لبعض الوقت (و 35 ظ). ويجهل المبلغ أسماء الموركين المذكورين[1]. ولم يتعرض له بعد ذلك أحد بأذى، ولم يتفق معه أحد على العودة إلى افريقيا. وسئل عما جاء في الإشارة الواردة أعلاه، وعما إذا كانت له صداقة مع (دون بيدرو) الموركي الذي فر إلى بلاد المسلمين، وعما إذا وجد عنده رجلين تبدو عليهما سمات البحارة، وذلك حينما زاره لإرجاع الألف ريال التي كان يدين له بها، وهل بإمكانه التعرف عليهما، وما هو موطنهما الذي ذكره له (دون بيدرو)، واسمهما، ولماذا جاءا عنده؟ فقال المبلغ: كان يدين فعلا بألف ريال لـ (دون بيدرو) المذكور، ولما ذهب لدفعها له بعد الصوم الكبير الأخير، رأى بداره رجلين أحدهما ذو لحية بيضاء ضخم وقصير القامة، والآخر نحيف وطويل وذو لحية شقراء وغير كثيفة الشعر، كانا يلعبان بالورق مع (دون بيدرو). ويبدو له أن النحيف لم يكن يحسن الكلام كرفيقه؛ ويمكنه التعرف عليهما اذا ما رآهما. ولما دفع المبلغ المذكور لـ (دون بيدرو) كان الموركي الأسود (كوشم غونصلفيش) والرجلان المذكوران حاضرين.

وحينما عاد مرة أخرى (و 36 و) إلى بيت (دون بيدرو) المذكور، سأله عن هوية الرجلين اللذين كانا ببيته، فأخبره أنهما أجنبيان. ولما زاره مرة ثالثة سأله من جديد عنهما، فأخبره (دون بيدرو) المذكور أنهما صديقاه، وأنهما من "الغرب"[2]، إلا أنه لم يقل له أنهما بحاران، ولم يذكر اسمهما. وأضاف أنه لما دفع له المبلغ لم ير

(1) راجع محضر محاكمة هؤلاء: Inq. Lix. proc. n. 1636

(2) (Algarve) أي الساحل الجنوبي من البرتغال، والتسمية عربية، وهي مرتبطة بالتقسيم الذي كانت عليه الأندلس تحت الحكم الإسلامي.

بالبيت غير الرجلين المذكورين و(كوشم غونصلفيش) المذكور، الموريسكي الأسود. وبجوار (دون بيدرو)، يقيم موريسكي متزوج يسمى (جرونيمو) لا يدري ما إذا رأى الرجلين المذكورين بدار (دون بيدرو). وسيذكر ذلك إذا ما سأله السيد المحقق.وذكر المبلغ انه يجهل ما كان الرجلان المذكوران يفعلانه ببيت (دون بيدرو)، وإن لاحظ أن (دون بيدرو) طلب منه أن يسرع في إرجاع ما يدين له به، وبرر ذلك بعزمه على الذهاب إلى (Vila Viçosa). وأضاف أن (أناصيو نونش) أخبره أن تاجرا ذكر له أنه رأى (دون بيدرو) المذكور بآسفي، الأمر الذي يقوله موريسكيون كثيرون بهذه المدينة من ذلك الوقت إلى الآن. وأضاف أنه يجهل كل شيء عما تبقى من السؤال.

وفور ذلك، سئل (و 36 ظ) عما إذا كان منذ ذهاب (دون بيدرو) إلى بلاد المسلمين قد تحدث مع صديقة (دون بيدرو) التي تسمى (Menyn)، وعما إذا أطلعته على اسم من نقله إلى هناك، ذاكرة له اسم ربان السفينة التي ذهب فيها؟ أجاب أنه منذ ذهاب (دون بيدرو) المذكور إلى إفريقيا، تكلم المصرح مع (Menym) المذكورة وأخبرها بما يروج بهذه المدينة حول ذهابه إلى بلاد المسلمين، وحول دفعها ثمن سفره، فأجابته أنها لم تعطه شيئا، وإن لم تعارض ذهابه. وسمع المصرح مؤخرا أن تلك المسلمة تجر السلاسل[1]، وأنها لم تخبره لا باسم من نقل (دون بيدرو) ولا بمكان إقامتهم، ولا من أين هم. وسئل عما إذا كان (دون بيدرو) المذكور قد اقترح على المصرح نفسه الذهاب رفقة موريسكيين آخرين إلى بلاد المسلمين، ذاكرا له اسم من سينقلهم إلى إفريقيا ومكان الابحار؟ فقال: إن (دون بيدرو) المذكور لم يفاتحه في شيء ولم يبح له بذلك، ولم يقترح عليه الفرار إلى بلاد المسلمين، وأن موريسكيا يدعى (جُوا دُو سُوزا) اقترح عليه الفرار صحبته إلى قشتالة، وأنه رفض ذلك. كما أنه سمع (أنطونيو لوبش) خادم الملك (و.37.و.)، يقول: إن موريسكيين كثيرين يعدون هنا للفرار، وان لم يذكر له أكثر. وأكد أن ما صرح به صحيح، وأنه لا يعرف شيئا عما تبقى من عناصر السؤال. ووقع هنا. وعن علاقته بالأشخاص المذكورين، قال: لقد تشاتم مع (دون بيدرو) إلا أنهما سرعان ما تصالحا. وحررته أنا، (منويل كورديرو) مع التشطيب الذي لم يقصد به التزوير.

إمضاءان

(1) أي أن سيدها عاقبها على محاولة الفرار بتكبيل رجليها بالسلاسل، ووقفت على حالات مشابهة كثيرة عانى الأسرى المغاربة منها.

وفي اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر من سنة 1553، بلشبونة، بقاعة الجلسات، حضر السيد الدكتور (أمبروزيو كانبيلو)، المفتش بمحكمة التفتيش المقدسة، وأمر بالمثول أمامه (فرانسيشكو دو أغيار) الفارس بالبلاط الملكي، والمقيم بقرية مازيغن، والذي يوجد حاليا بهذه المدينة بشارع (Santo Espirito de Pedreira) (...)، والذي قال بعد أداء القسم : إنه منذ خمسة وأربعين أو ستة وأربعين يوما تقريبا، (و 37 ظ) لما كان في مازيغن، وصل إلى هناك مسلم من تارودانت كان بأزمور وفر منها إلى مازيغن، فسأله القبطان عن أخبار البلاد، وعما إذا كانت مراكب راسية بميناء آسفي، فأخبره المسلم المذكور أن مركبا كان هناك، وأنه كان محملا صمغا وأثوابا هندية، وأن نصف تلك السلع كان موجها إلى آسفي والآخر إلى رأس غير. وأضاف أن ربان ذلك المركب هوالذي نقل المزوار (Mezuar) الذي كان يسمى هنا (دون بيدور) وكذا مورسكيا آخر رافقه، واللذين أنزلهما برأس القصب، وأنه علم ذلك من سكان المنطقة؛ ووصف ربان تلك السفينة بكونه ألكن. وقد رآه عدة مرات يتحدث مع قائد آسفي، وأنه ولو قدم له بين مائة رجل فانه سيتعرف عليه. وأضاف الشاهد أن المسلم المذكور ذكر ذلك لقبطان مازيغن بمحضره لقيامه بدور الترجمان. وكان ذلك المسلم يتكلم كشخص يجهل أن (دون بيدرو) المذكور تنصر هنا. وذكر أن المسلم المذكور (و 38 و) يسمى محمد، ويوجد بـ (كاسيلياش). وفي طريقه إلى لشبونة مع المسلم المذكور، أخبره أن بهذه المملكة مسلمة لها أخوان بآسفي اتفقا مع الألكن المذكور على نقلها اليهما، وأن القائد ساهم بعشرين مثقالا لمساعدتهما في ذلك. وذكر أنه قال هذا للتخفيف عن ضميره، وليس بسبب حقد أو كره لأحد، فطلب منه السيد المحقق أن لا يحدث أحدا بشأن ما ذكر.

وحررت هذا، أنا، أنطونيو رودريغش.

****

(و 39 و) وفي اليوم السادس والعشرين من شهر ماي من سنة 1553، بلشبونة، بقاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة، حضر مندوب المحكمة المذكور، السيد الدكتور (أنبروزيو كانبيلو) وأمر (جيفيرا رُودْرِيغَشْ) زوجة (جوا دو أفيرو)، الساكن بالمصبغة، بالمثول أمامه وبأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي لمستها بيديها لكي تقول الحق.

واعتبارا للقسم المذكور، سئلت عما إذا كانت تعرف مورسكيين مقيمين سواء بحيها أو في أي مكان آخر يقومون بطقوس إسلامية، أو بأي عمل آخر يبدون من خلاله مسيحيين غير صادقين.

قالت : تسكن (كَاتَرِينَا دُو إِسًّا) بأحد مستويات الدار التي تقطن بها، وهي موريسكية متزوجة بـ (ألفارو كرفاليو) الموريسكي كذلك، ويصنعان البسائط، ويقيمان بتلك الدار منذ عودة مولانا الملك إلى هذه المدينة للمرة الأخيرة. ولما وصل خبر أسر المسيحيين الذين رافقوا ملك بادس سمعتهما المبلغة بنفسها يقيمان حفلة كبيرة بدارهما استعملا فيها آلات الطرب ورقصا وغنيا وأكلا وشربا، وكان الضجيج المحدث قويا إلى حد أنه كان يسمع بالدور السفلى. واستمر الحفل عدة أيام. وحضرتلك (و 39 ظ) الحفلة عدد كبير من الموريسكيين المتزوجين والأسرى، ومن المسلمين الذين بقوا هنا بعد ذهاب ملك بادس، والذين رأتهم بنفسها يدخلون ويخرجون حاملين براميل صغيرة من الخمر لشربها. ولما سألت (كاترينا دو إسا) المذكورة عن سبب إقامة تلك الحفلات أجابتها أنها بسبب زواج (برانكا) ابنة أحد الموريسكيين، والتي زوجوها فعلا بعد بضعة أيام من نهاية الحفل.

وبعد ذلك، لما وصل خبر قتل المسلمين لـ (لويش لوريرو)[1] ولمسيحيين آخرين، سمعتهم يقيمون بدار نفس الموريسكيْين تلك الحفلات والضجيج بالمزامير. ولما بلغ خبر مقتل (بيدرو)[2] مؤخرا، أقاموا نفس الحفلات. وهي لا تعرف سبب تنظيمهم لتلك الحفلات، وإن كانت استغربتها ولم تستحسنها. وذكر لها زوجها الذي قضى بإفريقيا سبع سنوات في الأسر، أن المسلمين يقيمون هناك نفس الحفلات كلما أسروا مسيحيين أو نظموا غارة، ويسمون تلك الحفلات ب (Zambros). وذكرت أنها لا تعرف شيئا عما تبقى من السؤال. وسئلت عما إذا كانت تعرف منذ متى تنصرت (كَتَرِينَا دُو إِسًّا) و(ألفارو دو كَرْفَالْيُو) المذكوران، فقالت : إنها تجهل ذلك وإن سمعت أن مولانا الملك ومولاتنا الملكة هما أبوا معموديتها، وذلك خلال إقامة البلاط بـ (أَلميرين) للمرة الأخيرة. وسئلت عما إذا سبق لها رؤيتهما (و 40 و) بالكنيسة خلال أيام الأحد والأعياد، فقالت : إنها سمعتهما يقولان إنهما يذهبان إلى (Sam Domyngos) للصلاة، بينما تذهب هي إلى (São Nicolão) حيث لم ترهما أبدا. وأضافت أن بناتها أخبرنها فور إقامة (كاتيرنا دوإسا) و(ألفارو دو كَرْفَالْيُو) المذكورين بنفس الشارع، أنه كان يعلّم زوجته الصلوات اعتمادا على كتاب ديني.

سئلت عما إذا كانت تعرف أسماء الموريسكيين الذين يأتون إلى بيت (ألفارو كرفاليو) و(كترينا دو إسا) المذكورين قصد المشاركة في الحفلات السابقة الذكر، فقالت

(1) قبطان آسفي ثم مازيغن وأخيرا طنجة التي عين بها سنة 1552 ، وقتله المغاربة سنة 1553.
(2) لم نستطع تحديد هوية هذه الشخصية.

: يزورهما عدد كبير من المورسكين والمورسكيات خلال أوقات تلك الحفلات وخارجها، وأنها لا تعرف أسماءهم ولا تتذكرهم لأنها كانت تراهم فقط يدخلون ويخرجون، وقد تتذكر بعضهم إذا ما رأتهم، وذكرت أن الشاب المقيم مع (كترينا دو إسا) والمسمى (بيدرو) أخبر المبلغة أن أباه هو الذي يعزف على "الغيطة" (Gaita)، وهو مورسكي، كان من قبل في ملكية (فرناو ألفاريش)، ويعيش بباب (سانتا كترينا)، بدأ الشيب يظهر بشعره.

وسئلت عن الأشخاص الذين يمكنهم تأكيد قولها، فذكرت امرأتين تسكنان أمام بيتها تسمى إحداهما (إلِينُورْ) والأخرى (لينور كشمنيش)، وكذا الجيران بنفس الشارع. ولم تضف إلى هذا شيئا، ولم تقل شيئا عن علاقتها بالمبلغ بهم، عدا أنها اصطدمت في بعض المرات مع (كترينا دو إسا) المذكورة لتحطيمها (و 40 ظ) بعض درجات السلم، إلا أن ذلك لم يمنعهما من أن تكونا صديقتين، ومن التخاطب. وطلب منها الاحتفاظ بالسر بعد أداء القسم على ذلك. (...). وحررته، أنا، (منويل كورديرو) مع التشطيبات الثلاثة وما كتب بين السطرين[1].

إمضاء

* * * *

(و 41-42 بيضاء.

(و 43 و)محضر خطايا واعترافات (فرانسيشكو باياوو) المكنى بالألكن المسيحي الأصيل[2] المقيم بمدينة (ستويال) والمعتقل بسجن محكمة التفتيش المقدسة:

(و 43 ظهر) بيضاء.

و(44 .و.) إن المحقق المجاز (بيدرو ألفاريش دو بريدش) ...الخ يأمر (جَوأ غَاغُو) المأمور القضائي بمحكمة التفتيش المقدسة باعتقال (فرانسيشكو باياوو) المكنى بالألكن، الساكن بستويال، والذي يعمل بحارا، وكذا (بيْدرو ألفاريش) وأحد أبنائه، واللذين يسكنان معا بنفس المدينة، وكذا باقي الأشخاص الذين أمرت باعتقالهم.

وعليكم نقلهم بعد اعتقالهم إلى سجن محكمة التفتيش المقدسة، وذلك للخطايا

(1) لا علاقة للتبليغ الأخير بالمتهم (فرانسيشكو باياو)، ولعله رتب خطأ بهذا المحضر حين تكوين الملف من لدن المحامي المراقب (النيابة) لعرضه على القضاة قصد الحصول منهم على الموافقة على الاعتقال. ووقفت على حالات أخرى شبيهة.

(2) "Christão Velho" أي أنه ينحدر من أم وأب مسيحيين، وذلك بخلاف المسيحيين المحدثين "Christãos Novos" المنحدرين من أبوين يهوديين متنصرين ـ أو أحدهما ـ أو المورسكيين (Mouriscos) المنحدرين من أبوين (أو أحدهما) مسلمين تنكرا لدينهما واعتنقا المسيحية. و معلوم أن جل حالات ذلك التنصر تمت تحت الإكراه.

التي ارتكبوها، والتي تتوفر المحكمة على الأدلة المتعلقة بها. وعليكم تنفيذ هذه الاوامر.

وحرره (أنطونيو رودريغش) بلشبونة، في 26 ابريل 1554

المجاز

إمضاء (أنطونيو ألفاريش)

* * * *

وفي اليوم الثامن والعشرين من أبريل من سنة "1554 بلشبونة، سلم (جُواً غَاغُو)، المأمور القضائي بمحكمة التفتيش المقدسة (فرانسيشكو باياوو) الساكن بستوبال لـ (بْرِيسْيُو كَمِيلُو) قائد السجن. وبما أنه تسلمه فعلا، فإنه وقع هنا. وحرره (منويل كوديرو).

إمضاء

* * * *

(و45 و)، وفي اليوم التاسع والعشرين من أبريل من سنة 1554، بلشبونة، حضر إلى قاعة الجلسات بمحكمة التفتيش المقدسة المحقق السيدالمجاز (بيدو ألفاريش دوبريدش)، وأمر (فرانسيشكو باياوو الألكن)، البحار، الساكن بمدينة (ستوبال)، بالمثول أمامه؛ وسأله عما إذا كان هو (فرانسيشكو باياوو) الذي اعتقل البارحة على يد ضباط محكمة التفتيش المقدسة رفقة (باستياو فاش دافونصيكا) وذلك حينما كان مقبلا في كرفيلته من قرية (كشكايش Cascais)[1] إلى (سانتا كترينا دو ريبامار Santa Catarina de Ribamar) لتسلم حمولة من لشبونة.

قال: إنه (فرانسيشكو باياوو) الذي يعنيه السؤال، وإنه اعتقل البارحة حينما كان قادما في مركبه من (كاشكايش) إلى هذه المدينة.

وفور ذلك أمره السيد المحقق بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي لمسها بيده بعد أن وعد بقول الحق.

سئل عن سنه ومسقط رأسه، ومحل سكناه، وعما إذا كان متزوجا، وعن عدد أبنائه ومهنته، فقال: إن سنه تقرب من الثلاثين، وإن مسقط رأسه هو مدينة (ستوبال) حيث يقيم حاليا، وأنه متزوج (بليونور أفونصو) وله بنت تسمى مريم ،في السنة الأولى من عمرها.

---

(1) قرية على الساحل غرب مدينة لشبونة.

وسئل عما إذا كان هو وزوجته ينحدران من أصل إسلامي أو يهودي، فأجاب بأن لا علاقة له ولزوجته لا بالمسلمين ولا باليهود.

وفور ذلك طلب منه السيد المحقق قول الحق واعتبار أنه لحد الساعة بقي بعيدا عن طاعة الإله تاركا الأعمال التي يقوم بها النصارى الحقيقيون، وذكّره بأن خلاصه يقتضي الاعتراف بخطاياه، وطلب منه تحديد المدة التي قضاها في الاتجار المحرم مع مسلمي إفريقيا، وفي نقله للسلاح وغيره من المعادن والذخيرة ووسائل الحرب والسلع، والوقت الذي قضاه في نقل الموركسيين من هذه المدينة والمملكة إلى آسفي أو إلى أي مكان آخر من بلاد البربر، وكم كان يتقاضى عن كل شخص يحمله إلى تلك المناطق من بلاد المسلمين، ومن كان يرافقه (و 46 و) ويساعده في قيادة الكرفيلا، وخلال السفر.

أجاب : لقد تعود على الذهاب إلى إفريقيا والاتجار بها منذ ما يقرب من ثلاث سنوات. وخلال الرحلة الأولى، انطلق من جزيرة ماديرا قاصدا رأس غير ومعه صناديق لتعليب السكر، ذلك السكر الذي نقله مركب من (بِسْكَايَا) كان هناك، بينما نقل هو في كرفيلته الجلود التي كانت ملكا لـ (كرشطفاو بايش) والتي أفرغها هنا، بمحل الجمارك؛ وسلمها له برأس غير (فيسانت لورنسو). وحين ذهابه من ماديرا إلى رأس غير، لم ينقل أية سلعة، إلا أنه نقل من هناك رجلين خبيرين في صناعة السكر[1]، بقيا هناك لمدة أربعة أشهر . ولما عاد مرة أخرى إلى رأس غير، نقل أحدهما معه، بينما عاد الثاني مع (جيل فاش) الساكن بـ (حي) الحمة.

وخلال نفس السنة قام برحلة أخرى إلى رأس غير في كرفيلا تسمى (Nossa Senhora dos Remédeos) كان للمصرح (فرانسيشكو بياوو) ثلثها، بينما الثلثان لبحار من (ستوبال) يسمى (جوا لويش).

لما وصلت الكرفيلا المذكورة إلى لشبونة، اشترى (فرناو رودريغش) نصفها وبقي المصرح و(جوا لوبش) المذكور مالكين للنصف الثاني. ورغم أن (بلشيور دا كوشطا)، الساكن بهذه المدينة، هو الذي دفع ثمن الشراء، فإنه يعتقد أن المالك الحقيقي هو (روي فرنانديش)، لأنه هو الذي أعطاه السلع التي نقلها إلى إفريقيا، والتي كانت حوالي ثمانية عشر أو عشرين كيسا من الصمغ، وعشرة أو اثنى عشر كيسا من التوابل كانت قرنفلا وبهارا. وفعلا نقل المصرح تلك السلع إلى رأس غير،

(1) إشارة إلى اعتماد صناعة السكر على الأطر الأجنبية، والبرتغالية منها على وجه الخصوص.

ورافقه لبيعها هناك أحد أبناء (رودريغش) يسمي نفسه هناك (لويش فرنانديش)، بينما يبدو للمصرح أن اسمه الحقيقي هو (روي فرنانديش). ورافقه كذلك أحد أقارب (فرناو رودريغش) المذكور الذي يكنى الأسد، والذي يوجد الآن بالبرتغال. وكان يساعد المصرح كبحار، (ديوغو بينييرو) و (ديوغو رودريغش)و(فرناو دو باجة) المتزوج بهذه المدينة، والساكن بحي الحمة، والذي يجهل اسم زوجته. أما البحاران الآخران فكانا أعزبين، و هما من مدينة (ستوبال).

وخلال رحلة العودة، حملت السفينة المذكورة الجلود واللوز و Coril" واستولى له القراصنة [1] على تلك السلع وحملوها إلى قشتالة و(47 و) حيث اعتبرت مفقودة.

أما في الكرفيلا التي يستخدمها الآن، والتي هي في ملكه الخاص، فقد قام برحلة أولى إلى رأس غير، حيث نقل سلعا كانت ملكا لأحد أبناء (فرناو رودريغش) المذكور الذي وافته المنية، والذي كان يسمى (جورج فرنانديش). وكانت السلعة المذكورة عبارة عن رزمتين من أثواب وكيس من[2]، كما نقل رسائل من (فرناو رودريغش) المذكور و(بيرو مارتينش) لابنيهما. وسافر معه في نفس الكرفيلا شخص يسمى (أفونصو فاش) ذهب لرؤية ابن كان له هناك، وهذا الشخص يسكن بلشبونة في مكان يجهله، إلا أنه يراه في منزل (بيدرو مارتينش) المذكور.

ونقل كذلك حوالي اثني عشر Escrevenhas de canudo بدون سكاكين أو مقصات، كانت لـ (فرناو رودريغش) المذكور، كما أرسل (بيدرو مارتينش) المذكور إلى ابنه الذي كان هناك، والذي يسمى (أنريك مرتينش) نصف صندوق من القبعات الحمراء ، نقلها المصرح بسهولة لخفتها وسلمها إلى (بيدرو ألفريش)، وذلك بأمر من (بيدرو مارتينش) المذكور، وذلك لأن ابنه المذكور كان حين وصول المصرح إلى هناك معتقلا بسبب ديون كانت عليه، ولم يكن بإمكانه المجيء إلى المرسى. وأضاف أن (بيدرو مارتينش) المذكور كان حينما سلمه صندوق القبعات (و. 47 ظ) قد غادر سجن محكمة التفتيش حيث كان معتقلا، وزار المصرح بيته خلال عيد الفصح.[3]

وبعد ان سلمه القبعات المذكورة ببيته ونقلها (جوا سلفادو) إلى مركب المصرح، اعتقل (بيدرو مارتينش) مرة ثانية من لدن محكمة التفتيش المقدسة. وذكر أنه يجهل محتوى الرسائل التي نقلها.

(1) إشارة أخرى إلى تضرر البرتغاليين من القراصنة الإسبان والفرنسيين.

(2) Cayzse covodo de Margarydetas التي لم نستطع تحديد نوعيتها.

(3) إشارة إلى استمرار التجار رغم محاكمتهم من لدن محكمة التفتيش في نشاطهم التجاري بالمغرب.

وحين عودته من رأس غير، نقل ثمانية أكياس من اللوز وصندوقا كبيرا من السكر وثمانية مسيحيين كانوا هناك، بينما نقل (دوارت ألفاريش) كيسين من التمر، وسلمت كل هذه السلع إلى أصحابها، وذلك بمقر الجمارك.

وكان يساعده كبحار خلال هذه الرحلة (فرانسيشكو رودريغش)، وهو أعزب يسكن بالمنظر الجميل، وابن مالك مركب يسمى (جوا فرنانديش).

وخلال رحلته الثانية، غادر هذه المدينة في كرفيلته دون نقل أي شيء، وتوقف بمازيغن وسلم رسائل من (دوارت ألفاريش) إلى (ديوغو بينتو) الذي كان يقيم هناك بمازيغن التي نقل منها رزما من الصمغ ومن أثواب الهند، كانت بجمارك القرية المذكورة، ومنها نقلها إلى آسفي حيث سلمها إلى (لوبو منديش)، وهو برتغالي من (تفيرا)، بالغرب.

وخلال العودة حمل الجلود والصوف التي أفرغها كلها في جمارك (ستوبال). وأضاف أنه خلال عيد (Santo Espirito) الماضي، غادر هذه المدينة في كرفيلته التي اكتراها منه (بيدرو مارتينش) للذهاب بها إلى رأس غير، إلا أنه أخبره بعد ذلك أنه يتعذر عليه الذهاب إلى هناك. ومن هذه المدينة، من رصيف الفحم، نقل (المصرح) مسلمين لا يعرفهما، لأن أحد البحارة، الذين يعملون بمركبه، والمسمى (أفونصو البكيرك)، أتى بهما ليرافقاه.

وهذا البحار من ستوبال، ويوجد الآن بغينيا[1]، وهو الذي اتفق مع المسلمين المذكورين، كما أنه ذهب بدوره للحديث مع المورسكيين المذكورين اللذين يسمى أحدهما (دون بيدرو)، وهو رجل طويل القامة، بينما الآخر نحيف وقصير يجهل اسمه. وإذا كان يعرف أن دون (بيدرو) المذكور قد تنصر فعلا، فإنه يجهل ما إذا كان الآخر قد تنصر كذلك. واتفق (المصرح) معهما بواسطة البحار المذكور على أن يدفع كل واحد منهما عشرة آلاف ريال. وحينما ذهب إلى بيت (دون بيدرو)، طلب منه أن يدفع له ألفي ريال لإصلاح الكرفيلا، فأعطاها له بعد أن تم الاتفاق المذكور بينهم. وفعلا، نقلهما من رصيف الفحم كما سبقت الإشارة إلى ذلك، و توجه إلى (ستوبال) حيث التحق به البحار (لورنسو رودريغش) الذي شارك بدوره في الاتصالات مع (دون بيدرو) والمورسكي الآخر لنقلهما إلى بلاد المسلمين، تلك الاتصالات التي شاركوا فيها جميعا، أي (فرانسيشكو بياوو) و(أفونصو ألفريش أوبيك)، و(لورنسو رودريغش)،

(1) المنطقة الموجودة جنوب رأس بوجدور، وتعني بلاد السود.

واتفقوا مع الموريسكيين على نقلهما إلى افريقيا، و بالضبط إلى آسفي، ، مقابل العشرين ألف ريال المذكورة.

وحينما كانوا بمدينة (ستوبال)، أخذوا معهم ابن (بيرو مارتينش) المسمى (ديوغو مارتينش). ومن هناك أبحروا في اتجاه إفريقيا. وذكر أن (دون بيدرو) أصبح يسمي نفسه خلال الرحلة بسيدي ناصر.

وقبل الوصول إلى آسفي بما يقرب من نصف (لِغْوَا) أنزل الموركسيين وتابع طريقه نحو رأس غير الذي أنزل به ابن (بيرو مارتينش) الذي بقي هناك ثلاثة أيام، أي إلى أن قرر المصرح العودة فحمله من جديد رفقة (جوا دو يابرة) وأنزلهما بالقنطرة.

وخلال عودته إلى هذه المدينة لم يحمل معه أية سلعة.

أما المورسكيان المذكوران، فلم يأخذا معهما غير سيفهما (و 49 و)، ولم ير عندهما أي شيء آخر.

وما أن عاد من إفريقيا حتى شحن سفينته بلشبونة، بضفة التيجو، صمغا كان للمسيحي المحدث (دوارت الفاريش)، وكان ذلك الصمغ يملأ ما يقرب من ستين كيسا يزن بعضها قنطارا، وبعضها الآخر قنطارا ونصف، وبعضها قنطارين. كما أرسل معه ست رزم من أثواب الهند وأمره بتسليم كل ذلك لوكيله التجاري بآسفي. وفعلا نقل المصرح (فرانسيشكو بياوو) السلعة المذكورة إلى آسفي وسلمها لـ (لوبو مانديش) المذكور، كما نقل له رسائل وأرجع أخرى إلى (دوارت ألفاريش) المذكور.

وخلال عودته حمل ثمانية أكياس من الصوف وسبعة أو ثمانية رزم من الجلود وستة من خشب الصمغ في أكياس. وأنزل كل تلك السلع بدور ملتصقة بالدور التي يصنع فيها الصابون، والتي تسمى (Tercenas). إلا أن تلك السلع صودرت، ولا يعلم المصرح ما حدث بعد ذلك، لأنه لما سافر إلى إفريقيا، طلب منه (دوارت ألفاريش) أن يرسو حين عودته (بسانتا كترينا) (و 49 ظ)، وأن يشعره بوصوله، وهذا ما نفذه فعلا، إذ أرسى سفينته بالمكان المذكور، والتحق من هناك برا بدار (دوارت ألفاريش) وأخبره بوصول السلع، فأمره المذكور بالمجيء إلى المكان السابق الذكر، والمجاور للدور التي يصنع بها الصابون. وخلال الليل، وصلت الكرفيلا إلى الرصيف، و أفرغت السلع في المكان المذكور. وكان حاضرا سبعة أو ثمانية رجال كانوا في خدمة (دوارت ألفاريش) المذكور فضلا عن العمال الذين يساعدونهم. ونقل هؤلاء السلعة عبر طريق بها حفر

كثيرة إلى مكان يجهله، إلا أنه سمع (دوارت ألفاريش) المذكور يقول بعد ثلاثة أيام من ذلك أن السلعة المذكورة صودرت، ونفس الشيء قاله ابن (بيرو مارتينش) الذي رافقه إلى إفريقيا.

وأضاف أنه عاد مرة أخرى في مركبه خلال شهر غشت الماضي، ونقل من لشبونة إلى آسفي سلعا سلمها له (دوارت ألفاريش)، كانت كالتالي : ثلاثين كيسا من الصمغ من وزن الأكياس الأخرى التي ذكرها، وخمسة صناديق من أثواب الهند (و.50 و) ورزمتين من نفس الثوب. والتحق المصرح بآسفي وهو يحمل تلك الأثواب (كذا) وكذا رسائل من (دوارت ألفاريش) موجهة إلى (لوبو مانديش) المذكور، الذي أمره بتسليمه تلك السلع، الأمر الذي نفذه. وساعده خلال تلك الرحلة البحار (أفونصو ألفاريش أوبيك) الذي رافقه خلال كل رحلات السنة الماضية إلى إفريقيا، والتي قام خلالها بثلاث رحلات، كما رافقه ابنه (دييغو رودريغش)، وذلك خلال الرحلة الأخيرة، أما خلال سابقاتها، فلم يكن يساعده فيها إلا (أفونصو ألفاريش) المذكور. وكان البحارة الذين يساعدون المصرح يعرفون أن السلع المذكورة كانت لـ (دوارت ألفاريش) لأنهم كانوا يذهبون إلى بيته وقت تسلمها، وكانوا يتوصلون بها بباب داره، وذلك خلال الليل أحيانا، وخلال النهار أحيانا أخرى.

واعترف المصرح أن (دوارت ألفاريش) المذكور نصحه بالقول في حالة ما إذا سئل عن المكان الذي تنقل اليه تلك السلعة، إنه قادس، وطلب منه ومن مساعديه أن لا يخبروا أحدا بإرسالها إلى بلاد المسلمين، فوعدوه جميعا بقول ذلك.

ولما سلم المصرح (و 50 ظ.) السلعة لـ (لوبو مانديش) المذكور خلال الرحلة الأخيرة إلى آسفي، أعطاه هذا الأخير عشرة أكياس من الصوف وخمس رزم من جلود الغنم، واثنين وثلاثين من جلد الماعز المدبوغ، وأربعين أو خمسين من قوالب النيلة، وبدلتين صوفيتين (bcdens)، وأكد أنه لم ينقل غير ما ذكر. ولما أرسى سفينته بـ (سانتا كترينا)، التحق (بدوارت ألفاريش) بنفسه لكي يشعره بوصول السلعة، فأتى في مركب رفقة ضباط الجمارك وأحد خدامه، وأنزل السلعة ونقلها إلى المركب، وذلك لأن المصرح لم يرد أن يغامر بالذهاب حتى المدينة.

وفي منتصف اكتوبر الماضي، نقل من المنظر الجميل خمسة براميل من الصمغ سلمها له (دوارت ألفاريش) المذكور الذي أخرج هذه السلعة من بيته وأرسلها إلى

سفينة المصرح في مركب صغير، كما سلمه أربعة أكياس من البهار قد يزن كل واحد منها قنطارا ونصف، وسلمه كذلك ستة عشر ثوبا ملونا بالأحمر وأمره بنقلها إلى آسفي وتسليمها (و.51 و)إلى (لوبو منديش) المذكور؛ وأمره في حالة ما إذا أمكنه الوصول حتى رأس غير، بتسليمها إلى وكيله هناك، المسمى(ميغيل دياش).

ومن هذه المدينة أبحر صحبة (ديوغو رودريغش)، ابن (أفونصو ألفاريش أوبيك). وابن أخ المصرح، الصبي. وقد أرغمتهم العواصف على التوجه نحو (فارو) حيث صودرت السلعة بالجمارك. وآنذاك أرسل (دوارت ألفاريش) شهادة من (دار الهند)[1] تثبت أداءه لكل الرسوم المعمول بها بالمملكة عن الصمغ والتوابل، وأن السلع المذكورة كانت في طريقها إلى قادس، وذلك رغم أن الأمر لم يكن كذلك، ورغم أنها كانت موجهة إلى بلاد المسلمين. غير أن الأثواب صودرت. ولما رفع الحجز عن الصمغ والتوابل نقلت إلى السفينة من جديد، إلا أن العواصف أرغمت المصرح على القاء التوابل في البحر لتخفيف حمولة السفينة. وبما أنهم التجأوا إلى (Alvor)، فإن الصمغ حجز مرة ثانية، فأرسل المصرح في طلب الشهادة التي بقيت بفارو وقدمها للقاضي الذي رفع عنه الحجز. وآنذاك وصلته رسالة من (دوارت ألفاريش) يطلب منه فيها العودة إلى لشبونة وترك السلعة (و. 51 ظ) بلاغوش[2] في حوزة (رودريغو بينتو). ونظرا لاشتداد العواصف، لم يستطع الوصول إلى لشبونة والتحق (بستوبال) حيث صودرت السلعة من طرف جماركها، وذلك إلى حين تدخل (دوارت ألفاريش) لتسريحها. وبما أن الملاح (ديوغو رودريغش) جرح بتلك المدينة، فإن المصرح استخدم عوضا عنه (فرانسيشكو غومش) من مدينة القصر[3]، وكذا (باستياوو فاش فونسيكا) المذكور، اللذين أخبرهما أنهما سيصحبانه إلى بلاد المسلمين لنقل السلعة المذكورة، فوافقا على ذلك. وبستوبال وصلته رسالة من (دوارت ألفاريش) المذكور يطلب منه فيها المجيء بالكرفيلا إلى (سانتا كترينا) لشحن صمغ آخر. وخلال انتظار المصرح وصول السلعة إلى هناك، أرسل له من أخبره أنه يتعذر عليه إرسالها له، فاتجه إلى كشكايش (Cascais) لانتظارها هناك.

(1) Casa da India مصلحة مركزية تشرف على تجارة التوابل والعقاقير. وكانت اختصاصات (دار غينيا Casa da Guiné) تنحصر في الإشراف على التجارة بغرب إفريقيا.

(2) (Lagos) ميناء بالغرب البرتغالي (Algarve) عرف إنتعاشا كبيرا بعد إنشاء البرتغاليين لإمبراطورية تجارية كبيرة.

(3) Alcácer do sal، الموجودة جنوب لشبونة.

وفور ذلك، سئل عما إذا كانت براميل الصمغ تحتوي على رؤوس رماح ودروع ومشاقب وأسلحة أخرى، فقال: لم يحمل أي سلاح بدليل أنه لما وصل إلى (فارو) (و 52 و)، فتحت البراميل المذكورة بأمر من الجمارك ولم يعثر فيها على أي سلاح. ولما وصل بعد ذلك في الكرفيلا إلى ألفور (Alvor) أمر القاضي بفتح تلك البراميل الخمسة وتفتيشها كلها، وذلك اعتمادا على فأس، ولم يعثر فيها على سلاح. وخلال الرحلات السابقة، لم ينقل إلى بلاد المسلمين لا سلاحا ولا حديدا ولا أية آلة حديدية. وأضاف أن البندقية التي ضبطت في مركبه هي لرفيقه (فراسيشكو غومش) لأنه لم يحمل معه إلا ما يحمل كل بحار، أي سيفه وفأسا ومطرقة ومرساة. وخلال الرحلة الأخيرة، كان يحمل ثلاث مراسي وشراعين، أحدهما كبير.

وذكر أنه منذ ما يقرب من سنة، طلب منه موركسي يعرف (أفونصو ألفاريش) أن ينقله إلى بلاد المسلمين؛ ويسمى الموركسي المذكور (كريشطوفاوو)، وهو حر ومتزوج ويسكن بجوار حي (Marque). وقد أخذه الموركسي المذكور إلى بيت الموريسكي (جوا ألفاريش) المقيم بجانب دير (سان دومينغيش)؛ وذهب هذا الأخير لمناداة موركسي آخر أسود يجهل المصرح اسمه. (و 52 ظ.) وخلال أول لقاء كلمه (كريشطفاوو) رأسا لرأس وطلب منه نقله إلى بلاد المسلمين. وعاد مرة أخرى لنفس الموضوع خلال عيد الفصح الأخير، وقد أخذ الموركسي المذكور المصرح إلى بيت الموركسي الأسود السابق الذكر الذي يجهل اسمه، والذي يمكنه التعرف عليه في حالة ما إذا رآه. وبينما كان المصرح ببيت (جوا ألفاريش) المذكور، اتفقوا جميعا معه على نقلهم في كرافيلته إلى بلاد المسلمين، وعلى إنزالهم بآسفي، أو بأي مكان آخر من بلاد البربر، ووعدوه بخمسة آلاف ريال عن كل واحد. وأضاف أن (كريشطفاوو) المذكور و(جوا ألفاريش) والموركسي الأسود أطلعوه على رغبتهم في اصطحاب زوجاتهم اللواتي سيدفعون عن كل واحدة منهن خمسة آلاف ريال، إلا ان زوجات الموركسيين المذكورين لم تكن حاضرات. ورغم أنه شاهد زوجة (جوا ألفاريش) تتحرك داخل البيت، فإنه غير متأكد من كونها سمعت ما دار بينهم.

وأضاف أنه اتفق معهم على ذلك حينما كانت سفينته راسية بستوبال (و 53 و). ولما أتى بها وبملاحيها إلى (سانتا كترينا)، أوفد (فرانسيشكو غومش) برا إلى بيت (جوا ألفاريش) الذي كان يعرفه، وإلى الموركسي الأسود، وذلك يوم الثلاثاء

الماضي. وعاد (غومش) المذكور يوم الأربعاء الماضي واصطحب معه الموركسي المذكور والتحقا به بسفينته. وهناك أخبر الموركسي المصرح أن له أمتعة يود بيعها، لذا يتعذر عليه السفر قبل يوم الثلاثاء. وعاد المصرح يوم الجمعة وأرسل (غومش) المذكور ليطلب من الموركسيين الاستعداد للسفر وليجلب المؤونة. وفعلا أبحر (غومش) من (كشكايش) في مركب صيد بعد أن اتفق المصرح معه على أن يلتقيا (بسانتا كترينا) لنقل المؤونة ومعرفة ما إذا كان الموركسيون سيذهبون معه أم لا. وخلال توجهه البارحة نحو (سانتا كترينا) كما اتفق مع (ف. غومش) اعتقل من طرف محكمة التفتيش المقدسة.

ولم يقل غير هذا ونظرا للمدة التي دامتها الجلسة، فقد التمس من سماحته رفعها ووعد بقول كل ما (و. 53 ظ) سيتذكره، ورجا العفو والمغفرة عن كل تلك الأفعال الضالة التي قام بها، ووقع إلى جانب السيد المحقق. وأكد أن ما قاله صحيح، وأنه لم يقله لحقد أو كراهية يكنها لأحد الأشخاص المذكورين؛ ولكن لأنه تم فعلا، ولكي يخفف بذلك عن ضميره.

وحررته أنا، منويل كرديرو، مع التشطيبات التي لم يقصد بها التزوير.

إمضاءان

* * * *

وفور ذلك، وخلال عشية نفس اليوم الذي هو 29 أبريل من سنة 1554، حضر السيد المحقق إلى قاعة الاستنطاق وأمر (فرانسيشكو باياوو) المذكور بالمثول أمامه، ولكي يقول الحق أمره بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي لمسها بيده، ووعد أن يكون صادقا في اعترافاته.

سئل بعد ذلك عما إذا كان له ما يضيفه، وطلب منه المحقق أن ينهي اعترافاته دون أن يترك أي شيء، وأن يخفف عن ضميره (و 54 و) لأن مصلحته تقتضي ذلك. قال إن (فرانسشكو غومش) أخبره أن موريسكية حرة ومتزوجة بموركسي يبدو له أنه أسير، والتي تقيم بالقصر، فاتحته هي وزوجها في شأن نقلهما إلى بلاد المسلمين.

وأخبر (فرانسيشكو غومش) المذكور المصرح بهذا حينما شغله في كرفيلته، غير أنه لم يعد إلى مخاطبته في الموضوع، ولم يكن في نيته نقلهما خلال الرحلة التي كان يعد للقيام بها.

كما علم أن خمارا متزوجا يجهل اسمه، يعيش بباب البحر، كان يود الذهاب إلى بلاد المسلمين إذا ما عثر على من ينقله إلى هناك، وأنه ينوي قبل ذلك بيع أمتعته ليلتحق بحانة (اكتراها) ب (بلاين Belém) لكي يبحر من هناك، غير أنه لا يتذكر من أخبره بهذا.

وأضاف أنه لم ينقل موركسيين آخرين، ولا حتى المسلمة (Menyn) التي سأله المحقق عنها. صحيح أنه تحدث معها منذ سنة، وطلبت منه آنذاك نقلها، إلا أنه رفض بدعوى أنه لا ينقل أسرى.

وفور ذلك (و54 ظ) سئل عما إذا علم أو سمع أن أشخاصا غير من ذكر يتاجرون ببلاد البرابرة مع المسلمين وينقلون لهم أسلحة ومعدات حربية وذخيرة وسلعا أخرى، وطلب منه قول الحق، وذكر أسماء أولئك الأشخاص، وربابنة المراكب، كما سئل عما إذا كان يعلم أن بعض ربابنة السفن أو بعض البحارة ينقلون من هذه المملكة أو من خارجها موركسيين مسيحيين إلى بلاد البربر لكي يعودوا فيها إلى الاسلام، طالبين مقابل ذلك مبالغ مالية. ونصحه بالتخفيف عن ضميره، وذلك بقول الحق بشأن كل ما يعرفه.

أجاب :إنه منذ حوالي خمسة عشر أو عشرين يوما أخبره (جوا دو أفور)، العامل بمعاصر السكر، والمزداد بجزيرة فونشال[1]، والذي كان آنذاك بهذه المدينة، أن (روي لورنسو دو تافورا) أرسل سفينة محملة صمغا إلى آسفي، وأن نفس الشخص ذكر له أنه يعد للذهاب إلى هناك في تلك السفينة، غير أن المصرح يجهل ما إذا كان قد ذهب إلى هناك فعلا، أم لا يزال هنا، لأنه لم ير بعد ذلك لا المركب، ولا الشخص المذكور. وأضاف أن ربان ذلك المركب هو ابن (جُوَاوْ دو فرايطاش) المقيم بمازيغن، وهو أعزب (و 55 و) ولا يعرف اسمه. ويملك الأب المذكور قسما من المركب بينما يملك الربان (لورنسو غونصالفيش) القسم الآخر. ويقال إن قبطان مازيغن يملك النصيب الباقي. ويستعمل المركب المذكور الحيلة التالية : فهو يأتي إلى هذه المدينة ليحمل الصمغ ثم يعود صحبة المراكب التي تحمل من هنا القمح إلى مازيغن، ومن هناك يتجه

(1) بأرخبيل ماديرا

إلى آسفي محملا بالصمغ المذكور حيث يسلمه إلى (دوارت رودريغش)، وكيل عدد من التجار. وهذا المركب مسلح ويعتبر مركبا حربيا. وأضاف أنه خلال اكتوبر الماضي، حينما شحن المصرح الصمغ، شحن المركب المذكور نفس السلعة من هذه المدينة وتوجه بها إلى بلاد البرابرة. وطلب (دوارت ألفاريش) المذكور من المصرح الذهاب في رفقة ذلك المركب، غير أنه استحال عليه الالتحاق به لكونه أبحر قبله بيوم.

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، حالت العواصف دون ذهابه إلى هناك، وأرغمته على الاتجاه نحو الغرب.(Algarve)

وخلال الصيف الماضي، لما وصل المصرح إلى آسفي بعد الرحلة السابقة الذكر، غادر المركب المذكور ميناءها حينما كان المصرح (55 ظ) يدخله. وبتلك المدينة علم أنه نقل اليها الصمغ الذي تمكن من رؤيته. وهناك سمع أن قسما من تلك السلعة ملك لكل من (رُوي لُورَنْسُو) و(تَافُورَا) و(لُوكَاشْ جِيرَالْدُو)، غير أنه لم يسمع أنهم أرسلوا في المركب المذكور أسلحة إلى تلك المدينة.

ومنذ سنة، حين إقامة المصرح برأس غير، بعد الرحلة التي نقل فيها ابن (بِيدْرُو مَارْتِينَش)، كانت هناك ثلاث سفن مشحونة سكرا أو عسلا. وقد سمع بآسفي أن تلك السلعة كانت لـ (دُوارْتْ أَلْفَارِيشْ) و(لُوكَاشْ) و(فِرْنَانْدِيشْ رُودْرِيغَشْ). ولما التحقت تلك المراكب برأس غير، حملت أثوابا وسلعا أخرى لا يعرفها، وإن سمع أنها كانت أثوابا وورقا كان بعضها ملكا للأشخاص المذكورين ولآخرين لا يعرفهم. وذكر المصرح أنه لا يعرف أحدا ينقل مورسكيين إلى بلاد البرابرة باستثناء ما ذكره عن نفسه (و 56 و).

ولما كانت سفينة المصرح راسية بآسفي، دخلها قائد المدينة العلج وبرفقته قائد البحر وطلب منه المرساة التي كانت بمركبه وخريطته البحرية التي كانت معه فسلمهما له مكرها لأنه خاف على نفسه. وقد أعطاه المسلم مقابلهما خريطة ومرساة أخرى لم يسعها مركبه فتركها.

وفور ذلك قال له السيد المحقق: إن ما ذكره عن استيلاء القائد التركي[1] بالقوة على المرساة والخريطة غير صحيح، بل على العكس من ذلك، سلمها له تقربا إليه، وطلب منه أن يتذكر ما فعله لما كان بآسفي، داخل غرفة، وبيده خريطة مفتوحة بحرية

(1) أشار المتهم إلى أن القائد علج، بينما يصفه القاضي بالتركي، وهو لفظ يطلقه المحققون على عامة المسلمين، نظرا للدور الطلائعي في الجهاد الذي لعبه الأتراك في الحوض الغربي للأبيض المتوسط.

كان بواسطتها يعلم القائد المذكور ومن كان معه من المسلمين تقنيات الملاحة لدى المسيحيين (و 56 ظ) . وكان يقول لهم: يمكنكم الذهاب من هنا إلى الجزر الخالدات اعتمادا على هذه الريح، وإلى قادس اعتمادا على تلك ، مشيرا إلى الرياح التي توصل إلى كل بلد مسيحي يذكره، لذا نصحه وتوسل إليه بإسم سيدنا المسيح أن يعترف -كشخص تاب - بكل ما فعله أو قاله في حق إلهنا وفي حق الدين المسيحي، وذلك بما أهداه للقائد المذكور وما وعده به، بحيث كان ينوي مغادرة هذه المملكة رفقة الزوجة والأبناء وأن يترك البيت وما احتوى للإقامة بآسفي. و كان ينوي بذلك كشخص لم يعد يخشى ربه، مهاجمة هذه المملكة ومناطق مسيحية أخرى، وذلك رفقة مسلمين يكفرون بملتنا وأعداء ديننا الكاثوليكي المقدس.

أجاب : إن ما ذكره عن المرساة والخريطة صحيح، وتم فعلا حسب ما اعترف به أعلاه.

أما فيما يخص تعليم القائد الملاحة، فقد كان فعلا بباب القائد وفي يده خريطة بحرية مفتوحة وكانت تلك الخريطة ملكا للقائد المذكور الذي كان يمسكها بيده ويسأله عن الجزر (و. 57. و) الخالدات و وعن جزر الرأس الاخضر والجزر الموجودة جنوبها. وكان (فرانسيشكو باياوو) يذكر له الجزر دون تحديد كيفية الوصول اليها ، أو إلى البرتغال، وأن المسلم المذكور لم يقترح عليه أبدا الذهاب للإقامة هناك، ولم يكن هو بدوره يرغب في ذلك لأنه مسيحي تستحيل عليه الإقامة ببلاد المسلمين.

وفور ذلك قال له السيد المحقق : لو لم يكن يود التقرب من التركي المسلم المذكور لما نقل له بوصلة وخريطة جديدتين، لأنه حسب ما تتوفر عليه المحكمة من معلومات، ضبطت لديه خريطة بحرية جديدة وبوصلة، وذلك فضلا عن خريطته وبوصلته؛ لذا ، واعتبارا لما سبق، يجب على (فرانسيشكو باياوو) الاعتراف بخطاياه، وطلب المغفرة من الإله عن ذنوبه ؛ وذلك باعترافه بنواياه السيئة بشأن ما احتوى عليه السؤال.

أجاب : لقد حمل بوصلتين وخريطتين لكي يمكنه في حالة مهاجمة الفرنسيين لمركبه(1) واستيلائهم على إحدى الخريطتين الاعتماد على الأخرى. وذكر أنه لا يوجد ولو مركب واحد لا (و 57 ظ) يحمل خريطتين أو ثلاث، ومثل ذلك من البوصلات. أما

(1) إشارة أخرى إلى الحرب التي أعلنها القراصنة الفرنسيون على البرتغاليين.

البوصلة الثانية، فقد كان يحملها لكي يعتمد عليها في حالة تعطل الأخرى؛ ولم يكن ينوي قط إعطاءها للمسلم المذكور، وكانت معه من باب الاحتياط فقط.

ولم يقل غير هذا، وأمضى إلى جانب السيد المحقق، ولم يذكر شيئا عن علاقته بالأشخاص المذكورين. وحررته أنا، (منويل كورديرو)، مع التشطيب الذي لم يقصد به التزوير.

و أضاف أن الموريسكي الأسود المذكور الذي يقيم (بسانتا جوشتا) أخبره بأن الموريسكي (جوا فرنانديش) ناداه وعرفه على البحارين (جينش غومش) و(لورنسو رودريغش) المقيم بستوبال. وأطلع الموريسكي الأسود المذكور المصرح على استعدادهما لنقله اذا ما عبر عن رغبته في ذلك، إلا أنه أخبره أنه يفضل البقاء هنا. وأطلع الموريسكي المذكور المصرح على هذا حينما التحق (بسانتا كتارينا) حينما كان هذا الأخير في كرڤيلته؛ وحمل معه إلى هناك برميلا من الخمر(و 58) من سعة أربعة لترات [1] شرباه معا.

ونعت المصرح (جوا فرنانديش) بالكلب لتسهيله فرار كل الموريسكيين من هنا، فهو الذي تدخل لديه لنقل بعض الأشخاص، وكان مرشدهم في ذلك؛ وهو الذي نصح (دون بيدرو) المذكور بمفاتحة (أفونصو ألفاريش) في موضوع نقلهما إلى إفريقيا، وذلك حسب ما ذكر (أفونصو) للمصرح. وأضاف أن (أفونصو) المذكور فر من هنا خوفا من الاعتقال، وأن الموريسكي (كْرِيشْطُفاَوْ) المذكور أخبر المصرح أن (أفونصو ألفاريش) المذكور توصل منه بستة آلاف ريال لنقله إلى بلاد المسلمين. ولم يقل غير هذا، وأمضى هنا. وحررته أنا، (منويل كورديرو). وأمضى هنا.

امضاءان

****

(ورقة 58 ظ) ـ وفي اليوم الواحد والعشرين من شهر ماي من سنة 1554، بلشبونة، بسجن محكمة التفتيش المقدسة، حضر إلى قاعة الاستنطاق السيد المحقق المجاز (بيدرو الفاريش دوبريدش) وأمر (فرانسيشكو باياوو) المكنى بالألكن والمعتقل بالسجن المذكور، بالمثول أمامه، وسأله عما إذا تذكر شيئا آخر يتعلق بما سئل عنه؛ وطلب منه أن يقول الحق بشأن كل ما سيتذكره لأن ذلك سيفيده وسيعجل بالنظر في

(1) في الأصل : 2 Canadas

أمره. وبما أنه عبر عن رغبته في الاعتراف، فإن السيد المحقق أمره بأداء القسم بالأناجيل المقدسة حسب القانون، وذلك حتى يقول الحق كله؛ وقد وعد بذلك.

وفور ذلك قال : لقد تذكر أنه لما صنع المسلمون المركب بآسفي وحاولوا وضع المدفعية الجانبية، وعدهم (أفونصو الفاريش) بصنع مسند لها لكي لا تسقط، غير أن المصرح يجهل ما إذا كان قد نفذ وعده. صحيح انه لما كان بآسفي مع (أفونصو ألفاريش) المذكور، ذهبا بأمر من القائد المذكور مسافة ثلاث (لغواش) للبحث عن خشب يصلح صارية للمركب المذكور، غير أن الأحوال الجوية أرغمتهم على العودة (و 59 و)دون أن يعثروا على شيء. وصحيح كذلك أن قائد آسفي سأله والخريطة البحرية بين يديه عن موقع جزيرة ماديرا وجزر الرأس الاخضر والجزر الخالدات وغيرها؛ غير أن المصرح لم يبين له كيفية الوصول اليها، ولم يسأله هو بدوره عن ذلك، وادعى أنه لا يتذكر غير هذا.

طلب منه السيد المحقق أن يقول الحق بشأن ما وقع له مع مسلمة تسمى(Menym)، توجد في حوزة (فرانسيشكو نوبر)، وكذا مع مورسكية أخرى قصيرة القامة، نقلها المصرح في مركبه من هذه المدينة إلى بلاد المسلمين، وطلب منه كذلك أن يذكر ما فعله بهما، وأن يحدد المكان الذي أنزلهما فيه.

أجاب بعد أن نصح بالاعتراف : لقد نقل تلك المسلمة المسماة(Menym)، أسيرة (فرانسيشكو نوبر)، من لشبونة، من مكان قرب الأفران الموجودة بالمنظر الجميل، وذلك عند غروب الشمس.

وذكر أنه اتفق مع تلك المسلمة البيضاء البشرة، والتي قد تبلغ الأربعين من عمرها، على أن تؤدي له عشرة آلاف ريال، دفعت له منها فورا ستة آلاف على أن تدفع الأربعة الباقية هناك (و. 59 ظ)، بآسفي. وكان من فاتحه في موضوع نقل المسلمة المذكورة إلى آسفي مورسكي من (ستوبال) يسمى (جوا فرنانديش)، حمال شباك، لا يدري أين يقيم بهذه المدينة. ونقل المصرح المسلمة المذكورة بعد عيد الفصح. صحيح أن المسلمة طلبت منه أن يصاحبها إلى (صكافن Sacávem) حيث يملك سيدها مزرعة، وحيث يمكنهما اختطاف زورق لنقلهما إلى (ستوبال). وفعلا ذهبا معا إلى (صكافن) حيث اختفى المصرح حتى الليل، وآنذاك أبحر في قارب صيد صغير كانت به إحدى عشرة شبكة وشراع ومرساة، وطلب من المسلمة أن تلتحق به برا، وأن تنتظره بالأفران، الأمر الذي نفذته.

وبعد التحاقها به بالزورق، أخبرها بعزمه على نقلها إلى (ستوبال) ليركبها الكرفيلا قصد نقلها إلى آسفي. وحدث هذا بعد الرحلة التي عاد منها بسبب العواصف إلى (ألفور) و(ستوبال) مع البراميل الخمسة من الصمغ. وخلال ذهابه رفقة المسلمة من هذه المدينة في الزورق الذي سرقه بصكافن (Sacáven)، قرر (و 60 و) نقلها إلى (ستوبال) وإدخالها إلى الكرفيلا ثم الإلقاء بها في البحر عندما يبتعد عن الساحل، غير أنه سرعان ما تخلى عن هذه الفكرة، وبما أنهما كانا رأسا لرأس حين دخولهما مضيق (ستوبال)، فإنه ضرب عنقها بعصا، ولما أغمي عليها ألقى بها في البحر. وحينما رأته المسلمة يعد لقتلها سألته عن السبب فقال لها : لكي لا ينقلها إلى بلاد المسلمين. وهكذا ألقى بها في البحر الذي غرقت به فورا؛ وكان ذلك حوالي العاشرة صباحا. وبعد قتلها التحق (بستوبال) في القارب.

وقبل أن يقتل المسلمة أعطته حينما كانا بمران أمام ميناء (Sesimbra) ستة آلاف ريال، فطلب منها أن تعطيه باقي ما كان في حوزتها من أموال لأداء ثمن الرحلة كاملا، فسلمته خمسمائة ريال وناقوسا من الفضة يزن توستون (Tostam)[1]. وبعد قتلها لم يفكر في تفتيشها لتوقعه أنها لا تملك غير ما ذكر، إلا أنه بقي له بالمركب خمار أخضر بال.

وكانت تحمل جرابا صغيرا به سبحة حباتها صفراء لا يدري عددها، وكذا قبعتين جديدتين (و. 60 ظ) وإزارين ومنديلين صغيرين وقبعتين صغيرتين حمراوين ومعطفا قديما ذا أكمام قصيرة وقبعة قديمة. وذكر أنه لم يستول على غير هذا، وأن إحدى القبعتين بقيت بالكرفيلا، بينما أعطى الأخرى لابن أخيه الذي كان بالكرفيلا لما نقل باقي الأمتعة إلى بيته.

وفور ذلك طلب منه السيد المحقق أن يقول الحق، لأنه يحتمل كثيرا أن تكون في حوزة المسلمة أموال أكثر مما ذكر، وكذا حلي ذهبية أو فضية وألبسة وقمصان.

أجاب : لم يعثر لديها على أكثر مما ذكر، وأكد أنه لو عثر على غيره لصرح به.

وسئل عما إذا كان قد أخبر أحدا بقتله للمسلمة المذكورة، وعن التبرير الذي أعطاه لزوجته حينما سلمها اللباس المذكور، فأجاب : لا يعلم أحد بموت المسلمة المذكورة لأنه لم يخبر أحدا بذلك، وأن سماحته هي أول من يعلم به. ولما أعطى زوجته ذلك اللباس قال لها: إن مسيحيا محدثا أعطاه إياه.

---

(1) أي وزن مائة ريال فضة . راجع دراستنا: **دكالة**، ص: 295 .

وسأله المحقق آنذاك عما فعل بالزورق والشباك والمرساة وباقي الآلات التي نقلها، ولمن سلمها (و.61 و.)، فأجاب : لقد ترك الزورق (بستوبال)، بالمضيق، بجانب مطحنة (Donal Aldonço)، وبه صاريته وآلته، بينما نقل ستة من الشباك إلى كرفيلته، والخمسة الباقية إلى بيته. أما الشراع والمرساة فهما بالكرفيلا. وأفهم زوجته أن مسيحيا محدثا أعطاه الزورق والشباك. وأكد على صحة أقواله، وعلى ندمه على كل تلك الأفعال، وطلب العفو والمغفرة عنها، ووعد بالاعتراف بما سيتذكره.

وبما أنه لم يقل غير هذا، فإنه أمر بالعودة إلى زنزانته، ونصح بالعمل على التخفيف عن ضميره ، وأمضى إلى جانب السيد المحقق.

وأضاف أنه فيما يخص الاتفاق الذي تم بينه وبين ابن (أوبيك Obique) حول نقل المسلمين وقتلهم والإلقاء بهم في البحر، لا يعلم به أحد لأنهما كانا وحيدين وقتذاك.

وحررته أنا، انطونيو رودريغش .

إمضاءان

* * * *

(و. 62 و.)وفي اليوم الثلاثين من شهر ماي من سنة 1554، بلشبونة، بسجن محكمة التفتيش المقدسة، حضر المحقق، السيد المجاز (بيدرو ألفاريش دوبريدش)، وأمر (فرانسيشكو بياوو)، السجين هنا، بالمثول أمامه؛ وقال له إنه سأله البارحة عما إذا استولى للمسلمة المذكورة التي قتلها على نقود غير التي اعترف بها، وكذا على بعض الخواتم والحلي وغير ذلك، وأنه رفض قول الحق، لأنه تم العثور في مركبه، وفي مكان سري يوجد تحت الفراش، على صرة من الجلد تحتوي على خيطين من الجوهر، وآخر أكبر، وكذا جواهر أخرى غير منظومة؛ لذا توسل اليه باسم الإله ان يقول الحق وأن يذكر كل الأموال والحلي الذهبية والفضية والخواتم والجواهر، وكل ما عثر عليه في حوزة تلك المسلمة واستولى عليه.

وبعد أن أقسم بالأناجيل المقدسة التي لمسها بيده قال : لقد كان اعترافه البارحة صادقا؛ ففي نفس الصرة التي كانت المسلمة المذكورة تحملها، عثر على أخرى جلدية بيضاء، وعلى جرب صغير غيني كانت تلك الجواهر داخله، وهي نفس التي أراه السيد المحقق إياها الآن؛ كما وجد داخلها قبعة حمراء وقليلا من القرنفل. وأكد أنه لم يعثر

لديها على غير هذا، سواء من الخواتم والأقراط، ولم يهتم بما قد يكون مختبئا لديها. إلا أنه سرعان ما تراجع عن قوله هذا واعترف بتسليم المسلمة له أقراطا صغيرة من الفضة وذخيرة ذهبية بدون خيط كالتي يعلقها الصبيان. واذا كانت ذهبا فلن يقل وزنها عن ثلاثة (طشطويشTestões)، كما أعطته صليبا ذهبيا صغيرا قد يزن (و 62 ظ) مائة وخمسين ريالا من الذهب. وفضلا عن الستة آلاف ريال التي قدمتها له من العشرة التي كان عليها دفعها، وجد لديها بالصرة ألفين ومائتين وعشرين ريالا مما يجعل مجموع ما استولى لها عليه ثمانية آلاف ومائتين وعشرين ريال. وأكد أنه لم يستول لها على غير ما ذكر من الاموال أو الحلي.

وأضاف أنه أعطى لزوجته الصليب والأقراط الفضية وحلي الصبيان بالإضافة إلى اللباس، وقال لها إن بعض المسيحيين المحدثين من لشبونة أعطوها له. أما الجوهر فقد وضعه أسفل الفراش حيث أخفاه مع الصرة الجلدية والجراب الغيني الصغير والقبعة الحمراء. وفي المكان الذي ضبطت فيه هذه الاشياء، أخفى كذلك رزمة رسائل سلمه إياها (دوارت ألفاريش) لنقلها إلى (الغرب). ولاشك في أن من عثر على تلك الأشياء قد عثر كذلك على الرسائل. وذكر أنه لم يعط زوجته الجواهر خوفا من أن تشك في مصدرها.

واعترف أن تلك الرسائل كانت موجهة إلى (لوبو مارتينش) الموجود بآسفي، وكان ينوي في حالة ما إذا استحال عليه الوصول إلى تلك المدينة تسليمها برأس غير إلى (ميغل دياش)، المقيم هناك.

وحاول إقناع المحقق بصدق اعترافاته، وبأنه لم يستول للمسلمة المذكورة على شيء غير ما ذكر، وذكر أن الأقراط الفضية لا تحتوي على جواهر أو أحجار كريمة.

وفور ذلك أراه السيد المحقق بعض حبات المرجان الأصفر، وسأله عما إذا كانت الحبات المنظومة في خيط أحمر في حوزة المسلمة المذكورة (و 63 و) حينما قتلها، تلك الحبات التي يبلغ عددها سبعين صفراء، وثمانية بيضاء بلورية.

أجاب: لقد عثر عليها بدورها في حوزة المسلمة المذكورة إلا أنه لم يأخذها. ولما قتل المسلمة المذكورة وألقى بها في البحر، لم يستول لها على ما كانت ترتديه من ثياب لأنها كانت بالية وممزقة. وأشار إلى أنه لا يتذكر غير ما اعترف به. وأضاف أنه وضع تحت الفراش المذكور الذي عثر فيه على الصرة والجراب والقبعة، وضع كذلك بركارين يعتمد عليهما في مهمته كبحار، كانا هناك لعدم توفره على صندوق

يضعهما فيه. وبعد هذا طلب العفو والمغفرة عن كل ما اعترف به، وقع هنا. وحررته أنا، (أنطونيو رودريغش) مع ما كتب بين السطور، والذي لم يقصد به التزوير.

إمضاءان

* * * *

وفور ذلك أمر السيد المحقق المأمور القضائي بمحكمة التفتيش المقدسة بالذهاب إلى مكان إرساء سفينة (باياوو) المذكور رفقة أحد موظفي محكمة التفتيش، وبأن يبحثا تحت الفراش على الرسائل التي قد توجد هناك. وفي حالة العثور عليها أو على أشياء أخرى، أمرهما بتقديمها إلى المحكمة. ولتنفيذ أمر سماحته ذهب المأمور المذكور إلى هناك واصطحب (رودريغو)، الحارس بمحكمة التفتيش المقدسة.

* * * *

(ورقة 63 ظ) وفي اليوم الواحد والثلاثين من ماي من سنة 1554، بلشبونة، بسجن محكمة التفتيش المقدسة، حضر المحقق، السيد المجاز (بيدرو ألفاريش دوبريدش)، إلى قاعة الاستنطاق، وأمر (فرانسيشكو باياوو) الحبيس بهذا السجن بالمثول أمامه، وسأله عما إذا كانت له خطايا عليه أن يعترف بها وأن يخفف عن ضميره، ونصحه بقول الحق دون أن يزور على أحد.

قال: إنه لا يتذكر غير ما اعترف به، باستثناء ما يتعلق بالموركي (كريشطفاوو) الحبيس بهذا السجن، والذي كان من المقرر أن ينقله إلى بلاد المسلمين. فلقد أخبره أنه يتوفر على أربعين ألف ريال أودعها عند أحد أسرى الدوق المسلمين، الذي لا يمكنه الفرار دونه، غير أنه لم يذكر له اسم ذلك المسلم.

وبعد ذلك مباشرة أمره السيد المحقق بأداء القسم بالأناجيل المقدسة حسب ما هو معمول به، وذلك لكي يكون صادقا في اعترافاته، وسأله عما إذا كان قد اتفق مع (باشتياو فاش) ومع (فرانسيشكو غومش) اللذين يساعدانه في مركبه على نقل الموريسكيين والموريسكيات والاستيلاء لهم على أمتعتهم والالقاء بهم في البحر بعد إقلاع السفينة في اتجاه إفريقيا، وطلب منه أن يعترف بما تم في الموضوع، وأن يذكر ما إذا كان قد نقل خلال إحدى رحلاته إلى إفريقيا موريسكيين وقتلهم واستولى لهم على أمتعتهم.

اجاب : صحيح أنه اتفق مع الشخصين المذكورين (و64 و) على نقل الموريسكيين الذين كان ينوي نقلهم إلى بلاد المسلمين، وعلى قتلهم والاستيلاء على أمتعتهم بعد الابتعاد عن الساحل، غير أنه كان في قرارة نفسه يود نقلهم إلى آسفي، وعدم قتلهم.

وذكر أن من فاتحه ومساعديه في الموضوع، وأن من يدفع الموريسكيين إلى التفكير في الفرار إلى بلاد المسلمين هو موريسكي من (ستوبال) يسمى (جوا فرنانديش) يعمل حمال شباك، والذي يتوصل مقابل ذلك بمبالغ مالية من الموريسكيين يجهل قيمتها. وأضاف أن (أفونصو ألفاريش) أخبره أن الموريسكيين الذين يطلبون من (جوافرنانديش) المذكور أن يبحث لهم عمن ينقلهم إلى بلاد المسلمين يدفعون له كأجر عن كل واحد منهم (كروزادو)[1] وثلاثة (طشتويش Testões).

وأطلع (جوا فرنانديش) المذكور المصرح على عزمه بدوره على الالتحاق بأرض المسلمين، كما أخبر (أفونصو ألفاريش) المذكور المصرح أن الموريسكي (جوافر نانديش) المذكور طلب منه أن يعطيه نصيبه مما يؤديه الموريسكيون؛ ونصحه بالالتحاق بمدينة (لاغوش)، الموجودة بالغرب، بحرا وانتظار وصوله برا رفقة باقي الموريسكيين الراغبين في الفرار إلى بلاد المسلمين. وأخبره بعزمه على الفرار من هناك إلى بلاد المسلمين، وذلك بعد أن ينجح في إرسال باقي الموريسكيين. وأضاف أن (أفونصو ألفاريش) المذكور أطلعه على هذا خلال عيد (Sam João) الأخير؛ و أن (أفونصو ألفاريش) المذكور لم يلتحق أنذاك بالغرب لأن (و. 64.ظ) المصرح و (أفونصو ألفاريش) المذكور كانا قد شحنا المركب بالسلعة السابقة الذكر، أي الصمغ والثياب الهندية التي كانت ملكا لـ (دوارت ألفاريش). وأضاف أنه منذ شهرين أو ثلاثة، عبر له الموريسكي (جوا فرنانديش) عن رغبته في الالتحاق ببلاد المسلمين، وذلك بعد أن يسهل فرار بعض الموريسكيين. وذكر له هذا حينما كانا معا بباب البحر. وأكد أن هذا هو ما يتذكره بشأن ما ورد بالسؤال، فهو لم ينقل ولم يقتل موريسكيين آخرين غير السابق ذكرهم.

ولم يقل غير هذا، وأكد أنه لايكن حقدا أو عداء لمن سبق ذكرهم.

وفور ذلك، سئل عما إذا كانت له أموال أخفاها بالكرفيلا المذكورة، وكم هي، وأين وضعها، وهل لا تزال له هناك اشياء أخرى، أي رؤوس رماح أو غيرها من الأدوات المحرم بيعها.

---

(1) أي 400 ريال برتغالي، عن العملتين الواردتين بهذه الإشارة، راجع، **دكالة**، ص 295 .

أجاب : لم يبق له بالكرفيلا أي شيء مخبأ، سواء كان مالا أو سلعا محرم بيعها، وأن بالفراش من جهة مؤخرة السفينة، توجد بعض الثقب في بعض الجهات، وأن من فتشها فلن يجد بها شيئا، وأن من بحث عن الرسائل التي كان يحملها لـ (دوارت ألفاريش). فإنه سيعثر عليها ، وأنه في حالة ما إذا اقتلعت طاولات الفراش من الجهتين (و.65.و) فسيتم العثور على رسائل (دورات ألفاريش) الموجهة إلى آسفي ورأس غير. وحررته، أنا، أنطونيو رودريغش.

وطلب العفو والمغفرة، وصرح بأن الثمانية الاف ريال التي استولى عليها للمورسكية سلمها كلها لزوجته ولم يحتفظ إلا بألف ريال صرفها في إصلاح كرفيلته. وأضاف أن (دوارت ألفاريش) تكفل بتوفير متطلبات رحلته.

إمضاءان

* * * *

وفي اليوم الرابع من شهر يونيو من سنة 1554 بلشبونة، بسجن محكمة التفتيش المقدسة، بقاعة الاستنطاق، حضر المحقق السيد المجاز (بيدو ألفاريش دوبريدش) وأمر (فرانسيشكو باياوو) الحبيس بالسجن المذكور بالمثول أمامه؛ وسأله عما إذا كان قد قرر إنهاء اعترافه وطلب منه أن يقول كل الحقيقة حسبما هو ملزم بذلك.

قال : لقد تذكر أيضا أنه نقل ابن (فرناوو رودريغش دَا لوجْياً) وسلعته وأنه كان يحمل معه كذلك أربعين ألف ريال من قطع الريال الواحد. وما إن أقلعت السفينة حتى قدم له الجراب الذي كان يحتوي على ذلك المبلغ وقال له : «خذه واحتفظ لي بهذه (و 65 ظ) الأربعين ألف ريال». وما أن وصلا إلى رأس غير حتى أعادها المصرح له.

وأضاف أن ابن (فرناو ورديغيش دا لوجيا) هذا يسمى (روي فرنانديش) غير أنه يمسي نفسه في رسائله التي يبعثها من هنا (لويش فرنانديش). وهو الذي أفلس بفلندرا، والذي لا يزال مقيما ببلاد المسلمين، لأنه تركه هناك في شتنبر الماضي.

ولما ذهب المصرح منذ سنتين من هذه المدينة إلى مازيغن، أعطاه (فرناو رودريغش) المذكور خمسين ألف أو سبعين ألف من قطع الريال ليسلمها لابنه (جورج فرنانديش) لكي يسلمها بدوره بآسفي لـ (دورات رودريغش) الذي كان عليه أن يعطيها هو الآخر لابنه الموجود برأس غير.

وذكر أن (بيرو مارتينش) الذي سبق اعتقاله من لدن محكمة التفتيش لنقله سلعا محرمة إلى إفريقيا، سلم المصرح مائة ألف ريال من قطع الريال لكي يعطيها لابنه (هنرك مارتينش) المقيم برأس غير. وفعلا نقل المصرح المبلغ المذكور إلى رأس غير حيث سلمه لـ (فيسانت لورنصو) الذي أوفد ابن (بيرو مارتينش) لتسلمها.

وكانت السلعة التي نقلها خلال تلك الرحلة ملكا لـ (فرناو رودريغش دالجويا)؛ ولم يكن المصرح يملك منها شيئا. وبعد أن أطلقت محكمة التفتيش المقدسة سراح (بيرو مارتينش)مقابل كفالة مالية، سلّم المصرح صندوقا مليئا بالقبعات الحمراء (و.66 و) لنقلها إلى ابنه المقيم برأس غير، وكان ذلك الصندوق كبيرا، نقله المصرح بصعوبة. وبالفعل، سلم المصرح الصندوق المذكور برأس غير إلى (لوبو ألفاريش) الذي بعثه في هذه المهمة ابن (بيرو مارتينش).

ومنذ سنة، لما كان (بيرو ماريننش) مختبئا ببيته، إثر إطلاق سراحه من لدن محكمة التفتيش، نادى على المصرح وطلب منه شراء كرفيلا لينقل فيها سلعا إلى بلاد المسلمين، غير أن المصرح اعتذر عن ذلك وطلب من (فرانسيشكو غومش) المعتقل حاليا بهذا السجن، شراءها له، الأمر الذي نفذه واشترى له كرفيلا من (ستوبال) بتسعين ألف ريال، وذلك بمحضر ابنه (دييغو مارتينش). ويسمى البائع (أنطونيو اشتيفش)، وهو بحار من (ستوبال). واقترح عليه (بيرو مارتينش) المذكور قيادتها، غير أن المصرح اعتذر عن ذلك لتوفره على كرفيلا خاصة به. وشاهد المصرح تلك الكرفيلا بعد ذلك بستوبال، وكان بها (جيل فاش) المقيم هنا بحي الحمة، وكذا صهره الذي يجهل اسمه، و(بستباو دافونْسِيكا) المعتقل بسجن هذه المحكمة المقدسة.

وذكر أن هذا الأخير يعرف ما إذا التحقت الكرفيلا المذكورة ببلاد المسلمين، ونقلت إليها سلعا ما. وادعى أنه لم يتذكر غير ما ذكر.

وفور ذلك سئل عما إذا كان يعرف اسم صاحب الزورق الذي سرقه مع شباكه من رصيف (سكافين Sacavém)، فأجاب أنه يجهل اسم مالك المركب المذكور (و66 ظ)، ولم يسمع عنه أي شيء. صحيح أن في كرفيلته شراعا صغيرا ومرساة صغيرة أخذهما من ذلك المركب؛ كما أن به ست شباك فضلا عن الخمس التي تركها ببيته، كما كانت بالزورق قدر صغيرة لطهي السمك غير التي قدمت الآن له.

وسئل عما إذا كان التجار الذين سلموه تلك الرسائل لنقلها إلى بلاد المسلمين، أو كان أحد من مساعديه يعلمون أين أخفى تلك الرسائل داخل الكرفيلا، وعما إذا

كان قد أخبر بعد اعتقاله أحدا بمكان وجودها، فكان جوابه : لقد تسلم الرسائل التي كان عليه نقلها إلى بلاد المسلمين من (دوارت فرنانديش) المقيم بهذه المدينة، وذلك لما اضطرت الكرفيلا إلى الالتجاء إلى (فارو)، وعاد برا إلى لشبونة. ولما أعطاه (دوارت ألفاريش) تلك الرسائل أخفاها بالكرفيلا بوضعها أسفل فراش مؤخرة المركب. ولا علم لأحد بمكان وجودها باستثناء (ديبغو رودريغش أوبيك) الذي كان يرافقه كمساعد. ولم يكن التاجر يعلم المخبأ الذي وضعها فيه. وفي حالة ما اذا اختفت من مكانها، فإن (ديوغو رودريغش) قد أخذها بكل تأكيد لكونه الوحيد الذي يعلم مكان وجودها. وأكد انه لم يُشعر قط التاجر ولا أي شخص آخر باعتقاله، وأنه لا يتذكر غير ما صرح به. وأقسم بالأناجيل المقدسة أن ما اعترف به صحيح، وأنه لم يفعل ذلك لحقد أو كراهية يكنها لأولئك الأشخاص (و. 67 و.) بل لأن ما ذكره صحيح. ووقع هنا إلى جانب السيد المحقق.

وحرره (أنطونيو رودريغش) مع التشطيبات التي لم يكن يقصد بها التزوير. وطلب العفو والمغفرة عن كل ما سبق ذكره.

إمضاء

****

(67 ظ) وفي اليوم الثاني من مارس من سنة 1555، بلشبونة، التحقت، أنا الكاتب الشرعي، بسجن محكمة التفتيش المقدسة، بأمر من السيد المحقق، والتماس من المحامي المراقب، حيث طلبت من (فرانسيشكو باياوو) الذي تتعلق به هذه المحاضر، سماع النطق النهائي بالحكم، وأنهيت هذه المحاضر.

وحررته أنا، (منويل كورديرو).

النطق بالحكم

(و. 68 و.)اتفق المحققون الرسميون والمنتدبون بمحكمة التفتيش المقدسة، الخ، على أنه اعتبارا لهذه المحاضر، ولما تضمنته من اعترافات لـ (فرانسيشكو باياوو) ربان كرفيلا يملكها، المقيم بستوبال، والحاضر أمامنا، يبدو أنه رغم كونه مسيحيا وملزما بنشر ديننا المسيحي والذود عنه وفضح المرتدين عن ديننا الكاثوليكي المقدس والخارجين عنه، قام بما يخالف ذلك كرجل لا يخشى ربه، ونقل في كرفيلته بعض الموركسيين المسيحيين من هذه المدينة إلى آسفي الموجودة ببلاد المسلمين، وذلك مقابل مبالغ مالية يتوصل بها منهم. كما اتفق بعد ذلك بهذه المدينة مع موريسكيين آخرين لكي ينقلهم بدورهم إلى بلاد المسلمين كما فعل مع السابقين، واتفق معهم على نقلهم مقابل أجر يدفعه كل واحد منهم. وخلال إقامته بآسفي بعد نقله الموريسكيين المذكورين، أعطى لقائد المدينة مرساة وأدوات أخرى للملاحة، وكذا خريطة بحرية، وبين له موقع الجزر والبلاد المسيحية عليها، كل ذلك كمسيحي غير صادق، وكشخص لاغيرة له على عقيدتنا المقدسة.

واعتبارا لكل هذا، ونظرا لاستمرار المتهم في اقترافه لتلك الخطايا، ولما يتجلى من خلال المحاضر، يأمرونه بالمشاركة في الحفل الديني، وبالاعتراف فيه جهرا بخطاياه كشخص مشكوك في صحة اعترافاته؛ ويقررون نفيه لمدة عشر سنوات يقضيها بالسفن الحربية كجداف، وذلك لكي يكفر عن خطاياه. وقبل ذلك، يأمرون بتعليمه أمور عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة.

سبعة إمضاءات

* * * *

(و.68 ظ.)وتم النطق بالحكم الوارد أعلاه بلشبونة، خلال الحفل الديني الذي نظم بضفة النهر في 3 مارس من سنة 1555، وحررته أنا، الكاتب الشرعي، (منويل كورديرو).

الاعتراف بالخطايا

(و. 69 و.) أنا (فرانسيشكو باياوو)، البحار المقيم بمدينة (ستوبال)، أقسم أمامكم أيها السادة المحترمون المحققون ضد البدع الضالة والردة، أقسم بهذه الأناجيل المقدسة التي توجد بين يدي الآن، أنه من تلقاء نفسي، ونزولا عند رغبتي الخاصة، ألعن كل أنواع الردة والبدع كيفما كان نوعها، وأبعد نفسي عنها، (وأعد) بعدم عصيان الكنسية البابوية المقدسة، خصوصا فيما يتعلق بالخطايا التي سقطت فيها، والتي اعترفت بها أمام سماحتكم، والتي تليت علي الآن خلال النطق بالحكم المتعلق بي، والتي رددتها وذكرتها واعتبرت بسببها معترفا غير مستوجب الثقة.

وأقسم بالتمسك دوما بالعقيدة الكاثوليكية المقدسة التي تحفظها وتعلمها أمنا الكنيسة الرومانية المقدسة، وأعد بالخضوع الدائم لأبينا المقدس جذا (جوليو الثالث)[1] الذي يشرف الآن على كنيسة الاله، ولخلفائه المنتخبين قانونيا.

كما أصرح أن كل من عاكس هذه العقيدة الكاثوليكية المقدسة يستحق العقاب، واعد بمقاطعته ومطاردته والتبليغ به وببدعه إلى المحققين أو إلى أساقفة أمنا الكنيسة المقدسة. كما أقسم أنني سأكون دوما مستعدا للتكفير عن ذنوبي كلما فرض علي ذلك. وإذا ما عدت في وقت ما إلى السقوط في تلك الخطايا أو غيرها من البدع، وإذا ما امتنعت عن التكفير عن خطاياي حسبما هو مفروض علي، أقبل أن أعتبر مرتدا من جديد، وأن أعاقب لذلك حسب القانون[2]. وأرجو من الكاتب الشرعي لمحكمة التفتيش المقدسة ان يحرر لاعترافي هذا محضرا، ومن الحاضرين أن يشهدوا علي وأن يوقعوا هنا إلى جانب توقيعي.

* * * *

وقام بهذا الاعتراف بالخطايا في الحفل الديني الذي نظم بجانب النهر، بهذه المدينة (و 69 ظ) في 3 مارس من سنة 1555، وكان الشاهدون على ذلك الاستاذ (جوا

(1) البابا جوليو الثالث (1555-1558)

(2) أي الحكم عليه بالإعدام.

غاغو) و(فرانسيشكو بريش) حاجب الأمير الكاردينال[1] و (بيرو فرنانديش) حامل سلاح (escudeiro) ببلاط مولانا الملك، والمامور بمحكمة التفتيش المقدسة، وأنا (منويل كورديرو)، الكاتب الشرعي، أشهد أن (فرانسيشكو باياوو) المذكور قام بهذا الاعتراف العلني.

ووقع هنا إلى جانبي، وإلى جانب الشهود.

خمسة توقيعات

(و.70 و.) أنا الأمير الكاردينال المفتش العام بهذه المملكة البرتغالية والأراضي التابعة لها...الخ، نخبر من سيطلع على قرارنا هذا أننا أطلعنا على طلب البحار (فرانسيشكو باياوو) الموجود أعلاه، واقتنعنا بضرورة إعفائه من الأربع سنوات التي تبقت له من العشرة التي حكم عليه المحققون بها، والتي كان عليه قضاؤها بالسفن الحربية. فبما أنه عمل بها ست سنوات، واعتبارا لما ورد بطلبه، ولما يتجلى من خلال محاضره، نأمر بإطلاق سراحه. وبأن يستدعى أمام محققي هذه المدينة لكي يخبر بهذا القرار. وعلى (فرانسيشكو باياوو) أن يعترف بخطاياه خلال أعياد الفصح، وأن يتوصل خلالها بالقربان المقدس بالكنيسة التي توجد بجماعته، وأن يقوم بكل الأعمال الأخرى التي يقوم بها كل مسيحي صادق، منفذا كل ما وعد به خلال اعترافه علانية بخطاياه، وإلا فإنه سيتعرض للعقاب الوارد بذلك الاعتراف.

ونخبر بهذا القبطان الرئيسي للسفن الحربية أو من يقوم مقامه، وكذا باقي الضباط أو الأشخاص الذين يهمهم الأمر، ونأمرهم بإطلاق سراح (فرانسيشكو باياوو) المذكور فور تقديم هذه الرسالة اليهم لكي يتقدم أمامنا فور ذلك كما تم ذكره.

وحرر في لشبونة، وختم بخاتمنا وخاتم محكمة التفتيش المقدسة يوم 3 شتنبر 1560، حرره (أنطونيو رودريغش)

الامضاء

الأمير (الكاردينال)

* * * *

(و. 70 ظ) وتم نشر هذا القرار المكتوب أعلاه، بلشبونة، بقاعة الجلسات، بمحكمة التفتيش المقدسة، وذلك بمحضر السادة المحققين والمتهم (فرانسيشكو باياوو)

(1) الأمير الكاردينال هنري، أخو الملك يوحنا الثالث، ومفتش محاكم التفتيش الدينية العام.

البحار الذي عاد من السفن الحربية، والذي أطلق سراحه بعد توبيخه كثيرا.
لشبونة في 5 أكتوبر 1560، وحرره (منويل كورديرو).

(و.71 و.) يقول (فرانسيشكو باياوو) الحبيس بالسفن الحربية التي تحمي ساحل الغرب، إن المحققين حكموا عليه بعشر سنوات من النفي إلى السفن الحربية، وذلك لاقترافه جريمة الاتجار مع المورسكيين (كذا) وتزويدهم بالسلع المحرم بيعها، ونقل المورسكيين إليهم. وبما أن محرر هذا الطلب قد قضى في منفاه خمس سنوات واقترب من الستة، وبما أنه ندم كثيرا على ما اقترفه من خطايا، وبما أنه توصل بما يستحقه من عقاب، ونظرا لكونه متزوجا وذا أولاد يعانون من الجوع، ولكونه انفق كل ما يملكه، فإنه يرجو من سموكم، ويتوسل إليكم بسيدنا المسيح أن تسامحوه، وأن تعفوه مما تبقى من سنوات لكي لا تعاني زوجته وأبناؤه أكثر، ولكي لا يبقون بدون عون.

(ورقة 71 ظ) بيضاء

(ورقة 72 و) ومصاريف المحاكمة: 644 ريال.
Inquisição de lisboa, processo n° 167.

[illegible]

[illegible]

... vimos ... [illegible] ... [illegible]
anno ... mil b... [illegible]
... careere da ... [illegible] ...
... Inquisição ... [illegible] ... cando
na ... casa dos [illegible] ... senhor [illegible]
... fareda ... Inquisidor mandou aparecer
ante ... a ... Breyão ... [illegible] ... careeire
... setenal ... [illegible] ... ponta se
era ... dize ... f° breyão ... um ... [illegible]
preso juntam com bastiam ... conseque
por os officiaes do S. officio ... vindo ...
... Gaspar carvalho ... ... casquaes ...
... de ... ribeira mar ... [illegible] ... mais carga
... esta cidade ... ... se ... res
era ... f° Cayão na ponta ... comtuda ...
... [illegible] ... vindo ... a ... casquaes
vindo ... para esta cidade ... para ... na ...
mar ... ... senhor inquisidor ... ...
... dos S.° ... ... depois
sua mão ... [illegible] ... [illegible] ...
... ... por sua ... ... dom...
... natural ... ... aopresente ... se
... casado ... amtos ... ...
... ... casa ... se ... ... [illegible] ...

[illegible] cartas [illegible]
[illegible]
mais [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
mais [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] mais [illegible]
bem [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

Ambrosius [illegible]